عشيق الليدي تشاترلي

رواية

د. هـ. لورنس

ترجمة:
عبدالمقصود عبد الكريم

آفاق للنشر و التوزيع
AFAQ BOOKS

د. هـ.
لورنس

عشيق الليدي تشاترلي



د. هـ. لورانس

عشيق الليدي تشاترلي

رواية

ترجمة

عبد المقصود عبد الكريم

آفاق للنشر والتوزيع

• Author : D.H. Loranz
• Title: Lady Chatterly's Lover
• Translated by: Abdel-Maksoud Abdlel-Kareem
• Afaq's first edition: 2018
• Cover Design by: Hossam Al Sawah
• Publishing Consultant: Sawsan Bashier

◆ المؤلف: د.هـ. لورانس
◆ العنوان: عشيق الليدي تشاترلي
◆ ترجمة: عبد المقصود عبد الكريم
◆ طبعة آفاق الأولى 2018
◆ تصميم الغلاف: حسام السواح
◆ مستشار النشر: سوسن بشير



رقم الإيداع:
٢٠١٧ / ١٥٧٤٥
الترقيم الدولي : ISBN
978 - 977 - 765 - 110 - 3

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

مقدمة المترجم

(٠)

رغم اطلاعي على ثلاث ترجمات، ومعرفتي بوجود ترجمة رابعة، لم أطلع عليها، يصفها صاحبها بأنها ترجمة مهذبة للرواية، يمكنني بشجاعة، أو بجرأة، أو بغرور، سمه ما شئت، أن أقول بثقة إن هذه الترجمة أول ترجمة كاملة إلى العربية لرواية د. هـ. لورانس «عشيق الليدي تشاترلي».

(١)

مع د. هـ. لورانس، أو ديفيد هيربرت لورانس بدأت مسيرتي مع الترجمة. كنت أترجم من حين لآخر مقالا قصيرًا، أو قصة قصيرة، أو قصيدة. لكنني في ١٩٨٩ بدأت ترجمة أول كتاب، وكان كتاب لورانس «فنتازيا الغريزة»، وقد نشرته دار الهلال في ١٩٩٢. قبلها لم يخطر ببالي قط أن أكون مترجمًا.

ولم أحلم قط بمواصلة الترجمة. كان «فنتازيا الغريزة» كتابًا أثار إعجابي، كتابًا في التحليل النفسي يكتبه شاعر وروائي، أي إنه ليس كتابًا في التحليل النفسي بالمعنى العلمي للتحليل النفسي. إنه كتاب يحمل كل شاعرية الشاعر وكل قدرته الروائية؛ كتاب أثار إعجابي، وأثار فيَّ روح التحدي. إنه كتاب صعب، بلغة صعبة، فما بالك حين يكون المترجم في أولى خطواته في الترجمة، ويمكن القول بكل شجاعة، إنه مازال يحبو. ومرات كثيرة كنت على وشك التوقف عن إتمام ترجمته، لكن روح التحدي استيقظت ولم يكن هناك ما يمكن أن يوقف مسيرتها، مهما تكن المعوقات. انتهيت من ترجمته ونشر، وأظن أنه حظي بالكثير من التقدير، التقدير الذي لم أحلم به.

هكذا بدأت مسيرتي مع الترجمة. بعدها فكرت في ترجمة «عشيق الليدي تشاترلي»، خاصة وأنني كنت قد قرأت ترجمة أمين العيوطي، الصادرة عن دار الهلال. وخطر لي أن أقارن النص الإنجليزي بنص ترجمة العيوطي، وكنت في ذلك الوقت أحاول أن أتعلم بقراءة نصوص مترجمة لكبار المترجمين مع النصوص الأصلية. وكانت المفاجأة: ترجمة العيوطي مختصرة جدًّا، مختصرة بشكل مخل، وتشكل الحلم بترجمة الرواية، ولأسباب كثيرة بقي الحلم كامنًا لسنوات وسنوات، حتى عرضت الفكرة على الدكتور جابر

عصفور، حين كان رئيسًا للمركز القومي للترجمة، فتردد في البداية وأمام رغبتي الشديدة في ترجمة الرواية، وافق، شفهيًّا، على ترجمتها على أن أترجم نص محاكمة الرواية أيضًا وأن ينشر معها، وبعد خروجي من مكتبه، وأمام ذوقه الشديد في التعامل معي، قررت أنه لا داعي لإحراج الرجل، ربما تسبب له الترجمة مشاكل وظيفية هو في غنى عنها. وحين تغيرت الظروف، بعد يناير ٢٠١١، ويونيو ٢٠١٣، أو توهمت أنها تغيرت، استيقظ الحلم مرة أخرى، وعرضت الفكرة على الدكتور أنور مغيث، وجاء الرفض هذه المرة لوجود ترجمة حنا عبود، وهي في الحقيقة ترجمة سيئة مليئة بأخطاء جسيمة، بأخطاء تشوه النص إلى حد كبير، وسأعرض لأخطائها باختصار في قسم لاحق من هذه المقدمة. ثم عرضت الأمر على الصديقة سوسن بشير لترجمة الرواية لدار آفاق، وكان الترحيب، وها هي الترجمة، وقد انتهيت منها. شكرًا للصديقة سوسن بشير ولدار آفاق.

(٢)

نشأ د. هـ. لورانس (ولد في ١١ سبتمبر ١٨٨٥ في نوتيجهامشاير- وتوفي ٢ مارس ١٩٣٠ في فينس، فرنسا) في نوتينجهامشاير، وسط ميدلندز في إنجلترا، حيث تدور معظم

أحداث «عشيق الليدي تشاترلي». واستخدم اللهجة المحلية لهذه المنطقة لتقديم فهم أفضل لمكانة الشخصيات وطبقاتها الاجتماعية في أعماله، ويبرز هذا بوضوح في هذه الرواية.

كتب لورانس روايات وقصصًا قصيرة وقصائد ومسرحيات ومقالات وكتب رحلات ورسائل. جعلته رواياته «أبناء وعشاق» (١٩١٣) و»قوس قزح» (١٩١٥) و«نساء عاشقات» (١٩٢٠) و«عشيق الليدي تشاترلي» (١٩٢٨) أحد أهم الكتاب الإنجليز في القرن العشرين.

كان لورانس الابن الرابع لعامل من عمال مناجم الفحم في شمال ميدلندز، وكان أبوه يتحدث باللهجة المحلية وسكيرًا وأميًّا تقريبًا. وكانت أمه من جنوب إنجلترا، وكانت متعلمة ومهذبة وتقية. حصل لورانس على منحة في المدرسة الثانوية في نوتنجهام (١٨٩٨-١٩٠١) ثم غادر المنطقة ليعمل كاتبًا في مصنع، واضطر إلى ترك العمل بعد أول إصابة بالالتهاب الرئوي. وفي فترة النقاهة بدأ علاقة قوية مع صديقته جيسي تشامبرز (١٩٠٢-١٩١٠). وفي ١٩٠٢ عمل مدرسًا تحت التدريب في إيستوود. وبتشجيع من جيسي بدأ الكتابة في ١٩٠٥، ونشر أول قصة في صحيفة محلية في ١٩٠٧. ودرس في الجامعة من ١٩٠٦-١٩٠٨ وحصل على شهادة تؤهله للعمل مدرِّسًا، وواصل كتابة القصائد والقصص القصيرة، وكتب مسودة روايته الأولى «الطاووس الأبيض».

صار وضع إيستوود، وخاصة التباين بين مناطق التعدين والريف البكر، وحياة عمال المناجم وثقافتهم، والصراع بين والديه، وتأثيره على علاقته مع جيسي، تيمات رئيسة في قصصه القصيرة ورواياته المبكرة. وظل يعود إلى إيستوود بخياله بعد مغادرته لها بفترة طويلة.

في ١٩٠٨ ذهب لورانس للتدريس في إحدى ضواحي لندن، وأرسلت جيسي مجموعة من قصائده إلى محرر إحدى المجلات المهمة، واعترف المحرر بعبقرية لورانس، وبدأت المجلة نشر أعماله، وقابل لورانس مجموعة من الكتاب الصاعدين، ومنهم إزرا باوند. وأوصى محرر المجلة إحدى دور النشر بنشر روايته «الطاووس الأبيض»، ونشرت في ١٩١١، ونشر روايته الثانية، «المنتهك»، في ١٩١٢، وحظيت باهتمام إدوارد جارنيت الذي نشر روايته الثالثة، «أبناء وعشاق» في مؤسسته. وفي ١٩١١-١٩١٢ أصيب بنوبة ثانية من الالتهاب الرئوي. وقرر التخلي عن التدريس والعيش من الكتابة. ثم وقع في حب فريدة ويكلي، وهرب معها، وكانت زوجة أرستقراطية ألمانية لأستاذ جامعي في نوتنجهام. وذهب الاثنان إلى ألمانيا، ثم إيطاليا، حيث أتم كتابة «أبناء وعشاق». وتزوجا في ١٩١٤ في إنجلترا، بعد طلاق فريدة.

وفي أثناء الحرب العالمية الأولى حوصر لورانس وزوجته في إنجلترا، وعاشا في فقر. وفي ذلك الوقت كتب

روايتين من رواياته المهمة، «قوس قزح» و«نساء عاشقات»، ولم تنشر الثانية إلا في ١٩٢٠. عاشا في كورنول واضطرا في ١٩١٧ إلى مغادرة المنطقة، تحت تأثير الاضطهاد بسبب الأصول الألمانية لفريدة، والعيش بقية مدة الحرب في لندن وديربشاير. وفي ١٩١٥ التقى، في كمبردج، ببرتراند راسل وأعضاء آخرين من الجمعية السرية المعروفة باسم «الرسل».

بعد انتهاء الحرب، ذهب لورانس وزوجته إلى إيطاليا (١٩١٩)، ولم يعد بعد ذلك إلى إنجلترا قط. وسرعان ما شرع في كتابة مجموعة روايات منها «الفتاة الضائعة» (١٩٢٠)، و«عصا هارون» (١٩٢٢)، و«مستر نون»، عمل غير مكتمل لم ينشر إلا في عام ١٩٨٤. وفي عام ١٩٢١ قرر لورانس مغادرة أوروبا والذهاب إلى الولايات المتحدة، شرقًا عبر سيلان وأستراليا. وكتب لورانس «الكنغر» في ستة أسابيع في أثناء زيارته إلى أستراليا في ١٩٢٢. وفي عام ١٩٢٥ أصيب بنزيف في الشعب الهوائي، وتبين أنه يعاني من السل. في ١٩٢٥ عاد لورانس إلى إيطاليا، وفي ١٩٢٦ شرع في كتابة النسخ الأولى من «عشيق الليدي تشاترلي». انتقل لورانس، وهو يحتضر تقريبًا، إلى جنوب فرنسا، حيث كتب في ١٩٢٩ «سفر الرؤيا» (نشر ١٩٣١)، وهو تعليق على «سفر الرؤيا» في الكتاب المقدس، ويعتبر تصريحه الديني النهائي.

(٣)

وفي ١٩٢٨ صدرت الطبعة الأولى من «عشيق الليدي تشاترلي»، أصدرتها سرًّا مطبعة إيطالية، لأن لورانس لم يعثر على ناشر بريطاني. وحيث إنه لم تكن هناك حقوق ملكية فكرية على الكتاب، صدرت طبعات عديدة مقرصنة في كل مكان، وخاصة في الأماكن التي لم تكن تخضع للرقابة، منها طبعة في باريس (١٩٢٩) وطبعة منقحة في إنجلترا (١٩٣٢)، ولم يطبع النص الكامل للرواية إلا في ١٩٥٩ في نيويورك وفي لندن ١٩٦٠ بعد اتخاذ القرارات القانونية بشأنها في المحاكمة الشهيرة بشأن الرواية، ضد دار بنجوين، التي نشرت الرواية، بموجب قانون المنشورات الفاحشة، وقد انتهت بتبرئة بنجوين، وتبرير استخدام الرواية لمصطلحات جنسية كانت محظورة حتى ذلك الوقت. وسمحت هذه القرارات بحرية نشرها وتداولها، وصارت الرواية نموذجًا لعدد لا يحصى من الأوصاف الأدبية للأفعال الجنسية. وقد توج حكم لندن بالسماح بنشر الرواية جهود عدد كبير من الكتاب الإنجليز البارزين الذين كانوا شهودًا، ودافعوا عن الرواية. والرواية تصور علاقة حب جنسي بين حواجز الطبقة والزواج. العشيق حارس طرائد عند زوج العشيقة، أي إنه بتعبير لورانس، على لسان السير كلفورد تشاترلي، زوج الليدي تشاترلي ينتمي

«للطبقة الخادمة»، والعشيقة، الليدي تشاترلي، تنتمي «للطبقة الحاكمة»، بتعبير لورانس، على لسان الشخصية نفسها.

كان لورانس يرى دائمًا ضرورة ربط النشاط الجنسي بالمشاعر، وكان خياله يتجاوز دائمًا حدود المسموح به، وكان يخضع للرقابة بالتفصيل. وفي «عشيق الليدي تشاترلي» يصف الأفعال الجنسية بشكل كامل باعتبارها تعبيرًا عن أوجه الحب أو أمزجته. ويستخدم الكلمة العامية التي تدل على الفرج، مما اعتبر صادمًا (بالمناسبة، تكتفي «الموسوعة البريطانية» بوصف الكلمة، بأنها الكلمة العامية المكونة من أربعة حروف [cunt] ولا تذكرها، ويبدو أن ذكر الكلمة كتابة مازال يعتبر خروجًا على الذوق؛ ومن الجدير بالذكر أن الكلمة ترد للمرة الأولى في الصفحة الأخيرة من الفصل الثاني عشر، وأن النسختين اللتين عثرت عليهما من الرواية على النت بصيغة بي دي إف من الرواية، تحذفان هذه الصفحة؛ يبدو أن وقع الكلمة الإنجليزية أسوأ بكثير من وقع مرادفها في العامية المصرية).

(٤)

تعكس الرواية، وهي آخر روايات لورانس، إيمانه بأن على الرجال والنساء التغلب على القيود المميتة للمجتمع

الصناعي واتباع الغرائز الطبيعية التي تقودهم إلى الحب العاطفي. وقد حظيت الرواية بشهرتها نتيجة وصفها الصريح للعلاقة الجنسية. وما يبقى قويًا جدًا واستثنائيًا جدًا بشأن هذه الرواية ليس فقط صدقها في تصوير قوة العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة، بل في حقيقة أنها مازالت واحدة من الروايات القليلة، في تاريخ الأدب الإنجليزي، التي تعالج الرغبة الجنسية للمرأة. وتصور تجربة المرأة ومتعتها في علاقة جنسية مُرْضية وخيبة أملها في علاقة جنسية غير مُرْضية، وكأن هذا لم يكن كافيًا لتكون «عشيق الليدي تشاترلي» إحدى الروايات العظيمة في الأدب الإنجليزي، لكنها تمثل أيضًا انعكاسًا بارعًا وعميقًا لحالة المجتمع الحديث، والتهديد الذي يواجه الثقافة والإنسانية أمام المد المتواصل للتصنيع والرأسمالية.

ورغم شهرة التيمة الجنسية في الرواية، وربما اعتبارها التيمة الأساسية للرواية، أعتقد أن التيمة الرئيسة للرواية هي العلاقة بين أرباب العمل («الطبقات الحاكمة») والعمال «الطبقات الخادمة»). ويمكن وضع علاقة العشق الجنسي في الرواية في إطار التيمة الثانية. إنها، رغم كل شيء، علاقة بين ملورز، عامل متزوج من امرأة سوقية، وابن لأحد عمال مناجم الفحم، والليدي كونستنس، أو كوني كما يختصر الاسم عادة في سياق الرواية، ليدي ابنة السير مالكولم وزوجة السير كلفورد، وهو بارون وكاتب حظي بقدر كبير من

الشهرة، عاد مشلولًا من الحرب. وربما يكون ملورز والليدي تشاترلي النموذجين الوحيدين اللذين يحملان روح التمرد في الرواية. يعثر ملورز، في عزلته التي اختارها لنفسه، على امرأة حقيقية، بعد حياة بائسة مع امرأة سوقية، وتعثر الليدي على رجل حقيقي، بعد أن سأمت الحياة مع زوجها العاجز، ومع عالم الأفكار المجردة، الجامدة والميتة، وبعد علاقة عارضة وسريعة وغير مُرْضية مع كاتب من أصدقاء زوجها.

تبدأ الأحداث الرئيسة في الرواية في نهاية الحرب العالمية الأولى، وتصور حياة أرباب العمل، كما تصور حياة عمال مناجم الفحم. وتصور العلاقة بين الاثنين. وتصور زحف إنجلترا الجديدة على إنجلترا القديمة، وطغيان التصنيع على كل شيء، بما فيها، بالطبع، روح الإنسان. تصور الرواية أفكار الجيل الجديد من المثقفين الإنجليز، ممثلين في السير كلفورد ورفاقه، ومواقفهم من الكثير من أمور الحياة، ومنها الجنس بالطبع. وتصور ثرثرة العمال ورضوخهم، رغم الحديث عن بعض الإضرابات، وعن بعض الأفكار الاشتراكية، وعن السوفيت، لكنه حديث عارض تمامًا. وربما تكون السمة المشتركة بين الجميع هي الإقرار بأهمية المال، واعتباره مقياسًا للنجاح. كما تصور الجيل الناشئ وشغفه باللهو. الرواية غنية جدًّا، ومن الإخلال اختصارها إلى تيمة العشق.

(٥)

لا أمانع في ترجمة عمل أدبي عظيم ترجم من قبل. على العكس تمامًا، أعتبر تعدد الترجمات الجيدة لعمل أدبي عظيم إثراء من نوع ما، وخاصة إذا كان المترجم يتمتع بموهبة أدبية، وهذه الموهبة في رأيي شرط أساسي من شروط تقديم ترجمة أدبية جيدة. يقدم كل مترجم قراءته للعمل وصياغته الخاصة لهذه القراءة. وعلى هذا الأساس حلمت بترجمة «عشيق الليدي تشاترلي»، رغم وجود ترجمات لها، أو ما يوصف بأنه ترجمات.

ذكرت من قبل ثلاث ترجمات للرواية. الأولى، ترجمة أمين العيوطي، وقد صدرت عن دار الهلال، ١٩٨٩، ولا أعرف إن كانت ترجمة لإحدى النسخ المنقحة قبل صدور الطبعة الإنجليزية الكاملة للرواية في ١٩٦٠، أم أن المترجم نفسه قام بتنقيح النسخة الإنجليزية الكاملة. لكن النتيجة واحدة، وهي أنها ترجمة ناقصة، إلى حد بعيد، يبلغ حجمها نصف حجم الرواية الأصلية تقريبًا.

الترجمة الثانية، «ترجمة» رحاب عكاوي، وهي عمل طريف، من الصعب وصفه بأنه ترجمة. لا علاقة للعمل بالأصل، إنها تذكرني بأولئك الكتاب الذين كانت تحكى لهم

الحكاية ويعيدون صياغتها بالعربية، بلغة رصينة، ويسمونها ترجمة. حاول رحاب عكاوي، ومن الصعب أن أقول المترجم ولا أعرف كيف أصفه، إعادة كتابة قصة الرواية بلغة تذكرني بلغة الرومانسيين، وبالتالي يبدو العمل وكأنه قصة رومانسية. وبالتالي يمكن استبعاد العمل الذي يسميه رحاب عكاوي «عشيق الليدي تشاترلي: إعداد وتحليل وتقديم»، وهذا الوصف نفسه يستبعد أن العمل ترجمة. والعمل ضمن سلسلة أجمل الروايات العالمية. ويقع العمل في ١٥٠ صفحة تقريبًا من الحجم الصغير.

الترجمة الثالثة، ترجمة حنا عبود، وهي الترجمة الوحيدة عن النص الكامل للرواية، لكنها تقع في الكثير من الأخطاء، أخطاء لا تنم فقط عن الجهل بالتعبيرات الإنجليزي، لكنها أخطاء تنم عن الغفلة أيضًا. وبالتالي تأتي فقرات كثيرة ملتبسة ومتناقضة مع السياق، وربما غير مفهومة على الإطلاق نتيجة إساءة الفهم والترجمة الحرفية، والغفلة عن السياق. ومن أمثلة هذه الأخطاء:

- يقول لورانس إن والد كوني قام بزيارة خاطفة (لابنته) وبتعبيره paid a flying visit ، لكن حنا عبود يترجم الجملة إلى «دفع والد كوني ثمن بطاقة سفر» (ص ٤٢).

- في موقف ينحني فيه خادم لسيدته انحناءة خفيفة، مثل جنتلمان -made her a slight bow, like a gentle

man، يترجم حنا عبود الجملة على النحو التالي: «وجعلها تنحني قليلا، مثل جنتلمان» (ص ٨٣)، وهو فهم للجملة مثير للضحك.

- يتحدث لورانس عن طفلة تنتحب وشخص يسيء معاملتها، وبتعبيره ill-treating a child، وتأتي ترجمة حنا عبود «أحدهم كان يعالج طفلًا عليلًا» (ص ٩٩).

- تخاطب الخالة ابن أختها، السير كلفورد، لتحذره من تمرد زوجته، وتختم كلامها بأنها إذا تمردت عليه «فأنت المسئول you'll have yourself to thank»، وهي عبارة يترجمها حنا عبود «فعليك أن تجبر نفسك على الشكر» (ص ١١٧)، وهو فهم يبدو كوميديًّا.

- كانت الأخت مستاءة جدًّا من الحالة السيئة التي وصلت إليها أختها وحين رأت زوج أختها «كانت غاضبة جدًا she was up in arms»، لكن حنا عبود يترجم الجملة بما يتنافى مع أي منطق، إلى «فعانقته» (ص ١٢٢).

- تستمع البطلة إلى أغنية سيئة جدًّا، وهي محبطة (أو حزينة أو منزعجة لما وصلت إليه الأمور في بلادها من تدهور) أو كما يعبر لورانس «her heart in her boots» لكن حنا عبود، بألمعية منقطعة النظير، يترجم التعبير حرفيًّا ليكون «وقلبها في جزمتها».

- يتحدث العشيق عن أول علاقة حب له فيقول: إن حبيبته شجعته على القراءة فكان يقرأ ويفكر بحماس شديد أو كما يعبر لورانس **like a house on fire** لتأتي ترجمة حنا عبود على النحو التالي: «فقرأت وفكرت كما لو كنت بيتًا يحترق».

- يواصل عشيق الليدي تشاترلي حكايته، ويقول إنه ضاع ببساطة أو احترق أو بتعبير لورانس **I simply went up in smoke**، لكن حنا عبود يترجم الجملة إلى «وببساطة رحت أدخن».

- يقول العشيق لليدي «تسعدين نفسك كالمعتاد»، فتسأله: «ألا يسعدك ذلك؟» فيرد: «نعم، يسعدني تمامًا. وأيضًا أطرق الحديد وهو ساخن». أو كما يعبر د.هـ. لورانس **smite while the iron's hot**، لكن حنا عبود يترجم التعبير الشائع إلى «يمكن أن أتحول إلى دخان من حرارة الحديد» (٣٣٦).

أكتفي بهذه الأمثلة. بالإضافة إلى أن المترجم أصر، لسبب ما، على ترجمة حوارات وردت في الأصل باللهجة المحلية لديربشاير، وخاصة على لسان ملورز، إلى العربية الفصحى، حتى لو قال المؤلف إنه تحدث بالعامية، أو انتقل إليها. وهو ما أعتبره عيبًا خطيرًا في الترجمة، لأن اختلاف مستوى حديث ملورز، ويتراوح بين الإنجليزية الرفيعة

واللهجة العامية الموغلة في محليتها، له دلالة واضحة في الرواية، وفي الرواية إشارة إلى هذه الدلالة وردت على لسان السير كلفورد في حديث مع الليدي تشاترلي.

هكذا يمكن بشجاعة، أو بجرأة، أو بغرور، سمه ما شئت، أن أقول بثقة إن هذه الترجمة أول ترجمة كاملة إلى العربية لرواية د. ه. لورانس «عشيق الليدي تشاترلي».

عبد المقصود عبد الكريم

القاهرة ٧/ ٧/ ٢٠١٧

الفصل الأول

عصرنا تراجيدي في جوهره، لذا نرفض أن نتناوله بشكل تراجيدي. حلَّت الكارثة، إننا بين الأنقاض، نبدأ بناء مساكن جديدة بسيطة، لتكون لنا آمال جديدة بسيطة. إنه عمل شاق: لا توجد الآن طريق ممهدة إلى المستقبل: لكننا نلتف حول العقبات أو نتسلقها. ينبغي أن نحيا مهما هوت سماوات.

كان هذا تقريبًا وضع كونستنس تشاترلي. أدت الحرب إلى انهيار بيتها فوق رأسها، فأدركت أن عليها أن تحيا وتتعلم.

تزوجت من كيلفورد تشاترلي في ١٩١٧، حين عاد في إجازة لمدة شهر. قضيا شهر العسل، ثم عاد إلى فلاندرز[١]، ليبحر إلى إنجلترا مرة أخرى بعد ستة أشهر في حالة سيئة. كانت كونستنس، زوجته، في الثالثة والعشرين، وكان في التاسعة والعشرين.

كان بقاؤه حيًّا معجزة. لم يمتْ، وبدا أن الجراح تلتئم مرة أخرى. وظل عامين تحت إشراف الطبيب. ثم أخبره الطبيب بالشفاء وأنه يمكن

(١) فلاندرز: إقليم في بلجيكا، ناطق بالهولندية. كان ساحة للمعارك في الحرب العالمية الأولى.

أن يمارس حياته مرة أخرى، والنصف السفلي من جسده، من الوركين، مشلول إلى الأبد.

كان ذلك في ١٩٢٠، حين عاد كلفورد وكونستنس إلى بيته، راجبي هول، «مقر» الأسرة، وقد مات والده، وصار كلفورد بارونًا، السير كلفورد، وصارت كونستنس الليدي تشاترلي. وبدآ حياتهما المنزلية والزوجية في بيت آل تشاترلي، المهجور، بدخل غير كافٍ. كانت له أخت تعيش بعيدًا. وباستثنائها لم يكن لهما أقارب مقربون، فقد مات أخوه الأكبر في الحرب. عاد كلفورد، مقعدًا إلى الأبد، يعرف أنه لا يمكن أن ينجب أطفالًا، إلى ميدلندز[1] المليئة بالدخان، ليحفظ اسم تشاترلي بقدر ما يستطيع.

لم يكن يائسًا تمامًا. يستطيع الحركة في كرسي متحرك، ولديه كرسي حمام بمحرك صغير، بحيث يمكن أن يتنقل ببطء حول الحديقة وفي المتنزه الجميل الكئيب، وكان فخورًا به جدًّا، رغم أنه تظاهر بعدم الاهتمام به.

فقد القدرة على المعاناة، بعد أن عانى كثيرًا. ظل غريبًا مشرقًا مبتهجًا، وقد نقول مرحًا تقريبًا، بوجهه المتورد الذي يبدو بصحة جيدة، وعينيه بزرقتهما الخفيفة، البراقتين، المفعمتين بالتحدي. كتفاه عريضتان وقويتان، ويداه قويتان جدًّا. يرتدي ملابس غالية، ويضع ربطات عنق أنيقة من بوند ستريت[2]. ويبقى أننا نرى في وجهه نظرة القعيد، النظرة المؤرقة، والشرود الطفيف.

---

(١) ميدلندز: منطقة وسط إنجلترا، من المناطق المهمة في الثورة الصناعية.

(٢) بوند ستريت: من الشوارع التجارية الشهرية في غرب لندن.

وقد كاد يفقد حياته، كان ما بقي نفيسًا جدًّا بالنسبة له. ويتضح في إشراقة القلق في عينيه، كم كان فخورًا، بعد الصدمة الهائلة، بأنه حي. لكنه يشعر بأذى شديد لأن شيئًا بداخله تحطم، لأن بعض مشاعره تلاشت. هناك فراغ التبلد.

كانت كونستنس، زوجته، فتاة متوردة، ريفية الطلعة، بشعر بني ناعم وجسد قوي، بطيئة الحركة، ومفعمة بطاقة استثنائية. عيناها واسعتان حائرتان وصوتها ناعم ولطيف، ويبدو أنها جاءت للتو من قريتها الأصلية. ولم تكن هكذا قط. كان والدها، السير مالكولم ريد العجوز، عضوًا شهيرًا في الأكاديمية الملكية. وأمها من الفابيين المثقفين في أيام ازدهار ما قبل الرفائيلية[1]. وبين الفنانين والاشتراكيين المثقفين نشأت كونستنس وأختها هيلدا تنشئة يمكن وصفها بأنها تنشئة جمالية غير تقليدية. أُخِذَتا إلى باريس وفلورنسا وروما ليتنفسا فنًّا، وأخذتا أيضًا في الاتجاه الآخر، إلى لاهاي وبرلين، إلى التقاليد الاشتراكية العظيمة، حيث تحدث المتحدثون بكل لغة متحضرة، ولم تعرف أي منهما الخجل.

وهكذا لم تعرف الفتاتان من سن مبكرة أدنى رهبة من الفن أو السياسة المثالية. كان مناخهما الطبيعي. كانتا عالميتين وإقليميتين في الوقت ذاته، بنزعة إقليمية عالمية في الفن مع مُثُل اشتراكية خالصة.

أرسلتا إلى درسدن[2] في الخامسة عشرة لتعلم الموسيقى وأشياء

---

(١) الفابية: جمعية إنجليزية أنشئت في ١٨٨٤ لنشر مبادئ الاشتراكية بالوسائل السلمية. ما قبل الرفائيلية: رابطة للرسامين والشعراء الإنجليز تشكلت في ١٨٤٨ احتجاجًا على تدني الفن الإنجليزي.

(٢) درسدن: مدينة في شرق ألمانيا.

أخرى، حيث قضيتا وقتًا طيبًا. عاشتا بحرية بين الطلاب وتناقشتا مع الرجال في أمور فلسفية واجتماعية وفنية، وكانتا رائعتين مثل الرجال تمامًا: وأفضل منهم فقط لأنهما فتاتان. وتجولتا في الغابات مع الشبان الأقوياء الذين يحملون الجيتارات، رنة رنة! غنتا أغاني الفندرفوجِل[1]، وتمتعتا بالحرية. الحرية! كانت الكلمة العظيمة. في العالم الرحب، في الهواء الطلق في غابات الصباح، مع رفاق من الشبان المفعمين بالحيوية من ذوي الحناجر الرائعة، كانتا حرتين في القيام بما يحلو لهما، وفي المقام الأول في قول ما يحلو لهما. تميز الحديث بالسمو: التبادل الحماسي للحديث. ولم يكن الحب إلا أمرًا ثانويًا مرافقًا للحديث.

وكان لكل من هيلدا وكونستنس علاقات حب عابرة حين بلغتا الثامنة عشرة. كان الشبان، الذين تحدثوا إليهما بحماس وغنوا لهما بشبق وعسكروا معهما تحت الأشجار بمثل هذه الحرية، يريدون روابط حب بالطبع. وترددت الفتاتان، لكن وقد تم الحديث كثيرًا عن هذا الأمر، يفترض أنه بالغ الأهمية. وكان الشبان وُدَعاء وتواقين جدًّا. لماذا لا تتصرف الفتاة مثل ملكة، وتهب نفسها؟

هكذا وهبتا نفسيهما، كل منهما للشاب الذي أجرت معه أرق المجادلات وأكثرها حميمية. كانت المجادلات والمناقشات الأمر العظيم، ولم يكن الحب والارتباط إلا نوعًا من العودة البدائية، والهبوط من الذروة. كانت الفتاة، بعد ذلك، تشعر بحب أقل للفتى، وتميل إلى

---

(١) فندرفوجِل: منظمة ألمانية تأسست في نهاية القرن التاسع عشر لتشجيع الأنشطة في الهواء الطلق والثقافة الشعبية، والاسم بالألمانية يعني الجوالين.

كراهيته، وكأنه انتهك خصوصيتها وحريتها الداخلية. ولأنها فتاة، بالطبع، تمثلت الكرامة كلها ومعنى الحياة في حرية مطلقة وكاملة ونقية ونبيلة. ماذا تعني حياة الفتاة غير ذلك؟ التهرب من الارتباطات والموضوعات القديمة والدنيئة.

ومهما تعاطفنا مع هذا الفعل الجنسي، إلا أنه أحد أقدم الارتباطات والموضوعات وأكثرها دناءة. كان الشعراء الذين مجدوه رجالًا غالبًا. وعرفت النساء دائمًا أن هناك ما هو أفضل، ما هو أسمى. والآن يعرفن بالتأكيد أكثر مما عرفن في أي وقت. الحرية الجميلة النقية التي تتمتع بها المرأة أروع من أي حب جنسي. والشيء السيئ الوحيد أن الرجال يتخلفون كثيرًا جدًّا عن النساء في هذه المسألة. يلحون على الجنس مثل الكلاب.

وعلى المرأة أن تذعن. الرجل بشهواته مثل طفل، وعلى المرأة أن تذعن لما يريد، أو مثل طفل قد ينقلب إلى شخص مقيت يندفع بعيدًا ويفسد ارتباطًا لذيذًا جدًّا. لكن المرأة قد تذعن لرجل بدون أن تتخلى عن ذاتها الحرة الأصيلة. وهذا ما لم يهتم به الشعراء والمتحدثون كثيرًا. يمكن أن ترافق المرأةُ رجلًا ولا تتخلى عن ذاتها. ومن المؤكد أنها يمكن أن ترافقه بدون أن تستسلم لسيطرته. أو يمكنها بالأحرى أن تستخدم هذا الشيء الجنسي لتفرض سيطرتها عليه. وليس عليها إلا أن تكبح نفسها في الممارسة الجنسية وتتركه ينتهي ويبدد نفسه بدون أن تصل للذروة: وحينذاك يمكنها أن تطيل أمد الارتباط وتحقق أورجازمها وذروتها ويكون مجرد أداة لها.

حين نشبت الحرب كان لكل من الأختين خبرتها الغرامية وأسرعتا عائدتين إلى الوطن. لم تحب أية منهما شابًّا إذا لم يكونا قريبين جدًّا لفظيًّا: أي إذا لم يكونا مهتمين بعمق بالحديث معًا. كانت الإثارة المذهلة العميقة التي لا تصدق في الحديث بحماس إلى بعض الشبان البارعين حقًّا، تستأنف ساعة بعد ساعة ويومًا بعد يوم لشهور... ولم يدركا ذلك حتى حدث! الوعد الفردوسي: سوف يكون لَكُنَّ رجال تتحدثن إليهم!- لم يُعلَن قط. تحقق قبل أن تعرفا حقيقة الوعد.

وإذا صار الجنس بعد الحميمية المثيرة لهذه المناقشات التي تنير الروح أمرًا حتميًّا تقريبًا، فليكن. إنه يميز نهاية فصل. له لذته الخاصة أيضًا: لذة غريبة تتذبذب داخل الجسد، تقلص نهائي لتأكيد الذات، مثل الكلمة الأخيرة، المثيرة، تشبه تمامًا سطرًا من النجوم يمكن وضعه لتحديد نهاية فقرة، وفاصلًا في التيمة.

حين عادت الفتاتان إلى البيت في إجازة الصيف في ١٩١٣، وهيلدا في العشرين وكوني في الثامنة عشرة، عرف والدهما بوضوح أنهما مرتا بالتجربة الغرامية.

مر الحب من هنا[١]، كما يقول شخص ما. لكنه كان صاحب خبرة، وترك الحياة تأخذ مسارها. وكانت الأم، وقد أصيبت باعتلال عصبي في آخر بضعة أشهر من حياتها، تريد أن ترى بنتيها «حرتين» و«تحققان نفسيهما». لم تستطع قط أن تكون نفسها تمامًا: كانت تنكرها. تعرف السماء السبب، لأنها كانت امرأة لها دخلها الخاص وطريقها الخاص.

---

(١) بالفرنسية في الأصل.

لامت زوجها. لكن الأمر في الحقيقة كان تأثيرًا قديمًا للسلطة على عقلها أو روحها ولم تتخلص منه. لا علاقة للسير مالكولم بذلك، وقد ترك زوجته العدوانية العصبية المفعمة بالحيوية تحكم عشها الخاص، ومضى في طريقه.

وهكذا كانت الفتاتان «حرتين»، وعادتا إلى درسدن، والموسيقى والجامعة والشبان. أحبتا شابيهما المحترمين، وأحبهما شاباهما المحترمان بكل عاطفة الجاذبية العقلية. كل الأشياء المدهشة التي فكر فيها الشابان وعبَّرا عنها وكتباها، فكرا فيها وعبَّرا عنها وكتباها من أجل فتاتيهما. كان صديق كوني موسيقيًّا، وصديق هيلدا تقنيًّا. لكنهما عاشا ببساطة من أجل فتاتيهما. هذه هي الحقيقة، في عقليهما وفي استثارتهما الذهنية. في موضع آخر كانا يواجهان بعض الصد، وإن لم يعرفا ذلك.

وكان من الواضح أيضًا أن الحب تغلغل فيهما: أي الخبرة الجسدية. ومن المثير للفضول معرفة التحول الدقيق الذي لا تخطئه العين الذي يصنعه الحب في أجساد الرجال والنساء: تصبح المرأة أكثر ازدهارًا، ويستدير جسدها بدقة، وتلين انحناءاتها الصغيرة، ويصبح تعبيرها قلقًا أو منتشيًا بالنصر: ويصبح الرجل أكثر هدوءًا، وأكثر عمقًا، وينبئ الشكل الحقيقي لكتفيه وردفيه عن شخص أقل حسمًا، وأكثر ترددًا.

في اللذة الجنسية الفعلية داخل الجسد، استسلمت الأختان تقريبًا للسلطة الذكورية الغريبة. لكنهما استعادتا نفسيهما بسرعة، وتعاملتا مع اللذة الجنسية بوصفها إحساسًا، وبقيتا حرتين. بينما يأسى الرجال للمرأة، امتنانًا للخبرة الجنسية، وبعد ذلك يبدون وكأنهم فقدوا شلنًا

ووجدوا نصف شلن. يمكن أن يكون صديق كوني متجهمًا بعض الشيء، وصديق هيلدا متهكمًا بعض الشيء. لكنها حال الرجال! لا يشعرون بالامتنان ولا يرضون قط. حين لا تمتلكهم يكرهونك لأنك لا تمتلكهم؛ وحين تمتلكهم يكرهونك من جديد، لسبب آخر، أو بدون أي سبب إطلاقًا، باستثناء أنهم أطفال ساخطون، ولا يمكن أن يرضوا بصرف النظر عما يحصلون عليه، وبصرف النظر عما قد تفعله المرأة.

وعلى أية حال، نشبت الحرب، واندفعت هيلدا وكوني إلى الوطن مرة أخرى بعد أن كانتا فيه بالفعل في مايو، لحضور جنازة أمهما. وقبل الكريمساس في ١٩١٤ كان صديقاهما الألمانيان ميتين: حينذاك بكت الأختان وأحبتا الشابان بشدة، لكنهما نسيتاهما بعد ذلك تمامًا. لم يعد لهما وجود.

عاشت الأختان في منزل أبيهما، كنسنجتون هاوس، وهو في الحقيقة منزل أمهما، واختلطتا بمجموعة من شباب كمبردج، مجموعة دعت إلى «الحرية» وبنطلونات الفانيلا، وقمصان الفانيلا المفتوحة عند العنق، وإلى فوضوية عاطفية راقية، وصوت همهمة هامسة، وسلوك بالغ الحساسية. ومع ذلك تزوجت هيلدا فجأة من رجل يكبرها بعشر سنوات، عضو أكبر من مجموعة كمبردج نفسها، رجل يمتلك قدرًا كبيرًا من المال، ويشغل مجموعة وظائف متشابهة ومريحة في الحكومة: ويكتب أيضًا مقالات فلسفية. أقامت معه في منزل صغير في ويستمنستر، وانتقلت إلى مجتمع رائع من العاملين في الحكومة ليسوا من رجال الصف الأول، لكنهم، أو سوف يكونون، القوة الفكرية الحقيقية في- الأمة: أناس يعرفون ما

يتحدثون عنه، أو يتحدثون وكأنهم يعرفونه.

ساهمت كوني بعمل بسيط من أعمال الحرب، وانسجمت مع متشددي كمبردج ذوي البنطلونات الفانيلا، وكانوا يسخرون بلطف من كل شيء، حتى ذلك الوقت. وكان صديقها كلفورد تشاترلي، شابًّا في الثانية والعشرين، عاد إلى الوطن مسرعًا من بون، حيث كان يدرس تقنيات تعدين الفحم. وقد قضى عامين من قبل في كمبردج. وصار ملازمًا أول في فوج أنيق، وكان يسخر من كل شيء بشكل أكثر جاذبية وهو يرتدي زيَّه.

كان كلفورد تشاترلي من طبقة أعلى من طبقة كوني. كانت كوني من الإنتسلجيسيا الميسورة، لكنه كان أرستقراطيًّا. ليست أرستقراطية كبيرة، لكنها أرستقراطية. كان والده بارونًا، وأمه ابنة فيكونت.

لكن كلفورد، رغم أنه أفضل تنشئة من كوني، ومن «مجتمع» أرقى، كان بطريقته الخاصة ريفيًّا أكثر وأكثر خجلًا. يشعر براحة في «العالم العظيم» الضيق، أي المجتمع الأرستقراطي من ملاك الأراضي، لكنه يشعر بالخجل والعصبية من كل العالم الكبير الذي يتكون من الحشود الهائلة من الطبقات المتوسطة والدنيا، والغرباء. وإذا كان ينبغي قول الحقيقة، كان يشعر ببعض الهلع من إنسانية الطبقة الوسطى والدنيا، ومن الغرباء الذين لا ينتمون إلى طبقته. وكان، بطريقة معوقة، يدرك عجزه، وإن كان يحظى بكل حماية الامتياز. إنه أمر غريب، لكنها ظاهرة من ظواهر عصرنا.

وبالتالي فتنته الثقة الخاصة الرقيقة التي تتمتع بها فتاة مثل كونستنس

ريد. كانت سيدة نفسها في ذلك العالم الخارجي المضطرب أكثر بكثير مما كان سيد نفسه.

لكنه كان أيضًا متمردًا: يتمرد حتى ضد طبقته. وربما كانت متمرد كلمةً قوية جدًا؛ قوية جدًّا إلى حد بعيد. كان فقط منخرطًا في النفور الشعبي العام للشباب من العرف ومن أي نوع من السلطة الحقيقية. كان الآباء مدعاة للسخرية: كان أبوه المتعنت من هذا النوع إلى أقصى حد. والحكومات مدعاة للسخرية: وحكومتنا، وهي من النوع الذي ينتظر ليرى، من هذا النوع بشكل خاص. والجيوش مدعاة للسخرية، وكل الجنرالات الأغبياء العجائز، وعلى رأسهم كتشنر[1] ذو الوجه الأحمر. وحتى الحرب مدعاة للسخرية، رغم أنها قتلت الكثير من الناس.

كان كل شيء في الحقيقة مدعاة للسخرية بعض الشيء، أو جدًّا: وبالتأكيد كان كل ما هو مرتبط بالسلطة، سواء في الجيش أو الحكومة أو الجامعات، مدعاة للسخرية بدرجة ما. وطالما قدمت الطبقة الحاكمة ذرائع لتحكم، كانت مدعاة للسخرية أيضًا. كان السير جيفري، والد كلفورد، مدعاة للسخرية جدًّا، يقطع أشجاره، ويطرد الرجال من منجمه ويدفع بهم إلى الحرب؛ وكان هو نفسه حذرًا ووطنيًا جدًّا؛ لكنه، أيضًا، كان ينفق على بلاده من أمواله أكثر مما حصل عليه.

حين جاءت مس تشاترلي- إيمّا- إلى لندن من ميدلندز للقيام ببعض أعمال التمريض، كانت بارعة جدًّا بطريقة هادئة بشأن السير جيفري

---

(١) هربرت كتشنر (١٨٥٠-١٩١٦): لورد إنجليزي، عين حاكما على المستعمرات البريطانية في البحر الأحمر سنة ١٨٨٦، وقائدًا أعلى في الجيش المصري.

ووطنيته الحازمة. وانفجر هربرت، الأخ الأكبر والوريث، ضاحكًا، رغم أن الأشجار التي تسقط من أجل دعائم الخندق أشجاره. لكن كلفورد اكتفى بابتسامة وبعض القلق. كان كل شيء مدعاة للسخرية، وهي حقيقة مطلقة. لكن متى يوشك المرء نفسه على أن يصبح مدعاة للسخرية أيضًا...؟ على الأقل كان أناس من طبقة مختلفة، مثل كوني، مهتمين بشيء ما، مؤمنين بشيء ما.

كانوا مهتمين بالجنود البريطانيين، والتهديد بالتجنيد الإلزامي، ونقص السكر والطوفي للأطفال. في كل هذه الأمور، بالطبع، كانت السلطات مخطئة بشكل يدعو للسخرية. لكن كلفورد لم يأخذ الأمر بجدية. بالنسبة له كانت السلطات مدعاة للسخرية **منذ البداية**، ليس بسبب الطوفي أو الجنود البريطانيين.

وشعرت السلطات بأنها مدعاة للسخرية، وتصرفت بطريقة تدعو للسخرية، وكان كل شيء لبعض الوقت حفل شاي لبائع قبعات مجنون. حتى تطورت الأمور هناك، وجاء لويد جورج[1] لينقذ الوضع. وتجاوز الأمر حتى السخرية ولم يعد الشباب الوقح يضحك.

في ١٩١٦ قُتِل هربرت تشاترلي، فأصبح كلفورد الوريث. وارتعب حتى من هذا. كانت أهميته ابنًا للسير جيفري، وطفلًا من راجبي، متأصلة جدًّا فيه بحيث لا يمكنه الهروب منها. وعرف أن هذا أيضًا مدعاة للسخرية في عيون العالم الهائل الذي يستشيط غضبًا. إنه الآن الوريث

(١) لويد جورج: رئيس وزراء بريطانيا من ١٩١٦-١٩٢٢.

والمسئول عن راجبي. أليس هذا مرعبًا؟ ورائعًا أيضًا وربما في الوقت ذاته عبثيًّا تمامًا؟

ولم يكن عبثًا عند السير جيفري. كان شاحبًا ومتوترًا، وانطوائيًّا، وصمم بإصرار أن ينقذ بلاده ووضعه، سواء كان لويد جورج في السلطة أو أي شخص. منعزلًا تمامًا، ومنفصلًا تمامًا عن إنجلترا التي كانت إنجلترا حقًّا، وعاجزًا تمامًا بكل معنى الكلمة، حتى فكر جيدًا في هوارشيو بوتوملي[١]. ساند السير جيفري إنجلترا ولويد جورج كما ساند أسلافه إنجلترا والقديس جورج: ولم يعرف قط أي اختلاف، وهكذا قطع السير جيفري الأخشاب وساند لويد جورج وإنجلترا، إنجلترا ولويد جورج.

وطلب من كلفورد أن يتزوج وينجب وريثًا. وشعر كلفورد أن والده مفارقة تاريخية ميئوس منها. لكن متى كان هو نفسه متقدمًا أكثر، باستثناء إحساس جافل بالسخرية من كل شيء، والسخرية الهائلة من وضعه؟ لأنه طوعًا أو كرهًا تعامل مع بارونيته وراجبي بأقصى جدية.

تلاشت الإثارة المبهجة للحرب... ماتت. الكثير من الموت والهلع. وكان الإنسان يحتاج إلى الدعم والراحة. كان الإنسان يحتاج إلى مرساة في العالم الآمن. كان الإنسان يحتاج إلى زوجة.

عاش آل تشاترلي، شقيقان وأخت، في عزلة غريبة، انعزلوا معًا في راجبي، رغم كل روابطهم. وعزز الإحساس بالعزلة الرابطة الأسرية، والإحساس بضعف وضعهم، والإحساس بعجزهم عن حماية أنفسهم،

---

(١) بوتوملي (١٨٦٠-١٩٣٣): صحفي إنجليزي وعضو في البرلمان، اشتهر بخطبه الوطنية في الحرب العالمية الأولى، لكنه أدين في ١٩٢٢ بالاحتيال وحكم عليه بالسجن سبع سنوات.

رغم اللقب والأرض أو نتيجة لهما. انعزلوا عن ميدلندز التي قضوا فيها حياتهم. وانعزلوا عن أبناء طبقتهم نتيجة الطبيعة الكئيبة المتعنتة والصامتة لوالدهم السير جيفري، الذين سخروا منه، وكانوا حساسين جدًّا بشأنه.

قال الثلاثة إنهم سيعيشون معًا دائمًا. لكن هربرت مات، وطلب السير جيفري من كلفورد أن يتزوج. ذكر السير جيفري ذلك بالكاد: كان قليل الحديث تمامًا. لكن إصراره الصامت الكئيب بضرورة تلبية الأمر كان أصعب من احتمال كلفورد.

لكن إيمَّا قالت لا! كانت أكبر من كلفورد بعشر سنوات، وشعرت بأن زواجه يمثل انشقاقًا وخيانة لما أيده الشبان الثلاثة في الأسرة.

وتزوج كلفورد من كوني، وقضى معها شهر العسل. كانت ١٩١٧ سنة رهيبة، وكانا حميمين مثل شخصين يقفان معًا في سفينة تغرق. كان عذريًّا حين تزوج: ولم يكن الشق الجنسي يعني له الكثير. كانا، هو وهي، قريبين جدًّا باستثناء ذلك. وابتهجت كوني قليلًا بهذه الحميمية التي تتجاوز الجنس، وتتجاوز «إشباع» الرجل. وعلى أية حال لم يكن كلفورد حريصًا بالضبط على «إشباعه»، كما يبدو الكثير من الرجال. لا، كانت الحميمية أكثر عمقًا وشخصية أكثر من ذلك. ولم يكن الجنس إلا أمرًا عارضًا، أو إضافيًّا، إحدى العمليات العضوية الغريبة البائدة التي استمرت في حماقتها الخاصة، لكنه لم يكن ضروريًّا حقًّا. ولم تكن كوني تريد أطفالًا: وإن كان ذلك يحصنها ضد إيما أخت زوجها.

لكن كلفورد أبحر إلى وطنه في ١٩١٨ محطمًا، ولم يكن هناك طفل. ومات السير جيفري بحسرته.

رغم اللقب والأرض أو نتيجة لهما. انعزلوا عن ميدلندز التي قضوا فيها حياتهم. وانعزلوا عن أبناء طبقتهم نتيجة الطبيعة الكئيبة المتعنتة والصامتة لوالدهم السير جيفري، الذين سخروا منه، وكانوا حساسين جدًّا بشأنه.

قال الثلاثة إنهم سيعيشون معًا دائمًا. لكن هربرت مات، وطلب السير جيفري من كلفورد أن يتزوج. ذكر السير جيفري ذلك بالكاد: كان قليل الحديث تمامًا. لكن إصراره الصامت الكئيب بضرورة تلبية الأمر كان أصعب من احتمال كلفورد.

لكن إيمَّا قالت لا! كانت أكبر من كلفورد بعشر سنوات، وشعرت بأن زواجه يمثل انشقاقًا وخيانة لما أيده الشبان الثلاثة في الأسرة.

وتزوج كلفورد من كوني، وقضى معها شهر العسل. كانت ١٩١٧ سنة رهيبة، وكانا حميمين مثل شخصين يقفان معًا في سفينة تغرق. كان عذريًّا حين تزوج: ولم يكن الشق الجنسي يعني له الكثير. كانا، هو وهي، قريبين جدًّا باستثناء ذلك. وابتهجت كوني قليلًا بهذه الحميمية التي تتجاوز الجنس، وتتجاوز «إشباع» الرجل. وعلى أية حال لم يكن كلفورد حريصًا بالضبط على «إشباعه»، كما يبدو الكثير من الرجال. لا، كانت الحميمية أكثر عمقًا وشخصية أكثر من ذلك. ولم يكن الجنس إلا أمرًا عارضًا، أو إضافيًّا، إحدى العمليات العضوية الغريبة البائدة التي استمرت في حماقتها الخاصة، لكنه لم يكن ضروريًّا حقًّا. ولم تكن كوني تريد أطفالًا: وإن كان ذلك يحصنها ضد إيما أخت زوجها.

لكن كلفورد أبحر إلى وطنه في ١٩١٨ محطمًا، ولم يكن هناك طفل. ومات السير جيفري بحسرته.

الفصل الثاني

عادت كوني وكلفورد إلى راجبي في ١٩٢٠، ورحلت مس تشاترلي، مشمئزة من انشقاق أخيها، لتعيش في شقة صغيرة في لندن.

كان منزل راجبي طويلًا ومنخفضًا وقديمًا من الحجر البني، بدأ بناؤه في منتصف القرن الثامن عشر تقريبًا، وأضيف إليه، حتى صار متاهة تفتقر إلى التميز. يقف على ربوة في منتزه قديم رائع من شجر البلوط، لكن للأسف، يمكن رؤية مدخنة منجم تِفْرشال من مسافة قريبة، مع سحب البخار والدخان، وعلى المسافة الرطبة الضبابية للتل الانتشار الفج لقرية تفرشال، وهي قرية تبدأ تقريبًا عند بوابات المنتزه وتمتد ببشاعة رهيبة إلى ميل طويل وشنيع: منازل، صفوف من المنازل البائسة الصغيرة القذرة مبنية بالقرميد، تغطيها أسقف سوداء أردوازية، وزوايا حادة وكآبة تامة متعمدة.

وقد اعتادت كوني على كنسنجتون أو الهضاب الأسكتلندية أو منخفضات ساسكس[1]: كانت إنجلترا بالنسبة لها. ومع رواقية الشباب صدمتها من النظرة الأولى بشاعة ميدلندز الفحم والحديد، بشاعة تامة بلا روح، فاستسلمت للأمر: لا يُصدَّق ولا يمكن التفكير فيه. ومن الغرف الكئيبة في راجبي سمعت قعقعة الحواجز في المنجم، ونفخات المحرك اللولبي، وصلصلة عربات التحويل، والصفير المنخفض الفظ لقاطرات المنجم. وكانت منصات منجم تفرشال تحترق، منذ سنوات وهي تحترق، وكان الأمر يتطلب الآلاف لإخمادها. وبالتالي كان ينبغي أن تحترق. وحين تكون الرياح بهذه الطريقة، وهو ما يحدث غالبًا، كان المنزل يمتلئ بنتانة الاحتراق الكبريتي لفضلات الأرض. لكن حتى في الأيام التي لا تهب فيها الرياح تفوح في الهواء رائحة شيء ما تحت الأرض: الكبريت أو الحديد أو الفحم أو الحمض. وحتى على ورود الكريسماس كان السخام يستقر باستمرار، بشكل لا يصدق، مثل المن الأسود من سماوات الهلاك.

حسنًا، كان هناك مقدرًا مثل بقية الأمور! كان مروعًا إلى حد ما، لكن لماذا تركله؟ لا يمكن أن تركله بعيدًا. إنه مستمر فقط. حياة، مثل بقية الحيوات! على سقف السحب المظلمة المنخفضة في الليل بقع حمراء تحترق وترتجف، مرقطة ومتضخمة ومتقلصة، مثل حروق مؤلمة. إنها الأفران. فَتَنَتْ كوني في البداية بنوع من الهلع؛ شعرت وكأنها تعيش تحت الأرض. ثم اعتادت عليها. وفي الصباح أمطرتْ.

---

(١) مقاطعة ساسكس تقع في جنوب شرق إنجلترا. وهي مقسمة إلى شرق ساسكس وغرب ساسكس.

زعم كلفورد أنه يفضل راجبي على لندن. كان لهذا الريف إرادته الكالحة الخاصة، وكان أهله يتسمون بالشجاعة. وتساءلت كوني عما يتسمون به غير ذلك: من المؤكد أنهم بلا عيون أو عقول. الناس شاحبون بلا ملامح ومكتئبون مثل الريف، وغير ودودين مثله. هناك فقط شيء ما في الإدغام الجهوري للهجة، وصوت نعال عمال المنجم بكعوبها المدقوقة بالمسامير وهم يزحفون عائدين من العمل إلى البيوت في جماعات على الأسفلت، وكان الأمر فظيعًا وغامضًا بعض الشيء.

لم يكن هناك احتفاء بعودة السيد الشاب إلى البيت، ولم تكن هناك احتفالات، أو مندوب عنهم، أو حتى زهرة واحدة. مجرد نزهة باردة في سيارة إلى طريق خاص مظلم ورطب، يختبئ بين أشجار موحشة، إلى منحدر المنتزه حيث ترعى أغنام رمادية مبللة، إلى الربوة حيث يمتد المنزل بواجهته البنية القاتمة، ومديرة المنزل وزوجها يحومان، مثل مستأجرين يفتقران إلى الثقة على وجه الأرض، مستعدين للتأتأة بترحيب.

لم يكن هناك أي اتصال بين راجبي هول وقرية تفرشال. لم تمس قبعات، ولم تقدم انحناءات. اكتفى عمال المنجم بالتحديق؛ ورفع التجار قبعاتهم لكوني كما يرفعونها لإحدى معارفهم، وأومأوا برعونة لكلفورد؛ ذلك كل ما حدث. هوة لا يمكن اجتيازها، ونوع هادئ من الاستياء على كل جانب. في البداية عانت كوني من رذاذ مستمر من الاستياء يأتي من القرية. ثم اشتدت في مواجهته، وأصبح منشطًا من نوع ما، شيئًا تحيا به. لم تكن المسألة تتمثل في أنها وكلفورد لا يحظيان بشعبية، إنهما ينتميان تمامًا إلى نوع آخر يختلف تمامًا عن عمال المنجم.

هوة لا يمكن اجتيازها، فجوة لا توصف، ربما لا يوجد مثلها جنوب الترينت[١]. لكن في الميدلندز والشمال الصناعي لا يمكن اجتياز الهوة، ولا يمكن أن يتم عبرها أي اتصال. تلتصق في ناحيتك، وألتصق في ناحيتي! إنكار غريب للنبضة العامة للإنسانية.

لكن القرية تعاطفت مع كلفورد وكوني في المجرد. وفي الواقع كان الشعار على كل جانب: دعني وشأني!

وكان الكاهن رجلًا لطيفًا في الستين تقريبًا، منهمكًا في واجباته، وتقلص، شخصيًّا، إلى حالة من العدم تقريبًا نتيجة صمت القرية، والشعار على كل جانب «دعني وشأني». كانت كل زوجات عمال المناجم تقريبًا من الميثوديات[٢]. ولم يكن عمال المناجم أي شيء. لكن حتى الزي الرسمي مثل الذي يرتديه رجل الدين كافٍ ليطمس تمامًا حقيقة أنه رجل مثل أي رجل آخر. لا، إنه ميستر أشبي، نوع من الوعظ التلقائي والاهتمام بالصلاة.

حير هذا العناد الغريزي- نعتقد أننا رائعون مثلك، إن **كنت** ليدي تشاترلي!- كوني وأربكها بشدة في البداية. الود الغريب والمريب والزائف الذي قابلت به زوجات عمال المناجم مبادراتها؛ وكانت الصبغة الهجومية الغريبة- أوه عزيزتي! أنا الآن مهمة، الليدي تشاترلي تتحدث معي! لكنها لا تحتاج إلى الاعتقاد بأنني لست رائعة مثلها رغم هذا كله!- فيما تسمعه دائمًا والنساء يرددنه بأصوات شبه متملقة، مستحيلة. صبغة لا يمكن التغاضي عنها. منفرة بشكل عدواني جدًّا.

---

(١) الترينت: ثالث أطول أنهار المملكة المتحدة.

(٢) الميثودية: طائفة بروتستانتية نشأت في القرن الثامن عشر.

تركهم كلفورد وشأنهم، وتعلمتْ أن تفعل الشيء نفسه: تمر بهم بدون أن تلتفتْ إليهم. ويحدقون فيها وكأنها تمثال من الشمع يمشي. وحين يكون على كلفورد التعامل معهم، يتصرف بغطرسة وازدراء؛ ما عاد يحتمل التصرف بود. وكان في الحقيقة متغطرسًا ومحتقرًا تمامًا لكل من لا ينتمي إلى طبقته. كان متشبثًا بموقفه، بدون أية محاولة للمصالحة. ولم يكن أحد يحبه أو يكره: كان مجرد شيء من الأشياء، مثل منصات المنجم وراجبي نفسها.

لكن كلفورد كان في الحقيقة خجولًا جدًّا وصار قلقًا لأنه كسيح. يكره رؤية أي شخص باستثناء خدمه الشخصيين. لأنه مضطر للجلوس على كرسي متحرك أو نوع ما من كراسي الحمَّام. لكنه يرتدي ملابسه بعناية كما كان يفعل دائمًا، من ترزية أسعارهم مرتفعة، ويضع بعناية ربطات عنق من بوند ستريت بالضبط كما كان يفعل من قبل، ويبدو من أعلى أنيقًا ورائعًا كما كان دائمًا. لم يكن قط أحد الشبان المتأنقين العصريين. كان حتى ريفيًّا، بوجهه المتورد وكتفيه العريضين. لكن صوته الهادئ والمتردد جدًّا يكشف مع عينيه، الجريئتين والمروَّعتين، الواثقتين والمترددتين، في الوقت ذاته، طبيعته. كان سلوكه غالبًا متغطرسًا وهجوميًّا، ثم مرة أخرى معتدلًا ومتواضعًا، ومرتجفًا تقريبًا.

كانت كوني وهو مرتبطين معًا بطريقة حديثة متحفظة. كان يشعر بهول الضرر الذي أصابه، ببشاعة صدمة عجزه، بشكل يحول دون أن يكون سلسًا ووقحًا. كان جريحًا. فالتصقت به كوني بحماس.

لكن لم يكن بوسعها إلا أن تشعر بمدى ضعف ارتباطه حقًّا بالناس.

كان عمال المناجم، بمعنى ما، رجاله؛ لكنه يراهم أشياء لا رجال، أجزاء من المنجم لا أجزاء من الحياة، ظواهر خامًا فجة لا كائنات بشرية بجانبه. يخشاهم بطريقة ما، ولا يحتمل نظرتهم إليه وهو قعيد. وبدت حياتهم الغريبة الفظة غير طبيعية مثل حياة القنافذ.

يهتم عن بعد؛ مثل رجل ينظر من ميكرسكوب، أو من تليسكوب. لم يكن على اتصال بأحد. لم يكن فعليًّا على اتصال بأحد، باستثناء راجبي، بشكل تقليدي، ومن خلال الرابطة القوية لحماية العائلة، مع إيما. وباستثناء ذلك لا يعنيه شيء حقًّا. وشعرت كوني بأنها لا تعنيه حقًّا؛ ربما ليس هناك ما تحصل عليه في النهاية؛ مجرد رفض للاتصال الإنساني.

لكنه يعتمد عليها اعتمادًا تامًّا، ويحتاج إليها كل لحظة. كان، ضخمًا وقويًّا كما كان، وعاجزًا. يستطيع الحركة في الكرسي المتحرك، ولديه كرسي حمام يتصل بمحرك، يستطيع التحرك فيه ببطء حول المنتزه. لكنه بمفرده مثل شيء ضائع. يحتاج إلى كوني بجانبه، لتؤكد له أنه موجود على الأقل.

لكنه طموح. بدأ يكتب قصصًا؛ قصصًا غريبة، وشخصية جدًّا عن أناس عرفهم. بارعة، ولاذعة، لكنها بطريقة ما ملتبسة، بلا معنى. كانت الملاحظة استثنائية وعجيبة. لكن لا يوجد تماس، لا يوجد اتصال حقيقي. بدا وكأن كل شيء يحدث في الفراغ. وحيث إن مجال الحياة اليوم عمومًا مسرح بإضاءة اصطناعية، جاءت القصص متوائمة بغرابة مع الحياة الحديثة، أي مع النفَس الحديث.

وكان كلفورد حساسًا بشكل مَرَضِيٍّ تقريبًا تجاه هذه القصص. أراد أن يرى الجميع أنها جيدة، الأفضل، لا شيء يفوقها[1]. ظهرت في معظم المجلات الحديثة، فامتدحت وذُمَّتْ كالمعتاد. لكن الذم بالنسبة لكلفورد كان تعذيبًا، مثل سكاكين تنخسه. بدا الأمر وكأن وجوده كله في قصصه.

ساعدتْه كوني قدر المستطاع. انتشت في البداية. ناقش معها كل شيء برتابة وإلحاح ودأب، وكان عليها أن تستجيب بكل قدرتها. بدا الأمر وكأن على روحها كلها وجسدها وجنسها النهوض والانتقال إلى قصصه. وقد أثارها هذا وشغلها تمامًا.

عاشا القليل جدًّا من الحياة الجسدية. عليها أن تشرف على المنزل. لكن مديرة المنزل وقد خدمت السير جيفري لسنوات طويلة، وهي أنثى عجفاء عجوز دقيقة بصورة فائقة... يصعب تسميتها خادمة مائدة، أو حتى امرأة... كانت تنتظر عند المائدة، في المنزل لأربعين عامًا. حتى الخادمات الفعليات لم يعدن صغيرات. كان الأمر مروِّعًا! ماذا يمكن أن تفعل في مكان كهذا إلا أن تتركه كما هو! كل هذه الغرف التي لا نهاية لها ولا يستخدمها أحد، كل روتين الميدلندز، التنظيف الميكانيكي والنظام الميكانيكي! أصر كلفورد على طباخة جديدة، امرأة خبيرة خدمته في غرفه في لندن. وبدا أن الفوضى الميكانيكية تدير بقية المكان. استمر كل شيء بنظام جيد، ونظافة صارمة وانضباط صارم. لكنها كانت، بالنسبة لكوني، فوضى منهجية. لم يوحد المنزلَ عضويًّا دفءُ المشاعر. بدا كئيبًا مثل شارع مهجور.

---

(١) لا شيء يفوقها، باللاتينية في الأصل.

ماذا يمكن أن تفعل إلا أن تتركه على حاله؟ وتركته على حاله. كانت مس تشاترلي تأتي أحيانًا، بوجهها الأرستقراطي النحيل، وتشعر بالانتصار لأن شيئًا لم يتغير. لم تسامح كوني لأنها أبعدتها عن اتحادها بأخيها. كان على إيما أن تقدم معه هذه القصص، هذه الكتب؛ قصص تشاترلي، شيئًا جديدًا في العالم، صاغها آل تشاترلي. ليس هناك معيار آخر. ليس هناك ارتباط عضوي مع ما كان قبل ذلك من فكر وتعبير. مجرد شيء جديد في العالم: كتب تشاترلي شخصية تمامًا.

قال والد كوني، حين قام بزيارة خاطفة إلى راجبي، في حديث خاص لابنته: بالنسبة لكتابات كلفورد، إنها راقية، لكن لا شيء فيها. لن تبقى طويلًا! نظرتْ كوني إلى الفارس الأسكتلندي الضخم الذي تصرف ببراعة طول حياته، وغامت عيناها، عيناها الواسعتان الزرقاوان اللتان مازالتا تعبران عن الدهشة. لا شيء فيها! ماذا يعني بلا شيء فيها! إذا امتدحها النقاد، واشتهر اسم كلفورد تقريبًا، وحصل على مال... ماذا يعني والدها بقوله لا شيء في كتابات كلفورد؟ أي شيء آخر يمكن أن يكون؟

ولأن كوني تبنت معيار الشباب، فما يوجد في اللحظة هو كل شيء. وتتبع اللحظات إحداها الأخرى بدون أن تنتمي إحداها للأخرى بالضرورة.

وهي تقضي شتاءها الثاني في راجبي، يقول لها والدها: «آمل يا كوني ألا ترغمك الظروف على أن تكوني **شبه عذراء**»[١].

(١) بالفرنسية في الأصل.

ترد كوني وهي شاردة: «**شبه عذراء**! لماذا؟ لماذا لا؟».

يقول والدها مسرعًا: «إلا إذا أحببْتِ ذلك بالطبع». ويقول الكلام نفسه لكلفورد، والرجلان بمفردهما: «أخشى ألا يكون من المناسب تمامًا أن تكون كوني **شبه عذراء**».

يرد كلفورد: «نصف عذراء»، مترجمًا التعبير ليتأكد منه.

يفكِّر لحظة، ثم يحمر وجهه بشدة. يغضب ويشعر بالإهانة.

يسأل بصرامة: «لا يناسبها ذلك إطلاقًا؟».

«إنها تزداد نحافة... إنها تذبل. ليس أسلوبها. ليست فتاة من نوع السردين النحيل، إنها من السلمون الأسكتلندي الرائع».

يقول كلفورد: «بدون نُقَط[1]، بالطبع!».

فيما بعد يود أن يقول شيئًا لكوني عن مسألة **شبه العذراء**... وضعها شبه العذري. ولم يجرؤ. كانت علاقته بها حميمة جدًّا وغير حميمة بما يكفي في الوقت ذاته. كان متفقًا معها تمامًا، بعقله وعقلها، لكن لا وجود لأي منهما بالنسبة للآخر جسديًا، ولم يكن لأحد منهما أن يحتمل بدء الحديث عن **وقائع الجريمة**[2]. كانا حميمين جدًّا، لكنهما لا يتلامسان حقًّا.

لكن كوني تخمن أن والدها قال شيئًا ما، وأن في عقل كلفورد شيئًا ما. تعرف أنه لا يبالي بأن تكون **شبه عذراء** أو **مستهترة**[3]، طالما لا يعرف

---

(١) الإشارة إلى النقط التي توجد على جسم السلمون المرقط.

(٢) باللاتينية في الأصل.

(٣) بالفرنسية في الأصل.

إطلاقًا، ولم يكن مستعدًا لأن يرى. ما لا تراه العين ولا يعرفه العقل لا يوجد.

انقضى عامان على وجود كوني وكلفورد في راجبي، وهما يعيشان حياتهما الغامضة منغمسين في كلفورد وأعماله. لم يتوقف قط اهتمامهما بأعماله. تحدثا وكافحا في مخاض التأليف، وبدا الأمر وكأن شيئًا ما يحدث، يحدث حقًّا، في الفراغ حقًّا.

هكذا كانت الحياة: في الفراغ. لا وجود للباقي. هناك راجبي، الخدم... لكنهم أشباح، لا يوجدون حقًّا. تتمشى كوني في المنتزه، وفي الخميلة التي ترتبط بالمنتزه، وتستمتع بالوحدة والغموض، تركل أوراق الخريف البنية، وتقطف زهور الربيع. كل ذلك حلم؛ أو بالأحرى مثل صورة زائفة للواقع. ورق البلوط بالنسبة لها مثل ورق بلوط مغضن في مرآة، وهي نفسها شخصية قرأ شخص ما عنها، وهي تلتقط زهور الربيع التي لم تكن إلا ظلالًا أو ذكريات أو كلمات. ليس لها جوهر أو أي شيء... لا تماس، لا اتصال! هذه الحياة فقط مع كلفورد، هذا الغزْل الذي لا ينتهي لشبكات القصص، لتفاهات الوعي، هذه القصص التي وصفها السير مالكوم بأنها لا شيء فيها، ولن تعيش طويلًا. لماذا يكون فيها شيء، لماذا تعيش طويلًا؟ **مظهر** الواقع كاف حتى اللحظة.

كان لكلفورد عدد كبير من الأصدقاء والمعارف حقًّا، يدعوهم إلى راجبي. يدعو كل أنواع البشر، النقاد والكتاب، الذين يمكن أن يساعدوا في امتداح كتبه. كان يتملقهم بدعوتهم إلى راجبي، وكانوا يمتدحون. تتفهم كوني ذلك تمامًا. لكن لماذا لا؟ كان هذا من الأنماط العابرة في

المرآة. وما الخطأ في ذلك؟

إنها مضيفة هؤلاء الناس... ومعظمهم من الرجال. ومضيفة أيضًا للعلاقات الأرستقراطية العارضة لكلفورد. ولأنها تبدو فتاة ريفية رقيقة ومتوردة، تميل إلى الغرابة، بعينين واسعتين زرقاوين، وشعر بني مجعد، وصوت رقيق، وخاصرتين أنثويتين قويتين تعتبر من طراز قديم إلى حد ما و«نسوية». ليست «من نوع سمك السردين الصغير»، مثل صبي، بثدي مسطح وردفين صغيرين لصبي. إنها أكثر أنوثة من أن تكون لبقة تمامًا.

وهكذا يكون الرجال، وخاصة الذين لم يعودوا شبابًا، في غاية اللطف معها. لكن لمعرفتها العذاب الذي قد يشعر به كلفورد المسكين مع أدنى إشارة غزل من جانبها، لا تشجعهم إطلاقًا. كانت هادئة وغامضة، لم تكن على اتصال بأي منهم وعزمت على ألا تكون. وكان كلفورد فخورًا للغاية بنفسه.

عاملها أقاربه بعطف شديد. وعرفتْ أن ذلك العطف مؤشر على عدم الخوف، وأن هؤلاء الناس لا يبدون لك أي احترام إلا إذا أصبتهم ببعض الرعب. لكن مرة أخرى لا يكون لها أي اتصال. تتركهم عطوفين ومزدرين، تتركهم يشعرون بأنهم لا يحتاجون إلى أن يكونوا على أهبة الاستعداد. ليس لها ارتباط حقيقي معهم.

يمر الزمن. وبصرف النظر عما يحدث لا يحدث شيء، لأنها بشكل جميل خارج أي اتصال. تعيش هي وكلفورد في أفكارهما وكتبه. تتسلّى... في البيت ناس دائمًا. يمضي الوقت كما تمضي الساعة، الثامنة والنصف بدلًا من السابعة والنصف.

الفصل الثالث

لكن كوني تشعر بتوتر متزايد. نتيجة انفصالها، يسيطر التوتر عليها مثل الجنون. يرجف أطرافها حين لا تريد أن ترتجف، ويهز عمودها الفقري حين لا تريد أن يهتز إلى أعلى وتفضل أن يبقى في وضع مريح. يرتعش في أعماق جسدها، في رحمها، في موضع ما، حتى تشعر أن عليها القفز في الماء والسباحة للتخلص منه؛ توتر مجنون. جعل قلبها يدق بقوة بدون سبب. وكانت تزداد نحافة.

مجرد توتر. يمكن أن تندفع عبر المنتزه، متخلية عن كلفورد، وتنبطح بين السرخس. لتبتعد عن المنزل... ينبغي أن تبتعد عن المنزل وعن الجميع. كانت الخميلة ملاذها الوحيد، ملجأها.

لكنها ليست ملاذًا أو ملجأ حقيقيًا، لأنها ليس لها أي ارتباط بها. مجرد مكان يمكن أن تتخلص فيه من الباقين. لا تمس قط بشكل حقيقي روح الخميلة نفسها... إذا كان للخميلة مثل هذا الشيء الذي بلا معنى.

تعرف بصورة مبهمة أنها على وشك التمزق بطريقة ما. وتعرف بصورة مبهمة أنها منفصلة: تفقد التماس مع العالم الحقيقي والحيوي. ليس هناك إلا كلفورد وكتبه، التي لا توجد... التي لا شيء فيها! فراغ إلى فراغ. تعرف بصورة مبهمة. لكن بدا وكأنها تضرب رأسها في حجر.

يحذرها والدها مرة أخرى: «لماذا لا تتخذين عشيقًا يا كوني؟ افعلي كل ما يسعدك».

في ذلك الشتاء يأتي ميكاليس لبضعة أيام. كان شابًّا أيرلنديًّا حقق ثروة كبيرة بمسرحياته في أمريكا. يستقبله المجتمع الراقي في لندن بحماس شديد لبعض الوقت، لأنه يكتب مسرحيات عن المجتمع الراقي. ثم يدرك المجتمع الراقي تدريجيًّا أنه أضحوكة في يدي فأر رث من شوارع دبلن، ويأتي النفور. ميكاليس الكلمة الأخيرة في الحقارة والخسة. يُكتشَف أنه معادٍ للإنجليز، وهذا الاكتشاف، بالنسبة للطبقة التي اكتشفته، أسوأ من أقذر جريمة. يُنبَذ، وتُلقَى جثته في صفيحة القمامة.

لكن كان لميكاليس شقة في مايفير[1]، وكان يسير في بوند ستريت في هيئة جنتلمان، لأنه لا يمكن جعل أفضل الخياطين يقاطعون زبائنهم الوضعاء حين يدفع الزبائن.

يدعو كلفورد الشاب ابن الثلاثين في لحظة مشئومة من مسيرة ذلك الشاب. اكن كلفورد لم يتردد. ربما يشارك ميكاليس في آرائه بضعة ملايين من الناس؛ ولأنه غريب يائس، يمتن بلا شك حين يدعى إلى

---

(١) حي يقع في غرب العاصمة البريطانية لندن، قرب الهايد بارك. يعتبر الحي من أرقى أحياء العاصمة.

راجبي في هذه المرحلة، وبقية العالم الراقي يقاطعه. ولأنه ممتن يقوم بدون شك بالدعاية لكلفورد «بشكل جيد» هناك في أمريكا. المجد! يحصل الإنسان على المجد، بصرف النظر عن حقيقته، بالحديث عنه بطريقة مناسبة، وخاصة «هناك». كلفورد رجل واعد؛ وغريزته للشهرة لافتة. في النهاية يقدمه ميكاليس بأنبل صورة في مسرحية، يقدم كلفورد بطلًا شعبيًّا من نوع ما. وجاء رد الفعل، ووجد نفسه أضحوكة.

تندهش كوني بعض الشيء من غريزة كلفورد لأن يُعرَف، بشكل لحوح يفتقر إلى البصيرة: أي يُعرَف في العالم الهلامي الواسع الذي لا يعرفه هو نفسه، ويخشاه بقلق؛ أي يُعرَف كاتبًا، كاتبًا حديثًا من الطراز الأول. تعرف كوني من السير مالكولم العجوز الناجح المتحمس المخادع أن الفنانين يمارسون الدعاية لأنفسهم، ويبذلون أقصى ما في وسعهم للترويج لبضاعتهم. لكن والدها استخدم قنوات جاهزة، استخدمها كل الأعضاء الآخرين في الأكاديمية الملكية الذين باعوا صورهم. بينما اكتشف كلفورد قنوات جديدة للشهرة، من كل الأنواع. جاء إليه كل أنواع الناس في راجبي، بدون أن يهين نفسه تمامًا. لكنه، مصممًا على أن يبني لنفسه نصبًا تذكاريًّا من الشهرة بسرعة، يستخدم أي أنقاض في متناول يده لتنفيذه.

يصل ميكاليس بشكل لائق، في سيارة فاخرة جدًّا، مع سائق وخادم. وكل ما يرتديه من بوند ستريت! لكن عند رؤيته يتردد شيء ما في الروح الريفية لكلفورد. ليس هو بالضبط... ليس بالضبط... في الحقيقة، ليس هو إطلاقًا، حسنًا، ما فعله بمظهره متعمد. وبالنسبة لكلفورد كان هذا

نهائيًّا وكافيًا. لكنه كان مهذَّبًا جدًّا مع الرجل؛ مع النجاح المذهل الذي يبدو عليه. تطوف ربة العهر، كما تُسمَّى، ربة النجاح، مزمجرة وحامية، حول كعبي ميكاليس شبه المتواضع شبه المتحدي، وترعب كلفورد تمامًا: لأنه يريد ممارسة العهر مع ربة النجاح أيضًا، فقط إذا تمكنت منه.

من الواضح أن ميكاليس ليس إنجليزيًّا، رغم الترزية وصناع القبعات والحلاقين وصناع الأحذية في أفضل أحياء لندن. لا، لا، من الواضح أنه ليس إنجليزيًّا: الشكل غير المناسب للوجه المستوي الشاحب وطريقة الوقوف؛ والتظلم بشكل غير مناسب. يحمل ضغينة وتظلمًا: وكان هذا واضحًا لأي جنتلمان إنجليزي أصيل، يزدري ترك شيء مثل هذا يظهر صارخًا في سلوكه. رُكِل ميكاليس المسكين كثيرًا، وكان يشعر بخزي يظهر عليه حتى في ذلك الوقت. شق طريقه بغريزة كاملة ووقاحة أكثر اكتمالًا على المسرح وفي الواجهة، مع مسرحياته. أسر الجمهور. واعتقد أن أيام الركل ولَّتْ. للأسف، لم تولِّ... ولن تولي أبدًا. لأنه، بمعنى ما، يطلب أن يُركَل. إنه متشبث بأن يكون حيث لا ينتمي... بين الطبقات الإنجليزية العليا. وكم كانوا يتمتعون بتنوع الركلات التي يوجهونها له! وكم كان يكرههم.

لكن هذا الشخص الهجين سافر من دبلن مع خادمه وسيارته الفخمة.

تعجب كوني بشيء ما فيه. لا يتظاهر بما ليس فيه، ليست لديه أوهام بشأن نفسه. يتحدث إلى كلفورد بشكل معقول، بإيجاز، وبشكل عملي، عن كل ما يريد كلفورد معرفته. لا يسهب في التفاصيل ولا يتمادى. وكان يعرف أنه يدعى إلى راجبي للاستفادة منه، ومثل رجل أعمال

عجوز داهية غير مبال تقريبًا، أو رجل أعمال كبير، يسمح بطرح الأسئلة عليه، ويرد بدون إسراف في المشاعر.

يقول: «المال! المال غريزة من نوع ما. الحصول على المال من خصائص الطبيعة في الإنسان. ليس شيئًا تفعله. ليس حيلة تلعبها. إنه عرض دائم من أعراض طبيعتك؛ بمجرد أن تبدأ، تحصل على المال، وتستمر؛ إلى حد ما، على ما أعتقد»..

يقول كلفورد: «لكن عليك التحرك لتبدأ».

«أوه، تمامًا! عليك التحرك والدخول. لا يمكن أن تفعل شيئًا إذا بقيت في الخارج. بمجرد أن تفعل ذلك، لا يمكنك القيام بشيء».

يسأله كلفورد: «لكن هل كان يمكنك الحصول على المال إلا بالمسرحيات؟».

«أوه، ربما لا! ربما أكون كاتبًا جيدًا أو ربما أكون كاتبًا سيئًا، لكنني كاتب وكاتب مسرحيات، ويجب أن أكون. لا شك في ذلك».

تسأل كوني: «وهل تعتقد أنك استطعت أن تكون كاتب مسرحيات شعبية؟».

يقول، وهو يلتفت إليها في ومضة مفاجئة: «بالضبط! لا شيء في ذلك! لا شيء في الشعبية. لا شيء في الشيوع، إذا كان ضروريًا. لا شيء حقًا في مسرحياتي يجعلها شعبية. ليست كذلك. إنها مثل الطقس بالضبط... ذلك النوع الذي ينبغي أن يوجد... حاليًا».

يحول عينيه البطيئتين، الواسعتين إلى حد ما، حتى أنه غرق في خيبة

أمل لا يسبر غورها، إلى كوني، فترتجف بعض الشيء. بدا عجوزًا... عجوزًا إلى أقصى حد، مشيدًا من طبقات من خيبة الأمل، مسجلة فيه جيلًا بعد جيل، مثل الطبقات الجيولوجية؛ وفي الوقت ذاته كان بائسًا مثل طفل. منبوذًا بمعنى ما؛ لكن بشجاعة يائسة لوجوده الذي يشبه وجود الفأر.

يقول كلفورد متأملًا: «ما فعلته بحياتك مدهش على الأقل».

يقول ميكاليس، بحدة وبشكل مفاجئ، مع ضحكة غريبة؛ جوفاء ومنتصرة ومريرة: «أنا في الثلاثين... نعم، أنا في الثلاثين!».

تسأل كوني: «وهل أنت وحيد؟».

«ماذا تعنين؟ هل أعيش وحيدًا؟ لدي خادم. يوناني، كما يقول، غير كفء تمامًا. لكنني أبقي عليه. وسأتزوج. أوه، أجل، ينبغي أن أتزوج».

تضحك كوني: «يبدو الأمر وكأنك ستستأصل لوزتيك، هل سيكون مجهدًا؟».

ينظر إليها بإعجاب، ويقول: «حسنًا، ليدي تشاترلي، سيكون إلى حد ما! أرى... اعذريني... أرى أنني لا يمكن أن أتزوج إنجليزية، ولا حتى أيرلندية..»..

يقول كلفورد: «حاول مع أمريكية».

«أوه، أمريكية!» ويضحك ضحكة حزينة. «لا، طلبت من خادمي أن يعثر لي على تركية أو واحدة... واحدة أقرب إلى أن تكون شرقية».

تندهش كوني حقًّا من هذه العينة الغريبة السوداوية من النجاح

الاستثنائي؛ قيل إنه حصل على خمسين ألف دولار من أمريكا وحدها. كان وسيمًا أحيانًا: أحيانًا وهو ينظر إلى جانبيه وإلى أسفل، والضوء يسقط عليه، يتمتع بالجمال الصامت المتين لقناع زنجي منحوت من العاج، بعينيه الواسعتين إلى حد ما، والحاجبين القويين المقوسين بشكل غريب، والفم الثابت المضموم؛ هذا الثبات المؤقت الواضح، ثبات، ثبات أبدي ينشده بوذا، ويعبر عنه الزنوج أحيانًا بدون أن ينشدوه أبدًا؛ شيء قديم، قديم، راضخ في السلالة! دهر من الرضوخ في قَدَر السلالة، بدلًا من مقاومتنا الفردية. والسباحة عبرها، مثل الفئران في نهر الظلام. تشعر كوني بقفزة مفاجئة غريبة من التعاطف معه، قفزة مختلطة بالشفقة، ومشوبة بالنفور، تكاد ترقى إلى الحب. الغريب! الغريب! يصفونه بالوقح! وكم بدا كلفورد أكثر وقاحة وحزمًا! كم بدا أكثر غباء.

يعرف ميكاليس فورًا أنه أثار إعجابها. حول عينيه الواسعتين العسليتين البارزتين قليلًا إليها في نظرة انعزال تام. يقيمها، ويقيم مدى الانطباع الذي تركه فيها. مع الإنجليز لا شيء ينقذه من أن يكون غريبًا أبديًّا، حتى الحب. رغم أن النساء ينجذبن إليه أحيانًا... الإنجليزيات أيضًا.

يعرف موضعه مع كلفورد تمامًا. إنهما كلبان غريبان يود أحدهما النباح في الآخر، لكنهما يبتسمان بدلًا من ذلك، بحكم الضرورة. لكنه ليس متأكدًا من موضعه مع المرأة.

يُقدَّم الفطور في غرف النوم. ولا يظهر كلفورد قبل الغداء أبدًا، وكانت غرفة الطعام كئيبة بعض الشيء. يتساءل ميكاليس، الروح القلقة

المتوترة، بعد تناول القهوة عما يفعله. كان يومًا رائعًا من أيام نوفمبر في راجبي. يتطلع إلى المنتزه السوداوي. يا إلهي! يا له من مكان!

يبعث خادمًا ليسأل إن كان يمكن تقديم أية خدمة لليدي تشاترلي: يفكر في جولة بالسيارة إلى شفيلد[1]. ويأتي الرد، هل لديه مانع من الصعود إلى غرفة جلوس الليدي تشاترلي.

كان لكوني غرفة جلوس في الطابق الثالث، الطابق العلوي من الجزء الأساسي من المنزل. وكانت غرف كلفورد في الطابق الأرضي بالطبع. يشعر ميكاليس بالرضا لدعوته إلى الصعود إلى القاعة الخاصة بالليدي تشاترلي. يتبع الخادم بدون وعي... لم يلحظ أي شيء قط، ولم يكن على اتصال بما يحيط به. في غرفتها يلقي نظرة مبهمة على النسخ الألمانية الرائعة لرينوار وسيزان.

يقول بابتسامته الغريبة، وكأن الابتسامة تؤذيه، كاشفًا عن أسنانه: «المكان رائع جدًّا هنا. من الحكمة أن تكوني هنا في القمة».

تقول: «أجل، أعتقد ذلك».

كانت غرفتها الغرفة الوحيدة المبهجة الحديثة في المنزل، البقعة الوحيدة التي تكشف عن شخصيتها في راجبي. لم يرها كلفورد قط، ولم تدعُ إليها إلا عددًا قليلًا جدًّا.

تجلس هي وميكاليس على جانبي المدفأة ويتحدثان. تسأله عن نفسه وعن أمه وأبيه، وإخوته... وأناس آخرين كانوا دائمًا محل تساؤلها،

---

(١) مدينة جنوب يوركشاير، إنجلترا.

وحين يستيقظ تعاطفها تتخلص تمامًا من المشاعر الطبقية. يتحدث ميكاليس بصراحة عن نفسه، بصراحة تامة، بدون تكلف، كاشفًا ببساطة عن مرارته، وروحه اللامبالية، روح الكلب الضال، وكاشفًا بعد ذلك ومضة الزهو الانتقامي في نجاحه.

تسأله كوني: «لكن لماذا أنت طائر وحيد؟» ومرة أخرى ينظر إليها بعينيه الواسعتين الفاحصتين العسليتين.

يرد: «بعض الطيور على هذه الشاكلة». ثم بلمسة سخرية مألوفة: «لكن انظري هنا، ماذا بشأنك؟ ألسْتِ طائرًا وحيدًا بطريقة ما؟» تفكر كوني لحظات في الأمر، وقد أفزعها بعض الشيء، ثم تقول: «بطريقة ما فقط، ليس تمامًا، مثلك!».

يسأل بابتسامة غريبة، وكأنه يعاني من ألم في أسنانه: «هل أنا طائر وحيد تمامًا؟» كانت ابتسامة غريبة جدًّا، وكانت عيناه حزينتين تمامًا بشكل لا يتغير، أو رزينتين أو محملتين بخيبة الأمل أو الخوف.

تقول، وهي تنظر إليه، وتلهث قليلًا: «لماذا؟ أنت طائر وحيد تمامًا، أليس كذلك؟».

تشعر بجاذبية رهيبة تأتي إليها منه، تفقدها اتزانها تقريبًا.

يقول: «أوه، أنت محقة تمامًا!» محولًا رأسه بعيدًا، وناظرًا إلى جانبيه وإلى أسفل، بذلك الثبات الغريب لسلالة قديمة يصعب وجودها في أيامنا، وهذا حقًّا ما يجعل كوني تفقد قوتها وتراه منفصلًا عنها.

يتطلع إليها بنظرة كاملة ويرى كل شيء، ويسجل كل شيء. وفي

الوقت ذاته يصرخ الرضيع في الليل يصرخ من صدره إلى صدرها، بطريقة تؤثر على رحمها.

يقول باقتضاب: «لطيف جدًّا منك أن تفكري فيَّ».

تقول متسائلة وهي تتنفس بالكاد: «لماذا لا أفكر فيك؟».

يضحك ضحكة ظريفة خافتة وسريعة.

«أوه، لهذه الطريقة!... هل يمكن أن أمسك يدك دقيقة؟» يسأل فجأة، مثبِّتًا عينيه عليها بقوة مخدرة تقريبًا، مرسلًا مناشدة تؤثر عليها في الرحم مباشرة.

تحدق فيه، مذهولة ومصعوقة، يمضي ويركع بجوارها، ويأخذ قدميها في يديه، ويدفس وجهه في حجرها، ويبقى ثابتًا. كانت باهتة ومذهولة تمامًا، تتطلع بدهشة إلى قفاه الناعم، وهي تشعر بوجهه يضغط على وركيها. بكل رعبها الملتهب، لا تستطيع إلا أن تضع يدها، بحنان وعطف، على قفاه المكشوف، وترتجف، بقشعريرة عميقة.

ثم يتطلع إليها بتلك الجاذبية المرعبة في عينيه الواسعتين البراقتين. تعجز تمامًا عن مقاومتها. ومن صدرها يتدفق الرد، توق هائل له؛ لابد أن تعطيه أي شيء، أي شيء.

كان عاشقًا غريبًا ورقيقًا جدًّا، رقيقًا جدًّا مع المرأة، يرتجف بدون ضابط، لكنه في الوقت ذاته منعزل، وواعٍ، واعٍ لكل صوت في الخارج.

بالنسبة لها لا يعني الأمر إلا أن تعطيه نفسها. وفي النهاية لم يعد يرتجف، ويبقى ساكنًا، ساكنًا تمامًا. ثم بأصابع واهية رقيقة تملس على

رأسه الذي يستلقي على صدرها.

حين ينهض، يقبِّل يديها وقدميها، في شبشها السويدي[1]، ويمضي صامتًا إلى نهاية الغرفة، حيث يقف وظهره إليها. يخيم الصمت بضع دقائق. ثم يلتفت ويمضي إليها مرة أخرى وهي تجلس في مكانها القديم بجوار المدفأة.

يقول بهدوء حتمي: «والآن، أفترض أنك ستكرهينني!» فتنظر إليه بسرعة.

وتسأل: «لماذا أكرهك؟».

يقول: «إنهن يفعلن هذا غالبًا»؛ ثم يستدرك: «أعني... يفترض أن تفعل المرأة ذلك».

تقول بامتعاض: «هذه آخر لحظة ينبغي أن أكرهك فيها».

يصرخ بشكل بائس: «أعرف! أعرف! ينبغي أن يكون الأمر كذلك! إنك رائعة جدًّا بالنسبة لي..»..

يدهشها بؤسه. تقول: «ألن تجلس مرة أخرى؟» فيحدق في الباب.

يقول: «السير كلفورد! ألن... ألن يكون...؟» تتوقف لحظة لتفهم، وتقول: «ربما!» ثم تنظر إليه. «لا أريد أن يعرف كلفورد أو حتى يشك. يؤذيه ذلك كثيرًا. لكنني لا أعتقد أنه خطأ، هل تعتقد ذلك؟».

«خطأ! يا إلهي، لا! أنت رائعة جدًّا معي... روعة أحتملها بالكاد».

---

(١) السويدي: نوع من جلد الظباء.

«أعتقد أن يتمتع بنوع من الكرم».

«تجاه من؟»

«لا أعرف بالضبط».

«من الطبيعي ألا تعرفي. أخشى أنك تخلطين بين انعدام الضمير والكرم».

تتوقفْ كوني. هل كانت تخلط بينهما؟ أمر محتمل تمامًا. ويبقى أنْ انعدام الضمير لدى ميكاليس فيه نوع من الفتنة بالنسبة لها. مضى إلى أبعد مدى بينما لم يزحف كلفورد إلا بضع خطوات جبانة. وبهذه الطريقة فتح عالمًا يريد كلفورد فتحه. طرق ووسائل...؟ هل طرق ميكاليس ووسائله أكثر حقارة من طرق كلفورد ووسائله؟ هل الطريقة التي شقها الغريب المسكين ووثب فيها إلى الأمام بنفسه، وعن طريق الأبواب الخلفية أسوأ من طريقة كلفورد في الدعاية لنفسه من أجل الشهرة؟ آلاف الكلاب اللاهثة بألسنتها المتدلية تتبع الربة العاهرة، ربة النجاح. والكلب الذي نالها الكلب الحقيقي بين الكلاب، إذا حكمْتَ بناء على النجاح! يمكن لميكاليس أن يرفع ذيله عاليًا.

والغريب أنه لا يفعل. يعود قرب موعد تناول الشاي بحفنة من البنفسج والسوسن، وتعبير الخزي نفسه. تتساءل كوني أحيانًا إن كان ذلك قناعًا من نوع ما للمعارضة السلمية، لأن التعبير كان ثابتًا جدًّا تقريبًا. هل كان حقًّا كلبًا حزينًا؟

يستمر في حالة الخزي، ويظل شاحبًا طول المساء، رغم أن كلفورد

يشعر خلاله بالوقاحة الداخلية. ولا تشعر بها كوني، ربما لأنها ليست موجهة ضد النساء؛ ضد الرجال فقط، وافتراضاتهم وادعاءاتهم. وكانت تلك الوقاحة الأبدية العميقة في الرفيق الهزيل ما يغضب الرجال من ميكاليس. كان وجوده نفسه إهانة لرجل المجتمع، يخفيها كما يفترض في السلوك القويم.

كانت كوني في حالة حب معه، لكنها تنجح في الجلوس مع ما تطرزه وتترك الرجلين يتحدثان، ولا تبوح بسرها. وبالنسبة لميكاليس، يكون مثاليًّا؛ يكون الرفيق الشاب السوداوي المجامل المتحفظ، بالضبط كما كان في الأمسية السابقة، مبتعدًا ملايين الدرجات عن مضيفيه، يداهنهما باقتضاب بالقدر المطلوب، ولم يقترب منهما لحظة. وتشعر كوني أنه نسي الصباح. لكنه لم ينسَ. يعرف موضعه... في الخارج في المكان القديم، حيث من ولدوا غرباء. لم يأخذ مسألة ممارسة الحب بشكل شخصي. ويعرف أنها لا ينبغي أن تغيره من كلب ضال، يحسده الجميع على طوقه الذهبي، إلى كلب من كلاب المجتمع الراقي.

كانت الحقيقة الأخيرة في قاع روحه أنه غريب، ومعادٍ للمجتمع، وقد قَبِلَ الحقيقة داخليًّا، مهما بدا من بوند ستريت من الخارج. كانت عزلته ضرورية له؛ بالضبط كما كان مظهر الانسجام والاختلاط بالأذكياء ضرورة أيضًا.

لكن الحب العارض، مريحًا وملطفًا، طيب أيضًا، وميكاليس ليس جاحدًا. على العكس، كان ممتنًّا بحرارة وبطريقة مؤثرة من أجل بعض العطف الطبيعي التلقائي: لدرجة البكاء تقريبًا. تحت وجهه الشاحب

الثابت المحبط، روح الطفل تنتحب امتنانًا للمرأة، ويتحرق لإتيانها مرة أخرى؛ بالضبط كما تعرف روحه المنبوذة أن عليه الابتعاد عنها.

يجد فرصة ليخبرها، وهما يشعلان الشموع في القاعة:

«هل يمكن أن آتي؟».

تقول: «سوف آتي إليكَ».

«أوه، حسنًا!».

انتظرها طويلًا... لكنها أتتْ.

كان عشيقًا من النوع الذي يثار إلى درجة الارتجاف، وكان يصل إلى الذروة بسرعة، وينتهي. كان هناك شيء طفولي وهش بشكل غريب بشأن جسده العاري: كما يكون الأطفال عراة. كانت دفاعاته كلها في ذكائه ومكره، غرائز المكر التي يتمتع بها، وحين تُعطَّل مؤقتًا يبدو عاريًا بشكل مزدوج ومثل الطفل، بجسد رقيق غير مكتمل، ويكافح بيأس إلى حد ما.

يوقظ في المرأة نوعًا بريًّا من الشفقة والحنين، ورغبة جسدية برية وجامحة. الرغبة الجسدية التي لم يشبعها فيها؛ يأتي دائمًا وينتهي بسرعة شديدة، ثم يتقلص على صدرها، ويستعيد بعض وقاحته بينما تستلقي ذاهلة ومحبطة وتائهة.

لكنها تتعلم بسرعة أن تمسك به، أن تحتفظ به في داخلها حين تنتهي ذروته. وهناك كان كريمًا وقويًّا بصورة غريبة؛ يبقى صلبًا بداخلها، مستسلمًا لها، وتكون نشيطة... نشيطة بشكل بري وحماسي، واصلة

إلى ذروتها الخاصة. وحين يشعر بنوبة تحقيقها لذروة النشوة من سلبيته الصلبة المنتصبة، يشعر بإحساس غريب من الزهو والنشوة.

تهمس مرتجفة: «آه، يا له من أمر رائع!»، ثم تسكن تمامًا، متشبثة به. ويستلقي هناك في وحدته، لكنه مزهو بشكل ما.

يمكث هذه المرة ثلاثة أيام فقط، وكان بالنسبة لكلفورد كما كان في أول أمسية بالضبط؛ وبالنسبة لكوني أيضًا. لم يتحطم مظهره الخارجي.

يكتب إلى كوني بالنبرة السوداوية الحزينة كما كان دائمًا، أحيانًا بذكاء، ومتأثرًا بعاطفة غريبة غير جنسية. بنوع من العاطفة اليائسة التي بدا أن يشعر بها تجاهها، وبقيت العزلة الجوهرية كما هي. كان يائسًا في أعماقه، وكان يريد أن يكون يائسًا. قرأ في مكان ما «**عبر أمل كبير الأرض**»[1]، وكان تعليقه: «- وأغرق بلا شك كل ما يستحق الامتلاك».

لم تفهمه كوني فهمًا حقيقيًا قط، لكنها أحبته بطريقتها. وشعرت طول الوقت بانعكاس يأسه عليها. ولم تكن تستطيع أن تحب تمامًا، تمامًا وهي يائسة. ولأنه يائس لم يستطع إطلاقًا أن يحب تمامًا.

وهكذا يستمران وقتًا طويلًا، يكتبان، ويلتقيان أحيانًا في لندن. تريد النشوة الجنسية الجسدية التي يمكن أن تحصل عليها معه بنشاطها، وقد انتهى أورجازمه الضئيل. ويريد أن يمنحها لها. وكان ذلك كافيًا لاستمرار الارتباط بينهما.

(١) بالفرنسية في الأصل.

وكان كافيًا لأن يمنحها نوعًا رقيقًا من الثقة بالنفس، شيئًا متهورًا ومتغطرسًا بعض الشيء. كانت ثقة آلية تقريبًا بقدراتها، واستمرت ببهجة عظيمة.

تبتهج بشكل هائل في راجبي. وتستخدم كل بهجتها المثارة ورضاها لتستحث كلفورد، وهكذا كتب أفضل أعماله في ذلك الوقت، وكان سعيدًا تقريبًا بطريقته الغريبة العمياء. جنى حقًّا ثمار الرضا الحسي الذي حصلتْ عليه من السلبية الذكرية لميكاليس، المنتصب بداخلها. لكنه، بالطبع، لم يعرف بالأمر قط، وإن عرف، ما كان ليقول شكرًا!

وحين تنتهي تلك الأيام، أيام بهجتها السعيدة وحافزها، حين تنتهي تمامًا، وتكون مكتئبة ومتوترة، يتوق كلفورد لتلك الأيام مرة أخرى! وربما لو عرف لتمنى أن يجمع بينها وبين ميكاليس مرة أخرى.

***

الفصل الرابع

ينتاب كوني دائمًا هاجس من اليأس بشأن علاقتها بميك، كما يناديه الناس. ومع ذلك بدا أن الرجال الآخرين لا يعنون شيئًا لها. كانت متعلقة بكلفورد. كان يريد الكثير من حياتها وقد منحته إياه. وتريد الكثير من حياة رجل، ولم يمنحها كلفورد إياه؛ لم يستطع. كانت هناك التقلصات العارضة لميكاليس. لكنها في طريقها إلى النهاية كما تعرف من الهاجس. لا يستطيع ميك الاحتفاظ بشيء. كان جزءًا من وجوده أنه لابد أن يحطم أي ارتباط، ويكون مرة أخرى كلبًا حرًّا ومنعزلا ووحيدًا تمامًا. كان ذلك احتياجه الأساسي رغم أنه كان يقول دائمًا: نبذتْني!

يُفترَض أن العالم زاخر بالاحتمالات، لكنها تتقلص إلى احتمالات قليلة جدًّا في معظم الخبرات الشخصية. في البحر الكثير من الأسماك الجيدة... ربما... لكن يبدو أن الكتل الهائلة من الماكريل أو الرنجة، وإن لم تكن أنت نفسك ماكريل أو رنجة من المرجح أن تجد القليل جدًّا من الأسماك الجيدة في البحر.

كان كلفورد يقطع خطوات سريعة إلى الشهرة، وحتى المال. يأتي الناس لرؤيته. لدى كوني بشكل دائم تقريبًا شخص ما في راجبي. لكنهم رنجة إن لم يكونوا ماكريل، مع قرموط أو قنجر[١] عارض.

كان هناك القليل من الرجال المنتظمين، الدائمين؛ رجال كانوا مع كلفورد في كمبردج. هناك تومي دوكز، وقد بقي في الجيش وكان برتبة عميد. قال: «الجيش يترك لي وقتًا للتفكير، ويحميني من مواجهة معركة الحياة».

وهناك تشارلز ماي، أيرلندي، كتب عن النجوم بشكل علمي. وهناك هاموند، كاتب آخر. كانوا جميعًا في عمر كلفورد تقريبًا؛ شباب المثقفين في تلك الأيام. يؤمنون بحياة العقل. ما تفعله بعيدًا عن ذلك شأن خاص، لا يهم كثيرًا. لا أحد يفكر في استجواب شخص آخر عن الساعة التي يدخل فيها الحمام. إنه أمر لا يعني إلا صاحبه.

وهكذا مع معظم مسائل الحياة اليومية... كيف تكسب أموالك، أو إن كنت تحب زوجتكَ، أو إن كانت لديك «علاقات غرامية». كل هذه الأمور لا تعني إلا صاحبها، ومثل الذهاب إلى الحمام، لا تعني أي شخص آخر.

يقول هاموند، وكان طويلًا ونحيلًا له زوجة وطفلان، لكنه أكثر ارتباطًا بالآلة الكاتبة: «بيت القصيد بشأن المسألة الجنسية أنه لا هدف من ورائها. بدقة، لا توجد مشكلة. لا نريد أن نتتبع رجلًا إلى دورة المياه،

---

(١) القنجر الأوروبي: نوع من السمك، أكبر أنواع الأنكليس وموطنه الأصلي شمال شرق الأطلنطي.

فلماذا نريد أن نتتبعه إلى سرير مع امرأة؟ وهنا تكمن المشكلة. لن تكون هناك مشكلة إذا لم نلاحظ أمرًا أكثر من الآخر. إنها مسألة بلا معنى وعبثية تمامًا؛ فضول في غير محله».

«اهدأ، هاموند، اهدأ! لكن لو بدأ شخص ممارسة الحب مع جوليا، تبدأ في الهياج؛ وإذا استمر تصل سريعًا إلى نقطة الغليان».... جوليا زوجة هاموند.

«لماذا بالضبط! وهو ما ينبغي أن يكون إذا بدأ يتبول في ركن قاعة الاستقبال في بيتي. هناك مكان لكل هذه الأشياء».

«هل تعني أنك لن تبالي إذا مارس الحب مع جوليا في مختلى سري؟».

كان تشارلي ماي يسخر قليلًا، لأنه غازل جوليا مغازلة خفيفة جدًّا، وأوقفه هاموند بفظاظة شديدة.

«بالطبع ينبغي أن أبالي. الجنس مسألة خاصة بيني وبين جوليا؛ وبالطبع ينبغي أن أبالي إذا حاول أي شخص أن يتطفل».

يقول تومي دوكس الهزيل المنمش، ويبدو أيرلنديًّا أكثر من ماي، وكان شاحبًا وبدينًا إلى حد ما: «في الواقع، في الواقع يا هاموند، أنك تتمتع بغريزة مِلْكية قوية، وإرادة قوية في تأكيد الذات، وتريد النجاح. منذ كنت في الجيش تحديدًا، خرجت من طريق العالم، والآن أرى أن رغبة الرجال في تأكيد الذات والنجاح قوية بشكل مبالغ فيه. تنامت بشكل هائل. تندفع فرديتنا كلها في هذا الطريق. ويعتقد بالطبع الرجال من

أمثالك أنك تحقق نجاحًا أفضل بمساندة المرأة. وهذا ما يجعلك غيورًا جدًّا. هذا ما يمثله الجنس لك... دينامو حيوي صغير بينك وبين جوليا، لتحقيق النجاح. إذا بدأت الفشل فسوف تبدأ المغازلة، مثل تشارلي، وهو غير ناجح. المتزوجون مثلك أنت وجوليا عليهم ملصقات، مثل حقائب المسافرين. على جوليا ملصق مكتوب عليه **مسز أرنولد ب. هاموند**- بالضبط مثل حقيبة على السكة الحديد تخص شخصًا ما. وعليك ملصق مكتوب عليه **أرنولد ب. هاموند، في رعاية مسز أرنولد ب. هاموند**. أوه، أنت محق تمامًا، أنت محق تمامًا. حياة العقل تحتاج إلى منزل مريح وطهو جيد. أنت محق تمامًا. ويحتاج حتى إلى ذرية. لكن الأمر كله معلق على غريزة النجاح. إنها المحور الذي تدور حوله كل الأشياء».

يبدو هاموند منزعجًا إلى حد ما. كان يزهو إلى حد ما بنزاهته، وبأنه **ليس** انتهازيًّا. ولكنه يريد النجاح.

يقول ماي: «صحيح تمامًا، لا يمكن أن تعيش بدون مال. ينبغي أن تحصل على كمية معينة منه لتعيش وتدبر أمورك... وحتى لتكون حرًّا في أن **تفكر** لابد أن يكون لديك كمية معينة من المال، وإلا أوقفك الجوع. لكن يبدو لي أن عليك أن تبعد الملصقات عن الجنس. إننا أحرار في الحديث إلى أي أحد؛ وبهذه الطريقة لماذا لا يجب أن نكون أحرارًا في ممارسة الحب مع أية امرأة تميل إلينا؟»

يقول كلفورد: «السلتي[1] الداعر يتحدث».

(١) السلت شعوب كانت تسكن أجزاء واسعة من أوروبا وآسيا الصغرى قبل العصر الروماني.

«داعر! حسنًا، لماذا لا-؟ لا يمكن أن أرى أنني أسبب للمرأة أي أذى بالنوم معها أكثر مما أسببه لها بالرقص معها... أو حتى بالحديث معها حول الطقس. إنه مجرد تبادل للأحاسيس بدلًا من الأفكار، وبالتالي لماذا لا؟».

يقول هاموند: «لنكن فاسقين مثل الأرانب!».

«لماذا لا؟ ما الخطأ فيما تفعله الأرانب؟ هل هي أسوأ من الإنسانية الثورية العصابية، المليئة بالكراهية العصبية؟».

يقول هاموند: «لكننا لسنا أرانب».

«بدقة! لي آرائي: لدي حسابات معينة للتأكد من المسائل الفلكية التي تهمني غالبًا أكثر من الحياة أو الموت. قد يعوقني سوء الهضم أحيانًا. وقد يعوقني الجوع بشكل كارثي. وبالطريقة نفسها أعاقني الحرمان من الجنس. ماذا إذًا؟».

يقول هاموند بسخرية: «أظن أن سوء الهضم الجنسي من التخمة أعاقك بشكل أكثر خطورة».

«لا! لا أفرط في تناول الطعام ولا أفرط في ممارسة الجنس. وعلى المرء أن يختار ما يتعلق بتناول كميات كبيرة جدًا من الطعام. لكنك تريد أن تحرمني منه بشكل مطلق».

«لا، إطلاقًا! يمكن أن تتزوج».

«كيف تعرف أنه يمكنني؟ قد لا يتواءم الزواج مع عملية تفكيري. الزواج ربما... وسوف... يسفِّه عمليات تفكيري. لا ألفُّ حقًّا بهذه الطريقة... لأقيد بسلسلة مثل راهب؟ الجميع فاسدون وفاسقون، يا بني.

ينبغي أن أعيش وأحسب حساباتي. أحتاج النساء أحيانًا. أرفض أن أصنع من ذلك جبلًا، وأرفض الإدانة الأخلاقية أو الحظر من أي شخص. أشعر بالعار إذا رأيت امرأة تسير وعليها ملصق يحمل اسمي والعنوان ومحطة القطار، مثل حقيبة الملابس».

لم يتسامح هذان الرجلان بشأن مغازلة جوليا.

يقول دوكس: «إنها فكرة طريفة يا تشارلي، الجنس ليس إلا شكلًا آخر من أشكال الكلام، تمارس الكلمات بدل أن تتفوه بها. أفترض أنها صحيحة تمامًا. أفترض أننا قد نتبادل أحاسيس وعواطف كثيرة مع النساء بقدر ما نتبادل الأفكار بشأن الطقس، وما شابه. قد يكون الجنس نوعًا من المحادثة الجسدية الطبيعية بين رجل وامرأة. لا تتحدث إلى امرأة إلا إذا كانت بينكما أفكار مشتركة: أي لا تتحدث باهتمام. وبالطريقة نفسها، إن لم يكن بينك وبين امرأة عاطفة أو تعاطف مشترك لن تنام معها. لكن إذا كان بينك وبينها..».

يقول ماي: «**ينبغي** أن تنام مع المرأة إذا كان **لديك** عاطفة حقيقية أو تعاطف حقيقي معها. لا يليق إلا أن تذهب معها إلى السرير. بالضبط كما أنه لا يليق إلا أن تتحدث مع شخص إذا كنت مهتمًا بالحديث إليه. لا تضع لسانك باحتشام بين أسنانك وتعض عليه. تتفوه بالضبط بما تريد. وينطبق الكلام نفسه في الاتجاه الآخر».

يقول هاموند: «لا. خطأ. أنت، مثلًا، يا ماي، تبدد نصف قوتك مع النساء. لن تفعل أبدًا ما ينبغي أن تفعله حقًّا، بعقل رائع مثل عقلك. الكثير منه يسير في الاتجاه الآخر».

«ربما يسير... والقليل جدًّا منك يسير في ذلك الاتجاه يا هاموند، يا بني، متزوجًا أو غير متزوج. يمكنك الحفاظ على نقاء عقلك وسلامته، لكنه يجف تمامًا. عقلك النقي يجف مثل أوتار الكمان، مما أراه منه. إنك ببساطة تبخسه قيمته».

ينفجر تومي دوكس في الضحك.

يقول: «افعلها، يا متردد! انظر إليَّ... لا أفعل أي عمل ذهني رفيع ونقي، لا شيء سوى تدوين بعض الأفكار بإيجاز. ومع ذلك لا أتزوج ولا أجري وراء النساء. أعتقد أن تشارلي محق تمامًا؛ إذا أراد أن يجري وراء النساء، فهو حر تمامًا في ألا يجري وراءهن في معظم الأحيان. لكنني لن أمنعه من الجري. وبالنسبة لهاموند، لديه غريزة تملك، وبالتالي من الطبيعي أن الطريق المستقيم والبوابة الضيقة ملائمان له. ترى أنه سيكون أديبًا إنجليزيًّا قبل أن يفعلها. أ ب ت من الرأس إلى أخمص القدمين. ثم هناك أنا. أنا لا شيء. مجرد شخص ضعيف. وما رأيك يا كلفورد. هل تعتقد أن الجنس دينامو يساعد الإنسان على النجاح في العالم؟».

نادرًا ما تحدث كلفورد كثيرًا في تلك الأوقات. لم يتحدث قط بإسهاب؛ لم تكن أفكاره حيوية حقًّا بما يكفي لذلك، كان مشوشًا وعاطفيًّا جدًّا، وبدا خجلًا ومنزعجًا.

يقول: «حسنًا! بما أنني **خارج الحلبة**[1]، أرى أنه ليس لديَّ ما أقوله في هذه المسألة».

(١) خارج الحلبة، بالفرنسية في الأصل.

يقول دوكس: «رأسك ليس **خارج الحلبة** إطلاقًا. تتمتع بحياة عقلية صحيحة وسليمة. وبالتالي لنسمع أفكارك».

يتلعثم كلفورد: «حسنًا، وحتى لو صح ما قلت لا أفترض أن لديَّ أفكارًا كثيرة... أعتقد أنْ تزوجْ وانتهِ من الأمر يمثل تمامًا ما أعتقد. مع أنه أمر عظيم بالطبع بين امرأة ورجل يهتم كل منهما بالآخر».

يقول تومي: «أي أمر عظيم؟».

يقول كلفورد، قلقًا مثل امرأة من هذا الحديث: «أوه... إنه يكمل الحميمية».

«حسنًا، أؤمن أنا وتشارلي أن الجنس نوع من التواصل مثل الكلام. لتبدأ أية امرأة محادثة جنسية معي، ومن الطبيعي أن أذهب معها إلى السرير وأنتهي من الأمر، كله في حينه. ولسوء الحظ لم تقدم أية امرأة على بداية خاصة معي، وبالتالي أذهب إلى السرير وحدي؛ ولست في حال أسوأ نتيجة لذلك... آمل ذلك، على أية حال، كيف أعرف؟ على أية حال، ليست لدي حسابات تتعلق بالنجوم لتُعاق، وليست لدي أعمال خالدة أكتبها. لسْتُ إلا رفيقًا يتوارى في الجيش».

يخيم الصمت. يدخن الرجال الأربعة. وكوني تجلس هناك وتضع غرزة أخرى فيما تخيطه... أجل، تجلس هناك! وعليها أن تجلس صامتة. عليها أن تكون هادئة مثل فأرة، وألا تتدخل في التأملات بالغة الأهمية لهؤلاء السادة ذوي العقول الرفيعة. لكن عليها أن تكون هناك. ما كان يمكن أن يواصلوا بشكل جيد بدونها؛ ما كان لأفكارهم أن تتدفق بمثل

هذه الحرية. في غيابها يكون كلفورد أكثر توترًا وعصبية، وتبرد قدماه أسرع، وما كان للحديث أن يستمر. نجح تومي دوكس بأفضل صورة؛ كان يستلهم وجودها بعض الشيء. ولم تعجب بهاموند حقًّا؛ بدا أنانيًّا جدًّا بطريقة ذهنية. ورغم أنها أعجبت بشيء ما في تشارلز ماي، لكنه بدا مقيتًا ومشوشًا رغم نجومه.

كم من الأمسيات جلست فيها كوني واستمعت إلى تجليات هؤلاء الرجال الأربعة. هؤلاء الأربعة بالإضافة إلى واحد آخر أو اثنين. بدا أنهم لم يزعجوها بعمق مهما تبادلوا من آراء. تحب ما يقولون، وخاصة في وجود تومي. كان مسليًّا. بدل أن يقبلكِ الرجال، ويلمسوكِ بأجسادهم، كشفوا عقولهم لك. تسلية عظيمة! لكن يا لها من عقول باردة!

وكان أيضًا مزعجًا بعض الشيء. كانت تكن احترامًا أكثر لميكاليس وقد صبوا جميعًا عليه هذا الازدراء المدمر، بوصفه طموحًا هجينًا بعض الشيء، ووقحًا غير مثقف من أسوأ نوع. سواء كان هجينًا ووقحًا أو لم يكن، كان يثب إلى استنتاجاته. لم يكن فقط يحاورهم بملايين الكلمات، في موكب حياة العقل.

تعجب كوني تمامًا بحياة العقل، وتجد فيها نشوة عظيمة. لكنها تعتقد أن فيها بعض المبالغة. أحبَّتْ وجودها هناك، بين دخان التبغ في تلك الأمسيات الشهيرة التي تجمع رفاق السوء، كما تسميهم سرًّا لنفسها. كانت تتسلى بشكل غير محدود وتفتخر أيضًا بأن حديثهم لا يمكن أن يدور بدون حضورها الصامت. كانت تكنُّ احترامًا هائلًا للفكر... وقد حاول هؤلاء الرجال على الأقل أن يفكروا بإخلاص. لكن

كانت هناك قطة بشكل ما، لكنها لا تقفز. تحدثوا جميعًا على حد سواء في شيء، لكن بصرف النظر عن طبيعته، بالنسبة لحياتها، شيء لم تبح به. وهو ما لم يوضحه ميك أيضًا.

لكن ميك لا يحاول الآن فعل أي شيء سوى مواصلة حياته، والتواصل مع الآخرين بقدر ما يحاولون التواصل معه. كان معاديًا للمجتمع حقًّا، وهو ما جعل كلفورد ورفاقه ضده. لم يكن كلفورد ورفاقه من أعداء المجتمع؛ يميلون إلى الحفاظ إلى الجنس البشري، أو إلى إرشاده، على أقل تقدير.

كان الحديث رائعًا في أمسية الأحد، حين جنحت المحادثة إلى الحب مرة أخرى.

يقول تومي دوكس: «مباركة الروابط التي تربط قلوبنا في شيء مماثل، أو آخر-».

ويواصل: «أود أن أعرف حقيقة هذه الرابطة... الرابطة التي تربطنا الآن هي النزاع الذهني بيننا. وباستثناء ذلك توجد رابطة واهية لعينة بيننا. نتفرق ويقول كل منا أشياء حاقدة عن الآخرين، مثل كل المثقفين الآخرين الملعونين في العالم. اللعنة على الجميع، بقدر ما يحدث هذا، لأنهم جميعًا يفعلون ذلك. أو نتفرق، ونتستر على الأشياء الحاقدة التي يشعر بها كل منا تجاه الآخر بالتفوه بكلام معسول زائف. من الغريب أن الحياة الذهنية تزدهر وجذورها في الحقد، حقد لا يوصف ولا يسبر غوره. وكانت كذلك دائمًا! انظروا إلى سقراط، في أفلاطون، وزمرته من حوله! الحقد التام فيه كله، مجرد متعة تامة في تمزيق شخص آخر...

بروتاجوراس، أو أي شخص كان! والسيبياديس، وكل الكلاب الصغيرة من الأتباع الآخرين المنخرطين في المعمعة! ينبغي أن أقول إن هذا يجعلني أفضِّل بوذا، الذي يجلس بهدوء تحت شجرة البودهي[1]، أو يسوع الذي يروي لحواريه قصص الأحد البسيطة، بسلام، وبدون ألعاب نارية ذهنية. لا، هناك شيء خطأ في الحياة الذهنية، بشكل جذري. جذورها تمتد في الحقد والحسد، الحسد والحقد. وتعرفون الشجرة من ثمارها».

يعترض كلفورد: «لا أظن أننا جميعًا نحقد بهذا الشكل».

«عزيزي كلفورد، فكِّرْ في الطريقة التي يتحدث بها أحدنا مع الآخرين، كلنا. إنني أسوأ إلى حد ما من أي شخص آخر، أنا نفسي. لأنني أفضل إلى ما لا نهاية الحقد التلقائي على الكلام المعسول الملفق؛ **وهو** الآن سم؛ حين أبدأ الحديث عن روعة الرفيق كلفورد، إلخ، إلخ، يكون كلفورد المسكين مثار شفقة. بالله عليكم جميعًا، قولوا أشياء حاقدة عني، لأعرف أنني أعني شيئًا لكم. لا تقولوا كلامًا معسولًا، وإلا انتهيْتُ».

يقول هاموند: «أوه، لكنني أعتقد أننا نحب بعضنا بصدق».

«أقول لك لابد... إننا نقول أشياء حاقدة لبعضنا، عن بعضنا، من وراء ظهورنا! وأنا الأسوأ».

يقول تشارلي ماي بوقار: «وأظن أنك تخلط بين الحياة الذهنية والنشاط النقدي. أتفق معك، قدم سقراط للنشاط النقدي بداية عظيمة،

(١) شجرة تين مقدسة، ضخمة وقديمة جدًا، في معبد ماهابودهي، وضع بوذا تعاليم البوذية وهو يجلس تحتها.

لكنه فعل أكثر من ذلك. ابتلع الأصدقاء هذا الزهو الغريب تحت تواضعهم المزعوم. كان ذلك كله **بمقتضى السلطة**[1]، وتظاهر الجميع بتواضع جم».

يرفض دوكس الاستدراج للحديث عن سقراط.

يقول هاموند: «هذا صحيح تمامًا، النقد والمعرفة ليسا الشيء ذاته».

«ليسا بالطبع»، يتفق معه بيري، الشاب الأسمر الخجول، الذي دُعِي ليرى دوكس، وكان يقضي الليلة معهم.

يتطلعون إليه جميعًا وكأن الحمار تحدث.

يضحك دوكس: «لم أكن أتحدث عن المعرفة... كنت أتحدث عن الحياة الذهنية. تأتي المعرفة الحقيقية من مجموع الوعي؛ من بطنك وقضيبك بقدر ما تأتي من دماغك وعقلك. يمكن للعقل أن يحلل ويبرر فقط. لندع العقل والمنطق يرفعان البقية، وكل ما يمكن أن يفعلاه أن ينتقدا، ويخلقا حالة من الموات. أقول **كل** ما يمكن أن يفعلاه. إنه أمر بالغ الأهمية. يا إلهي، يحتاج العالم إلى النقد اليوم... النقد حتى الموت. وبالتالي لنعش الحياة الذهنية، ونمجد حقدنا، وننزع المظهر القديم الفاسد. لكنني أذكرك بأن الأمر على النحو التالي: أنت، بينما **تعيش** حياتك، بطريقة ما كلٌّ عضوي مع كل الحياة. لكنك بمجرد أن تبدأ الحياة الذهنية تقطف التفاحة. قطعت الرابطة بين التفاحة والشجرة: الرابطة العضوية. وإذا لم تحصل في حياتك على أي شيء إلا الحياة الذهنية،

---

(١) باللاتينية في الأصل.

تكون أنت نفسك تفاحة مقطوفة... سقطْتَ من الشجرة. وبالتالي حتمية منطقية أن تكون حاقدًا، بالضبط كما أن تلف التفاحة المقطوفة حتمية طبيعية».

تتسع عينا كلفورد: هذا كله موجه إليه. وتضحك كوني في سرها.

يقول هاموند بلهجة لاذعة وفظاظة: «حسنًا، كلنا إذن تفاح مقطوف».

يقول تشارلي: «وهكذا لنصنع من أنفسنا عصير تفاح».

يقول بيري الأسمر: «لكن ما رأيك في البلشفية؟» وكأن كل شيء يقود إلى ذلك.

يصيح تشارلي: «برافو! ما رأيك في البلشفية؟».

يقول دوكس: «هيا! لنستفد أقصى استفادة من البلشفية!».

يقول هاموند، وهو يهز رأسه بجدية: «أخشى أن تكون البلشفية مسألة كبيرة».

يقول تشارلي: «تبدو البلشفية لي مجرد كراهية هائلة لما يسمونه البرجوازية؛ بدون أن يكون هناك تعريف دقيق للبرجوازية. إنها الرأسمالية، ضمن أشياء أخرى. المشاعر والعواطف أيضًا برجوازية وعليك أن تخترع إنسانًا بدونها.

«الفرد إذن، وخاصة **الشخصي**، برجوازي: وبالتالي ينبغي قمعه. ينبغي الانغماس في المسألة الأعظم، المسألة السوفيتية الاشتراكية. وحتى الكائن الحي برجوازي: وهكذا لابد أن المثل الأعلى آلي. الآلة الشيء الوحيد الذي يمثل الوحدة، غير العضوية، وتتكون من أجزاء كثيرة

مختلفة، لكنها جوهرية بالقدر نفسه. وكل إنسان جزء من آلة، والكراهية قوة دافعة للآلة... كراهية البرجوازية. هذه هي البلشفية في رأيي».

يقول تومي: «تمامًا! لكنها أيضًا تبدو لي وصفًا كاملًا لكل المثل الأعلى الصناعي. إنها، بإيجاز شديد، المثل الأعلى لصاحب المصنع؛ باستثناء أنه ينكر أن القوة الدافعة هي الكراهية. إنها الكراهية، بالقدر نفسه تمامًا؛ كراهية الحياة نفسها. انظروا فقط إلى ميدلندز، إن لم تكن موصوفة بوضوح... لكنها كلها جزء من حياة العقل، إنها تطور منطقي».

يقول هاموند: «البلشفية ليست منطقية، إنها ترفض الجزء الأكبر من المسلَّمات».

«إنها يا عزيزي الإنسان تسمح بالمسلَّمة المادية؛ وهذا ما يفعله العقل المحض... حصريًّا».

يقول تشارلي: «غاصت البلشفية إلى الحضيض على الأقل».

«الحضيض! القاع الذي ليس له قاع! سيكون لدى البلاشفة أفضل جيش في العالم في وقت قصير جدًّا، بأفضل المعدات الآلية».

يقول هاموند: «لكن لا يمكن أن يستمر... هذا العمل الكريه. لابد من رد فعل...».

«حسنًا، كنا ننتظر لسنوات... ننتظر أكثر. الكراهية تتنامى مثل أي شيء آخر. إنها نتيجة حتمية لضغط الأفكار لتحيا، لضغط أعمق غرائزنا؛ نضغط أعمق مشاعرنا طبقًا لأفكار معينة. نتحرك بوصفة، مثل الآلة. يتظاهر العقل المنطقي بأنه الحاكم بأمره، ويتحول الأمر إلى محض

كراهية. كلنا بلاشفة، لكننا منافقون. الروس بلاشفة بدون نفاق».

يقول هاموند: «لكن هناك طرقًا أخرى كثيرة غير الطريقة السوفيتية. البلاشفة ليسوا أذكياء حقًّا».

«ليسوا بالطبع. لكن من الذكاء أحيانًا أن تكون غبيًّا: إذا كنت لا تريد أن تصنع نهايتك. شخصيًّا أعتبر البلشفية غبية؛ لكنني بهذه الصورة أعتبر حياتنا الاجتماعية في الغرب غبية. وبهذه الصورة أعتبر حتى حياتنا الذهنية، وهي تحظى بشهرة واسعة، غبية. إننا جميعًا باردون مثل المتخلفين عقليًّا، وكلنا مجردون من المشاعر مثل البلهاء. كلنا بلاشفة، لكننا نعطيها اسمًا آخر. نظن أننا آلهة... بشر مثل الآلهة! مثل البلشفية بالضبط. على المرء أن يكون إنسانيًّا، له قلب وقضيب إذا كان لابد أن يهرب من أن يكون إلهًا أو بلشفيًّا... لأنهما الشيء نفسه: إنهما رائعان بشكل لا يصدق».

ومن الصمت المستهجن يأتي السؤال القلق الذي يطرحه بيري:

«تؤمن بالحب إذًا يا تومي، أليس كذلك؟».

يقول تومي: «أيها الفتى الجميل! لا، يا ملاكي، بالتأكيد، لا! الحب تصرف آخر من التصرفات الغبية الشائعة اليوم. الرفاق من ذوي الخصور المتمايلة يضاجعون فتيات الجاز الضئيلات ذوات الأفخاذ الصغيرة التي تشبه أفخاذ الفتيان، مثل زراري الياقة! هل تعني ذلك النوع من الحب؟ أو الملكية المشتركة، لتحقيق النجاح، من نوع حب الزوج والزوجة؟ لا، يا رفيقي الرائع، لا أؤمن به إطلاقًا!».

«لكن هل تؤمن بشيء؟»

«أنا؟ أوه، أؤمن فكريًّا بأن يكون لي قلب طيب، وقضيب مرح، وذكاء حيوي، وشجاعة أن أقول ’خرة!‘ أمام سيدة».

يقول بيري: «حسنًا، هل حصلت على هذا كله؟».

يصيح تومي ضاحكًا. «فتاي الملائكي! لو حصلْتُ فقط! لو حصلت فقط! لو حصلت فقط! لا؛ قلبي خَدِرٌ مثل البطاطس، وقضيبي متدلٍّ ولا يرفع رأسه قط، وأجرؤ على التخلص منه ولا أقول ’خرة‘ أمام أمي أو خالتي... أذكرك بأنهما سيدتان حقيقيتان؛ ولسْتُ ذكيًّا حقًّا، لسْتُ إلا ’سجين مصحة عقلية مدى الحياة‘. من المدهش أن أكون ذكيًّا: ثم على المرء أن يكون حيًّا في كل الأجزاء التي ذكرتْ وتلك التي لا يمكن ذكرها. والقضيب يرفع رأسه ويقول: ’كيف حالك؟‘- لأي شخص يتمتع بذكاء حقيقي. قال رينوار إنه رسم صورة بقضيبه... ورسم صورًا جميلة جدًّا! أتمنى لو فعلْتُ شيئًا ما بقضيبي. يا إلهي! حين يمكن للمرء أن يتحدث فقط! يضاف عذاب آخر إلى الجحيم! وقد بدأها سقراط».

تقول كوني، رافعة رأسها ومتحدثة في النهاية: «في العالم نساء رائعات».

يستاء الرجال... كان عليها أن تتظاهر بأنها لا تسمع شيئًا. يكرهون اعترافها بأنها منتبهة تمامًا لهذا الحديث.

«يا إلهي- إن لم يكنَّ رائعات بالنسبة لي
لماذا أهتم بأنهن رائعات؟».

«لا، إنه يأس! أنا ببساطة لا يمكن أن أهتزَّ بانسجام مع امرأة. لا توجد امرأة يمكن أن أريدها حقًّا حين أواجهها، ولن أبدأ إرغام نفسي على ذلك... يا إلهي، لا! سأبقى كما أنا، وأعيش الحياة الذهنية. إنه الشيء الصادق الوحيد الذي يمكن أن أفعله. يمكن أن أكون سعيدًا تمامًا **بالحديث** إلى النساء؛ لكنه حديث نقي تمامًا، نقي بشكل يبعث على اليأس. نقي بشكل يبعث على اليأس! ما رأيك، يا هيلدبرند[1]، يا دجاجتي؟»

يقول بيري: «أقل تعقيدًا بكثير لو بقي المرء نقيًّا».

«أجل، الحياة بسيطة تمامًا».



(١) شخصية من الأساطير الجرمانية، ومن الواضح أنه يستخدم هنا للسخرية.

الفصل الخامس

في صباح جليدي لم تشرق فيه شمس فبراير، يمضي كلفورد وكوني في نزهة عبر المنتزه إلى الخميلة. كلفورد يتحرك في كرسيه المتحرك، وكوني تسير بجواره.

مازال الهواء القاسي كبريتيًّا، لكنهما اعتادا عليه. في الأفق القريب يمضي الضباب، يبرق بالصقيع والدخان، وفي القمة تمتد السماء الزرقاء الصغيرة؛ وتبدو وكأنها في داخل سياج، داخله دائمًا. الحياة دائمًا، حلمًا أو جنونًا، داخل سياج.

تسعل الأغنام في العشب الجاف الذابل في المنتزه، حيث يتراكم الجليد مزرقًّا في تجاويف الروابي. عبر المنتزه يمتد طريق إلى بوابة الخميلة، شريط قرنفلي رائع. وقد فرشه كلفورد حديثًا بحصى ناعم من رصيف المنجم. حين تحترق الصخور ونفايات العالم السفلي وينبعث كبريتها، تتحول إلى القرنفلي الفاتح، بلون الجمبري في الأيام الجافة، المعتمة، وبلون سرطان البحر في الأيام الممطرة. وهو الآن بلون الجمبري الباهت، مع الجليد الأبيض المزرق. وكانت كوني تبتهج دائمًا

بهذه الأرضية القرنفلية الفاتحة الناعمة تحت الأقدام. لا تجلب الرياح السيئة خيرًا لأحد.

يوجه كلفورد كرسيه بحذر من القاعة إلى منحدر الربوة، ويد كوني على الكرسي. في الواجهة تمتد الخميلة، قرب أجمة البندق، وفي الخلف البلوط بكثافته الأرجوانية. من حافة الخميلة تقفز الأرانب وتقضم. تحلق الغربان فجأة في سرب أسود، وتمضي ببطء عبر الأفق الضئيل.

تفتح كوني بوابة الخميلة، ويمر منها كلفورد ببطء إلى الممر الواسع الذي يمتد بين أجمات البندق النظيفة. إنها بقايا الغابة الكبيرة التي كان روبن هود يصطاد فيها، وكان هذا الممر طريقًا رئيسًا قديمًا يمر عبر البلدة. لكنه الآن، بالطبع، مجرد ممر في الخميلة الخاصة. انحرفت الطريق من منسفيلد[1] إلى الشمال.

كان كل ما في الخميلة ساكنًا، الأوراق القديمة على الأرضية تحفظ الجليد تحتها. يصيح أبو زريق بصوت أجش، ويرفرف عدد كبير من الطيور الصغيرة. لكن ليست هناك طرائد؛ وليست هناك دراريج[2]. قُتِلتْ في أثناء الحرب، وتُرِكت الخميلة بدون حماية، حتى حصل كلفورد على حارس لطرائده مرة أخرى.

كان كلفورد يحب الخميلة؛ يحب أشجار البلوط القديمة. يشعر أنها وصلته عبر الأجيال. يريد الحفاظ عليها. يريد ألا ينتهك هذا المكان، يريد أن ينفصل عن العالم.

---

(١) منسفيلد: بلدة تجارية في نوتنجهامشاير، شرق ميدلندز، إنجلترا.

(٢) الدُّرّاج: طَائِرٌ شَبِيهٌ بِالحَجَلِ. يطلق على الذكر والأنثى، وواحدته دراجة والجمع دراريج للذكر والأنثى.

يتحرك الكرسي ببطء إلى أعلى المنحدر، متأرجحًا ومرتجًّا على الكتل الترابية المتجمدة. وفجأة تظهر على اليسار بقعة منزوعة الأشجار لا يوجد فيها إلا كتلة متشابكة من السرخس الميت، شتلة نحيلة وشوكية تميل هنا وهناك، وبقايا جذوع أشجار منشورة بلا حياة كما تكشف قممها وجذورها البشعة. وبقع من السواد حرق فيها الحطابون الأغصان المقطوعة والقمامة.

هذا المكان أحد الأماكن التي قطعها السير جيفري في أثناء الحرب للحصول على خشب للخندق. كانت الربوة التي ترتفع برفق على يمين الممر، جرداء كلها ومهملة بشكل غريب. وصارت قمة الربوة، حيث كان يقف البلوط، عارية؛ ومن هناك يمكن رؤية الأشجار حتى قضبان المنجم، والأعمال الجديدة في ستاكس جيت. تقف كوني وتنظر، في العزلة التامة للخميلة خرقٌ. تنكشف للعالم. لكن كوني لا تخبر كلفورد.

هذا المكان الأجرد يجعل كلفورد دائمًا في حالة غضب شديد. خاض الحرب، ورأى ما تعنيه. لكنه لم يغضب غضبًا حقيقيًّا حتى رأى هذه الربوة العارية. يريد زراعتها مرة أخرى. وهو ما جعله يكره السير جيفري.

يجلس كلفورد بوجه ثابت والكرسي يصعد ببطء. وحين يصلان إلى القمة يتوقف؛ ما كان ليخاطر بنزول المنحدر الطويل والوعر جدًّا. يجلس ويتطلع إلى الامتداد المخضر للممر الهابط، طريق نظيف خلال السرخس والبلوط. ينحرف عند سفح الربوة ويختفي؛ لكن المنحنى جميل وسهل، لفرسان على صهوات الخيول وسيدات على خيول سهلة القياد.

يقول كلفورد لكوني وهو يجلس في الأشعة الخافتة لشمس فبراير: «أعتبر هذا قلب إنجلترا حقًّا».

تقول وهي تجلس في فستانها الأزرق المحبوك على جذع بجانب الممر: «حقًّا؟».

«حقًّا! إنه إنجلترا القديمة، قلبها؛ وأنوي أن أحافظ عليه سليمًا».

تقول وهي تسمع صفارة الساعة الحادية عشرة في منجم ستاكس جيت: »أوه، أجل!» وكان كلفورد معتادًا على الصوت فلم يلاحظه.

يقول كلفورد: «أريد هذه الخميلة كاملة... لا يمسها أحد. لا أريد أن ينتهكها أحد».

هناك بعض الشفقة. كان للخميلة بعض سحر إنجلترا البرية القديمة. لكن ما قطعه منها السير جيفري في أثناء الحرب أصابها بصفعة قوية. كم من الأشجار، بأغصانها التي لا حصر لها، أغصانها المجعدة المرتفعة في السماء، وجذوعها الرمادية القوية التي ترتفع من السرخس البني! كم من الطيور رفرفتْ بأمان بينها! وذات يوم كان هناك غزالة ورماة أسهم ورهبان يمتطون الحمير. المكان زاخر بالذكريات، ومازال زاخرًا بالذكريات.

يجلس كلفورد في الشمس الشاحبة، والضوء على شعره الناعم الأشقر، ووجه الممتلئ المحمر يستحيل فهمه.

يقول: «حين آتي إلى هنا، أنشغل أكثر بأنني ليس لي ابن».

تقول كوني برقة: «لكن الخميلة أقدم من أسرتك».

يقول كلفورد: «تمامًا! لكننا حافظنا عليها. بدوننا كانت تنتهي...

تنتهي بالفعل، مثل بقية الغابة. على المرء أن يحافظ على بعض إنجلترا القديمة!»

تقول كوني: «على المرء؟ إذا كان لابد من الحفاظ عليها، والحفاظ عليها أمام إنجلترا الجديدة؟ أعرف أن الأمر محزن».

«إذا لم يتم الحفاظ على بعض إنجلترا القديمة، فلن تكون هناك إنجلترا جديدة إطلاقًا. ونحن الذين لدينا هذا النوع من المِلْكية، والإحساس بها، **علينا** أن نحافظ عليها».

وكانت هناك وقفة حزينة.

تقول كوني: «أجل، لبعض الوقت».

«لبعض الوقت! هذا كل ما يمكن أن نفعله. لا يمكن أن نفعل إلا ما يخصنا. أشعر أن كل إنسان من عائلتي فعل ما يخصه هنا، منذ امتلكنا المكان. قد يقاوم المرء العرف، لكن ينبغي عليه أن يحافظ على التراث».
وكانت هناك وقفة مرة أخرى.

تسأل كوني: «أي تراث؟».

«تراث إنجلترا! تراث هذا المكان!».

تقول ببطء: «أجل».

يقول: «وهذا ما يجعل وجود ابن يساعد؛ ابن واحد يكون مجرد حلقة في سلسلة».

لم تكن كوني حريصة على السلاسل، لكنها لا تقول شيئًا. تفكر في البرود الغريب لرغبته في ابن.

تقول: «آسفة لأنه لا يمكن أن يكون لنا ابن».

ينظر إليها بثبات بعينيه الواسعتين الزرقاوين الشاحبتين.

يقول: «شيء رائع أن يكون لك طفل من رجل آخر. إذا ربيناه في راجبي، فسوف ينتمي لنا وللمكان. لا أفكر كثيرًا في الأبوة. إذا كان لنا ابن نربيه، فسيكون ابننا، وسوف يواصل. ألا تعتقدين أن الأمر جدير بالتفكير؟».

أخيرًا تنظر كوني إليه. الطفل، طفلها مجرد «شيء» بالنسبة له. شيء... شيء... شيء!

تسأل: «لكن ماذا عن الرجل الآخر؟».

«هل يهم كثيرًا؟ هل هذه الأشياء تؤثر فينا حقًّا بعمق؟... كان لك ذلك الحبيب في ألمانيا... ماذا عنه الآن؟ لا شيء تقريبًا. يبدو لي أن تلك الأفعال الصغيرة والروابط الصغيرة التي نقوم بها في حياتنا ليست بالغة الأهمية. إنها تزول، وأين هي؟ أين... أين ثلوج العام الماضي؟... ما يستمر في حياتنا هو المهم؛ حياتي تهمني، في استمرارها الطويل وتطورها. لكن ما أهمية الارتباطات العارضة؟ وخاصة الارتباطات الجنسية العارضة! إذا لم يبالغ الناس فيها بشكل يدعو للسخرية، تمر مثل تزاوج الطيور. وهكذا ينبغي أن تكون. ما المهم؟ الرفقة طويلة المدى هي ما يهم. الحياة معًا من يوم لآخر، وليس النوم معًا مرة أو اثنتين. أنت وأنا متزوجان مهما يحدث لنا. اعتاد كل منا على الآخر. والعادة، في رأيي، أكثر حيوية من الإثارة العارضة. الشيء الطويل البطيء المستمر... هذا

ما نعيش به... لا التقلص العارض من أي نوع. رويدًا رويدًا بالعيش معًا يدخل الشخصان في نوع من الانسجام، يتذبذبان معًا بشكل بالغ التعقيد. هذا هو الحقيقي للزواج، لا الجنس؛ على الأقل ليست الوظيفة البسيطة للجنس. أنت وأنا متضافران بالزواج. إذا تمسكنا بأننا نستطيع ترتيب هذا الفعل الجنسي، كما نرتب أمر الذهاب إلى طبيب الأسنان؛ حيث إن القدر قال لنا كش ملك جسديًّا».

تجلس كوني وتستمع بنوع من الدهشة، ونوع من الخوف. لا تعرف إن كان محقًّا أم لا. تقول لنفسها هناك ميكاليس، الذي تحبه. لكن حبها مجرد شرود عن زواجها من كلفورد؛ الاعتياد الطويل البطيء لحميمية تكونت خلال سنين المعاناة والصبر. ربما تحتاج الروح الإنسانية إلى الشرود، ولا ينبغي إنكار ذلك. لكن مشكلة الشرود الرجوع إلى البيت مرة أخرى.

تسأل: «ولا يعنيكِ طفل من أحمل؟».

«لماذا، يا كوني، عليَّ أن أثق في غريزتك الطبيعية في اللياقة والانتقاء. لن تسمحي لرجل سيئ بلمسك».

تفكر في ميكاليس! يمثل تمامًا فكرة كلفورد عن الرفيق السيئ.

تقول: «لكن قد تختلف مشاعر الرجال والنساء بشأن الرفيق السيئ».

يرد: «لا، تهتمين بي. ولا أعتقد أنك قد تهتمين برجل بغيض تمامًا بالنسبة لي. لن يسمح لكِ إيقاعكِ».

تصمت. قد يكون المنطق غير قابل للرد لأنه خطأ تمامًا.

تقول، وهي ترمقه خلسة تقريبًا: «وتتوقع أن أخبرك؟».

«لا، إطلاقًا، أفضِّل ألا أعرف... لكنك تتفقين معي بأن الشيء الجنسي العارض بلا قيمة مقارنة بالحياة الطويلة التي عشناها معًا، أليس كذلك؟ ألا تعتقدين أنه يمكن إخضاع الشيء الجنسي لضرورات الحياة الطويلة فقط؟ أن تستخدميه، لأننا نضطر إليه؟ رغم كل شيء، هل هذه الإثارات المؤقتة مهمة؟ أليست كل مشكلة الحياة البناء البطيء لشخصية متكاملة عبر السنوات؟ العيش حياة متكاملة؟ لا جدوى من حياة محطمة. إذا كان عدم ممارسة الجنس يحطمك، هيا، ولتكن لك علاقة حب. إذا كان عدم وجود طفل يحطمك، فليكن لك طفل إذا استطعتِ. لكن افعلي هذا فقط لتكون لك حياة متكاملة، تخلق انسجامًا طويل المدى. وأنتِ وأنا يمكننا القيام بذلك معًا... ألا تعتقدين ذلك؟ إذا تكيفنا مع الضرورات، وفي الوقت ذاته حولنا التكيف معًا إلى قطعة من حياتنا المستقرة. ألا تتفقين معي؟».

تربك كلماته كوني قليلًا. تعرف أنه محق نظريًّا. لكن حين مسَّتْ حياتها المستقرة معه... تتردد. هل قدرها أن تمضي وتندمج في حياته بقية حياتها؟ ألا يوجد شيء آخر؟

هل الأمر كذلك بالضبط؟ عليها أن تقنع بنسج حياة مستقرة معه، الكل نسيج واحد، لكن ربما يوشَّى بزهرة عارضة من زهور المغامرة. لكن كيف يمكن معرفة ما تشعر به في السنة التالية؟ كيف يمكن معرفته؟ كيف يمكن أن تقول نعم؟ لسنوات وسنوت؟ نعم الصغيرة، تنطلق مع النَّفَس! لماذا ينبغي أن تتقيد بتلك الكلمة الفراشة؟ بالطبع ينبغي أن

ترفرف بعيدًا وتمضي، وتتبعها نعم أخرى ولا أخرى مرات ومرات! مثل شرود الفراشات.

«أعتقد أنك محق يا كلفورد. وأتفق معك بقدر ما أرى. فقط قد تنقلب الحياة إلى وجه جديد في كل شيء».

«لكن حتى تنقلب الحياة إلى وجه جديد في كل شيء، هل تتفقين معي؟».

«أوه، أجل! أعتقد أنني أتفق معك حقًّا».

تشاهد سبيلية[١] سمراء تجري من ممر جانبي، تنظر إليهما بأنف مرفوع، وتنبح نباحًا ضعيفًا ورقيقًا. يسرع رجل ببندقية برشاقة ومرونة خلف الكلبة، مواجهًا طريقهما كما لو كان على وشك أن يهاجمهما؛ ثم يتوقف بدلا من ذلك، ويحيي، ثم يستدير هابطًا الربوة. لم يكن إلا حارس الطرائد الجديد، لكنه أرعب كوني، بدا أنه يظهر بتهديد سريع. هكذا رأته، مثل اندفاع مفاجئ لتهديد من حيث لا تدري.

كان الرجل يرتدي ملابس مخملية خضراء غامقة وجرموقًا[٢]... النمط القديم، بوجه أحمر وشارب أحمر وعينين متباعدتين. يمضي بسرعة هابطًا الربوة.

ينادي كلفورد: «مِلورز!».

يستدير الرجل برفق، ويحيي بإيماءة سريعة، تحية جندي!

---

(١) سلالة من الكلاب بفراء حريري طويل وأذنين متدليتين.

(٢) جرموق والجمع جراميق: ما يلبس فوق الحذاء للدفء أو لحمايته من البلل والوحل.

يقول كلفورد: «هل لك أن تلف الكرسي وتحركه؟ هذا يجعل الأمر أسهل».

يعلق الرجل بندقيته على كتفه على الفور، ويتقدم بالحركات السريعة المرنة الغريبة نفسها، وكأنه يحرص على أن يكون غير مرئي. كان معتدل الطول والنحافة، وصامتًا. لا ينظر إلى كوني إطلاقًا، ينظر إلى الكرسي فقط.

«كوني، هذا حارس الطرائد الجديد، ملورز. ملورز، ألم تتحدث إلى السيدة من قبل؟».

ينطق بالكلمات الجاهزة الحيادية: «لا يا سيدي!».

يرفع الرجل قبعته وهو يقف، كاشفًا عن شعره الكثيف، الأشقر تقريبًا. يحدق مباشرة في عيني كوني، نظرة كاملة تخلو من الخوف والدفء الإنساني، وكأنه يريد أن يعرف شكلها. تشعر بالخجل. تحني رأسها له بخجل، وينقل قبعته إلى يده اليسرى وينحني لها انحناءة خفيفة، مثل جنتلمان؛ ولا ينطق بكلمة. يبقى ساكنًا لحظة، وقبعته في يده.

تقولُ كوني له: «لكنك هنا منذ بعض الوقت، أليس كذلك؟».

«ثمانية أشهر يا مدام... سموك!» صحَّح نفسه بهدوء.

«وهل تحب المكان؟».

تنظر في عينيه. تضيق عيناه قليلًا بسخرية، وربما بوقاحة.

«لماذا، أجل، شكرًا سموك! نشأْتُ هنا..». وينحني انحناءة أخرى خفيفة، ويستدير، ويضع قبعته على رأسه، ويخطو ليمسك بالكرسي.

يتحول صوته في الكلمات الأخيرة إلى لهجة ثقيلة عريضة... ربما أيضًا استهزاء، لأنه لم يكن هناك أي أثر لهذه اللهجة من قبل. قد يكون أقرب إلى جنتلمان. على أية حال، كان رجلًا غريبًا وذكيًّا ومتميزًا، وحيدًا لكنه واثق من نفسه.

يحرك كلفور المحرك الصغير، ويحرك الرجل الكرسي بحذر، ويجعل مقدمته إلى المنحدر الذي ينحني انحناءة خفيفة إلى أجمة البندق المظلمة.

يسأل الرجل: «هل هذا كل ما تريده يا سير كلفورد؟».

«لا، الأفضل أن تبقى معنا فربما يغرز. فالمحرك ليس قويًّا بما يكفي لصعود الربوة». ينظر الرجل حوله بحثًا عن كلبته... نظرة عميقة. تتطلع إليه السبيلية وتحرك ذيلها حركة خفيفة. تظهر في عينيه ابتسامة صغيرة، تسخر منها أو تغيظها، للحظة، لكنها ابتسامة لطيفة، ثم تتلاشى، ويخلو وجهه من التعبير. يمضون إلى أسفل المنحدر بسرعة إلى حد ما، الرجل بيده على مسند الكرسي، ليتحرك بثبات. يبدو مثل جندي حر لا خادمًا. فيه شيء ما يذكِّر كوني بتومي دوكس.

حين وصلوا إلى أجمة البندق، تجري كوني فجأة إلى الأمام، وتفتح البوابة التي تؤدي إلى المنتزه. وهي تقف وتمسك بها، ينظر إليها الرجلان نظرة عابرة، كلفورد بنظرة انتقادية، والرجل الآخر بدهشة باردة غريبة، يريد ببرود أن يرى شكلها. ترى في عينيه الزرقاوين الباردتين نظرة معاناة وعزلة، لكن فيهما بعض الدفء. لكن لماذا كان متحفظًا بهذا الشكل وبعيدًا؟

يوقف كلفورد الكرسي، بمجرد المرور من البوابة، ويسرع الرجل، بدماثة، ليغلقها.

يسأل كلفورد بصوته العذب الهادئ، وقد كشف عن استيائه: «لماذا جريتِ لتفتحي؟ كان على ملورز أن يفعل ذلك».

تقول كوني: «اعتقدْتُ أنك ستنطلق إلى الأمام مباشرة».

يقول كلفورد: «وأتركك تجري وراءنا؟».

«أوه، حسنًا، أحب أن أجري أحيانًا!».

يمسك ملورز الكرسي مرة أخرى، وهو يبدو غير مهتم تمامًا، لكن كوني تشعر أنه لاحظ كل شيء. وهو يدفع الكرسي إلى المرتفع المنحدر للربوة في المنتزه، يتنفس بسرعة، من خلال شفتيه المتباعدتين. كان نحيلًا حقًّا. ومفعمًا بحيوية غريبة، لكنه نحيل بعض الشيء وهادئ. هذا ما شعرت به غريزتها الأنثوية.

تتراجع كوني، وتترك الكرسي يتقدم. يصير اليوم رماديًّا؛ تقترب السماء الصغيرة الزرقاء التي تتأهب منخفضة على حلقات دائرية من الضباب مرة أخرى، تظلم، ويشتد البرد. كانت السماء على وشك أن تمطر ثلجًا. كل شيء رمادي، كل شيء رمادي! بدا العالم متهالكًا.

ينتظر الكرسي على قمة الدرب القرنفلي. يتلفَّت كلفورد بحثًا عن كوني.

يقول: «لسْتِ مرهقة، هل أنت مرهقة؟».

تقول: «أوه، لا!».

لكنها كانت مرهقة. حنين غريب مرهِق، وقد بدأ الشعور بالاستياء يتسلل إليها. لا يلاحظ كلفورد: لم يكن يدرك هذه الأمور. لكن الغريب يعرف. بالنسبة لكوني، بدا كل ما في عالمها وحياتها ممزقًا، وكان استياؤها أقدم من التلال.

يصلون إلى المنزل، ويستديرون إلى الخلف، حيث لا يوجد دَرَج. ينجح كلفورد في الانتقال إلى الكرسي المتحرك المنخفض الذي يستخدمه في المنزل؛ كان قويًّا جدًّا ورشيقًا بذراعيه. ثم تكفلت كوني بعبء رفع ساقيه الميتتين بعده.

يشاهد الحارس، وكان ينتظر بانتباه ليؤذن له بالانصراف، كل شيء عن قرب، ولا يفوته شيء. يشحب، بنوع من الخوف، حين يرى كوني ترفع الساقين الخاملتين بيديها إلى الكرسي الآخر، وقد استدار كلفورد وهي تفعل ذلك. كان مرعوبًا.

يقول كلفورد بشكل عارض وهو يبدأ تحريك الكرسي عبر الممر إلى أجنحة الخدم: «شكرًا يا ملورز على المساعدة».

ينطلق الصوت الحيادي، وكأنه في حلم: «هل هناك شيء آخر يا سيدي؟».

«لا شيء، صباح الخير!».

«صباح الخير سيدي».

تقول كوني، متطلعة إلى الحارس خارج الباب: «صباح الخير! لطيف منك أن تدفع الكرسي إلى أعلى التل... آمل أنه لم يكن ثقيلًا عليك».

تأتي عيناه في عينيها في لحظة، وكأنه استيقظ. كان يشعر بها.

يقول بسرعة: «أوه لا، لم يكن ثقيلًا!» ثم يهبط صوته مرة أخرى إلى الصوت العريض للعامية: «صباح الخير لك سموك!».

تسأل كوني على الغداء: «مَنْ حارس طرائدك؟».

يقول كلفورد: «ملورز! قد رأيتِه».

«أجل، لكن من أين أتى؟».

«ليس من أي مكان! إنه صبي من تفرشال... أعتقد أنه ابن عامل منجم».

«وهل كان عامل منجم؟».

«أعتقد أنه كان حدادًا على رصيف المنجم: حدادًا على السطح. لكنه كان حارسًا هنا قبل الحرب بعامين... قبل أن يجند. كان رأي أبي فيه جيدًا دائمًا، وبالتالي حين عاد، وذهب إلى المنجم من أجل وظيفة حداد، أعدْتُه إلى هنا حارسًا. سعدْتُ حقًّا بالحصول عليه... من المستحيل تقريبًا العثور على رجل جيد هنا ليكون حارس طرائد... ويحتاج الأمر إلى رجل يعرف الناس».

«أليس متزوجًا؟».

«كان. لكن زوجته رحلتْ مع... مع رجال مختلفين... لكنها أخيرًا مع عامل منجم في ستاكس جيت، وأعتقد أنها تعيش هناك مستقرة».

«هذا الرجل وحيد إذًا؟».

«تقريبًا! له أم في القرية... وطفل، على ما أعتقد».

يتطلع كلفورد إلى كوني، بعينيه الشاحبتين الجاحظتين قليلًا، ويبدو فيهما بعض الغموض. بدا يقظًا في الواجهة، لكن الخلفية مثل طقس ميدلندز، ضبابية، غيمة مدخنة. وبدا أن الضباب يزحف إلى الأمام. وبالتالي حين يحدق في كوني بطريقته الخاصة، مقدمًا لها معلوماته الخاصة الدقيقة، تشعر بأن كل خلفية ذهنية ممتلئة بالغيم، بالعدم. وهو ما أصابها بالرعب. وبدا باردًا، لدرجة البلاهة تقريبًا.

وبشكل باهت تدرك أحد القوانين العظيمة للروح الإنسانية: حين تستقبل الروح العاطفية صدمة جارحة، لا تقتل الجسد، يبدو أن الروح تتعافى والجسد يتعافى. لكنه ليس سوى المظهر. إنها حقًّا آلية العادة المستأنفة. ببطء، ببطء يبدأ الإحساس بجرح الروح، مثل كدمة، تعمِّق ببطء فقط ألمها المرعب، حتى تملأ النَّفْس كلها. وحين نعتقد أننا تعافينا ونسينا، يكون علينا مواجهة تلك الآثار المتبقية المرعبة في أسوأ صورها.

وهو ما كان مع كلفورد. بمجرد أن شعر بأنه «في حالة جيدة»، بمجرد عودته إلى راجبي، وكتابة قصصه، والشعور بالثقة في الحياة، رغم كل شيء، بدا أنه نسي، واستعاد كل اتزانه. لكن الآن، والسنوات تمر ببطء، ببطء، تشعر كوني بكدمة الخوف والفزع تأتي، وتنتشر في أعماقه. ولأن الكدمة كانت عميقة جدًّا وكأنها مخدرة، وكأنها غير موجودة. والآن تبدأ ببطء تأكيد نفسها في انتشار الخوف، الشلل تقريبًا. ذهنيًّا مازال كلفورد يقظًا. لكن الشلل، كدمة الصدمة الهائلة جدًّا، ينتشر في ذاته العاطفية.

وهو ينتشر في أعماقه، تشعر كوني أنه ينتشر في أعماقها. تدريجيًّا

انتشر في روحها رعب داخلي، خواء، لا مبالاة بكل شيء. حين كان كلفورد يستثار، يمكن أن يتحدث ببراعة، ويسيطر على المستقبل، إذا جاز التعبير: مثلما حدث حين تحدث، في الخميلة، عن طفل لها، يكون وريثًا لراجبي. لكن في اليوم التالي، بدت كل الكلمات البارعة مثل أوراق ميتة، سُحِقتْ، تحولت إلى مسحوق، لا تعني شيئًا حقًّا، تعصف بها هبة ريح. لم تكن الكلمات المُورِقَة عن حياة عاطفية، شابة مفعمة بالطاقة وتنتمي للشجرة. كانت كومات من الأوراق المتساقطة لحياة عقيمة.

هذا ما بدا لها في كل مكان. عمال المنجم في تفرشال يتحدثون من جديد عن إضراب، وبدا لكوني من جديد أنه ليس من مظاهر الطاقة، إنها كدمة الحرب وكانت معلقة، ترتفع ببطء إلى السطح وتحدث الألم الهائل للاضطراب، وذهول السخط. كانت الكدمة عميقة، عميقة، عميقة... كدمة الحرب الوحشية الزائفة. يستغرق الأمر سنوات طويلة ليذيب الدمُ الحي للأجيال الجلطةَ السوداء الهائلة للدم المتجلط، عميقًا في أرواحهم وأجسادهم. ويحتاج إلى أمل جديد.

كوني المسكينة! والسنوات تمر كان الخوف من العدم في حياتها هو ما يؤثر عليها. بدأت الحياة الذهنية لكلفورد ولها تبدو مثل العدم. تأسس زواجهما، وحياتهما المتكاملة على عادة الحميمية التي تحدث عنها: هناك أيام صار فيها كل شيء خواء وعدمًا تمامًا. كلمات، مجرد كلمات كثيرة جدًّا. كان العدم الحقيقة الوحيدة، وفوقه نفاق الكلمات.

كان هناك نجاح كلفورد: الربة العاهرة! صحيح أنه كان مشهورًا تقريبًا، وجلبت له كتبه ألف جنيه. وظهرت صورته في كل مكان.

وكان له تمثال في إحدى صالات العرض، وبورتريه في اثنتين. بدا أكثر الأصوات الحديثة حداثة. بغريزته الغريبة العرجاء للشهرة، صار في أربع سنوات أو خمس أحد أشهر «المثقفين» الشباب. لم تعرف كوني تمامًا من أين أتتْه الثقافة. كان كلفورد ماهرًا حقًّا في ذلك التحليل الهزلي بعض الشيء للناس والدوافع، التحليل الذي يترك كل شيء ممزقًا في النهاية. لكنه أشبه بجراء تمزق وسائد الأريكة تمزيقًا؛ باستثناء أنه لم يكن صغيرًا ولعوبًا، بل كان كبيرًا بشكل غريب، ومغرورًا بعناد. كان عجيبًا وعدمًا. كان هذا هو الشعور الذي يتردد صداه مرة بعد أخرى في أعماق روح كوني: كان عدمًا تمامًا، عَرْضًا مدهشًا للعدم. في الوقت نفسه عرض. عرض! عرض! عرض!

يستغل ميكاليس كلفورد في شخصية محورية لمسرحية؛ يرسم الحبكة، ويكتب الفصل الأول. وكان ميكاليس أفضل حتى من كلفورد في صناعة عرض للعدم. كانت آخر مزقة من العاطفة بقيت في هذين الرجلين: عاطفة صناعة عرض. كانا جنسيًّا بلا عاطفة، وربما حتى ميتين. ولم يكن المال ما يسعى إليه ميكاليس. ولم يسعَ كلفورد قط للمال، رغم أنه يكسبه حيثما استطاع، لأن المال ختم النجاح وطابعه. والنجاح ما يريدان. أرادا، كلاهما، صناعة عرض حقيقي... عرض إنسان لنفسه يمكن أن يأسر الجمهور الواسع لبعض الوقت.

كان أمرًا غريبًا... عهر الربة العاهرة. بالنسبة لكوني، حيث إنها حقًّا خارجه، وحيث إنها أصيبت بخدر يجعلها لا تندهش له، كان عدمًا مرة أخرى. حتى عهر الربة العاهرة عدم، حيث مارس الرجلان العهر مع

نفسيهما مرات لا تحصى. وحتى هذا كان عدمًا.

يكتب ميكاليس لكلفورد عن المسرحية. وبالطبع كانت تعلم بها منذ وقت طويل. وينتشي كلفورد من جديد. يُعرَض هذه المرة من جديد، يعرضه شخص ما، بما يحقق المنفعة. يدعو ميكاليس إلى راجبي مع الفصل الأول.

يأتي ميكاليس: في الصيف، ببدلة شاحبة وقفاز أبيض من جلد الغزال، مع زهور أوركيد موف لكوني، جميلة جدًّا، وكان الفصل الأول قد لاقى نجاحًا عظيمًا. حتى كوني انتشت... انتشتْ حتى النخاع نشوة لم تعرفها منذ زمن. وكان ميكاليس، منتشيًا بقدرته على إثارة النشوة، مدهشًا حقًّا... وجميلًا تمامًا، في عيني كوني. رأت فيه ذلك الجمود العتيق لعرق لم يعد من الممكن أن يتحرر من الوهم، تطرف، ربما، لدنس نقي. على الجانب البعيد لعهره الفائق مع الربة العاهرة بدا نقيًّا، نقيًّا مثل قناع من العاج الأفريقي يحلم بتحويل الدنس إلى نقاء، في منحنياته ومستوياته العاجية.

وكانت لحظة الانتشاء المطلق لميكاليس مع كلفورد وكوني، حين يأخذهما بعيدًا، من اللحظات الفائقة في حياته. نجح: حملهما بعيدًا. حتى كلفورد كان مؤقتًا في حالة حب معه... إذا كان لنا أن نعبر عن الأمر بهذه الطريقة.

وهكذا كان ميك في الصباح التالي قلقًا أكثر من أي وقت؛ متوترًا، مشتتًا، ويداه لا تستقر في جيبي بنطاله. لم تزره كوني في الليل... ولم يعرف أين يجدها. دلال!... في لجة انتصاره.

يصعد إلى غرفة جلوسها في الصباح. وكانت تعرف أنه سيأتي. كان توتره واضحًا. يسألها عن مسرحيته... هل تعتقد أنها جيدة؟ كان يحتاج أن يسمع ثناء عليها: وهو ما يؤثر فيه بأرقِّ انتشاءٍ لعاطفة تتجاوز أي أورجازم جنسي. وقد أثنت عليها بغبطة. وهي تعرف، طول الوقت، في أعماق روحها، أنها عدم.

يقول فجأة في النهاية: «انظري! لماذا لا نفعل أنت وأنا الشيء النقي؟ لماذا لا نتزوج؟».

تقول مندهشة، لكنها تشعر بالعدم: «لكنني متزوجة».

«أوه! ... يطلقك... لماذا لا نتزوج أنت وأنا؟ أريد أن أتزوج. أعرف أنه سيكون أفضل شيء بالنسبة لي... أتزوج وأعيش حياة منظمة. إنني أعيش حياة شيطانية، أمزق نفسي أشلاء ببساطة. انظري، أنت وأنا، خلقنا لبعضنا... يد وقفاز. لماذا لا نتزوج؟ هل ترين أي سبب يمنعنا؟».

تنظر كوني إليه مندهشة: لكنها تشعر بالعدم. أهمل هؤلاء الرجال، على حد سواء، كل شيء. انفجروا بالضبط من قمة رؤوسهم وكأنهم مفرقعات، وتوقعوا منك أن تُحمَل باتجاه السماء بعصيهم الرفيعة.

تقول: «لكنني متزوجة. ولا يمكن أن أترك كلفورد، كما تعرف».

يصيح: «لماذا لا؟ لكن لماذا لا؟ سيعرف بالكاد أنك رحلْتِ، بعد ستة أشهر. لا يعرف بوجود أحد إلا نفسه. لا فائدة ترجى من هذا الرجل لك إطلاقًا، بقدر ما أرى؛ إنه متقوقع في نفسه تمامًا».

تشعر كوني بالحقيقة في هذا الكلام. لكنها تشعر أيضًا بأن ميك

يصنع بالكاد عرضًا من عروض نكران الذات.

تسأل: «أليس كل الرجال متقوقعين في أنفسهم؟».

«أوه، تقريبًا، أعترف. على الرجل أن يكون رجلًا، وأن يتواصل. لكن ليست هذه هي القضية. القضية: ما نوع الوقت الذي يمكن أن يقدمه رجل لامرأة؟ هل يستطيع أن يقدم لها وقتًا طيبًا جدًّا، أم لا يستطيع؟ وإذا كان لا يستطيع فليس له حق عند المرأة..». يتوقف ويحدق فيها بعينيه العسليتين الواسعتين، منوِّمًا تقريبًا. ويضيف: «الآن أعتبر أنني أستطيع أن أمنح امرأة أطيب وقت يمكن أن تطلبه. وأعتقد أنني يمكن أن أضمن نفسي».

تسأل كوني، وهي مازالت تحدق فيه بدهشة، تبدو مثل نشوة؛ والشعور الذي تحتها عدم تام: «ما نوع الوقت الطيب؟».

«كل أنواع الوقت الطيب، اللعنة، كل الأنواع! الملابس، والمجوهرات إلى حد ما، وأي ناد ليلي تحبين، وأن تعرفي أي شخص تريدين معرفته، أن تعيشي... أن تسافري وتكوني مهمة حيثما تذهبين... اللعنة، كل أنواع الوقت الطيب».

تحدث ببريق الانتصار تقريبًا، وتطلعت إليه كوني وكأنها منبهرة، لكنها في الحقيقة تشعر بعدم مطلق. حتى سطح ذهنها لم تدغدغه هذه الآفاق البراقة التي قدمها لها. ولم تستجب حتى ذاتها الأكثر سطحية، وكان يمكن أن تنتشي في أي وقت آخر. لم تشعر بأي شيء من هذا كله، لم تستطع أن «تنطلق». جلست فقط وحدقت وبدت منبهرة، وشعرت

بالعدم، لكنها شمت فقط من مكان ما الرائحة السيئة جدًّا للربة العاهرة.

يجلس ميك على أحر من الجمر، مائلًا إلى الأمام في مقعده، محدِّقًا فيها بشكل هستيري تقريبًا: وسواء كان أكثر قلقًا نتيجة غرورها في أن تقول **نعم**! أو كان أكثر هلعًا خوفًا من أنها **ينبغي** أن تقول نعم! من يعرف؟

تقول: «ينبغي أن أفكر في الأمر. لا يمكن أن أقول الآن. قد يبدو لك أن كلفورد لا يهم، لكنه يهم. حين تفكر في مدى عجزه..».

«أوه اللعنة على هذا كله! إذا كان على رفيق أن يتاجر بعجزه، قد أبدأ الكلام عن كم أنا وحيد، وكنت وحيدًا دائمًا، وكل هذا الهراء المحزن! اللعنة على هذا كله، إذا لم يكن لدى رفيق إلا العجز ليوصي عليه..».

يلتفت جانبًا، ويداه تتحركان بعنف في جيبي بنطاله. وفي ذلك المساء يقول لها:

«سوف تأتين الليلة إلى غرفتي، أليس كذلك؟ لا أعرف أين تقع غرفتك».

تقول: «أجل!».

كان في تلك الليلة عاشقًا أكثر استثارة، بعريه الواهي، عري صبي صغير وغريب. وجدت كوني أن من المستحيل أن تصل إلى ذروتها قبل أن ينتهي حقًّا من ذروته. وقد أثار عاطفة جارفة فيها، بعري صبي صغير ونعومته؛ كان عليها أن تواصل بعد أن انتهى، في الضجة الوحشية وارتفاع خاصرتها، بينما بقي يقظًا بشكل بطولي، حاضرًا فيها، بكل إرادته وإيثاره، حتى وصلت إلى ذروتها، مع صرخات واهية غريبة.

وحين انسحب منها في النهاية، قال بصوت يحمل بعض المرارة، صوت واهٍ ساخر تقريبًا:

«لا يمكن أن تَصِلِي في الوقت الذي يصل فيه رجل، أليس كذلك؟ عليك أن تكملي المهمة! عليك أن تديري العرض!».

كان هذا الحديث القصير، في تلك اللحظة، صدمة من صدمات حياتها. لأن من الواضح تمامًا أن هذا النوع السلبي من الاستسلام طريقته الحقيقية الوحيدة في ممارسة الجنس.

تقول: «ماذا تعني؟».

«تعرفين ما أعني. تبقين لساعات بعد أن أصل... وعليَّ أن أظل معلقًا من أسناني حتى تكملي المهمة بمجهودك».

تذهلها هذه القطعة غير المتوقعة من الوحشية، في لحظة كانت فيها متألقة بنوع من اللذة يتجاوز الكلمات، وبنوع من الحب له. لأنه كان، رغم كل شيء، مثل كثير من الرجال المحدثين، ينتهي تقريبًا قبل أن يبدأ. مما أرغم المرأة على أن تكون نشطة.

تقول: «لكنك تريد أن أواصل، لأحصل على نشوتي».

يضحك بتجهم، وقال: «أريد! جيد! أريد أن أظل معلقًا وأسناني مطبقة، بينما تهجمين عليَّ!».

تلحُّ: «لكن ألا تريد؟».

يتجنب السؤال، ويقول: «كل النساء اللعينات بهذا الشكل، إما أنهن لا يصلن إطلاقًا، وكأنهن موتى هناك... أو ينتظرن حتى ينتهي الرجل حقًّا، ثم يبدأن في إكمال المهمة، ويظل الرجل معلقًا. لم أر قط امرأة

تصل في اللحظة التي أصل فيها بالضبط».

لا تسمع كوني هذه القطعة من الرواية، تعليمات ذكورية، بشكل جيد. تذهلها مشاعره ... وحشيته غير المفهومة. تشعر بأنها بريئة جدًّا.

تكرر: «لكن تريد أن أحصل على نشوتي أيضًا، أليس كذلك».

«أوه، صحيح! أريد تمامًا. لكنني أختنق إذا بقيت معلقًا في الانتظار لأن وصول المرأة لعبةٌ كبيرة على الرجل..».

كان هذا الحديث من الصفعات الحاسمة في حياة كوني. قتل شيئًا فيها. لم تكن حريصة جدًّا على ميكاليس؛ حتى بدأ لم تكن تريده. بدا الأمر وكأنها لم ترده بشكل إيجابي قط. لكن بمجرد البدء، بدا أن الأمر الطبيعي الوحيد بالنسبة لها أن تصل إلى ذروتها معه. أحبته تقريبًا لهذا السبب... وأحبته تلك الليلة تقريبًا، وأرادت أن تتزوجه.

ربما عرف هذا غريزيًّا، ولهذا كان عليه أن يقلب العرض كله بضربة ساحقة؛ حبكة هزيلة. انهارت كل مشاعرها الجنسية تجاهه، أو تجاه أي رجل، في تلك الليلة. انفصلت حياتها عن حياته تمامًا وكأنه لم يوجد قط.

قضت الأيام بشكل موحش. لم يعد هناك إلا هذه الطاحونة الخاوية التي سماها كلفورد الحياة المتكاملة، الحياة الطويلة لشخصين معًا، شخصين اعتادا أن يكون أحدهما مع الآخر في المنزل نفسه.

عدم! بدا أن قبول العدم الهائل في الحياة نهاية من نهايات الحياة. كل الانشغالات العديدة والأشياء الصغيرة المهمة التي هي الكتلة الكبيرة للعدم!

الفصل السادس

تسأل كوني تومي دوكس، وكان عرافها تقريبًا: «لماذا لا يعجب الرجال والنساء ببعضهم البعض حقًّا في هذه الأيام؟»

«أوه، لكنهم يفعلون! لا أعتقد أن الرجال والنساء، منذ ابتكار الجنس البشري، أعجبوا ببعضهم البعض بقدر ما يفعلون اليوم. إعجابًا حقيقيًّا! أنا مثلًا، أعجب بالنساء حقًّا أكثر من الرجال؛ إنهن أشجع، ويمكن للمرء أن يكون أكثر صراحة معهن».

تفكر كوني في هذا الكلام.

تقول: «آه، أجل، ليس لديك أبدًا ما تفعله معهن».

«أنا؟ ماذا أفعل غير أن أتحدث في هذه اللحظة إلى امرأة ببراعة وإخلاص؟».

«أجل، تتحدث...».

«وماذا يمكن أن أفعل إن كنْتِ رجلًا أكثر من أن أتحدث إليك ببراعة وإخلاص؟».

«ربما لا شيء. لكن المرأة..».

«المرأة تريد أن تعجب بها وأن تتحدث إليها، وفي الوقت ذاته تحبها وترغب فيها؛ ويبدو لي أن الأمرين لا يجتمعان».

«لكن لا ينبغي أن يجتمعا!».

«لا شك في أن الماء لا ينبغي أن يكون رطبًا بهذه الصورة؛ إنه يبالغ في الرطوبة. لكن هذا هو الوضع! أعجب بالنساء وأتحدث إليهن، وبالتالي لا أحبهن ولا أرغب فيهن. لا يحدث الأمران في داخلي في الوقت ذاته».

«أعتقد أنه ينبغي أن يحدثا».

«حسنًا. حقيقة أن الأشياء ينبغي أن تكون شيئًا آخر غير ما هي عليه ليست شأني».

تفكر كوني في هذا، وتقول: «أليس صحيحًا أن الرجال يمكن أن يحبوا النساء ويتحدثوا إليهن. لا أدري كيف يمكن أن يحبوهن بدون الحديث إليهن، ويكونوا أصدقاء وحميمين. كيف يمكن لهم؟».

يقول: «حسنًا، لا أعرف. ما فائدة تعميمي؟ لا أعرف إلا حالتي. أعجب بالنساء، ولا أرغب فيهن. أعجب بالحديث إليهن، لكن الحديث إليهن، رغم أنه يخلق حميمية في اتجاه واحد، يبعدني عنهن بقدر ما يتعلق الأمر بالتقبيل. وها أنت! لكن لا تعتبريني مثالًا عامًّا، ربما أكون مجرد حالة خاصة: أحد الرجال الذين يعجبون بالنساء، ولا يحبونهن، وربما أكرههن إذا أرغمنني على التظاهر بالحب، أو بمظهر المحب».

«لكن ألا يجعلك هذا حزينًا؟».

«لماذا يجعلني؟ لا، إطلاقًا! أنظر إلى تشارلي ماي، وبقية الرجال الذين لهم علاقات... لا أحسدهم إطلاقًا! إذا أرسل القدر إليَّ امرأة أريدها، حسنًا. وحيث إنني لم أعرف امرأة أريدها، ولا أرى واحدة أبدًا... لماذا أفترض أنني بارد، وأنا **أعجب** كثيرًا حقًّا ببعض النساء».

«هل تعجب بي؟».

«كثيرًا جدًّا! وترين أن مسألة التقبيل غير مطروحة بيننا، أليس كذلك؟».

تقول كوني: «غير مطروحة إطلاقًا! لكن لماذا لا تكون مطروحة؟».

«لماذا، يا إلهي؟ أعجب بكلفورد، ماذا تقولين إذا ذهبْتُ وقبَّلْتُه؟».

«لكن ألا يوجد اختلاف؟».

«أين يكمن، بقدر ما يتعلق الأمر بنا؟ كلنا بشر أذكياء، ومسألة الذكر والأنثى مُعلَّقة. معلقة فقط. كيف تودين أن أبدأ التصرف مثل ذكر أوروبي في هذه اللحظة، وأستعرض الشيء الجنسي؟».

«أكره ذلك».

«حسنًا إذًا! أخبرك، إن كنْتُ شيئًا ذكوريًّا عمومًا، لا أسعى قط وراء أنثى من نوعي. ولا أفتقدها، فقط **أعجب** بالنساء. من يرغمني على حبهن أو التظاهر بحبهن، على القيام بلعبة جنسية؟».

«لا، لا أرغمك. لكن أليس هناك خطأ؟».

«قد تشعرين به، لكنني لا أشعر به».

«أجل، أشعر بأن هناك خطأ بين الرجال والنساء. لم يعد للمرأة بريق بالنسبة للرجل».

«هل للرجل بريق بالنسبة للمرأة».

تفكر في الجانب الآخر من المسألة.

تقول بصدق: «ليس كثيرًا».

«لنترك إذًا الأمر جانبًا، ونكن فقط محتشمين وبسطاء، مثل البشر الحقيقيين أحدهم مع الآخر. اللعنة على الإكراه الجنسي المصطنع! أرفضه!»

تعرف كوني أنه محق حقًّا. لكنه يتركها بشعور ببؤس شديد، بؤس شديد وشرود. تشعر أنها مثل قصاصة في بركة كئيبة. ما القضية، معها أو مع أي شيء؟

شبابها هو الذي يتمرد. بدا هؤلاء الرجال مسنين وباردين جدًّا. بدا كل شيء مسنًّا وباردًا. وقد أحبطها ميكاليس؛ لم يكن طيبًا. لم يكن الرجال يريدونها؛ لم يريدوا امرأة حقًّا، وحتى ميكاليس لم يرد.

والحدود التي تظاهروا بوضعها، ليبدأوا ممارسة لعبة الجنس، أسوأ مما كانت في أي وقت.

هل كان مجرد أمر موحش، وعليها أن تتحمله. صحيح تمامًا أن الرجال لم يكن لهم بريق حقيقي بالنسبة للمرأة: وإذا كنت تريدين خداع نفسك بالاعتقاد بأن لهم، حتى وهي تخدع نفسها بشأن ميكاليس، كان هذا

أفضل ما يمكن أن تفعليه. وفي أثناء ذلك عليك أن تعيشي فقط بلا هدف. تفهم تمامًا ما يجعل الناس يقيمون حفلات كوكتيل ويرقصون رقصة الجاز ورقصة الشارلستون حتى يصبحوا على استعداد للسقوط. كان عليكِ أن تبرزي شبابك بطريقة أو أخرى، وإلا التهمك. لكن يا له من شيء شبحي هذا الشباب! شعرْتِ أنكِ عجوز مثل متوشالخ[1]، لكنه فار بشكل ما، ولم يتركْكِ مستريحة. حياة وضيعة! وليس هناك أفق! تمنَّتْ تقريبًا أن ترحل مع ميك، وتجعل حياتها حفلة كوكتيل طويلة، وأمسيات جاز. كان ذلك على أية حال أفضل من أن تكتفي بالذهاب بلا هدف إلى القبر.

في أحد أيامها السيئة خرجتْ وحيدة تتمشى في الخميلة، ضجرة، لا تبالي بشيء، ولا تلاحظ حتى أين هي. يفزعها ويغضبها صوت بندقية دوَّى في مكان قريب.

ثم، وهي تمضي، تسمع أصواتًا، فترتد. ناس! لا تريد ناسًا. لكن أذنها الحادة تلتقط صوتًا آخر؛ فتنهض؛ صوت طفلة تنتحب. تنتبه على الفور؛ شخص ما يسيء معاملة طفلة. تسرع مترنحة إلى الطريق المبللة، واستياؤها المتجهم في قمته. بدا بالضبط أنها مستعدة لإثارة ضجة.

منعطفة إلى الزاوية ترى شخصًا في الطريق خلفها: الحارس وفتاة صغيرة ترتدي معطفًا بنفسجيًّا وعلى رأسها كاب من فروة الخَلَد، تبكي.

يأتي صوت الرجل الغضبان: «آه، أغلقي فمك أيتها الكلبة الصغيرة الزائفة!» فيرتفع نحيب الطفلة.

---

(١) متوشالخ: ابن إدريس وجد نوح، ويقال إنه عاش ٩٦٩ سنة، ومات قبل الطوفان بسبعة أيام.

تسرع كونستنس مقتربة، بعينين متقدتين. يلتفت الرجل وينظر إليها، ويحيي ببرود، لكنه كان شاحبًا من الغضب.

تتساءل كونستنس، بحسم وهي تلهث قليلًا: «ما الأمر؟ لماذا تبكي؟».

تظهر ابتسامة شاحبة ساخرة على وجه الرجل. ويرد بقسوة بعامية مطلقة: «معرفش، المفروض تسأليها هيَّه».

تشعر كوني وكأنه لطمها على وجهها، ويتغير لونها. ثم تجمع قدرتها على التحدي، وتنظر إليه، وعيناها الزرقاوان الغامقتان تتقدان بشكل مبهم إلى حد ما».

تقول لاهثة: «سألتُكَ أنت».

ينحني انحناءة خفيفة وغريبة، رافعًا قبعته. ويقول: «سألْتِ سموك»؛ ثم يضيف عائدًا إلى العامية: «لكن ما أقدرش أقولك». ويتصرف مثل جندي، بشكل غير مفهوم، ويشحب من الانزعاج.

تلتفت كوني إلى الطفلة، وكانت في التاسعة أو العاشرة، متوردة، بشعر أسود. وتقول بعذوبة تقليدية مناسبة: «ما الأمر يا عزيزتي؟ أخبريني لماذا تبكين!» نحيب أكثر عنفًا، بخجل. وكوني من جانبها أكثر عذوبة.

«ها، ها، لا تبكي! أخبريني عما فعلوه بك!»... بنبرة بالغة الرقة. وفي الوقت ذاته تمد يدها في جيب جاكتها المحبوك، ولحسن الحظ تجد نصف شلن.

تقول، منحنية أمام الطفلة: «لا تبكي إذن! انظري ماذا معي لك!».

تنهدات وشهقات، وقبضة تمتد من على وجه منتحب، وعين سوداء ثاقبة تلقي لثانية نظرة على نصف الشلن. ثم مزيد من النحيب، لكنه مكتوم. وتقول كوني: «ها، أخبريني ما المسألة، أخبريني!» وتضع قطعة العملة في اليد البضة للطفلة، فتغلقها عليها.

«إنها ال... إنها ال... قطة!».

رجفات النحيب المنحسر.

«أية قطة يا عزيزتي؟».

بعد صمت، تشير القبضة الخجولة، القابضة على نصف الشلن، إلى كومة العليق.

«هناك!».

تنظر كوني وتتأكد أن هناك قطة كبيرة سوداء، ممددة بتجهم، وعليها بعض الدماء.

تقول باشمئزاز: «أوه!».

يقول الرجل بسخرية: «قناصة، سموكِ».

تحدق فيه بغضب، وتقول: «لا غرابة في أن تبكي الطفلة. إذا كنت قد أطلقت النار عليها والطفلة هنا. لا غرابة في أن تبكي!».

ينظر في عيني كوني، باقتضاب وازدراء، بدون أن يخفي مشاعره. ومرة أخرى يتقد غضب كوني؛ تشعر أنها تثير ضجة، والرجل لا يحترمها.

تقول للطفلة مداعبة: «ما اسمك؟ ألن تخبريني باسمك؟»»

تتنشق؛ ثم تقول بتصنع شديد وبصوت هادئ: «كوني ملورز!».

«كوني ملورز! حسنًا، يا له من اسم جميل! وهل كنت مع أبيك، وهو يطلق النار على القطة؟ لكنها قطة سيئة!».

تنظر الطفلة إليها، بعينين سوداوين جريئتين فاحصتين، تفهمها، وتفهم مواساتها.

تقول الفتاة الصغيرة: «أريد أن أذهب إلى جدتي».

«تريدين؟ لكن أين جدتك؟».

ترفع الطفلة ذراعًا وتشير إلى الطريق: «في الدار».

«في الدار! وهل تودين أن تعودي إليها؟».

رجفات مرتعدة مفاجئة لبقايا النحيب: «أجل!».

«هيا إذًا، هل آخذك؟ هل آخذك إلى جدتك. ثم يفعل أبوك ما عليه أن يفعله». وتلتفت إلى الرجل: «ابنتك الصغيرة، أليس كذلك؟».

يحيي، وحرك رأسه حركة خفيفة للتأكيد.

تسأل كوني: «أعتقد أنني يمكن أن آخذها إلى الدار؟».

«إذا رغبْتِ سموك».

ينظر في عينيها مرة أخرى، بتلك النظرة الهادئة الفاحصة الحيادية. رجل وحيد جدًّا، وبمفرده.

«هل تودين أن تأتي معي إلى الدار، إلى جدتك، يا عزيزتي؟».

تختلس الطفلة نظرة أخرى، وتقول بابتسامة متكلفة: «أجل!».

تنفر كوني منها؛ أنثى صغيرة زائفة. لكنها تجفف وجهها وتأخذ يدها. يحيي الحارس بصمت.

تقول كوني: «صباح الخير!».

كانت المسافة إلى الدار ميلًا تقريبًا، وقد ضجرت كوني الكبيرة تمامًا من كوني الصغيرة حين كان البيت الصغير الرائع لحارس الطرائد على مرمى البصر. وكانت الطفلة محتشدة بالحيل مثل قرد صغير، وواثقة من نفسها إلى حد بعيد.

عند الدار كان الباب مفتوحًا، وتسمع قعقعة من الداخل. تتباطأ كوني، وتفلت الطفلة من يدها، وتجري إلى الداخل.

«ستي! ستي!».

«إيه، رجعتِ!».

كان صباح السبت، والجدة تغطي الموقد بالجرافيت. تأتي إلى الباب بمريلتها الخشنة، وفرشاة الجرافيت في يدها، وعلى أنفها سخام أسود. كانت ضئيلة، وذابلة إلى حد ما.

تقول: «إيه، في إيه؟» وبسرعة تجفف يدها في وجهها حين ترى كوني تقف في الخارج.

تقول كوني: «صباح الخير! كانت تبكي، فأعدْتُها إلى البيت».

تنظر الجدة نظرة خاطفة إلى الطفلة:

«ليه، أبوك كان فين؟».

تتشبث الفتاة الصغيرة في جيبة جدتها وتبتسم ابتسامة متكلفة.

تقول كوني: «كان هناك، لكنه أطلق النار على قطة قناصة، فانزعجت الطفلة».

«أوه، ما لكيش حق تتعبي نفسك، يا ليدي تشاترلي، أنا متأكدة! أنا متأكدة أنها حاجة كويسة جدًّا منك، لكن ما كنش المفروض تزعجي نفسك. ليه، كما ترين!»- وتلتفت العجوز إلى الطفلة: «الليدي تشاترلي الرائعة تتحمل كل ده علشانك! ليه، ما كنش المفروض تتعبيها!».

تقول كوني مبتسمة: «ليس هناك تعب، مجرد تمشية».

«ليه، أنا متأكدة إن ده عطف كبير منك، لازم أقول! كانت بتعيط! عارفة إن فيه حاجة هتحصل قبل ما يمشوا. خافت منه، ده اللي حصل. زي الغريب بالنسبة لها، غريب خالص، وما ظنش إن الاتنين ممكن يبقوا صحاب بالراحة. بيتصرف تصرفات غريبة».

لا تعرف كوني ماذا تقول.

تقول الطفلة بابتسامة متكلفة: «بصي يا ستي!».

تنظر العجوز إلى نصف الشلن في يد الفتاة الصغيرة.

«نص شلن مرة واحدة! أوه، سموك، مش المفروض، مش المفروض. ليه، الليدي تشاترلي طيبة معاك! يا إلهي، إنت بنت محظوظة النهاردة!».

تنطق الاسم، كما يفعل كل الناس: تشاتلي. «الليدي تشاتلي **طيبة** معاك»- لم يكن أمام كوني إلا أن تنظر إلى أنف العجوز، والأخيرة تجفف

وجهها بشكل غامض بظهر رسغها، لكنها أخطأت مكان السخام.

وكوني تبتعد «حسنًا، شكرًا كثيرًا لك، يا ليدي تشاتلي. قولي شكرًا لليدي تشاتلي!»- وهذه الجملة الأخيرة موجهة للطفلة.

تقول الطفلة: «شكرًا لك».

تضحك كوني وهي تبتعد قائلة: «عزيزتي! صباح الخير»، وتشعر بارتياح حقيقي للتخلص من هذا الارتباط. اعتقدت بشكل غريب، أن هذا الرجل النحيل المغرور ينبغي أن تكون أمه هذه المرأة الضئيلة الحادة!

تندفع العجوز، بمجرد انصراف كوني، إلى قطعة المرآة التي في المطبخ، وتنظر إلى وجهها. وهي تراه، تضرب بقدمها بنفاد صبر. «**بالطبع**، كان ينبغي أن تراني في مريلتي الخشنة، ووجهي القذر! لقد أخذت عني فكرة رائعة!».

تمضي كوني ببطء إلى البيت في راجبي. «البيت!»... كانت كلمة دافئة تطلق على تلك المنطقة المملة الواسعة. لكنها كلمة كان لها يومها. وقد ألغيتْ بشكل ما. بدا لكوني أن كل الكلمات العظيمة ألغيتْ بالنسبة لجيلها: الحب والبهجة والسعادة، والبيت والأب والزوج، كل هذه الكلمات الديناميكية العظيمة شبه ميتة، وكانت تموت يومًا بعد يوم. كان البيت مكانًا تعيش فيه، والحب شيئًا لم تخدع نفسك بشأنه، والبهجة كلمة تطلقها على رقصة شارلستون جيدة، والسعادة مصطلحًا للنفاق يُستخدَم لخداع الآخرين، والأب فردًا يتمتع بوجوده الخاص، والزوج رجلًا تعيشين معه وتحافظين على انسجامك الروحي معه. وبالنسبة

للجنس، آخر الكلمات العظيمة، كان مجرد مصطلح كوكتيل يطلق على الإثارة التي تجعلك أكثر سعادة ونشاطًا لبعض الوقت، ثم تتركك بالية أكثر من أي وقت مضى. متهرئة! بدا وكأن المادة التي خلقت منها مادة تتهرأ بلا سبب.

كانت الرواقية العنيدة كل ما تبقى: وكان فيها بعض المتعة. في الخبرة الحقيقية لعدم الحياة، مرحلة بعد مرحلة، **خطوة** بعد **خطوة**[1]، كان هناك إشباع مروِّع. هذه هي **النهاية!** هذا آخر الكلام دائمًا: البيت، الحب، الزواج، ميكاليس: هذه هي **النهاية!**- وحين يموت المرء، ينبغي أن تكون آخر الكلمات للحياة: هذه هي **النهاية!**-

المال؟ ربما لا يمكن أن نقول الكلام نفسه هنا. نحتاج إلى المال دائمًا. المال، النجاح، الربة العاهرة، كما استمر تومي دوكس يقول، نقلًا عن هنري جيمس، ضرورة دائمة. لا يمكن أن تنفق آخر قرش معك، وتقول في النهاية: هذه هي **النهاية!** لا، إذا عشت حتى عشر دقائق أخرى، فأنت تحتاج بضعة قروش إضافية لشيء أو آخر. فقط ليستمر البزنس آليًّا، تحتاج إلى مال. ينبغي أن يكون معك. **ينبغي** أن يكون معك مال. لا تحتاج حقًّا إلى أي شيء آخر. هذه هي **النهاية!**-

وحيث إنها، بالطبع، ليست غلطتك أنك على قيد الحياة. بمجرد أن تكون على قيد الحياة، يكون المال ضرورة، والضرورة المطلقة الوحيدة. يمكن أن تواصل بدون ما تبقى، عند الضرورة. إلا المال. بشكل لافت، هذه هي **النهاية!**-

---

(١) بالفرنسية في الأصل.

تفكر في ميكاليس، وفي المال الذي قد تحصل عليه معه؛ وحتى هذا لا تريده. تفضل المبلغ الأقل الذي ساعدتْ كلفورد على كسبه من الكتابة. الذي ساعدتْه حقًّا على كسبه.- «كلفورد وأنا معًا، نكسب ألفًا ومائتي جنيه سنويًّا من الكتابة»؛ هكذا تعبِّر عن المسألة لنفسها. اكسب المال! اكسبه! من حيث لا تدري. انتزعْه من الهواء الرقيق. الإنجاز الأخير الذي يُفتخَر به إنسانيًّا! كل ما بقي هراء.

هكذا تتهادى عائدة إلى كلفورد، لتضم جهودها إلى جهوده مرة أخرى، لتصنع قصة أخرى من العدم: والقصة تعني المال. بدا أن كلفورد يولي اهتمامًا كبيرًا لما إن كانت قصصه تعتبر أدبًا من الدرجة الأولى أم لا. تحديدًا، لم تهتم. لا شيء فيها! كما قال أبوها. ألف ومائتا جنيه في السنة الأخيرة! كان الرد البسيط والنهائي.

إذا كنت شابًّا، ما عليك إلا أن تسن أسنانك، وتعض عليها وتواصل، حتى يبدأ المال في التدفق إليك من حيث لا تدرى؛ إنها مسألة قوة. إنها مسألة إرادة؛ انبثاق بارع، بارع، وقوي للإرادة في نفسك تعيد إليك العدم الغامض للمال كلمةً على قطعة من الورق. إنه نوع من السحر، وهو انتصار بالتأكيد. الربة العاهرة! حسنًا، إذا كان على المرء أن يمارس العهر مع نفسه، فليمارسه مع الربة العاهرة! يمكن للمرء دائمًا أن يحتقرها حتى وهو يمارس العهر معها، وهو أمر طيب.

كان لدى كلفورد، بالطبع، الكثير من التابوهات والفيتشات الطفولية. يريد أن يعتقد الناس أنه «طيب حقًّا»، وكل هذا هراء تمامًا. الطيب حقًّا هو ما يدرك بالفعل. ليس أمرًا طيبًا أن تكون طيبًا حقًّا وتموت بطيبتك.

بدا وكأن كل الرجال «الطيبين حقًّا» قد فاتهم القطار للتو. ورغم كل شيء تعيش حياة واحدة، وإذا فاتك القطار، فسوف تُترَك على الرصيف، مع بقية الفاشلين.

تقضي كوني شتاء، الشتاء التالي، في لندن تفكر مع كلفورد. يدرك هو وهي القطار تمامًا، وهكذا يمكن أيضًا أن يكونا في القمة لبعض الوقت، والتباهي بها.

أسوأ ما في الأمر أن كلفورد مال إلى الغموض والذهول، والوقوع في نوبات من الاكتئاب الشديد. كانت المسألة أن جرح نفسيته طفح. لكن ذلك جعل كوني ترغب في الصراخ. يا إلهي، إذا كانت آلية الوعي نفسه تعمل بشكل خاطئ، فماذا يفعل المرء؟ يلعن كل شيء، يقوم بدوره! هل يمكن أن يحبط المرء **بشكل مطلق**؟

بكت أحيانًا بمرارة، لكن حتى وهي تبكي كانت تقول لنفسها: حمقاء سخيفة، مناديل مبللة! كما لو كان ذلك يحل المشكلة!

منذ علاقتها بميكاليس، استقرت على أنها لا ترغب في شيء. بدا ذلك أبسطَ حلٍّ لمشكلة لا يمكن حلها بطريقة أخرى. لا تريد أكثر مما حصلتْ عليه؛ لا تريد إلا المضي قدمًا بما حصلتْ عليه: كلفورد، والقصص، وراجبي، ومهمة الليدي تشاترلي والمال والشهرة، أشياء من هذا القبيل... تريد أن تمضي قدمًا بها جميعًا. الحب والجنس، وكل الأشياء من هذا النوع مجرد مثلجات! الْحَسِيه وانْسِيه. إذا لم تتمسكي به في عقلك، فهو عدم. الجنس خاصة... عدم! اتخذي قرارًا بشأنه، وسوف تحل المشكلة. الجنس والكوكتيل: يستمر الاثنان وقتًا طويلًا،

ولهما التأثير نفسه، ويتساويان تقريبًا.

لكن الابن، الطفل! مازال أحد الاهتمامات. عليها أن تغامر بحذر شديد في تلك التجربة. هناك رجل يجب أن يوضع في الاعتبار، وهو أمر غريب، ليس في العالم رجل تريد أبناء منه. أبناء ميك! فكرة مثيرة للاشمئزاز! وكأنكِ على استعداد لأن يكون لك ابن من أرنب! تومي دوكس؟ لكن لا يمكنكِ بشكل ما أن ترتبطي معه بطفل، بجيل آخر. إنه مكتفٍ بنفسه. وبين كل المعارف الكثيرين جدًّا لكلفورد، لا يوجد رجل لم يثر اشمئزازها، حين تفكر في أن ابنًا منه. هناك العديد من العشاق المحتملين تمامًا، حتى ميك. لكن أن تتركيهم ينجبون ابنًا منك! قرف! عمل مذل ومقيت.

هذه هي النهاية!

لكن كوني تنوي إنجاب طفل. انتظري! انتظري! ستنخل أجيال الرجال بغربالها، وترى إن كان هناك أحد يمكن أن يفعل ذلك. - «طُوفُوا فِي شَوَارِعِ أُورُشَلِيمَ وَانْظُرُوا، وَاعْرِفُوا وَفَتِّشُوا فِي سَاحَاتِهَا، هَلْ تَجِدُونَ إِنْسَانًا».[1] كان من المستحيل أن تجد إنسانًا في أورشليم النبي، وإن كان هناك آلاف البشر من الذكور. لكن **الإنسان! إنه آخر شيء**[2]!

تفكر في أنه ينبغي أن يكون أجنبيًّا: ليس إنجليزيًّا، ناهيك عن أن يكون أيرلنديًّا. أجنبيًّا حقيقيًّا.

---

(١) سفر أرميا، الإصحاح الخامس، الآية الأولى، عن الترجمة العربية للكتاب المقدس.

(٢) بالفرنسية في الأصل.

لكن انتظري! انتظري! في الشتاء القادم سوف تمضي بكلفورد إلى لندن؛ وفي الشتاء التالي تمضي به إلى خارج البلاد، إلى جنوب فرنسا وإيطاليا. انتظري. لم تكن متعجلة بشأن الطفل. إنه شأنها الخاص، ومسألة كانت، بطريقتها الأنثوية الغريبة، تهتم بها في أعماق روحها. لن تخاطر بأية فرصة تأتي، ليست من هذا النوع! يمكن أن تتخذ عشيقًا في أية لحظة تقريبًا، لكن بالنسبة لرجل تنجب منه طفلًا... انتظري! انتظري! إنها مسألة مختلفة تمامًا.- « طُوفُوا فِي شَوَارِعِ أُورُشَلِيمَ وَانْظُرُوا، وَاعْرِفُوا وَفَتِّشُوا فِي سَاحَاتِهَا..». لم تكن مسألة حب؛ كانت مسألة **إنسان**. لماذا، شخص ربما حتى تكرهه شخصيًّا إلى حد ما. لكن إن كان إنسانًا، ماذا تعني الكراهية الشخصية؟ هذا الأمر يعني جزءًا آخر من ذاتها.

تمطر السماء كالمعتاد، وتبتل الطرقات بشكل يعوق حركة كرسي كلفورد، لكن كوني تخرج. تخرج كل يوم، إلى الخميلة غالبًا، حيث تكون وحيدة حقًّا. لا ترى أحدًا هناك.

لكن في هذا اليوم أراد كلفورد أن يرسل رسالة إلى الحارس، ولأن الخادم يرقد مصابًا بالإنفلونزا،- بدا دائمًا أن في راجبي شخصًا مصابًا بالإنفلونزا،- تقول كوني إنها يمكن أن تتوقف عند الدار.

الهواء نديٌّ وساكنٌ، وكأن العالم كله يحتضر ببطء. الجو رماديٌّ ونديٌّ وصامتٌ، حتى من صوت آلات المناجم، لأن المناجم تعمل وقتًا قصيرًا، وهي اليوم متوقفة تمامًا. نهاية كل شيء!

في الخميلة كل شيء خامل وثابت تمامًا، هناك فقط قطرات كبيرة تتساقط من الأغصان الجرداء، بصوت ارتطام أجوف خافت. وبالنسبة

للبقية، الأشجار القديمة عميقة بعمق الرمادي، الخمول اليائس، الصمت، العدم.

تواصل كوني السير بتكاسل. تأتي من الخميلة القديمة سوادوية عتيقة، كانت مريحة لها بشكل ما، أفضل من البلادة القاسية في العالم الخارجي. تحب **جوهر** بقايا الغابة، التحفظ الصامت للأشجار القديمة. تبدو الأشجار قوية جدًّا في وجود صامت وحيوي. تنتظر أيضًا: تنتظر بعناد ورزانة، وتطلق قوة الصمت. ربما لا تنتظر إلا النهاية؛ أن تُقطَع، وتُقتلَع، نهاية الخميلة، بالنسبة للأشجار نهاية كل شيء. لكن ربما كان صمتها القوي الأرستقراطي، صمت الأشجار القوية، يعني شيئًا آخر.

وكوني تخرج من الخميلة على الجانب الشمالي، دار الحارس، دار مظلمة، من الحجر البني، بجملوناتها ومدخنتها الجميلة، وقد بدت غير مأهولة، وحيدة يخيم عليها الصمت. لكن خيطًا من الدخان يرتفع من المدخنة، والحديقة الصغيرة المسيجة أمام المنزل محفورة ومنسقة جدًّا. والباب مغلق.

هنا تشعر ببعض الخجل من الرجل، بعينيه الغريبتين الحادتين. لا ترغب في إبلاغه بالأوامر، وتشعر بالرغبة في الانصراف مرة أخرى. تطرق طرقة خفيفة، ولا يأتِي أحد. تطرق مرة أخرى، لكنها ليست طرقة مرتفعة. ولا يأتِي رد. تختلس النظر من النافذة، وترى الغرفة الصغيرة المظلمة، بخصوصيتها الشريرة تقريبًا، تأبى أن تخترق.

تقف وتنصت، وبدا لها أنها تسمع أصواتًا خلف الكوخ. وقد فشلتْ في أن تجعل صوتها مسموعًا، يزداد حماسها، ولا تريد أن تُهزَم.

تمضي إلى الجانب الآخر من المنزل. الأرض خلف الدار ترتفع بحدة، وبالتالي كان الفناء الخلفي مغمورًا بالمياه، ومحاطًا بجدار حجري منخفض. تستدير إلى ركن المنزل وتقف. كان الرجل، في الفناء الصغير خلفها بخطوتين، يغتسل، غير منتبه تمامًا. كان عاريًا حتى الوركين، وبنطلونه المخملي ينزلق على خاصرتيه النحيلتين. وظهره الأبيض الممشوق ينحني على وعاء كبير به ماء وصابون، وقد غمس رأسه فيه، محركًا رأسه حركة غريبة ضئيلة وسريعة، رافعًا ذراعيه البيضاوين النحيلتين، وضاغطًا الماء بالصابون من أذنيه، بسرعة وبراعة مثل ابن عرس يلعب بالماء، ووحيدًا تمامًا. تتراجع كوني مبتعدة حول ركن المنزل، وتسرع إلى الخميلة. ورغمًا عنها تُصدَم. رغم كل شيء، مجرد رجل يغتسل، أمر مألوف تمامًا، لا أحد يعلم!

لكنها بطريقة غريبة تجربة بصرية: ضربتها في منتصف الجسد. رأت البنطلون غير الملائم ينزلق على الخاصرتين البيضاوين النقيتين الرقيقتين، والعظام تبرز قليلًا، وقد غمرها الإحساس بالوحدة، بمخلوق وحيد تمامًا. عري تام أبيض منعزل لمخلوق يعيش وحيدًا، ووحيدًا روحيًّا. وأبعد من ذلك، جمال معين لمخلوق نقي. ليست مادة جميلة، أو حتى جسدًا جميلًا، بل ومضة، الدفء، لهب أبيض لحياة مفردة، تتكشف في ملامح يمكن أن تلمسها: جسد!

تتلقى كوني صدمة الرؤية في رحمها، وتعرف؛ تتمدد داخلها. لكنها في عقلها تميل للسخرية. رجل يغتسل في فناء خلفي! لا شك بصابون أصفر بشع الرائحة! تنزعج؛ لماذا تهتم بهذه الخصوصيات المبتذلة؟

تسير مبتعدة عن نفسها، لكنها تجلس بعد وهلة على جذع. ترتبك بدرجة تجعلها عاجزة عن التفكير. لكن في ثنايا ارتباكها، تعزم على نقل الرسالة إلى الرجل. ينبغي ألا تفشل. عليها أن تمنحه وقتًا ليرتدي ملابسه، لكن ليس وقتًا ليخرج. ربما يستعد للخروج إلى مكان ما.

هكذا تعود وهي تمشي ببطء، تنصت. وهي تقترب، تبدو الدار كما كانت بالضبط. تنبح كلبة، تطرق على الباب، يدق قلبها رغمًا عنها.

تسمع الرجل يأتي من الدور الأرضي بخفة. يفتح الباب بسرعة، ويحدق فيها. يبدو قلقًا، لكن ضحكة ظهرت على وجهه على الفور.

يقول: «ليدي تشاترلي! ستدخلين؟».

كان تصرفه مريحًا وجيدًا، تتخطى العتبة إلى غرفة صغيرة كئيبة.

تقول بصوتها الرقيق، اللاهث إلى حد ما: «جئت فقط برسالة من السير كلفورد».

ينظر الرجل إليها بعينيه الزرقاوين الثاقبتين، فتحول وجهها جانبًا بعض الشيء. يعتقد أن وسامتها، جمالها تقريبًا، في خجلها، ويأخذ زمام المبادرة على الفور.

«هل لك أن تجلسي؟» سأل، مفترضًا أنها لن تجلس. وبقي الباب مفتوحًا.

«شكرًا! يسأل السير كلفورد إن كنت سوف..». ونقلت رسالتها، ناظرة بدون وعي في عينيه مرة أخرى. والآن تبدو عيناه دافئتين وعطوفتين، وخاصة لامرأة، دافئتين وعطوفتين بشكل مدهش، وهادئتين.

«حسنًا جدًّا، سموك. سوف أقوم بالمهمة على الفور».

وقد صدر له أمر، يتغير تمامًا، يبدو عليه نوع من الصلابة والشرود. تتردد كوني، يجب أن تذهب. لكنها تنظر إلى غرفة الجلوس، النظيفة الصغيرة المرتبة، والكئيبة، بما يشبه الفزع.

تسأل: «هل تعيش هنا وحيدًا تمامًا؟».

«وحيدًا تمامًا، سموك».

«لكن أمك..».

«تعيش في دارها في القرية».

تسأل كوني: «مع الطفلة؟».

«مع الطفلة!».

وأخذ وجهه البسيط المرهق مظهرًا غير محدد من السخرية. كان وجهًا يتغير طول الوقت، كان مذهلًا.

يقول، وهو يرى كوني تقف حائرة: «لا، تأتي أمي وتنظف لي المكان أيام السبت؛ وأقوم بالباقي بنفسي».

تنظر كوني إليه مرة أخرى. عيناه تبتسمان مرة أخرى، ببعض السخرية، لكنهما دافئتان وزرقاوان، وعطوفتان. تندهش منه. كان يرتدي بنطلونًا وقميصًا من الفانيلا وربطة عنق رمادية، وكان شعره ناعمًا ورطبًا، ووجهه شاحبًا ومرهقًا. حين توقفت العينان عن الضحك بدا كأنهما تعانيان بقدر كبير، لكنهما لا تفقدان دفئهما. لكن بدا عليه شحوب العزلة، كان شاردًا عنها حقًّا.

ترغب في قول أشياء كثيرة جدًّا، ولا تقول شيئًا. تنظر إليه مرة أخرى، وتقول:

«أتمنى ألا أكون قد أزعجتك؟».

تضيق ابتسامة السخرية الشاحبة عينيه.

«أمشط شعري فقط، إن لم يكن لديك مانع. آسف لأنني لم أرتدِ معطفًا، لكنني لم أكن أعرف من يطرق الباب. لا أحد يطرق الباب هنا، وغير المتوقع يبدو منذرًا بسوء».

يمضي أمامها إلى ممر الحديقة ليمسك بالبوابة. بقميصه، بدون المعطف القطيفة غير الملائم، ترى مرة أخرى كم كان نحيفًا، هزيلًا، محدبًا قليلًا. لكن، وهي تمر به، كان هناك شيء شاب ومشرق في شعره الأشقر، وعينيه الحادتين. كان رجلًا في السابعة والثلاثين أو الثمانية والثلاثين تقريبًا.

تتهادى إلى الخميلة، وهي تعرف أنه يراقبها؛ يسبب لها اضطرابًا شديدًا، رغمًا عنها.

يفكر وهو يدخل الكوخ: «إنها لطيفة، لطيفة حقًّا! ألطف مما تعرف».

تحتار في أمره كثيرًا؛ لا يبدو مثل حارس طرائد، أو مثل عامل على أية حال؛ رغم أن فيه شيئًا مشتركًا مع السكان المحليين. لكن فيه أيضًا شيئًا غير مألوف تمامًا.

تقول لكلفورد: «ملورز، حارس الطرائد، شخص غريب، ربما يكون جنتلمان».

يقول كلفورد: «ربما؟ لم ألاحظ».

تلحُّ كوني: «لكن أليس فيه شيء خاص؟».

«أعتقد أنه رجل لطيف تمامًا، لكن لا أعرف الكثير عنه. رجع من الجيش العام الماضي فقط، منذ أقل من سنة. من الهند، على ما أعتقد. ربما تعلم بعض الحيل هناك، وربما كان مراسلًا لضابط، وتحسن وضعه. كان بعض الرجال مثله. لكن ذلك لم يفدهم، كان عليهم الرجوع إلى أوضاعهم القديمة حين عادوا إلى الوطن مرة أخرى».

تحدق كوني في كلفورد بتأمل. ترى فيه الرفض القوي الغريب لأي شخص من الطبقات الدنيا قد يترقى حقًّا، وكانت تعرف أنها سمة من سمات سلالته.

تسأل: «لكن ألا تعتقد أن فيه شيئًا خاصًّا؟».

«بصراحة، لا! لم ألاحظ شيئًا».

تنظر إليه باستغراب وقلق وما يشبه الريبة. وتشعر أنه لا يخبرها بالحقيقة؛ لا يخبر نفسه بالحقيقة، هذه هي الحقيقة. يكره أي إيحاء بوجود إنسان استثنائي حقًّا. ينبغي أن يكون الناس في مستواه تقريبًا، أو أقل.

تشعر كوني مرة أخرى بصرامة رجال جيلها وشحِّهم. كانوا صارمين جدًّا، ومذعورين جدًّا من الحياة!

* * *

الفصل السابع

حين تصعد كوني إلى غرفة نومها تفعل ما لم تفعله منذ وقت طويل: تخلع كل ملابسها، وتنظر إلى نفسها عارية في المرآة الضخمة. لا تعرف ما تبحث عنه، أو لا تعرفه بالتحديد، لكنها تحرك المصباح ليلقي الضوء على جسمها كله.

تفكر، كما فكرتْ في كثير من الأحيان، كم أن جسد الإنسان هش، يُؤذَى بسهولة، مثير للشفقة، وهو عارٍ؛ لم يكتمل قليلًا، ناقص بشكل ما!

كانت تعتقد أنها جميلة إلى حد ما، لكنها الآن عفا عليها الزمن: ليست مفرطة الأنوثة، ولا تشبه صبيًّا مراهقًا. ليست فارعة الطول، بل أسكتلندية قصيرة؛ تتمتع بطلاوة رشيقة انسيابية قد تتسم ببعض الجمال. وبشرتها سمراء إلى حد ما، وفي أطرافها بعض الخشونة، كان جسدها يتمتع بثراء انسيابي كامل؛ لكنه فَقَدَ شيئًا ما.

كان جسدها، بدل الانحناءات الرائعة المكتنزة الانسيابية، مستويًا وجافًّا. وكأنه لم يحصل على ما يكفي من الشمس والدفء؛ كان رماديًّا ويفتقر إلى الحيوية.

لم يصبح جسدها، محبطًا من نسويته الحقيقية، صبيانيًّا، وضعيفًا، وشفافًا؛ لكنه صار قاتمًا.

كان ثدياها صغيرين إلى حد ما، يشبهان الكمثرى المتدلية. لكنهما غير ناضجين، ومران بعض الشيء، يتدليان بلا معنى. وفقد بطنها البريق البض المستدير الذي كان يتسم به وهي صغيرة، في أيام الفتى الألماني، الذي أحبها جسديًّا حقًّا. حينذاك كان نضرًا ومتحفزًا، بمظهر حقيقي يميزه. لكنه الآن مترهل، ومستوٍ قليلًا، وأكثر نحافة، لكنها نحافة مترهلة. وفخذاها، أيضًا، وكانا يبدوان عادة رشيقين ولافتين باستدارتهما الأنثوية، مستويان ومترهلان بشكل ما، وبلا معنى.

يصبح جسدها بلا معنى، يصبح باهتًا وقاتمًا، مادة تافهة إلى حد بعيد. تشعر بأنها مكتئبة ويائسة للغاية. أي أمل هناك؟ كانت عجوزًا، عجوزًا في السابعة والعشرين، بدون بريق أو تألق في جسدها. عجوزًا من الإهمال والإنكار، أجل الإنكار. تحافظ النساء العصريات على أجسادهن مشرقة مثل البورسلين الرقيق، بالاهتمام الخارجي. لا شيء داخل البورسلين؛ لكنها ليست حتى متألقة مثلهن. الحياة الذهنية! فجأة تكرهها بغضب شديد، إنها خدَّاعة!

تنظر في انعكاس المرآة الأخرى إلى ظهرها، ووسطها، وخاصرتيها. كانت أنحف، لكنها ليست نحافة مناسبة. كان تجعيد وسطها من الظهر، حين انحنت للخلف لتنظر، مزعجًا بعض الشيء، وكان عادة يبدو مثيرًا جدًّا. والانحدار الطويل لوركيها وردفيها فقد بريقه وثراءه. انتهى! أحبه الفتى الألماني وحده، وقد مات منذ عشر سنوات، وقت قريب

جدًّا. كيف مر الوقت! عشر سنوات من الموت، وهي الآن في السابعة والعشرين. الفتى صحيح البدن بشهوانيته الناضرة الخرقاء وقد ازدرتها بشدة حينها! أين تجدها الآن؟ انتهت من الرجال. لديهم تقلصات مثيرة للشفقة لا تدوم أكثر من ثانيتين، مثل ميكاليس؛ لكن ليست هناك شهوانية إنسانية صحيحة، تدفئ الدماء وتنعش الكائن كله.

لكنها مازالت تعتقد أن أجمل جزء فيها هو السقوط المنحدر الطويل للوركين من تجويف الظهر، والتماسك الهادئ المستدير للردفين. مثل رابيتين من الرمال، كما يقول العرب، ناعمتين ومنزلقتين إلى أسفل بانحدار طويل. هنا مازالت الحياة باقية ببعض الأمل. لكنها هنا أيضًا أكثر نحافة، فجة، وحادة.

لكن واجهة جسدها تصيبها بالبؤس. بدأت تترهل، ترهل النحافة، كانت ذابلة تقريبًا، عجوزًا قبل أن تعيش حقًّا. تفكر في الطفل الذي قد تحمله. هل صحتها ملائمة، على أية حال؟

ترتدي ملابس النوم، وتذهب إلى السرير، وتنتحب بمرارة. وفي مرارتها يشتعل حقد بارد ضد كلفورد، وكتاباته وأحاديثه: ضد كل صنفه من الرجال الذين سلبوا من المرأة حتى جسدها.

ظلم! ظلم! يشتعل الإحساس بظلم جسدي عظيم في أعماق روحها.

تستيقظ في السابعة صباحًا، وتنزل إلى كلفورد في الدور الأرضي. عليها أن تساعده في كل الأمور الحميمة، لأنه ليس لديه رجل، ويرفض

الخادمة. كان زوج مديرة المنزل، وقد عرفه وهو صبي، يساعده، ويقوم بكل الأعباء الثقيلة؛ لكن كوني تقوم بالأمور الشخصية، وتفعلها عن طيب خاطر. الأمر صعب عليها، لكنها تود القيام بما تستطيع.

لم تبعد عن راجبي إلا نادرًا، ولم تبعد عنها قط لأكثر من يوم أو اثنين؛ وعندها تقوم مسز بيتس، مديرة المنزل، برعاية كلفورد. وقد اعتبر، بشكل حتمي بمرور الزمن، كل الخدمات أمرًا مفروغًا منه. وكان من الطبيعي أن يفعل ذلك.

لكن بدأ إحساس بالظلم، بالخداع، يشتعل في أعماق كوني. الإحساس الجسدي بالظلم شعور خطير، بمجرد إيقاظه. لابد من مخرج، وإلا نهش من استيقظ فيه. لا يلام كلفورد المسكين على ذلك. كانت مصيبته أكبر. كانت جزءًا من الكارثة العامة.

لكن ألا يجب أن يلام حقًّا؟ ألا يلام على هذا الانعدام للدفء، هذا الانعدام للاتصال الجسدي الدافئ البسيط؟ لم يكن دافئًا حقًّا قط، أو حتى عطوفًا، كان مفكرًا فقط، حذرًا، ببرود شخص حسن التربية! لكنه لم يكن قط دافئًا كما يمكن للرجل أن يكون دافئًا بالنسبة للمرأة، أو حتى كما كان والد كوني دافئًا بالنسبة لها، دفء رجل يعتني بنفسه، وينوي العناية بنفسه، لكنه مازال يستطيع أن يريح المرأة ببعض البريق الذكوري.

لكن كلفورد ليس على تلك الشاكلة. سلالته كلها ليست على هذه الشاكلة. كانوا جميعًا صارمين حقًّا وباردين، والدفء بالنسبة لهم ليس إلا ذوقًا فاسدًا. عليك أن تواصل بدونه، وتنجح مثل الآخرين؛ إنه أمر جيد تمامًا إن كنت من الطبقة نفسها والسلالة. حينذاك يمكن أن تبقى

باردًا وتكون جديرًا بالاحترام، وتنجح مثل الآخرين، وتتمتع بنشوة النجاح. لكن إن كنت من طبقة أخرى ومن سلالة أخرى لن يكون الأمر مناسبًا؛ ليستْ هناك مزحة في مجرد أن تنجح مثل الآخرين، وتشعر بأنك تنتمي للطبقة الحاكمة. ما القضية، حين لا يكون لدى حتى أذكى الأرستقراطيين شيء إيجابي يخصه ليحتفظ به، ويكون حكمه مهزلة حقيقية، وليس حكمًا إطلاقًا؟ ما القضية؟ كل شيء هراء بارد.

يكمن إحساس بالتمرد في أعماق كوني. أية فائدة من هذا كله؟ ما فائدة تضحيتها، تكريسها حياتها لكلفورد؟ ماذا تخدم، رغم ذلك؟ روحًا باردة خاوية، بدون أي ارتباطات إنسانية دافئة، فاسدة مثل أي يهودي وضيع، في توقها للعهر مع الربة العاهرة، النجاح. وحتى برود كلفورد وتأكيده المنفرد بالانتماء للطبقة الحاكمة لا يمنع لسانه من أن يتدلى من فمه، وهو يلهث خلف الربة العاهرة. وكان ميكاليس، رغم ذلك، أكثر كرمًا حقًّا في المسألة، وأكثر نجاحًا بكثير، بكثير. حقًّا، إذا نظرْتَ عن قرب لكلفورد، لرأيت أنه مهرج، مهرج أكثر إذلالًا من شخص وقح.

وبالمقارنة بين الرجلين، كان ميكاليس أكثر فائدة حقًّا بالنسبة لها من كلفورد. كان حتى احتياجه لها أكثر. أية ممرضة جيدة يمكن أن ترعى ساقين عاجزتين! وبالنسبة للجهد البطولي، ميكاليس فأر بطولي، كلفورد إلى حد بعيد كلب يستعرض.

كان في المنزل أناس مقيمون، ومنهم إيفا، خالة كلفورد، الليدي بنرلي. امرأة نحيفة في الستين، بأنف أحمر، أرملة، مازالت تحتفظ بسمات «سيدة جليلة». تنتمي لواحدة من أفضل العائلات، وتتمتع

بشخصية قادرة على تجاوز الصعاب. كانت كوني معجبة بها، كانت بسيطة وصريحة تمامًا، بقدر ما تسعى إلى أن تكون صريحة، وعطوفة ظاهريًّا. في أعماقها كانت سيدة سابقة في تحقيق النجاح، وفي التعامل مع أناس أدنى بعض الشيء. لم تكن متكبرة إطلاقًا: واثقة جدًّا من نفسها. كانت رائعة في رياضة النجاح الاجتماعي ببرود، وجعل الآخرين يذعنون لها.

كانت عطوفة مع كوني، وحاولت أن تبث فيها روح المرأة بالمثقاب الحاد لملاحظاتها الأصيلة.

تقول لكوني: «أنت مدهشة جدًّا في رأيي، فعلْتِ أشياء مدهشة من أجل كلفورد. لم أر أنا نفسي قط أية عبقرية متبرعمة، وها هو ذا، غاضب تمامًا». كانت الخالة إيفا فخورة برضا تام بنجاح كلفورد. ريشة أخرى في قبعة العائلة! لم تهتم قط بكتبه، لكن لماذا تهتم؟

تقول كوني: «أوه، لا أعتقد أن ذلك من صنعي».

«لابد أنه من صنعك! لا يمكن أن يكون من صنع أحد آخر. ويبدو لي أنك لم تحصلي على ما يكفي منه».

«كيف؟».

«انظري إلى الطريقة التي تغلقين على نفسك بها هنا. قلْتُ لكلفورد: إذا تمردت هذه الفتاة ذات يوم فأنت المسئول!».

تقول كوني: «لكن كلفورد لا ينكر عليَّ شيئًا أبدًا».

«انظري هنا، يا ابنتي العزيزة»- وتضع الليدي بنرلي يدها النحيفة

على ذراع كوني. «على المرأة أن تعيش حياتها، أو تعيش لتندم على أنها لم تعشها. صدقيني!» وترشف رشفة أخرى من البراندي، وربما كانت طريقتها في الندم.

«لكنني أعيش حياتي، أليس كذلك؟».

«لا، على ما أعتقد! على كلفورد أن يصحبك إلى لندن، ويتركك تتجولين. كل أصدقائه من النوع المناسب له، لكن من هم بالنسبة لك؟ لو كنت مكانك لاعتقدت أن هذا ليس جيدًا بما يكفي. تتركين شبابك يفلت منك، وسوف تقضين شيخوختك، ومنتصف عمرك أيضًا، في الندم عليه».

تتوقف في صمت تأملي، يلطفه البراندي.

لكن كوني لم تكن حريصة على الذهاب إلى لندن، والليدي برنلي توجهها إلى العالم الرائع. لا تشعر حقًّا أنه رائع، ليس مثيرًا. وتشعر بالبرود الغريب المدمر تحت هذا كله؛ مثل تربة لابرادور[1]، زهورها الصغيرة مبهجة على السطح ومتجمدة على بعد قدم تحتها.

كان تومي دوكس في راجبي، ورجل آخر، هاري ونترسلو، وجاك سترنجويز مع زوجته أوليف. كان الحديث مفككًا أكثر مما يحدث في وجود الأصدقاء الحميمين فقط، ويشعر الجميع ببعض الملل، لأن الطقس سيئ، ولم يكن هناك إلا البلياردو، والبيانولا للرقص.

---

(١) منطقة متميزة شمالية من إقليم نيوفاوندلند ولابرادور، كندا.

كانت أوليف تقرأ كتابًا عن المستقبل، حين يُنجَب الأطفال في زجاجات و«تُعقَّم» النساء.

تقول: «شيء جيد وظريف أيضًا! عندها يمكن للمرأة أن تعيش حياتها». كان سترنجويز يريد أطفالًا، وهي لا تريد.

يسألها ونترسلو، بابتسامة بشعة: «هل تودين أن تُعقَّمي؟».

تقول: «أتمنى؛ من الطبيعي. وعلى أية حال سيكون المستقبل أكثر حساسية، ولن تحتاج المرأة إلى تشقى **بوظائفها**».

يقول دوكس: «ربما تحلق في الفضاء تمامًا».

يقول كلفورد: «أعتقد أنه ينبغي لحضارة كافية أن تقضي على الكثير من الإعاقات الجسدية. مسألة الحب كلها على سبيل المثال، قد تنتهي أيضًا. أعتقد أن ذلك يمكن أن يحدث لو تمكنا من إنجاب الأطفال في زجاجات».

تصيح أوليف: «لا! قد يترك ذلك المساحة الأكبر للمرح».

تقول الليدي بنترلي، بتأمل: «أعتقد أنه لو انتهت مسألة الحب، فسوف يحل شيء آخر محلها. ربما المورفين. قليل من المورفين في الهواء كله. ينعش الجميع بشكل مدهش».

يقول جاك: «تطلق الحكومة الإثير في الجو أيام السبت، لتكون نهاية الأسبوع مبهجة! يبدو الأمر صحيحًا، لكن أين نكون بحلول الأربعاء؟».

تقول الليدي بنترلي: «تكون سعيدًا طالما يمكن أن تنسى جسدك. وحين تبدأ الشعور بجسدك، تكون بائسًا. وهكذا، إذا كان للحضارة أية

فائدة، فعليها أن تساعدنا على نسيان أجسادنا، ليمر الوقت بسعادة بدون أن نعرف».

يقول ونترسلو: «تساعدنا على التخلص من أجسادنا تمامًا. يكون الوقت مناسبًا تمامًا ليبدأ الإنسان تحسين طبيعته، وخاصة الجانب الفيزيائي منها».

تقول كوني: «تخيلوا أننا نحلق مثل دخان التبغ».

يقول دوكس: «لن يحدث. عرضنا القديم ينهار؛ تسقط حضارتنا. تسقط في حفرة بلا قاع، إلى الهاوية. وصدقوني، يكون القضيب الجسر الوحيد عبر الهاوية!».

تصيح أوليف: «أوه قد! قد يكون مستحيلًا، يا جنرال!».

تقول الخالة إيفا: «أعتقد أن حضارتنا ستنهار».

يسأل كلفورد: «وماذا يأتي بعدها؟».

تقول الليدي العجوز: «لا أعرف، لكن سيأتي شيء ما، على ما أعتقد».

يقول كلفورد: «تتحدث كوني عن أناس مثل خيوط الدخان، وتتحدث أوليف عن نساء معقمات، وأطفال في زجاجات، ويتحدث دوكس عن أن القضيب هو الجسر لما يأتي بعد ذلك. أتساءل ماذا يكون حقًّا؟».

تقول أوليف: «أوه، لا تبالِ! لنعش اليوم. أسرع فقط بزجاجات النسل، لنسترح نحن النساء المسكينات».

يقول تومي: «في المرحلة القادمة قد يوجد حتى رجال حقيقيون. رجال حقيقيون وأذكياء ومفيدون، ونساء رائعات مفيدات! ألن يكون هذا تغييرًا، تغييرًا هائلًا بالنسبة لنا؟ **لسنا** رجالًا، والنساء لسن نساء. نفكر فقط في صنع التحولات، في التجارب الميكانيكية والفكرية. قد تأتي حتى حضارة برجال ونساء حقيقيين، بدلًا من مجموعتنا الصغيرة المتغطرسة، الكل مهرة في سن السابعة. سيكون هذا أكثر إثارة للدهشة من رجال الدخان أو أطفال الزجاجات».

تقول أوليف: «أوه، حين يبدأ الناس الحديث عن نساء حقيقيات، أستسلم».

يقول ونترسلو: «بالتأكيد لا شيء فينا جدير بالوجود سوى الروح».

يقول جاك وهو يشرب الويسكي بالصودا: «الأرواح!».

يقول دوكس: «هل تعتقد ذلك؟ أعطني قيامة الجسد! لكنها ستأتي، في الوقت المناسب، حين ندفع حجر العقل قليلًا، والمال وما تبقى. حينها نحصل على ديمقراطية تحريك المشاعر، بدلًا من ديمقراطية الجيب».

يتردد صدى شيء ما في أعماق كوني: «أعطني ديمقراطية تحريك المشاعر، قيامة الجسد!» لا تعرف ماذا تعني بالضبط، لكنها تريحها، كما قد تريحها أشياء بلا معنى.

على أية حال، كان الحديث كله سخيفًا بشكل رهيب؛ تضجر بسخط من هذا كله، من كلفورد، من الخالة إيفا، من أوليف وجاك، وونترسلو، وحتى من دوكس. حديث، حديث، حديث! بحق الجحيم ما هذا كله،

الحشرجة المستمرة لهذا كله!

لا يتحسن الحال بعد انصراف الجميع. تظل تتهادى، يسيطر السخط والتوتر على الجزء السفلي من جسدها، ولا تستطيع الهروب منهما. يبدو أن الأيام تسحقها، بآلام غريبة، لكن لا يحدث شيء. تصبح أكثر نحافة؛ حتى مديرة المنزل تلاحظ وتسألها عن حالها. ويصر حتى تومي دوكس على أنها ليست بحالة جيدة، مع أنها قالت إنها بخير. يبدأ الشعور بالخوف من شواهد القبور البيضاء المروعة، ذلك البياض المقرف الغريب لرخام كرارا[1]، المقيت مثل أسنان زائفة، الملصق على جانب الهضبة، تحت كنيسة تفرشال، وقد رأته من المنتزه بهذا الألم المحبط. يصيبها بروز الأسنان الزائفة البشعة لشواهد القبور على الهضبة بهلع رهيب. تشعر بأن وقت دفنها هناك لم يعد بعيدًا، حيث تضاف للحشد المروع تحت شواهد القبور والنصب التذكارية، في ميدلندز القذرة.

تحتاج إلى مساعدة، وتعرف ذلك: ولذا تكتب **صرخة من القلب**[2] إلى أختها هيلدا. «لست بحالة جيدة في الفترة الأخيرة، ولا أعرف ماذا أصابني».

تستدعي هيلدا من أسكتلندا، حيث تقيم. تأتي في مارس، وحدها، تقود سيارة سريعة بمقعدين. تصل إلى الممر، تزمر عند المنحدر، ثم تدور حول المنطقة البيضاوية المعشبة، حيث تقف شجرتا الزان البريتان الضخمتان، على أرض مستوية أمام المنزل.

---

(١) كرارا: بلدة في جنوب غرب إيطاليا.

(٢) صرخة من القلب: بالفرنسية في الأصل.

تخرج كوني مسرعة إلى الدرج. توقف هيلدا السيارة، وتخرج، وتقبّل أختها.

تصيح: «لكن كوني! ما الأمر؟».

تقول كوني بخجل: «لا شيء!» لكنها تدرك مدى ما تعانيه مقارنة بهيلدا. كانت الأختان تتمتعان بالبشرة الذهبية البراقة نفسها، والشعر البني الناعم، وجسد دافئ قوي بشكل طبيعي. لكن كوني صارت نحيفة وكئيبة، بعنق نحيل مصفر، يبرز من سترتها.

تقول هيلدا، بصوت رقيق لاهث، وكانت الأختان تتمتعان به على حد سواء: «لكنك مريضة يا ابنتي!» كانت هيلدا أكبر من كوني بعامين تقريبًا.

تقول كوني ببؤس: «لا، لست مريضة. ربما ضجرة».

يلمع نور الكفاح في وجه هيلدا؛ كانت امرأة، رقيقة وهادئة كما تبدو، أمازونية قديمة، لا تلائم الرجال.

تقول بهدوء، وهي تنظر إلى راجبي البائس القديم الممل بكراهية حقيقية: «هذا المكان البائس». تبدو رقيقة ودافئة، مثل كمثرى ناضجة. أمازونية من السلالة القديمة الحقيقية.

تدخل بهدوء إلى كلفورد. يفكر في وسامتها، وينقبض أيضًا منها. لا تتمتع عائلة زوجته بالأخلاق، أو الأتيكيت الذي يتمتع به. كان يعتبرها دخيلة، لكن بمجرد الدخول جعلته يقوم بالكثير من الأمور الصعبة.

كان يجلس منتصبًا ومهندمًا في مقعده، بشعره الأشقر الناعم،

ووجهه النضر، وعيناه الزرقاوان شاحبتان، وجاحظتان بعض الشيء، وتعبيره مبهم، لكنه مهذب. تعتقد هيلدا أنه متجهم وغبي، وكان ينتظر. ينم مظهره عن الثقة، لكن هيلدا لا تهتم بما ينم عنه مظهره؛ كانت غاضبة جدًّا، ولو كان البابا أو الإمبراطور لما اختلف الأمر.

تقول بصوتها الرقيق: «تبدو كوني معتلة بشكل بشع»، محدقة فيه بعينيها الجميلتين الرماديتين المتألقتين. تنظر إليه بشكل مهذب، وهو ما تفعله كوني؛ لكنه كان يعرف جيدًا نبرة العناد الأسكتلندي تحتها.

يقول: «إنها أنحف بعض الشيء».

«هل فعلْتَ شيئًا بشأن ذلك؟».

يسأل، بجموده الإنجليزي الدمث، لأن الاثنين يسيران معًا غالبًا: «هل تعتقدين أن هذا ضروري؟»

تحملق فيه هيلدا بانشداه ولا ترد؛ لم يكن حضور البديهة مكمن قوتها هي أو كوني؛ فحدقت بانشداه، وكان أكثر انزعاجًا بكثير مما لو قالت الكثير.

أخيرًا تقول هيلدا: «سآخذها إلى طبيب. هل تقترح طبيبًا بالقرب من هنا؟».

«أخشى أنني لا أستطيع».

«آخذها إذًا إلى لندن، حيث نعرف طبيبًا نثق فيه».

لا يقول كلفورد شيئًا، رغم أنه يغلي من الغيظ.

تقول هيلدا، وهي تنزع قفازها: «أعتقد أننا قد نقضي الليلة أيضًا،

وآخذها بالسيارة إلى المدينة غدًا».

يصفر منخارا كلفورد غضبًا، وفي المساء يصفر بياض عينيه بعض الشيء أيضًا. كان كبده في حالة سيئة. لكن هيلدا كانت متواضعة ومهذبة باستمرار.

تقول هيلدا وهم جلوس، بهدوء واضح، يتناولون القهوة بعد العشاء: «عليك أن تحضر ممرضة أو شخصًا ما ليرعاك شخصيًّا». تحدثت بطريقتها الرقيقة بشكل يبدو مهذبًا، لكن كلفورد يشعر أنها تضربه على رأسه بهراوة.

يقول ببرود: «هل تعتقدين ذلك؟».

«بالتأكيد! ضروري. إما أن تفعل ذلك، أو نأخذ، أبي وأنا، كوني بعيدًا بضعة أشهر. لا يمكن لهذا الوضع أن يستمر».

«ما الذي لا يمكن أن يستمر؟».

تسأل هيلدا محدقة فيه تمامًا: «ألا تتطلع إلى طفل!» فيبدو مثل أستاكوزا ضخمة، تغلي في الحال؛ أو هكذا اعتقدتْ.

يقول: «سنناقش الأمر أنا وكوني».

تقول هيلدا: «ناقشْتُه معها بالفعل».

قضى كلفورد فترة طويلة في أيدي الممرضات؛ وكرههن، لأنهن لم يتركن له خصوصية حقيقية. وخادم!... لا يمكن أن يحتمل رجلًا بقربه. أية امرأة أفضل غالبًا. لكن لماذا لا تكون كوني؟

تنطلق الأختان في الصباح، وكانت كوني تبدو مثل حمل عيد

الفصح، صغيرة بجانب هيلدا التي تمسك بعجلة القيادة. لم يكن السير مالكولم هناك، لكن كنسنجتون هاوس مفتوح.

يفحص الطبيب كوني بعناية، ويسألها عن كل جوانب حياتها. «أرى صورتك الفوتوغرافية، وصورة السير كلفورد، في الصحف المصورة أحيانًا. مشهوران تقريبًا، أليس كذلك؟ هكذا تنشأ الفتيات الصغيرات الهادئات، مع أنك لست إلا فتاة صغيرة هادئة حتى الآن، رغم الصحف المصورة. لا، لا! لا يوجد خلل عضوي، لكن لن ينفع ذلك! لن ينفع ذلك! أخبري السير كلفورد أن عليه أن يأتي بك إلى المدينة، أو يأخذك إلى الخارج، ويسليك. يجب أن تتسلي، يجب! حيويتك متدنية جدًّا؛ لا يوجد احتياطي، لا يوجد احتياطي. أعصاب القلب غريبة بعض الشيء: أوه، أجل! لا شيء سوى الأعصاب؛ يمكن أن تصبحي أفضل في شهر في كان أو بياريتز[1]. لكن لا ينبغي أن يستمر هذا الوضع، **لا ينبغي**، أقول لك، أو لن أكون مسئولًا عن العواقب. تبددين حياتك بدون أن تجدديها. ينبغي أن تستمتعي، حقًّا، تستمتعي بشكل صحي. إنك تبددين حيويتك بدون جدوى. لا يمكن أن تستمري على هذا الوضع، تعرفين. الاكتئاب! تجنبي الاكتئاب!».

تطبق هيلدا فكها، وكان هذا يعني شيئًا ما.

يسمع ميكاليس أنهما في المدينة، فيأتي مسرعًا بالورود. صاح: «لماذا، ماذا أصابك؟ أنت هزيلة. لماذا، لم أر قط هذا التغير! لماذا لم تخبريني؟ تذهبين إلى نيس معي! إلى صقلية! نواصل، تذهبين إلى

(١) كان: مدينة فرنسية على المتوسط؛ بياريتز: بلدة فرنسية على الأطلسي.

صقلية معي. الجو رائع هنا الآن. تحتاجين إلى الشمس! تحتاجين إلى الحياة! لماذا، تضمحلين! تعالي معي! نذهب إلى أفريقيا! أوه، اتركي السير كلفورد! اتركيه فورًا، وتعالي معي. أتزوجك في الدقيقة التي يطلقك فيها. تعالي وجربي الحياة! الله محبة! ذلك المكان، راجبي يقتل أي إنسان. مكان بغيض! مكان قذر! يقتل أي إنسان! تعالي معي إلى الشمس! الشمس ما تحتاجين إليه، بالطبع، وجزء من الحياة الطبيعية».

لكن قلب كوني توقف عند فكرة هجر كلفورد على الفور. لا يمكن أن تفعل ذلك. لا... لا! لا يمكن تمامًا. عليها أن تعود إلى راجبي.

ينفر ميكاليس. لم تكن هيلدا معجبة بميكاليس، لكنها تفضله **غالبًا** على كلفورد. وتعود الأختان إلى ميدلندز.

تتحدث هيلدا إلى كلفورد، وكانت مقلتا عينيه مازالتا صفراوين حين عادتا. وكان، أيضًا، مُثَارًا بطريقته؛ لكن كان عليه أن يستمع إلى كل ما قالته هيلدا، إلى كل ما قاله الطبيب، وليس ما قاله ميكاليس، بالطبع، فجلس ملتزمًا الصمت حتى النهاية.

«هنا عنوان خادم طبيب، كان مع مريض عاجز من مرضى الطبيب حتى مات الشهر الماضي. إنه رجل طيب حقًّا، ومن المؤكد تمامًا أنه سيأتي».

يقول كلفورد، الشيطان المسكين: «**لسْتُ** عاجزًا، ولن يكون خادمي رجلًا».

«وهنا عنوانا امرأتين؛ رأيْتُ إحداهما، إنها مناسبة جدًّا؛ امرأة في

الخمسين تقريبًا، هادئة وقوية وعطوفة، ومثقفة بطريقتها..».

يقطب كلفورد جبينه، ولا يرد.

«حسنًا جدًّا، يا كلفورد. إن لم نصل لتسوية بحلول الغد، فسأرسل تلغرافًا إلى والدي، ونأخذ كوني معنا».

يسأل كلفورد: «هل ستذهب كوني؟».

«لا تريد، لكنها تعرف أنه لابد أن تذهب. ماتت الأم من سرطان، نتج عن التوتر. ولن نخاطر».

وهكذا يقترح كلفورد في اليوم التالي مسز بولتون، ممرضة أبرشية تفرشال. ومن الواضح أن مسز بيتس هي التي فكرت فيها. كانت مسز بولتون قد تقاعدت للتو من عملها في الأبرشية لتقوم بمهام تمريض خاصة. كان لدى كلفورد فزع رهيب من تسليم نفسه ليد غريبة، لكن مسز بولتون عالجته ذات يوم حين أصيب بالحمى القرمزية، وكان يعرفها.

تزور الأختان مسز بولتون على الفور، في منزل جديد منظم، مناسب تمامًا لتفرشال. تجدان امرأة حسنة المظهر في الأربعينيات من العمر، في زي ممرضة، بياقة بيضاء ومريلة، تصنع لنفسها شايًا في غرفة جلوس صغيرة مزدحمة.

مسز بولتون مجاملة ومهذبة إلى أقصى حد، تبدو لطيفة تمامًا، وتتحدث بشكل مبهم بعض الشيء، لكن بإنجليزية صحيحة تمامًا، ومن إشرافها على المرضى من عمال المناجم لسنوات طويلة، كان رأيها جيد جدًّا في نفسها، بقدر كبير من الثقة. باختصار كانت، بطريقتها الدقيقة،

واحدة من الطبقة الحاكمة في القرية، محترمة إلى حد بعيد.

«أجل، لا تبدو الليدي تشاترلي بحالة جيدة إطلاقًا! لماذا، اعتادت أن تكون قوية، أليست كذلك الآن؟ لكنها كانت واهية طوال الشتاء! أوه، إنه أمر صعب، صعب. السير كلفورد المسكين! إيه، تلك الحرب، الكثير يحتاج إلى إجابة».

ستأتي مسز بولتون إلى راجبي فورًا، إذا سمح لها الدكتور شاردلو. عليها العمل بالتمريض في الأبرشية أسبوعين آخرين، لكن قد يجدون بديلًا.

تبعث هيلدا برسالة إلى الدكتور شاردلو، وفي يوم الأحد التالي تنطلق مسز بولتون في سيارة أجرة ليفر إلى راجبي ومعها حقيبتان. تتحدث هيلدا معها؛ وكانت مسز بولتون مستعدة للحديث في أية لحظة. وبدت شابة جدًّا! بشغف يتوهج في وجنتها الشاحبة. كانت في السابعة والأربعين.

قُتِل زوجها، تيد بولتون، في المنجم، منذ اثنين وعشرين عامًا، مضى اثنان وعشرون عامًا في الكريسماس الأخير، في الكريسماس بالضبط، وتركها مع طفلتين، إحداهما رضيعة على ذارعيها. أوه، الرضيعة، إديث، متزوجة الآن، من شاب في شركة بوتس كاش كيميستس في شفيلد. والأخرى مدرسة في شسترفيلد: تأتي إلى البيت في العطلات الأسبوعية، حين لا تُدعَى تذهب إلى مكان آخر. يتمتع الشباب في هذه الأيام، ولم يعد الأمر كما كان في شباب إيفي بولتون.

كان تيد بولتون في الثامنة والعشرين حين قتل في انفجار في المنجم. صاح الزميل الذي في المقدمة طالبًا من الجميع الانبطاح بسرعة، وكانوا أربعة. انبطحوا جميعًا في الوقت المناسب، إلا تيد، فقتله الانفجار. وفي التحقيق قال أرباب العمل من جانبهم إن تيد أصيب بالفزع، وحاول الهرب، ولم يطع الأوامر، فبدا وكأنها غلطته حقًّا. وبالتالي كان التعويض ثلاثمائة جنيه فقط، جاءت وكأنها هبة وليست تعويضًا قانونيًّا، لأنها غلطة الرجل حقًّا. ولم يسمحوا لها بالحصول على المال مباشرة؛ كانت تريد أن تفتح محلًّا صغيرًا. لكنهم قالوا إنها ستبدد المبلغ بدون شك، ربما في السُّكر! وبالتالي كانت تسحب ثلاثين شلنًا أسبوعيًّا. أجل، كانت تذهب صباح كل اثنين إلى المكاتب، وتقف ساعتين في انتظار دورها؛ أجل، لأربع سنوات تقريبًا ذهبت كل اثنين. وماذا كان لها أن تفعل وطفلتان صغيرتان على يديها؟ لكن أم تيد كانت طيبة جدًّا معها. حين استطاعت الرضيعة أن تتهادى كانت تأخذ الطفلتين طول النهار، بينما تذهب إيفي بولتون إلى شفيلد وتحضر دروسًا في الإسعاف، وفي السنة الرابعة كانت قد أخذت كورسًا في التمريض وصارت مؤهلة. صممت على أن تستقل وتحافظ على طفلتيها. عملت مساعدة لبعض الوقت في مستشفى أوثويت[1]، مجرد مكان صغير. لكن حين رأت الشركة، شركة تفرشال للمناجم، وفي الحقيقة السير جيفري، أنها يمكن أن تواصل بنفسها، كانوا طيبين جدًّا معها، ومنحوها تمريض الأبرشية، وساندوها، وكانت تقول ذلك عنهم. كانت تقوم به منذ ذلك الوقت، حتى شعرت بأنه كثير

---

(١) أوثويت: قرية صغيرة في نوتنجهامشاير، غرب مانسفيلد.

بعض الشيء عليها؛ فطلبت عملًا أخف، كانت ممرضة المقاطعة تتنقل كثيرًا.

«أجل، كانت الشركة طيبة جدًّا **معي**، وأقول ذلك دائمًا. لكن لا ينبغي أن أنسى أبدًا ما قالوه عن تيد، لأنه كان رجلا ثابتًا لا يعرف الخوف لكنهم اتهموه، وكان طيبًا لكنهم وصفوه بالجبن. لكنه كان ميتًا، ولم يستطع أن يقول شيئًا لأي منهم».

عبَّرتْ عن خليط غريب من المشاعر وهي تتحدث. كانت معجبة بعمال المناجم، وقد مرَّضتْهم وقتًا طويلًا؛ لكنها تشعر بأنها متفوقة جدًّا عليهم. تشعر بأنها من الطبقة العليا تقريبًا؛ وفي الوقت نفسه تشعر باستياء، يتأجج في نفسها، من الطبقة الحاكمة. أرباب العمل! في النزاع بين أرباب العمل والعمال، كانت دائمًا في صف العمال. لكن حين لا يكون هناك شك في التنافس، كانت تتلهف على أن تكون متفوقة، على أن تكون من الطبقة العليا. فتنتْها الطبقات العليا، كانت جذابة لشغفها الإنجليزي الغريب بالتفوق. انتشت بالمجيء إلى راجبي؛ انتشت بالحديث إلى الليدي تشاترلي، أوه، إنها مختلفة عن الزوجات العاديات لعمال المناجم! قالت ذلك بكلمات كثيرة جدًّا. لكن المرء يستطيع رؤية ضغينة تخرج منها ضد زقزقة آل تشاترلي؛ ضغينة ضد السادة.

«أجل، الليدي تشاترلي تذبل بالطبع! لماذا، من الرحمة أن لها أختًا تأتي وتساعدها. لا يسلم الرجال، أبناء الطبقات العليا والدنيا على حد سواء، بما تفعله المرأة من أجلهم. أوه، هاجمْتُ عمال المناجم على ذلك مرات عديدة. لكن الأمر صعب جدًّا بالنسبة للسير كلفورد، وهو

عاجز على هذا النحو. كانوا عادة أسرة متغطرسة، متحفظة بطريقة ما، وكأن لهم الحق في ذلك. لكن أن تنحدر بهم الحال بهذا الشكل! الأمر صعب جدًّا على الليدي تشاترلي. ماذا تفتقد! تزوجْتُ تيد ثلاثة أعوام فقط، لكنه، أوه، زوج لا ينسى أبدًا. كان واحدًا في الألف، ومرحًا بمقياس تلك الأيام. من يعتقد أنه قُتِل؟ لا أصدق ذلك حتى اليوم بشكل ما، لم أصدق ذلك قط، رغم أنني غسلته بيديَّ. لكنه لم يمت قط بالنسبة لي، لم يمت قط. لم أستوعب ذلك قط».

كانت صوتًا جديدًا في راجبي، جديدًا جدًّا على أذن كوني، أيقظ فيها رغبة جديدة في الاستماع.

لكن مسز بولتون كانت، في الأسبوع الأول تقريبًا، هادئة جدًّا في راجبي، تتخلى عن سلوكها الواثق المتسلط، وتصبح عصبية. تخجل من كلفورد، تفزع تقريبًا، وتصمت. ويعجبه ذلك، ويستعيد رباطة جأشه بسرعة، ويتركها تفعل له ما تفعل بدون حتى أن يلاحظها.

يقول: «إنها تفاهة مفيدة!» تفتح كوني عينيها مندهشة، لكنها لا تعارضه. هكذا تختلف الانطباعات بالنسبة لشخصين!

وسرعان ما أصبح رائعًا إلى حد ما، وقورًا بشكل ما مع الممرضة. توقعتْ ذلك، وقام به بدون أن يعرف. هكذا نكون عرضة للمتوقع منا! كان عمال المناجم مثل الأطفال، يتحدثون إليها، ويخبرونها بما يؤذيهم، وهي تضمد جراحهم، أو تمرِّضهم. يجعلونها دائمًا تشعر أنها عظيمة جدًّا، إنسان أسمى في إدارتها. ويجعلها كلفورد تشعر بأنها صغيرة، مثل خادم، وتقبل بدون أن تتفوه بكلمة، متكيفة مع الطبقات العليا.

. تصبح خرساء جدًّا، بوجهها الجميل الطويل، وعينيها المسدلتين، في تدبير شئونه. وتقول بتواضع شديد: «هل أفعل هذا الآن يا سير كلفورد؟ هل أفعل ذلك؟».

«لا، اتركيه لبعض الوقت. أريد أن يتم في وقت لاحق».

«حسنًا جدًّا، يا سير كلفورد».

«تعالي مرة أخرى في خلال نصف ساعة».

«حسنًا جدًّا، يا سير كلفورد».

«وأخرجي تلك الصحف القديمة، ستخرجينها؟».

«حسنًا جدًّا، يا سير كلفورد».

تمضي بهدوء، وفي خلال نصف ساعة تعود بهدوء مرة أخرى. تتعرض للترهيب، ولا تبالِي. تجرب الطبقات العليا. لا تمتعض من كلفورد ولا تكرهه؛ كان مجرد جزء من ظاهرة، ظاهرة أهل الطبقة العليا، المجهولة لها إلى حد بعيد، لكنها تعرفها الآن. تشعر براحة أكثر مع الليدي تشاترلي، ورغم كل شيء سيدة المنزل هي ما يهم أكثر.

كانت مسز بولتون تساعد كلفورد على الذهاب إلى سريره في الليل، وتنام في الممر المؤدي إلى غرفته، وتذهب إليه إذا رن الجرس في الليل. وتساعده في الصباح أيضًا، وبسرعة تقدم له كل الخدمات، حتى الحلاقة، بطريقتها النسوية الرقيقة المترددة. كانت جيدة جدًّا وكفؤًا، وبسرعة عرفت كيف تضعه تحت سلطتها. لم يكن مختلفًا كثيرًا عن عمال المناجم على أية حال، حين ترغي الصابون على ذقنه، وتدعك

شعيراته برقة. لم يزعجها العناد وعدم الصراحة؛ كانت تكسب خبرة جديدة.

لكن كلفورد، في أعماقه، لا يغفر أبدًا لكوني التخلي عن رعايته الشخصية لامرأة غريبة مستأجرة. يقول لنفسه: قتلت زهرة الحميمية بيني وبينها. لكن كوني لا تبالي. كانت الزهرة الرائعة للحميمية بينهما بالنسبة لها تشبة الأوركيد، نتوءًا على شجرة حياتها تلتصق عليه الطفيليات، وينتج، في عينيها، زهرة مهترئة.

أصبح لديها المزيد من الوقت لنفسها يمكن أن تعزف فيه على البيانو، في غرفتها، وتغني: «لا تلمس القراص[1]، لأن تفكك روابط الحب مؤلم». لم تدرك حتى وقت متأخر كم كان تفكك روابط الحب مؤلمًا. لكن شكرًا للسماء لأنها فككتها! كانت سعيدة جدًّا لأنها وحيدة، لا تضطر إلى التحدث معه باستمرار. وحين يكون وحيدًا يضرب على الآلة الكاتبة، يضرب ويضرب، إلى ما لا نهاية. لكنه حين لا «يعمل»، وتكون هناك، يتحدث، يتحدث باستمرار؛ تحليل صغير لا نهائي للناس والدوافع، والنتائج والسمات والشخصيات، وكان لديها ما يكفي منها. لسنوات أحبت ذلك، حتى صار لديها ما يكفي، وفجأة صار كثيرًا جدًّا. كانت ممتنة لأنها وحيدة.

بدا وكأن آلافًا وآلافًا من الجذور الصغيرة وخيوط الوعي فيه وفيها نمت معًا في كتلة متشابكة، حتى لا يمكن أن تزدحم أكثر، وكان النبات

---

(١) القراص: نبات له شوك دقيق، إذا مس الجسد نشب فيه وسبب الحكة والألم.

يموت. والآن، بهدوء ومهارة تفك التشابك بين وعيه ووعيها، مقطعة الخيوط برقة، خيطًا خيطًا، بصبر ونفاد صبر لتخلي منطقة. لكن تفكك روابط مثل هذا الحب مؤلمة حتى أكثر من معظم الروابط؛ وهكذا قدم مجيء مسز بولتون مساعدة عظيمة.

لكنه مازال يرغب في حديث الأمسيات الحميمة القديمة مع كوني: الحديث أو القراءة بصوت مرتفع. لكن الآن يمكن أن ترتب لقطع الحديث في العاشرة. في العاشرة يمكن لكوني أن تصعد إلى الدور العلوي وتكون وحيدة. كان كلفورد في أمان مع مسز بولتون.

كانت مسز بولتون تأكل مع مسز بيتس في غرفة مديرة المنزل، لأنهما كانتا على اتفاق تام. والغريب كم بدت أجنحة الخدم أقرب بكثير؛ بجوار أبواب مكتب كلفورد، وكانت متباعدة من قبل. لأن مسز بيتس كانت تجلس أحيانًا في غرفة بولتون، وكانت كوني تسمع صوتيهما المنخفضين، وتشعر بشكل ما بالقوة التي تغزو بها غالبًا الذبذبات الأخرى للعمال غرفة الجلوس، حين تكون مع كلفورد بمفردهما. هكذا تغير راجبي بمجرد مجيء مسز بولتون.

شعرت كوني بأنها تحررت، في عالم آخر، شعرت بأنها تتنفس بشكل مختلف. لكنها مازالت خائفة من كثرة خيوطها، ربما الخيوط الأخلاقية، المتشابكة مع خيوط كلفورد. لكن يبقى أنها تتنفس بحرية، وبدأت مرحلة جديدة في حياتها.

الفصل الثامن

تهتم مسز بولتون برعاية كوني أيضًا، وشعرت بأنها لابد أن تمد إليها حمايتها الأنثوية والمهنية. كانت دائمًا تحث سموها على الخروج للتنزه، وعلى الذهاب بالسيارة إلى أوثويت، وعلى الخروج في الهواء الطلق. وبالنسبة لكوني، وقد اكتسبت عادة الجلوس ساكنة بجوار المدفأة، متظاهرة بالقراءة؛ أو بالخياطة بتراخٍ، كان الخروج صعبًا.

في يوم عاصف بعد رحيل هيلدا مباشرة، تقول مسز بولتون: «لماذا لا تخرجين الآن للتنزه في الخميلة، وتشاهدين زهور النرجس خلف كوخ الحارس؟ إنه أجمل منظر يمكن أن تريه في مارس. ويمكن أن تضعي بعض هذه الزهور في غرفتك؛ النرجس البري مبهج دائمًا، أليس كذلك؟»

لا تنزعج كوني من كلامها، حتى اختصار كلمة النرجس[1]. النرجس البري! رغم كل شيء، لا يمكن للمرء أن يستسلم لمعاناته. عاد الربيع... «تعود الفصول، لكن لا يعود لي يومٌ، أو الاقتراب الجميل لمساء أو صباح»[2].

---

(١) النرجس البري daffodils، والاختصار الذي استخدمته daffs.

(٢) الاقتباس من قصيدة «الضياء» لجون ميلتون.

والحارس، جسده الأبيض النحيل، مثل متاع[١] وحيد لزهرة خفية! تنساه في اكتئابها الذي لا يوصف. لكن الآن يستيقظ شيء ما... «شاحب خلف الشرفة والبوابة»[٢] ... ما عليكِ القيام به عبور الشرفات والبوابات.

صارت أقوى، تستطيع المشي أفضل، وفي الخميلة لا تكون الريح مجهدة كما كانت عبر المنتزه، تهدأ أمامها. تريد النسيان، نسيان العالم، وكل أصحاب الجيف المروِّعة. «أجل لابد أن تولدي من جديد! أؤمن ببعث الجسد! إن لم تسقط حبة القمح في الأرض وتموت، لن تنمو. حين يأتي الزعفران أظهر أيضًا وأرى الشمس!» في رياح مارس تندفع عبر وعيها عبارات لا نهاية لها.

تسقط دفقات صغيرة من أشعة الشمس، ساطعة بشكل غريب، وتضيء الكلندين[٣] عند حافة الخميلة، تحت سيقان البندق، وتتلألأ صفراء مشرقة. كانت الخميلة ساكنة، أكثر سكونًا، لكنها تعصف مع عبور الشمس. تظهر بشائر شقائق النعمان، وتبدو الخميلة كلها شاحبة مع شحوب شقائق النعمان الصغيرة التي لا نهاية لها، متناثرة على الأرضية المنتفضة. «شحب العالم بأنفاسك»[٤]. لكنها، هذه المرة، أنفاس بيرسيفون[٥]؛ خارج الجحيم في صباح بارد. تهب نفحات الرياح الباردة، وفي الأفق تزمجر الرياح المتشابكة المحبوسة بين الأغصان. الرياح،

---

(١) المتاع: عضو التأنيث في الزهرة.

(٢) الاقتباس من قصيدة «حديقة بروسيربين» لسوينبرن.

(٣) أشجار تنتج زهورًا صفراء في مطلع الربيع.

(٤) الاقتباس من قصيدة «ترنيمة إلى بروسيربين»، لسوينبرن.

(٥) بيرسيفون: ابنة زيوس وربة الحصاد في الأساطير اليونانية.

أيضًا، محبوسة وتحاول التحرر، مثل أبشالوم[1]. كم تبدو شقائق النعمان باردة، تهز أكتافها البيضاء العارية على تنانير الكرينولين[2] الخضراء. لكن توقفها بشائر بضع زهور من بخور مريم صغيرة مبيضة أيضًا، في الممر، وبراعم صفراء تزهر.

الهدير والترنح في الأفق، ولا تهبط إلا تيارات باردة. تبتهج كوني بشكل غريب في الخميلة، ويتدفق اللون في وجنتيها، والأزرق الوهاج في عينيها. تتهادى، وتلتقط بضع زهور من بخور مريم ومن بشائر البنفسج، حلوة الرائحة وباردة، حلوة وباردة. وتندفع بدون أن تعرف موضعها.

حتى تصل إلى البقعة منزوعة الأشجار، في نهاية الخميلة، وترى الكوخ الحجري المدهون باللون الأخضر، يبدو ورديًّا تقريبًا، مثل الجسد تحت عيش الغراب، وحجارته دافئة في أشعة الشمس. الياسمين الأصفر يتألق قرب الباب؛ الباب المغلق. لكن لا صوت؛ لا دخان يتصاعد من المدخنة؛ لا كلبة تنبح.

تمضي بهدوء إلى الخلف، حيث يرتفع الركام؛ لترى النرجس. هناك زهور بسيقان قصيرة، ترفرف وتهتز ويصدر عنها حفيف، كانت مشرقة وحية، لكن ليس هناك مكان تواري فيه وجوهها، وهي تحاول تجنب الرياح.

---

(١) أبشالوم: ابن داود، في العهد القديم.

(٢) قماش قطني.

تهز الزهور راياتها الصغيرة المشمسة في نوبات من الضيق؛ ربما تحب الحركة حقًّا.

تجلس كونستنس وظهرها إلى شجرة صنوبر صغيرة، تميل عليها بحياة غريبة، مرنة وقوية، ومزدهرة. الشيء المنتصب الحي بقمته في الشمس! وتشاهد النرجس يتحول إلى اللون الذهبي، في دفقة من الشمس الدافئة على يديها وحجْرها. حتى أنها شمت رائحة الزهور، الرائحة الشاحبة المتباطئة. ثم بدا أنها تراهن، ساكنة ووحيدة، على تيار مصيرها الحقيقي. كانت مقيدة بحبل، تتحرك بسرعة وتقفز مثل قارب في مراسيه؛ وهي الآن حرة يجرفها البحر.

يحل البرد محل أشعة الشمس؛ كانت زهور النرجس في الظل، تغطس بصمت. وهكذا تغطس في النهار والليل الطويل البارد. هكذا كانت قوية في ضعفها!

تنهض، متيبسة قليلًا، تأخذ بعض زهور النرجس، وتنزل. تكره قطع الزهور، لكنها تريد أن تأخذ معها واحدة أو اثنتين. عليها أن تعود إلى راجبي وجدرانه، وكانت تكرهه، وخاصة جدرانه السميكة! جدران! جدران دائمًا! لكنها تحتاج إليه في هذه الرياح.

حين تعود إلى البيت يسألها كلفورد:

«أين ذهبْتِ؟».

«إلى الخميلة! انظر، أليست زهور النرجس الصغيرة بديعة؟ تخيل أنها تخرج من الأرض!».

يقول: «بالضبط وإلى حد كبير بتأثير الهواء وأشعة الشمس».

ترد بحسم، بإنكار سريع، يدهشها بعض الشيء: «لكنها تتشكل في الأرض».

تذهب إلى الخميلة مرة أخرى بعد ظهر اليوم التالي. تتابع السير في الطريق الواسع الذي ينحرف مستديرًا إلى أعلى عبر أشجار اللاركس إلى نبع يسمى بئر جون. كان الجو باردًا عند سفح التل، ولا توجد زهرة في ظلمة الأركس. لكن النبع الصغير الثلجي يضغط بهدوء إلى أعلى من قاع البئر الصغيرة، قاع من الحصى النقي الأبيض المحمر. كم كان ثلجيًا وصافيًا! متألقًا! ولا شك أن الحارس الجديد وضع فيه حصى جديدًا. تسمع الخرير الخافت للماء، والطفح الضئيل يرشح على التل وأسفله. حتى فوق الهدير المنطلق من خشب اللاركس، الذي ينشر ظلمته المنتصبة الجرداء الذئبية على المنحدر، تسمع الخرير وكأنه أجراس صغيرة في الماء.

كان هذا المكان نحسًا وباردًا ورطبًا إلى حد ما. لكن البئر كانت مكانًا للشرب لمئات السنين. ولم تعد الآن. كانت المساحة الصغير التي نزعت منها الأشجار خصبة وباردة وكئيبة.

تنهض وتمضي ببطء باتجاه البيت. وهي تمضي تسمع نقرًا خافتًا من بعيد على اليمين، فتتقف ساكنة وتنصت. هل كان طرْقًا أم نقَّار الخشب؟ من المؤكد أنه طرْقٌ.

تواصل السير منصتة. ثم تلاحظ مسارًا ضيقًا بين أشجار تنوب

صغيرة، مسارًا بدا أنه لا يؤدي إلى أي مكان. لكنها تشعر أنه يُستخدَم. تتحول إليه مغامرةً، بين أشجار التنوب الصغيرة السميكة، وقد حل محلها بسرعة خشب البلوط القديم. تتتبع المسار، يقترب الطَّرْق، في صمت الخميلة العاصفة، لأن الأشجار تصمت حتى في صخب الرياح.

ترى بقعة خفية صغيرة مقطوعة الأشجار، وكوخًا حفيًّا صغيرًا من أعمدة بسيطة. لم تزر هذا المكان من قبل قط! تدرك أنه مكان هادئ تُربَّى فيه الدراريج الكبيرة؛ كان الحارس يركع في قميصه، ويعمل بالمطرقة. تسرع الكلبة نحوها بنباح قصير حاد، فيرفع الحارس وجهه فجأة ويراها. وكانت في عينيه نظرة مشدوهة.

يستقيم ويحييها، ويراقبها بصمت، وهي تتقدم بساقين ضعيفتين. يستاء من الاقتحام؛ كان يُقدِّر وحدته وكأنها الحرية الوحيدة والأخيرة في الحياة.

تقول، وهي تشعر بضعف وتلهث، وتخشاه بعض الشيء، وهو ينظر إليها مباشرة: «كنت أتساءل عن هذا الطَّرْق».

يقول بعامية مفرطة: «بجهز العشش عشان تبقى جاهزة للصغار».

لا تعرف ماذا تقول، وتشعر بالضعف. وتقول: «أود أن أجلس قليلًا».

يقول: «تعالي اقعدي هنا في الكوخ». وهو يسير أمامها إلى الكوخ، ويدفع جانبًا بعض الأخشاب والأدوات، ويسحب كرسيًّا بسيطًا، مصنوعًا من أغصان البندق.

ويسأل بالفظاظة الغريبة للهجة: «أولعلك نور وشوية نار؟».

ترد: «أوه، لا تزعج نفسك».

لكنه ينظر إلى يديها؛ كانتا زرقاوين إلى حد ما. وبالتالي أخذ بعض أغصان اللاركس إلى مدفأة صغيرة من القرميد في الركن، وفي الحال تصاعد لهب أصفر من المدخنة. وأعد مكانًا قرب المدفأة المصنوعة من القرميد.

«اقعدى هنا شوية، وادفي».

تطيعه. كان يتمتع بهذا النوع الغريب من سلطة الحماية فأطاعته على الفور. تجلس وتدفئ يديها في الشعلة، وتسقط قطعًا من الخشب في النار، بينما يعمل في الخارج بالمطرقة مرة أخرى. لم تكن حقًّا تريد أن تجلس، وقد حُشِرتْ في ركن قرب المدفأة؛ تفضل أن تشاهد من الباب، لكنها مراقبة، وعليها أن تخضع.

كان الكوخ مريحًا تمامًا، مكسوًّا بألواح غير مصقولة، وبه طاولة بسيطة ومقعد بالإضافة إلى الكرسي الذي تجلس عليه، ودكة، ثم صندوق كبير وأدوات وألواح جديدة ومسامير؛ وأشياء كثيرة تتدلى من أوتاد: فأس وبلطة ومقتنيات شخصية، أشياء في أكياس، ومعطفه. لم يكن به شباك، وكان النور يأتي من الباب المفتوح. كان فوضى، لكنه أيضًا محراب صغير.

تنصت إلى دقات مطرقة الرجل؛ ليست مبهجة. والرجل مرهق. هنا انتهاك لخصوصيته، انتهاك خطير! امرأة! وصل إلى مرحلة، كل ما يريده فيها، من على وجه الأرض، أن يكون وحيدًا. لكنه عجز عن الحفاظ على

خصوصيته؛ إنه أجير، وهؤلاء الناس سادته.

لا يريد خاصة أن يحتك بامرأة مرة أخرى. يخشى ذلك؛ لأن لديه جرحًا كبيرًا من احتكاكات قديمة. يشعر وكأنه لا يستطيع أن يكون وحيدًا، وإن لم يُترَك وحيدًا يمت. ابتعد عن العالم الخارجي تمامًا؛ هذه الخميلة ملاذه الأخير؛ يختبئ فيها!

تشعر كوني بالدفء بجوار النار، وقد أججتها كثيرًا: ثم تشعر بالسخونة. تبتعد وتجلس على مقعد في المدخل، تشاهد الرجل وهو يعمل. بدا وكأنه لا يلاحظها، لكنه يعرف. يواصل العمل، وكأنه مستغرق تمامًا، وكلبته البنية تجلس على ذيلها بالقرب منه، وتراقب عالمًا لا يبعث على الثقة.

نحيلًا وهادئًا وبارعًا ينتهي الرجل من القفص الذي يصنعه، يقلبه، ويجرب الباب المنزلق، وينحيه جانبًا. ثم ينهض، ويذهب إلى قفص قديم، ويأخذه إلى اللوح حيث يعمل. يقبع وجرب الحواجز؛ ينكسر بعضها في يديه؛ يبدأ سحب المسامير. ثم يتحول إلى القفص ويتفحصه، ولا تبدر منه إشارة على إدراكه لوجود المرأة.

هكذا تشاهده كوني بثبات. وترى فيه الآن، وهو في ملابسه، الوحدة الانعزالية التي رأتها فيه وهو عارٍ: منعزل، عمدًا، مثل حيوان يعمل وحيدًا، لكنه مكتئب أيضًا، مثل روح تبتعد عن كل احتكاك إنساني. بصمت وصبر، يبتعد حتى عنها. نوع من الصبر الساكن الأبدي، في رجل نافد الصبر وعاطفي، مس أعماق كوني. ترى في رأسه المنحني، وفي يديه الهادئتين السريعتين، وهو يقبع بخاصرتيه النحيلتين الحساستين، نوعًا

من الصبر والانسحاب. تشعر بأن خبرته أكثر عمقًا واتساعًا من خبرتها؛ أكثر عمقًا واتساعًا بكثير، وربما مميتة أكثر. فتشعر بارتياح؛ تشعر أنها غير مسئولة تقريبًا.

هكذا تجلس في مدخل الكوخ في حلم، وهي لا تدرك تمامًا الوقت والظروف الخاصة المحيطة بها. تنجرف بعيدًا، يلمحها بسرعة، ويرى النظرة الساكنة المنتظرة تمامًا على وجهها. إنها بالنسبة له نظرة انتظار. يهتز لسان واهٍ من النار في خاصرتيه، عند مؤخرة ظهره، يتأوه من أعماقه. يفزع بنفور من الموت تقريبًا من أي احتكاك إنساني وثيق آخر. أول ما يتمناه أن تنصرف وتتركه في خصوصيته. يفزع من إرادتها، إرادتها الأنثوية، وإصرارها الأنثوي الحديث. ويفزع قبل أي شيء من صفاقة طبقتها العليا الباردة في الحصول على ما تريد. إنه رغم كل شيء مجرد أجير. يكره وجودها هناك.

تستعيد كوني إدراكها بقلق مفاجئ. تنهض. بعد الظهيرة تنقلب إلى مساء، لكنها لا تنصرف. تذهب إلى الرجل الذي يقف منتبهًا، ووجهه المرهق جامد وخال، وعينه تراقبها.

تقول: «المكان هنا لطيف جدًّا، ومريح جدًّا. لم آتِ إلى هنا من قبل».

«لا!».

«أعتقد أنني سآتي وأجلس هنا أحيانًا».

«أجل!».

«هل تغلق الكوخ حين لا تكون هنا؟».

«أجل، سموك».

«هل تعتقد أنني يمكن أن يكون معي مفتاح أيضًا، بحيث يمكن أن أجلس هنا أحيانًا؟ هل يوجد مفتاحان؟».

«لأ على قد ماعرف، مفيش».

يبدأ الحديث بالعامية. تتردد كوني؛ يعارض. هل هو كوخه، رغم كل شيء؟

تسأل بصوتها الرقيق، بنبرة امرأة مصممة على أن تمضي في طريقها: «ألا يمكن أن نحصل على مفتاح آخر؟».

يقول بنبرة ساخرة، وهو يرمقها بومضة غضب: «آخر!».

تقول باندفاع: «أجل، نسخة أخرى».

يقول، بشكل محبط لها: «يمكن السير كلفورد يعرف».

تقول: «أجل، قد يكون معه مفتاح آخر. وإن لم يكن معه نصنع نسخة على مفتاحك. قد لا يستغرق الأمر إلا يومًا تقريبًا، على ما أعتقد. يمكنك أن تستغنى عن مفتاحك لفترة طويلة».

«ما اقدرش أقول لسموك! معرفش حد بتاع مفاتيح حوالينا».

تندفع كوني فجأة بغضب.

تقول: «حسنًا جدًّا! سأرى».

«حسنًا، سموك».

تلتقي عيونهما. في عينيه نظرة كراهية وازدراء باردة وبشعة، وعدم مبالاة بما قد يحدث. ونظرتها متقدة بالرفض.

لكن قلبها يغوص، تعرف كم يكرهها، حين اختلفت معه. وتراه في نوع من اليأس.

«عمت مساء!».

«مساء، سيدتي!» يحيي ويستدير مبتعدًا فجأة. أيقظت فيه الكلاب النائمة، كلاب الغضب المفترس، الغضب ضد الأنثى العنيدة. وكان عاجزًا عاجزًا. وكان يعرف ذلك!

تغضب من الذكر العنيد. خادم أيضًا! تسير إلى البيت متجهمة.

تجد مسز بولتون تحت شجرة الزان على الهضبة، تبحث عنها.

تقول المرأة بمرح: «كنت أتساءل للتو إن كنت قادمة، سيدتي».

تسأل كوني: هل تأخرت؟».

«أوه، كان السير كلفورد فقط في انتظار شايه».

«لماذا لم تصنعيه له؟».

«أوه، لا أعتقد أنها مهمتي. لا أعتقد أن السير كلفورد يحب ذلك إطلاقًا، سيدتي».

تقول كوني: «لا أعرف لماذا لا».

تدخل إلى مكتب كلفورد، حيث البراد النحاسي القديم يغلي على الصينية.

تقول: «هل تأخرت يا كلفورد؟» وهي تضع الزهور القليلة وتأخذ علبة الشاي، وتقف أمام الصينية بقبعتها ووشاحها. «آسفة! لماذا لم تجعل مسز بولتون تصنع لك الشاي؟».

يقول ساخرًا: «لم أفكر في الأمر. لا أرى أن عليها أن تشرف على مائدة الشاي».

تقول كوني: «لا يوجد شيء مقدس في براد الشاي الفضي».

يرمقها بنظرة غريبة.

يقول: «ماذا كنت تفعلين طول العصر؟».

«تمشيْتُ وجلسْتُ في مكان مسقوف. هل تعلم أن على شجرة البهشية[1] الكبيرة ثمارًا؟».

تخلع وشاحها، ولا تخلع قبعتها، وتجلس لتصنع الشاي. ومن المؤكد أن التوست سيكون جامدًا. تضع الشاي الدافئ في براد الشاي، وتنهض لتأتي بكوب صغيرة لزهور البنفسج. كانت الزهور المسكينة تتدلى رخوة على سيقانها.

تقول وهي تضعها أمامه في كأسها ليشم رائحتها: «ستنتعش من جديد!»

يقول مقتبسًا: «أجمل من جفني عيني جونو».[2]

(١) البهشية: أو الإيلكس جنس من النباتات يتميز بأوراقه المصقولة الشائكة وزهره الصغير الضارب للبياض.

(٢) شكسبير، حكاية الشتاء.

تقول: «لا أرى أية ارتباط لهذا بالبنفسج الحقيقي. الإليزابثيون متأنقون».

تصب له الشاي.

تقول: «هل تعتقد أن هناك مفتاحًا آخر للكوخ الصغير القريب من بئر جون، حيث تربى الدراريج؟».

«قد يكون. لماذا؟».

«تصادف أنني رأيته اليوم- ولم أكن قد رأيته قط. أعتقد أنه مكان رائع. يمكن أن أجلس هناك أحيانًا، أليس كذلك؟».

«هل كان ملورز هناك؟».

«أجل! وهذا ما جعلني أراه: الطَّرْق. وبدا أنه لم يعجبه اقتحامي إطلاقًا. وكان جِلْفًا حين سألت عن مفتاح ثانٍ».

«ماذا قال؟».

«أوه، لا شيء: أسلوبه؛ وقال إنه لا يعلم شيئًا عن المفاتيح».

«قد يكون في مكتب أبي واحد. يعرف بيتس كل شيء عنها، كلها هناك. سأجعله يلقي نظرة».

تقول: «أوه ستجعله!».

«كان ملورز جلفًا تقريبًا؟».

«أوه، لا شيء، حقًّا! لكن أعتقد أنه لا يريد أن أتحرك بحرية في القلعة، تمامًا».

«لا أعتقد ذلك».

«ويبقى أنني لا أفهم علاقته بالأمر. ليس بيته رغم ذلك! ليس مسكنه الخاص. لا أعرف لماذا لا أجلس هناك إذا أردْتُ».

يقول كلفورد: «تمامًا. هذا الرجل مغرور».

«هل تعتقد ذلك؟».

«أجل، بالتأكيد! يعتقد أنه شخص استثنائي. تعرفين أنه كانت له زوجة لم تستمر معه، وقد جُنِّد في ١٩١٥ وأرسل إلى الهند، على ما أعتقد. على أية حال كان حدادًا في سلاح الفرسان في مصر لبعض الوقت؛ ارتبط بالجياد دائمًا، وكان ماهرًا في ذلك. ثم انبهر به كولونيل هندي وجعله ملازمًا. أجل، منحوه ترقية. وأعتقد أنه عاد إلى الهند مع الكولونيل، وحتى الحدود الشمالية الغربية. مرض ومنح معاشًا. لم يخرج من الجيش إلا في السنة الماضية، على ما أعتقد، ومن الطبيعي، ألا يكون من السهل على رجل مثله أن يعود إلى مستواه. تخبط. لكنه يقوم بواجباته على أكمل وجه، بقدر ما يعنيني. فقط لا ألمس أي شيء من الملازم ملورز».

«كيف جعلوه ضابطًا وهو يتحدث لهجة ديربيشاير؟».

«لا يتحدثها... إلا في نوبات وفي البدايات. يمكن أن يتحدث بشكل جيد تمامًا، بالنسبة له. أعتقد أن لديه فكرة عن أنه إذا تدنى مستواه إلى فئة مرة أخرى فعليه أن يتحدث مثل فئته مرة أخرى، يفضل أن يتحدث كما تتحدث فئته».

«لماذا لم تحدثني عنه من قبل؟».

«أوه، ليس لدي صبر على هذه الحكايات. إنها تفسد النظام كله. إنها أمور تثير الشفقة ألف مرة وتحدث دائمًا».

تميل كوني إلى الموافقة. ما الخير في الساخطين الذين لا يناسبهم أي مكان؟

في موجة الطقس الجيد يقرر كلفورد، أيضًا، الذهاب إلى الخميلة. كانت الرياح باردة، لكنها ليست مزعجة جدًّا، وأشعة الشمس مثل الحياة نفسها، دافئة وكاملة.

تقول كوني: «أمر مدهش، كيف تختلف مشاعر المرء حين يكون اليوم رائعًا ومنعشًا حقًّا. يشعر المرء أن الهواء الحقيقي شبه ميت. يقتل الناس الهواء الحقيقي».

يسأل: «هل تعتقدين أن الناس يفعلون ذلك؟».

«أعتقد. إن بخار الضجر والقلق والغضب الذي يخرج من الناس يقتل على الفور حيوية الهواء. أنا على يقين من هذا».

يقول: «ربما بعض أحوال الطقس تقلل من حيوية الناس؟».

تؤكد: «لا، الإنسان هو الذي يسمم العالم».

يعقب كلفورد: «يفسد عشه».

يندفع الكرسي. في أيكة البندق تتدلى زهور عسيل الصفصاف[1] ذهبية فاتحة، وفي الأماكن المشمسة كانت شقائق النعمان متفتحة تمامًا،

(١) مجموعة من الزهور الصغيرة التي تتدلى من أغصان بعض الأشجار في الربيع.

وكأنها تهتف ببهجة الحياة، رائعة بالضبط كما كانت في سالف الأيام، حين يهتف البشر حولها. يشمان رائحة خفيفة لزهور التفاح. وتجمع كوني بعضها لكلفورد.

يأخذها ويتطلع إليها باستغراب.

يقول مقتبسًا: «لا تزالين عروس الهدوء التي لم تُغتصَبْ»[1]، ويضيف: «تبدو ملائمة للزهور أكثر من الفازات اليونانية».

تقول: «تُغتصَبْ كلمة بشعة. الناس وحدهم يغتصبون الأشياء».

يقول: «أوه، لا أعرف... القواقع والأشياء».

«حتى القواقع تأكلها فقط، والنحل لا يغتصبها».

تغضب لأنه يحول كل شيء إلى كلمات. البنفسج جفون جونو، وشقائق النعمان عرائس لم يغتصبن. كم تكره الكلمات، تحول بينها وبين الحياة دائمًا: اغتصبت حياتها، إذا كان شيء قد اغتصبها: تمتص الكلمات والعبارات الجاهزة كل نسغ الحياة من الأشياء الحية.

لم تنجح النزهة مع كلفورد تمامًا. بينه وبين كوني توتر تظاهر كل منهما بأنه لا يلاحظه، لكنه موجود. فجأة، بكل قوة غريزتها الأنثوية تصده. تريد التخلص منه، وخاصة من وعيه، وكلماته، وهوسه بنفسه، هوسه المفزع الذي لا ينتهي بنفسه، وكلماته.

يصبح الطقس ممطرًا مرة أخرى. لكنها تخرج بعد يوم أو اثنين في المطر، وتذهب إلى الخميلة. وعلى الفور باتجاه الكوخ. تمطر، لكن

(١) جون كيتس، «أنشودة عن فازة يونانية».

البرد ليس شديدًا، وتبدو الخميلة صامتة وبعيدة جدًّا، لا يمكن الوصول إليها في ظلمة المطر.

تصل إلى البقعة منزوعة الأشجار. لا أحد هناك! والكوخ مغلق. لكنها تجلس على لوح درج الباب، تحت الرواق البسيط، وتقرفص لتشعر بالدفء. هكذا تجلس، تنظر إلى المطر، وتنصت إلى الكثير من الصخب الهادئ، وإلى الهمهمات الغريبة للرياح في الأغصان العالية، حيث بدا أنه لا توجد رياح. كانت أشجار البلوط القديمة تقف حولها، رمادية، بجذوع قوية، اسودت من المطر، مستديرة وحيوية، تتخلص من أطرافها. وقد خلت الأرض تمامًا من الشجيرات الكثيفة، وتناثرت شقائق النعمان، وكانت هناك شجيرة أو اثنتان، أقدم، أو الجولدر روز[١]، وكتلة أرجوانية متشابكة من العليق؛ وتلاشى تقريبًا اللون الخمري القديم للسرخس تحت قباب شقائق النعمان الخضراء. ربما كان مكانًا من الأماكن التي لم تغتصب. لم تغتصب! اغتُصِب العالم كله.

بعض الأشياء لا يمكن اغتصابها. لا يمكن اغتصاب علبة سردين. والكثير من النساء على هذه الشاكلة؛ والرجال. لكن الأرض...!

ينحسر المطر. ومن الصعب أن تشتد الظلمة أكثر بين أشجار البلوط. وكوني تريد أن تنصرف؛ لكنها تظل جالسة. تشعر بالبرد؛ لكن القصور الذاتي الساحق لاستيائها الداخلي يبقيها هناك كما لو كانت مشلولة.

تغتصب! كم يغتصب المرء حتى بدون أن يمس. يغتصب بكلمات ميتة تصبح فاحشة، وأفكار ميتة تصبح وساوس.

---

(١) شجيرة توجد في أوروبا وآسيا برؤوس مفلطحة من الزهور العطرة.

تأتي كلبة بنية مبللة تعدو ولا تنبح، ترفع ذيلًا مبلَّلًا. ويتبعها الرجل في جاكيت أسود مبلل واق من المطر، مثل سائق، ووجهه متورد بعض الشيء. تشعر أنه تراجع في مشيته السريعة حين رآها. تقف في البقعة الصغيرة الجافة تحت الرواق البسيط. يحيي بدون أن يتكلم، مقتربًا ببطء. تبدأ الانسحاب».

يقول: «كنت ذاهبة للتو».

يسأل، وهو ينظر إلى الكوخ، وليس إليها: «كنت منتظرة علشان تدخلي؟»

تقول، بوقار تام: «لا، جلست فقط بضع دقائق في السقيفة».

ينظر إليها. تبدو بردانة.

يسأل: «مفيش عند السير كلفورد مفتاح تاني؟».

«لا، لكن لا يهم. يمكن أن أجلس جافة تمامًا تحت هذا الرواق. عمت مساء!» تكره إفراطه في استخدام العامية.

يشاهدها عن قرب وهي تتحرك مبتعدة. ثم يرفع الجاكيت، ويضع يده في جيب بنطلونه، ويخرج مفتاح الكوخ.

«خدى المفتاح ده أحسن، واشوف أنا حتة تانية للطيور».

تنظر إليه.

وتسأل: «ماذا تعني؟».

«أعني ممكن أشوف حتة تانية أربي فيه الدراريج. لو عايزه تجي هنا،

ومش عايزاني أكون هنا في الوقت ده».

تنظر إليه، وتفهم المعنى من خلال غموض اللهجة.

تقول ببرود: «لماذا لا تتحدث الإنجليزية العادية؟».

«أنا! أفتكر إن دي لهجتنا العادية».

تصمت لحظات في غضب.

«لو عايزة المفتاح، الأحسن تاخديه. أو آجي بكرة، وانضف كل حاجة بسرعة. ده كويس لكِ؟».

تصبح أكثر غضبًا.

تقول: «لم أرد مفتاحك، لا أريد أن تنظف شيئًا على الإطلاق. لا أريد على الأقل أن أخرجك من كوخك، شكرًا! أردْتُ فقط أن أتمكن من الجلوس هنا أحيانًا، مثل اليوم. لكن يمكن أن أجلس مستريحة تمامًا تحت الشرفة، ومن فضلك لا تتحدث في الموضوع مرة أخرى».

ينظر إليها مرة أخرى، بعينيه الزرقاوين الخبيثتين.

بدأ، باللهجة العامية البطيئة: «ليه، سموك أهلا بيك زي الكريسماس كوخك والمفتاح وكل حاجة. بس في الوقت ده من السنة الطيور هنا، وأنا باشتغل هنا كتير، علشان آخد بالي منها. في الشتا قليل قوي لما آجي هنا في الليل. لكن في الربيع، والسير كلفورد عايزني أراعي الدراريج... وسموك مش عايزاني أبقى هنا وأنت هنا، طول الوقت».

تنصت بدهشة مبهمة.

تسأل: «لماذا أمانع في وجودك هنا؟».

ينظر إليها باستغراب.

قال بإيجاز، لكن بشكل دال: «بتزعجيني!» يحمر وجهها. وتقول أخيرًا: «حسنًا جدًّا! لن أزعجك. لكن لا أظن أنني أمانع قط بالجلوس ومشاهدتك وأنت ترعى الطيور. أعجبْت بذلك. لكن حيث إنك تعتقد أن ذلك يتعارض معك، لن أزعجك، لا تخفْ. أنت حارس عند السير كلفورد، وليس عندي».

بدت العبارة غريبة، لا تعرف لماذا. لكنها تركتْها تمر.

«لأ، سموك. وسموك كمان. زي ما يعجب سموك ويرضيك، في أي وقت. ممكن تطرديني بإخطار في أسبوع. أفتكر فقط..».

تسأل بارتباك: «فقط ماذا؟».

يدفع قبعته إلى الخلف بطريقة كوميدية غريبة.

«يمكن تفضلي تكوني في المكان لوحدك، لما تيجي، ومتشوفنيش باشتغل هنا».

تقول غاضبة: «لكن لماذا؟ ألسْتَ إنسانًا متحضرًا؟ لماذا تعتقد أنني أخاف منك؟ لماذا أهتم بوجودك هنا أو عدم وجودك؟ ما أهمية هذا؟».

ينظر إليها، ووجهه كله يلمع بضحكة خبيثة.

يقول: «لست أنت، سموك. بحال من الأحوال».

تسأل: «حسنًا، لماذا إذًا؟».

«هل يمكن أن أعطي سعادتك مفتاحًا آخر إذًا؟».

«لا شكرًا لك! لا أريده».

«هجيبه عمومًا. أحسن يكون عندنا مفتاحين للمكان».

تقول كوني وقد احمر وجهها، وهي تلهث قليلًا: «وأنا أعتبرك وقحًا».

يقول بسرعة: «لَأ، لأ! متقوليش كده! لأ، لأ! ما اقصدش أي حاجة أبدًا. فكرت بس لو أنت جيت هنا، أنضف الحتة، أقصد شغل كتير، اقعدي في حتة تانية. لكن لو سموك مش هتهتمي بوجودي، بس... والسير كلفورد كمان، وكل حاجة زي ما سموك تحبي، كل حاجة زي ما سموك تحبي وترضي، بس ملكيش دعوة بيه، اطلبي أي حاجة وأنا أعملها».

تبتعد كوني مرتبكة تمامًا. ليست متأكدة إن كانت قد أهينت، أهينت بشكل قاتل، أم لا. ربما لا يقصد الرجل حقًّا إلا ما قال؛ يظن أنها تتوقع أن يبتعد. وكأنها كانت تحلم! وكأن من المحتمل أن يكون مهمًّا جدًّا، هو ووجوده الغبي.

تعود إلى البيت مشوشة، لا تدري فيما تفكر أو بما تشعر.



الفصل التاسع

تندهش كوني من شعورها بالنفور من كلفورد. والأكثر من ذلك شعورها بأنها لم تكن تحبه دائمًا. ليست كراهية: لم تكن فيها عاطفة. بدا لها غالبًا أنها تزوجته لأنها لا تحبه، بطريقة جسدية سرية. لكنها تزوجته، بالطبع، لأنه جذبها حقًّا بطريقة عقلية وأثارها. بدا، بطريقة ما أستاذها، ومن الصعب أن تفهمه.

والآن تتهالك الإثارة العقلية وتنهار، ولم تعد تدرك إلا النفور الجسدي. ينتفض فيها من أعماقها: وتدرك كم كان ينهش حياتها.

تشعر بأنها ضعيفة وبائسة تمامًا. تتمنى أن يأتي العون من الخارج. ليس في العالم كله عون. المجتمع رهيب لأنه مجنون. المجتمع المتحضر مجنون. المال وما يسمى الحب هوساه العظيمان؛ المال في المرتبة الأولى بفارق كبير. يؤكد الفردُ نفسَه في جنونه المفكك بهاتين الطريقتين: المال والحب. انظر إلى ميكاليس! حياته ونشاطه محض جنون. وحبه نوع من الجنون.

وكلفورد على الشاكلة نفسها. كل ذلك الحديث! كل تلك الكتابة! كل ذلك الصراع الوحشي للاندفاع إلى الأمام! محض جنون. وقد صار الأمر أسوأ، هوسًا حقيقيًّا.

تشعر كوني بأنها تبهت من الخوف. لكن، على الأقل، كان كلفورد يحول قبضته منها إلى مسز بولتون. لا يعرف ذلك. مثل الكثير من المجانين، يمكن قياس جنونه بالأشياء التي لا يدركها في المسارات الصحراوية الهائلة في وعيه.

مسز بولتون مثيرة للإعجاب بطرق كثيرة. لكنها تتمتع بنوع غريب من التسلط، تأكيد لا ينتهي لإرادتها، وهو علامة من علامات الجنون في المرأة الحديثة. **اعتقدت** أنها تابعة وتعيش للآخرين. يفتنها كلفورد لأنه يحبط دائمًا، أو في معظم الأحيان، إرادتها، كما لو كان بغريزة أرفع. يتمتع بإرادة أرفع وأبرع منها في تأكيد الذات. هنا يكمن سحره بالنسبة لها.

وربما هنا، أيضًا، يكمن سحره بالنسبة لكوني.

قد تقول مسز بولتون بصوتها اللطيف المقنع: «اليوم يوم رائع! أعتقد أنك يمكن أن تتمتع بجولة قصيرة في كرسيك اليوم، الشمس جميلة».

«أجل؟ أعطيني ذلك الكتاب- هناك، ذلك الكتاب الأصفر. وأعتقد أنه يجب إخراج تلك الياقوتيات من هنا».

«لماذا إنها جميلة جدًّا!» وتمط ياء «جميلة»! «والرئحة رائعة ببساطة».

يقول: «الرائحة هي ما أعترض عليه. إنها جنائزية بعض الشيء».

تصيح في دهشة، بشعور بالإهانة، لكنها مؤثرة: «تعتقد ذلك!» وتخرج الياقوتيات من الغرفة، معجبة برهافته السامية.

«هل أحلق لك هذا الصباح، أم تفعل ذلك بنفسك؟» دائما بالصوت نفسه، الرقيق، الودود، الخاضع، لكنه يميل للهيمنة.

«لا أعرف. هل يزعجك الانتظار بعض الوقت. سأرن الجرس حين أكون مستعدًّا».

تقول، برقة شديدة وخضوع، وتنسحب بهدوء: «حسنًا جدًّا يا سير كلفورد!» وكان كل صد يشحن إرادتها بطاقة جديدة.

حين يرن الجرس، بعد وقت، تظهر فورًا. وعندها يقول:

«أعتقد أن من الأفضل أن تحلقي لي هذا الصباح».

ينتشي قلبها قليلًا، وترد بمزيد من الرقة:

«حسنًا جدًّا يا سير كلفورد!».

كانت ماهرة جدًّا، بلمسة رقيقة ثابتة، وبعض البطء. في البداية استاء من اللسمة الرقيقة التي لا نهاية لها لأصابعها على وجهه. لكنه الآن معجب بها، بشهوانية متنامية. يتركها تحلق له كل يوم تقريبًا: ووجهها قرب وجهه، وعيناه تركزان بشدة، تشاهدان إن كانت تعمل بشكل صحيح. وتدريجيًّا تعرف أناملها تمامًا وجنتيه وشفتيه، وفكه وذقنه وحنجرته. كان جيد التغذية وحالته جيدة؛ وجهه وحنجرته مليحان جدًّا، وكان جنتلمان.

وهي أيضًا مليحة، شاحبة، وجهها طويل وساكن تمامًا، وعيناها مشرقتان، لكنهما لا تكشفان شيئًا. تدريجيًّا، برقة لانهائية، بحب تقريبًا، تسيطر عليه، ويستسلم لها.

تفعل له كل شيء تقريبًا، ويشعر معها بالراحة، وبأنه أقل خجلًا من قبول قيامها بالأعمال القذرة مما كان مع كوني. تحب التعامل معه. تحب أن يكون جسده في مسئوليتها، بشكل مطلق، إلى آخر الأعمال القذرة. وتقول لكوني ذات يوم: «كل الرجال أطفال، حين تصلين إلى أعماقهم. لماذا، تعاملْتُ مع بعض أكثر الزبائن فظاظة وأنا أذهب إلى منجم تفرشال. لكن إذا أصابهم أي توعك ويكون عليك علاجه، يكونون أطفالًا، مجرد أطفال كبار. أوه، لا يختلف الرجال كثيرًا!».

في البداية اعتقدت مسز بولتون حقًّا أن في جنتلمان، جنتلمان حقيقي، مثل السير كلفورد، شيئًا مختلفًا. وهكذا كان لكلفورد بداية جيدة معها. لكن تدريجيًّا، وهي تصل إلى أعماقه، باستخدام مصطلحها، وجدت أنه مثل الباقين، طفل كبر إلى حجم رجل: لكنه طفل بمزاج غريب وسلوك مهذب وسلطة منضبطة، وكل أنواع المعرفة الغريبة التي لم تحلم بها قط، مازال يهيمن بها عليها.

كانت كوني تُغرَى أحيانًا بأن تقول له:

«بربك، لا تغطس في يدي تلك المرأة بهذا الشكل الرهيب!» لكنها تجد أنها لا تهتم به بما يكفي لقول ذلك، على المدى الطويل.

تستمر عادتهما في قضاء المساء معًا، حتى العاشرة. يتحدثان،

أو يقرآن معًا، أو يراجعان مخطوطته. لكن المتعة تلاشت. تضجر من مخطوطاته. لكنها مازالت، بشعور بالواجب، تكتبها له على الآلة الكاتبة. لكن بمرور الوقت كانت مسز بولتون تفعل له حتى هذا.

تقترح كوني على مسز بولتون أن تتعلم استخدام الآلة الكاتبة. وتبدأ مسز بولتون التدريب بجدية على الفور، وكانت مستعدة دائمًا. وهكذا كان كلفورد يملي عليها رسالة، فتكتبها ببطء إلى حد ما، لكن بشكل صحيح. كان صبورًا جدًّا، يتهجى لها الكلمات الصعبة، أو العبارات العارضة بالفرنسية. انتشت جدًّا، كان توجيهه لها متعة تقريبًا.

وكانت كوني تتذرع أحيانًا بالصداع للصعود إلى غرفتها بعد العشاء. تقول لكلفورد: «ربما تلعب مسز بولتون معك البيكيت».[1]

«أوه، سأكون بخير تمامًا. اذهبي إلى غرفتك واستريحي، يا حبيبتي».

وبمجرد ذهابها يرن الجرس لمسز بولتون، ويطلب منها مشاركته في لعب البيكيت أو البزيك أو حتى الشطرنج. وقد علمها كل هذه الألعاب. ووجدت كوني أن رؤية مسز بولتون، متوردة ومرتجفة مثل فتاة صغيرة وهي تمسك بأصابعها المترددة وزيرها أو حصانها، ثم تسحبه مرة أخرى، أمرًا بغيضًا وغريبًا. وكلفورد، بابتسامة شاحبة، وتفوق شبه مزعج، يقول لها:

«يجب أن تقولي **سأضبط وضع القطعة**!»[2]

---

(١) لعبة من ألعاب الكوتشينة تلعب باثنتين وثلاثين ورقة باستبعاد الكروت من اثنين إلى ستة.

(٢) بالفرنسية في الأصل *j'adoube*، إعلان من لاعب الشطرنج بأنه يضبط وضع قطعة الشطرنج ولن ينقلها.

تنظر إليه بعينين مشرقتين مشدوهتين، ثم تهمهم بخجل، مطيعة»:

«**سأضبط وضع القطعة!**».

أجل، كان يعلمها. وكان ذلك يمتعه، يمنحه إحساسًا بالقوة. وكانت تنتشي. تكتسب خطوة خطوة كل ما تعرفه الطبقة العليا، كل ما يجعلهم طبقة عليا: بعيدًا عن المال. مما يجعلها تنتشي. وفي الوقت ذاته، تجعله يرغب في وجودها معه. كانت نشوتها الأصيلة تملقًا بارعًا وعميقًا بالنسبة له.

وبالنسبة لكوني، بدا أن كلفورد يظهر على حقيقته: سوقيًّا بعض الشيء، عاميًّا بعض الشيء، وبلا روح؛ أحمق بعض الشيء. كانت حيل إيفي بولتون وتسلطها أيضًا شفافة جدًّا. لكن كوني تندهش من النشوة الحقيقية التي تحصل عليها المرأة من كلفورد. لن يكون صحيحًا القول بأنها تحبه. كانت تنتشي باتصالها برجل من الطبقة العليا، هذا الجنتلمان صاحب الألقاب، هذا المؤلف الذي يكتب كتبًا وقصائد، وتظهر صوره في الصحف المصورة. تنتشي بعاطفة غريبة. وقد أثار فيها «تعليمه» لها عاطفة من الإثارة والاستجابة أكثر عمقًا بكثير مما يمكن أن تفعل أية علاقة حب. في الحقيقة، الحقيقة الفعلية لا يمكن أن تكون هناك علاقة حب تتركها حرة في الانتشاء حتى النخاع بهذا الشغف الآخر، الشغف الغريب، شغف المعرفة، المعرفة كما يعرف.

لا عيب في أن تحبه المرأة بطريقة ما: بصرف النظر عن القوة التي نمنحها لكلمة الحب. كانت تبدو مليحة جدًّا وشابة جدًّا، وتبدو عيناها الرماديتان مدهشتين أحيانًا. وفي الوقت ذاته، هناك رضا رقيق وكامن

بشأنها، انتصار حتى، ورضا سري. أُفٍّ من ذلك الرضا السري. كم كانت كوني تشمئز منه!

لكن لا غرابة في أن تأسر المرأة كلفورد! توقِّره تمامًا، بطريقتها المثابرة، وتضع نفسها في خدمته تمامًا، من أجله ليستخدمها كما يشاء. ولا غرابة في أن يشعر بالتملق!

تسمع كوني محادثات طويلة بين الاثنين. أو بالأحرى، تتحدث مسز بولتون غالبًا. تنقل إليه سيل النميمة عن قرية تفرشال. لم تكن مجرد إشاعات. اجتمعت مسز جسكال وجورج إليوت ومس ميتفرود[1] جميعًا في واحدة، بقدر أكبر مما تركته هؤلاء النساء. مسز بولتون، بمجرد أن تبدأ، أفضل من أي كتاب، عن حياة المرأة. تعرفهم جميعًا بشكل حميمي، وتستمتع استمتاعًا غريبًا حماسيًّا بكل شئونهم، الأمر مدهش، إذا كانت مجرد مذلة تافهة يستمع إليها. في البداية لم تغامر بأن «تتحدث بحديث تفرشال»، كما تسميه، مع كلفورد. لكن بمجرد أن تبدأ، تواصل. وكلفورد يستمع من أجل «مادة»، ويجد الكثير. وتدرك كوني أن ما تسمى عبقريته تكمن في هذا فقط: موهبة واضحة للنميمة الشخصية، البارعة والباردة على ما يبدو. كانت مسز بولتون، بالطبع، دافئة جدًّا حين «تتحدث بحديث تفرشال». متحمسة في الحقيقة. رائعة تلك الأشياء التي حدثت وكانت تعلم بها. يمكن أن تملأ عشرات المجلدات.

---

(١) جسكال (١٨١٠-١٨٦٥): إليزابيث، روائية إنجليزية وكاتبة قصص قصيرة؛ إليوت (١٨١٩-١٨٨٠): ماري آن إيفانس، روائية إنجليزية شهيرة؛ ميتفرود (١٧٨٧-١٨٥٥): ماري راسل، كاتبة مسرحية وشاعرة إنجليزية.

كانت كوني تُفتَن وهي تستمع إليها. لكنها بعد ذلك تشعر دائمًا ببعض الخجل. لا ينبغي أن تنصت بهذا الفضول الغريب المسعور. رغم كل شيء، يمكن للمرء أن يسمع أكثر أمور الآخرين خصوصية، لكن فقط بروح الاحترام للنضال الجريح الذي هو حقيقة كل روح إنسانية، وبروح التعاطف الرقيق الحصيف. حتى الهجاء شكل من التعاطف. إن الطريقة التي يتدفق بها تعاطفنا ويرتد تحدد حياتنا. وهنا تكمن الأهمية الهائلة للرواية، التي تُعالَج بشكل صحيح. يمكن أن ترشدنا وتقودنا إلى أماكن جديدة لتدفق وعينا التعاطفي، ويمكن أن تقود تعاطفنا وتجعله يرتد مبتعدًا عن الأشياء التي ماتت. وبالتالي يمكن للرواية، التي تعالج بشكل صحيح، أن تكشف أكثر الأماكن سريةً في حياتنا: لأن في الأماكن السرية **العاطفية** من الحياة، في المقام الأول، يحتاج المد والجزر في الوعي الحساس إلى الانحسار والتدفق، متطهرًا ومتجدِّدًا.

لكن الرواية، مثل النميمة، يمكن أيضًا أن تثير التعاطف والارتداد الزائف، الآلي والمميت للنفس. يمكن للرواية أن تمجد معظم المشاعر الفاسدة، طالما كانت «نقية» **تقليديًا**. وتصبح الرواية في النهاية، مثل النميمة، خبيثة، ومثل النميمة، أكثر خبثًا لأنها دائمًا ظاهريًا في صف الملائكة. «وكان الرفيق **السيء**، وهي المرأة **الرائعة**». بينما، كما ترى كوني حتى من نميمة مسز بولتون، المرأة مجرد ثرثارة، والرجل صادق بغضب. صنع الصدق الغاضب منه «رجلًا سيئًا»، وصنعت الثرثرة منها «امرأة رائعة»، في المسار التقليدي الخبيث للتعاطف على يدي مسز بولتون.

لهذا كانت النميمة مذلة. وللسبب نفسه، معظم الروايات، وخاصة الروايات الشعبية، مذلة أيضًا. الاستجابات الشعبية الآن لنداء رذائلها فقط.

ومع ذلك، توصل المرء إلى رؤية جديدة لقرية تفرشال من حديث مسز بولتون. بدت فوضى رهيبة تغلي في حياة بشعة: ليست إطلاقًا الرتابة المسطحة كما تبدو من الخارج. كان كلفورد بالطبع يعرف بالنظر معظم من يُذكَرون. ولا تعرف كوني إلا واحدًا أو اثنين. لكنها بدت حقًّا مثل غابة في وسط أفريقيا أكثر مما بدت قرية إنجليزية.

«أعتقد أنك سمعت بزواج مس ألسوب في الماضي! سمعت! مس ألسوب، ابنة جيمس العجوز، ألسوب صانع الأحذية. تعرف أنهم بنوا منزلًا في بي كروفت. مات العجوز العام الماضي من سقطة. كان في الثالثة والثمانين، ورشيقًا مثل فتى. ثم انزلق على بيستوود هيل، على مزلجة والشبان يصنعونها في الشتاء الماضي، وانكسر فخذه، وقضى ذلك عليه، العجوز المسكين، بدا عارًا. حسنًا، ترك كل فلوسه لتاتي: لم يترك للأولاد بنسًا. وتاتي، أعرف، أكبر مني بخمس سنوات- أجل، بلغت الثالثة والخمسين في الخريف الماضي. وتعرف أنهم كانوا أهل الكنيسة، أوه! درَّستْ في مدرسة الأحد لثلاثين عامًا، حتى مات أبوها. ثم بدأت تعمل مع رفيق من كينبروك، ولا أعرف إن كنْتَ تعرفه، إنه رفيق عجوز بأنف أحمر، متأنق، اسمه ويلكوك، يعمل في ورشة هاريسون. حسنًا إنه في الخامسة والستين، بالتأكيد، لكنك قد تعتقد أنهما يمامتان صغيرتان، إذا رأيتهما، ذراعًا في ذراع، يتبادلان القبل عند البوابة: أجل،

وتجلس على ركبته في الشرفة في طريق بي كروفت، على مرأى من الجميع. وله أبناء فوق الأربعين: فقد زوجته منذ سنتين. إذا لم يبعث جيمس ألسوب العجوز من قبره، فذلك يرجع فقط إلى أنه ليس هناك بعث: لأنه حافظ عليها بصرامة! تزوجا الآن وذهبا ليعيشا في كينبروك، ويقولون إنها تتجول في روب من الصباح إلى الليل، مشهد حقيقي. وأنا متأكدة من أنه فظيع، الطريقة التي يستمر عليها العجوزان! لماذا هما أسوأ بكثير من الشباب، والمشهد مثير أكثر للغثيان. أرجع الأمر أنا نفسي إلى الأفلام. لكن لا يمكن إبعادها. كنت أقول دائمًا: اذهب إلى فيلم تعليمي جيد، لكن لخيرك ابتعد عن الميلودراما وأفلام الحب. على أية حال ابعد الأطفال. لكن هذا ما وصلنا إليه، الكبار أسوأ من الأطفال. تحدثْ عن الأخلاق! لن يهتم أحد. يفعل الناس ما يحلو لهم، وهم لذلك أفضل حالًا بكثير، ينبغي أن أقول. لكن عليهم أن يتصرفوا بحذر في هذه الأيام، العمل في المناجم سيئ جدًّا، ولم يحصلوا على أموال. وتذمرهم، إنه فظيع، وخاصة النساء. الرجال طيبون وصبورون جدًّا! ماذا يمكن أن يفعل الرجال المساكين! لكن النساء، أوه، إنهن ينفعلن! يذهبن ويتفاخرن، ويقدمن مساهمات لهدية عرس الأميرة ماري، وحين يشاهدن العظيمة آتية، يهذين ببساطة: من هي، هل هي أفضل من أية واحدة أخرى! لم لا يقدم لي سوان وإدجار[1] معطفًا **واحدًا** من الفرو، بدل أن يعطيها ستة. أتمنى لو احتفظْتُ بشلناتي العشرة! ماذا **تعطيني**، أود أن أعرف؟ هنا لا أستطيع الحصول على معطف جديد للربيع، وأبي يعمل بشكل

(١) كان متجرًا شهيرًا في لندن، تأسس في القرن التاسع عشر، وأغلق في ١٩٨٢.

سيئ، وهي تحصل على حمولة شاحنة. حان الوقت ليكون لدى الفقراء بعض المال ينفقونه، امتلكه الأغنياء لفترة كافية. أريد معطفًا جديدًا للربيع، أريد، ومن أين أحصل عليه؟ أقول لهن، اشكرن الرب لأنكن تتناولن طعامًا جيدًا وتلبسن ملابس جيدة، بدون كل الأناقة التي تردنها! فانقلبن عليَّ: 'وليه الأميرة ماري ما تشكرش الرب على أنها تتجول في أسمالها القديمة، ولا تملك شيئًا. يحصل اللي زيها على حمولة شاحنة، وأنا مش قادره أجيب معطف جديد للربيع. عار لعين. الأميرة! العفن يزدهر حول الأميرة! الفلوس هي المهمة، ولأنها حصلتْ على الكثير، يعطونها أكثر! لا أحد يعطيني شيئًا، ولي الحق مثل أي شخص آخر. لا تحدثيني عن التعليم. الفلوس هي المهمة. أريد معطفًا جديدًا للربيع، أريد، ولن أحصل عليه، علشان ما عنديش فلوس...' الملابس كل ما يهمهن. لا يبالين بمنحهن سبعة جنيهات أو ثمانية لمعطف الشتاء- بنات عمال المناجم، أذكرك- وجنيهين لقبعة طفل في الصيف. ثم يذهبن إلى الكنيسة البدائية في قبعة بجنيهين، كانت البنات يفخرن بقطعة عملة بثلاثة بنسات أو ستة في أيامي. سمعت أنهم، في الاحتفال السنوي للطائفة الميثودية البدائية هذه السنة، حين بنوا منصة لأطفال مدرسة الأحد، مثل مدرج يرتفع إلى السقف تقريبًا، سمعت مس تومبسون، التي تدرس لبنات الصف الأول في مدرسة الأحد، تقول إنهم صرفوا أكثر من ألف جنيه في ملابس جديدة للأحد على تلك المنصة! وهن اللائي يحددن المواعيد! لكن لا تستطيع إيقافهن. إنهن مجنونات بالملابس. والأولاد كذلك. ينفق الفتيان كل بنس على أنفسهم، الملابس

والتدخين والشرب في المايترز ويلفير، ويذهبون إلى شفيلد مرتين أو ثلاثًا في الأسبوع. لماذا، إنه عالم آخر. والشبان لا يخشون شيئًا، ولا يحترمون شيئًا. الرجال الأكبر صبورون وطيبون حقًّا، يتركون النساء يأخذن كل شيء. وهذه هي النتيجة. النساء شيطانات نشطات. لكن الفتيان ليسوا مثل آبائهم. لا يضحون بشيء، لا يضحون: يعيشون لأنفسهم تمامًا. إذا أخبرتهم بأن عليهم ترك القليل من أجل البيت، يقولون: 'سيبقى الوضع، سيبقى، سأستمتع حين أستطيع. على الآخرين أن يفعلوا!' أوه، إنهم أفظاظ وأنانيون، إن أحببْتَ. كل شيء يقع على كاهل الكبار، والمشهد سيئ في كل مكان».

يبدأ كلفورد تكوين فكرة جديدة عن قريته. أفزعه المكان دائمًا، لكنه كان يعتقد أنه مستقر تقريبًا. الآن-؟

يسأل: «هل بين الناس كثير من الأفكار الاشتراكية والبلشفية؟»

تقول مسز بولتون: «أوه! تخشى من عدد قليل من أصحاب الأصوات العالية. النساء غالبًا يغرقن في الديون. والرجال لا يلاحظون. لا أعتقد أنك سوف تحول رجالنا في تفرشال إلى شيوعيين. إنهم أكثر التزامًا بالتقاليد من أن يكونوا كذلك. لكن الشبان يثرثرون أحيانًا. ولا يريدون إلا بعض المال في جيوبهم، لصرفه على رفاهيتهم، أو للذهاب للتسكع في شفيلد. هذا كل ما يهتمون به. حين لا يحصلون على مال، يستمعون لخطب الشيوعيين. لكن لا أحد يؤمن بها حقًّا».

«تعتقدين إذًا أنه لا يوجد خطر؟».

«أو لا! لا إذا كانت التجارة جيدة، لن يكون هناك خطر. لكن إذا ساءت الأحوال لفترة طويلة، قد يتصرف الشبان بشكل غريب. أقول لك، إنهم مجموعة أنانية مدللة. لكنني لا أراهم يفعلون شيئًا. ليسوا جادين بشأن أي شيء، إلا التفاخر على الموتسكيلات والرقص في بلاس دي دانس في شفيلد. لا يمكن **جعلهم** جادين. الجادون يلبسون ملابسهم في المساء ويذهبون إلى بالي للتفاخر أمام مجموعة من الفتيات ويرقصون رقصات الشالستون الجديدة ولماذا لا. أثق أحيانًا أن الأتوبيس سيكون ممتلئًا بالشبان في ملابس المساء، فتية المناجم، ويذهب إلى بالي: ناهيك عمن يذهبون مع فتياتهم في السيارات أو على الموتسيكلات. لا يفكرون بجدية في أي شيء- إلا سباقات دونكاستر، والديربي[1]: لأنهم جميعًا يراهنون على كل سباق. وكرة القدم! لكن حتى كرة القدم لم تعد كما كانت، ليست بطباشيرة طويلة. إنها أشبه كثيرًا بالعمل الشاق، كما يقولون. لا، إنهم ينطلقون على موتسيكلاتهم إلى شفيلد أو نوتينجهام، بعد ظهر أيام السبت».

«وماذا يفعلون حين يذهبون إلى هناك؟».

«أوه، يتسكعون- ويتناولون الشاي في أماكن راقية تقدم الشاي مثل الميكادو- ويذهبون إلى البالي أو للسينما أو الإمباير، مع فتاة ما. والفتيات حرات مثل الفتيان. يفعلن ما يحلو لهن».

«وماذا يفعلون حين لا يكون معهم نقود لهذه الأشياء؟».

---

(١) دونكاستر: مدينة صناعية في شمال إنجلترا. الديربي: سباق جياد سنوي.

«يبدو أنهم يحصلون عليها، بطريقة ما. وحينذاك يبدأون الحديث بشكل بذيء. لكن لا أفهم كيف توجد البلشفية، حين يكون المال هو كل ما يريده الفتيان ليستمتعوا، والفتيات بالمثل، مع ملابس أنيقة: ولا يهتمون بشيء آخر. ليست لديهم أدمغة ليكونوا اشتراكيين. لا يتسمون بجدية تكفي لأخذ أي شيء بجدية حقيقية، ولن يتسموا أبدًا».

تفكر كوني في تشابه الطبقات الدنيا مع بقية الطبقات إلى حد بعيد. الشيء نفسه مرة أخرى، تفرشال أو مايفير أو كنسنجتون. كانت هناك طبقة واحدة في تلك الأيام: أبناء المال. فتى المال وفتاة المال، الاختلاف الوحيد في المبلغ الذي تحصل عليه، والمبلغ الذي تريده.

بتأثير مسز بولتون، يبدأ كلفورد الحديث عن اهتمام جديد بالمناجم. ويشعر بالانتماء إليها. أتاه نوع جديد من تأكيد الذات. رغم كل شيء، إنه الرئيس الفعلي في تفرشال، إنه المناجم في الحقيقة. إنه إحساس جديد بالسلطة، شيء كان حتى الآن ينكمش منه رعبًا.

كانت مناجم تفرشال تتضاءل. كان هناك مكانان للفحم فقط: تفرشال نفسها، ونيو لندن. كانت تفرشال نفسها منجمًا شهيرًا، وقد صنعت أموالا طائلة. لكن أفضل أيامها ولت. ولم تكن نيو لندن غنية جدًّا في أي وقت، وفي الأوقات العادية كانت الأمور تسير بشكل لائق. لكن الوضع الآن سيئ، وقد هُجِرتْ مناجم مثل نيو لندن.

تقول مسز بولتون: «غادر كثير من رجال تفرشال وذهبوا إلى ستاكس جيت ووايت أوفر. لم تر الأعمال الجديدة في ستاكس جيت، التى فتحت بعد الحرب، أليس كذلك يا سير كلفورد؟ أوه، لابد أن

تذهب في يوم من الأيام، هناك شيء جديد تمامًا: أعمال كيميائية عظيمة على رأس المنجم، لا تشبه منجم الفحم. يقولون إنهم يحصلون على أموال من المنتجات الكيميائية الثانوية أكثر من الفحم- نسيتُها. والمنازل الجديدة الفخمة للرجال، قصور جميلة! وبطبيعة الحال جلبت الكثير من الرعاع من كل أنحاء البلاد. لكن الكثير من رجال تفرشال ذهبوا إلى هناك، ويعملون بشكل جيد، أفضل بكثير من رجالنا. يقولون إن تفرشال منتهية، انتهت: سنوات قليلة أخرى، وتغلق. وستكون نيو لندن في المرتبة الأولى. بالتأكيد، لن يكون الأمر ممتعًا حين لا يكون في تفرشال منجم يعمل. الوضع سيئ جدًّا في أثناء الإضراب، لكن بالتأكيد إذا أغلقت للأبد، سيكون الأمر وكأنه نهاية العالم. حتى حين كنت فتاة كان أفضل منجم في البلاد، وكان الرجل يعتبر نفسه محظوظًا إذا استطاع أن يكون هنا. أوه، كان بعض المال يكسب في تفرشال. والآن يقول الرجال إنها سفينة تغرق، وحان وقت الهروب منها. ألا يبدو الأمر بشعًا! لكن بطبيعة الحال هناك كثير من الرجال لن يذهبوا إلا مضطرين. إنهم لا يحبون هذه المناجم الجديدة المتشابكة، وذلك العمق، وكل الآلات التي تعمل فيها. يفزع بعضهم ببساطة من أولئك الرجال الحديد، كما يسمون تلك الآلات المستخدمة لتقطيع الفحم، حيث كان الرجال يعملون من قبل دائمًا. ويقولون إنها مكلفة أيضًا. لكن ما يدفع فيها يتم توفيره في الأجور، وأكثر بكثير. يبدو بسرعة أنه لن يكون هناك استخدام للرجال على وجه الأرض، ستكون كلها آلات. لكنهم يقولون إن هذا هو ما قاله الناس حين تخلوا عن ماكينات التريكو القديمة. يمكن أن أتذكر واحدة أو اثنتين.

لكن أوه، المزيد من الآلات، المزيد من الناس، هذا ما يبدو عليه الأمر! يقولون إنه لا يمكن الحصول من فحم تفرشال على المواد الكيميائية نفسها التي يمكن الحصول عليها من ستاكس جيت، وهذا رائع، لا يبعد بينهما أكثر من ثلاثة أميال. لكنهم يقولون ذلك. ولكن الجميع يقولون من العار ألا يبدأ شيء ما، يجعل الرجال في وضع أفضل، ويوظف الفتيات. كل الفتيات يتسكعن يوميًّا باتجاه شيفلد! بالتأكيد، ستكون هناك مادة للحديث إذا أبرمت مناجم تفرشال عقدًا جديدًا مع الحياة، بعد أن قال الجميع إنها انتهت، سفينة تغرق، وعلى الرجال تركها كما تترك الفئران سفينة تغرق. لكن الناس يتكلمون كثيرًا، بالطبع كانت هناك طفرة في أثناء الحرب. حين وثق السير جيفري في نفسه وحافظ على المال للأبد، بشكل ما. هكذا يقولون! لكنهم يقولون حتى السادة والملَّاك لا يحصلون على الكثير الآن. من الصعب أن تصدق هذا، يمكن أن تصدق! لماذا أعتقد دائمًا أن المناجم تستمر بلا توقف. من كان يعتقد ذلك حين كنت فتاة! لكن منجم نيو إنجلند أغلق، وكذلك كولويك وود: أجل، من المثير تمامًا أن تتجول بين تلك الأيكة وترى كولويك وود تقف هناك مهجورة بين الأشجار، والشجيرات تنمو في كل مكان على رأس المنجم، والقضبان صدئة. إنه مثل الموت نفسه، منجم ميت. لماذا، ماذا ينبغي أن نفعل إذا أغلق منجم تفرشال-؟ لا أحتمل التفكير في الأمر. كان ذلك الحشد هناك دائمًا، إلا في الإضرابات، وحتى في ذلك الوقت لم تتوقف عجلات المراوح، إلا حين يأتون بالمال. أنا على يقين من أنه عالم مبهج، لا تعرف أين أنت من سنة لأخرى، لا تعرف حقًّا».

حديث مسز بولتون هو ما أثار بالفعل تحدِّيًا جديدًا في كلفورد. كان دخله، كما وضحت له، مضمونًا، من ثروة أبيه، حتى لو لم يكن كبيرًا. لا تعنيه هذه المناجم. يريد أن يأسر العالم الآخر، عالم الأدب والشهرة؛ عالم الشعبية، لا عالم العمل.

يدرك الآن الفرق بين النجاح الجماهيري ونجاح العمل: جماهير المتعة وجماهير العمل. كان، كفرد، يقدم قصصه لجماهير المتعة. وقد أسرهم. لكن تحت جماهير المتعة تكمن جماهير العمل، محبطة، قذرة، ومرعبة إلى حد ما. ينبغي أيضًا أن يكون لهم ممولوهم. وكان العمل الذي يقدم لجماهير العمل أكثر إحباطًا بكثير مما يقدم لجمهور المتعة. بينما يكتب قصصه، و«ينجح» في العالم. ينهار تفرشال.

أدرك آنذاك أن الربة العاهرة للنجاح لها شهيتان رئيسيتان: واحدة للتملق والمداهنة والمداعبة والدغدغة ويقدمها لها الكتاب والفنانون؛ لكن الأخرى شهية أكثر إحباطًا للحم والعظام. لكن اللحم والعظم يقدمهما للربة العاهرة رجال صنعوا المال في الصناعة.

أجل، تتصارع مجموعتان كبيرتان من الكلاب على الربة العاهرة: مجموعة المتملقين، وتقدم لها التسلية والقصص والأفلام والمسرحيات: والثانية، استعراضية بشكل أقل بكثير، سلالة همجية أكثر بكثير، تقدم لها اللحم، الجوهر الحقيقي للمال. تتصارع الكلاب الاستعراضية المدربة جيدًا وتتشابك لمحاباة الربة العاهرة. لكن هذا ليس شيئًا مقارنة بالصراع الصامت حتى الموت الذي يستمر بين من لا غنى عنهم، جالبي العظام.

لكن كلفورد، تحت تأثير مسز بولتون، يُغرَى بدخول هذه المعركة،

ليأسر الربة العاهرة بالطريقة الوحشية للإنتاج الصناعي. بشكل ما، تستيقظ روحه. بطريقة ما جعلت مسز بولتون منه رجلًا، وهو ما لم تفعله كوني قط. أبقته كوني بعيدًا وجعلته حساسًا وقلقًا على نفسه وعلى حالاته. لمَّحتْ مسز بولتون بوعي إلى الأشياء الخارجية فقط. داخليًّا صار رقيقًا جدًّا. وخارجيًّا صار فعالًا.

ينهض ليذهب إلى المناجم مرة أخرى: وهناك، ينزل في عربة فحم، وفي العربة يُنقَل إلى العمل. يتذكر أمورًا تعلمها قبل الحرب، وبدا أنه نسيها تمامًا. يجلس هناك، معوقًا، في حوض، ومدير تحت الأرض يعرض له الطبقة تحت الأرض بكشاف قوي. لا يقول الكثير. لكن عقله يبدأ العمل.

بدأ مرة أخرى قراءة أعماله التقنية عن صناعة تعدين الفحم، درس التقارير الحكومية، وقرأ باهتمام أحدث الأعمال عن التعدين وكيمياء الفحم والصخر الزيتي وكانت مكتوبة بالألمانية. وبطبيعة الحال بقيت أكثر الاكتشافات قيمة سرية قدر الإمكان. لكن بمجرد أن تبدأ البحث في مجال تعدين الفحم، دراسة المناهج والطرق، دراسة المنتجات الثانوية والإمكانيات الكيميائية للفحم، تدرك البراعة المذهلة والمهارة الخارقة للعقل التقني الحديث، وكأن الشيطان نفسه سلَّف عقول الشياطين لعلماء التقنية في الصناعة. كان هذا العلم التقني للصناعة أكثر إثارة من الفن بكثير، من الأدب، المواد العاطفية البائسة البلهاء. في هذا المجال، الرجال مثل الآلهة، أو الشيطان، يستلهمون الاكتشافات، ويقاتلون لتحقيقها. تجاوز الرجال في هذا المجال أي عمر عقلي يمكن حسابه.

لكن كلفورد عرف أن هؤلاء الرجال العصاميين، فيما يتعلق بالحياة العاطفية الإنسانية، في عمر فتيان ضعفاء في الثالثة عشرة تقريبًا. كان التباين هائلًا ومروِّعًا.

لكن ليكن ما يكون. لا يهتم كلفورد بانزلاق الإنسان إلى البلاهة العامة في العقل العاطفي و«الإنساني». دعك من هذا كله. يهتم بتقنيات التعدين الحديث للفحم، وانتشال تفرشاِل من الهوة.

ينزل إلى المنجم يومًا بعد يوم، وضع المدير العام، ومدير النفقات العامة، ومدير تحت الأرض، والمهندسين في طاحونة لم تخطر ببالهم قط. السلطة! يشعر بإحساس جديد بالسلطة يتدفق في جسده: السلطة على هؤلاء الرجال، على مئات ومئات من عمال المناجم. كان يكتشف ويضع الأمور في قبضته.

وبدا من المؤكد أنه ولد من جديد. جاءته الحياة الآن! كان يحتضر تدريجيًّا، مع كوني، في حياة خاصة منعزلة للفنان والكائن الواعي. والآن ليذهب هذا كله. لينمْ. يشعر ببساطة باندفاع الحياة إليه من الفحم، من المنجم. الهواء شديد العفونة في المنجم أفضل بالنسبة له من الأكسجين. يمنحه إحساسًا بالقوة، القوة. يفعل شيئًا: وسيفعل شيئًا. يكسب، يكسب: ليس كما كسب من القصص، مجرد الجماهيرية، وسط الخبث وضعف الطاقة. لكنه انتصار الإنسان.

يعتقد في البداية أن الحل يكمن في الكهرباء: تحويل الفحم إلى طاقة كهربية. ثم أتت فكرة جديدة. ابتكر الألمان محرِّكًا جديدًا للقاطرة يعمل بالتغذية الذاتية، أي لا يحتاج إلى وقَّاد. يجب تغذيته بوقود جديد،

يحترق بكميات صغيرة في حرارة عالية، تحت ظروف معينة.

تجذب كلفورد في البداية فكرةُ الوقود المركَّز الجديد الذي يحترق ببطء شديد في حرارة عالية. لابد من وجود تحفيز خارجي لحرق هذا الوقود، وليس مجرد تزويده بالهواء. يبدأ التجريب، ويحصل على شاب ماهر، أثبت أنه بارع في الكيمياء، ليساعده.

يشعر بالانتصار. يخرج من نفسه أخيرًا. ويشبع حنينه السري طول حياته للخروج من نفسه. لم يحقق الفن له ذلك. جعل الفن الوضع أسوأ. لكنه يحقق ذلك الآن، الآن.

لا يدرك كم كانت مسز بولتون وراءه. لا يعلم كم كان يعتمد عليها. لكن رغم ذلك، من الواضح أن صوته حين يكون معها ينخفض لإيقاع سهل من الحميمية، إلى تفاهة مبتذلة تقريبًا.

كان مع كوني صارمًا بعض الشيء. يشعر بأنه يدين لها بكل شيء، فيبدي لها أعظم احترام وتقدير، طالما تمنحه مجرد احترام خارجي. لكن من الواضح أن لديه فزعًا كامنًا منها. لأخيل الجديد كعب، وفي هذا الكعب امرأة، ويمكن لامرأة مثل كوني، زوجته، سحقه تمامًا. يدخل في فزع ما يشبه الخضوع لها، وكان بالغ اللطف معها. لكن صوته كان يتوتر بعض الشيء حين يتحدث إليها، وبدأ يصمت في حضورها.

فقط حين يكون وحده مع مسز بولتون يشعر حقًّا بأنه لورد وسيد، وينطلق صوته معها بالسهولة والانسيابية اللتين ينطلق بهما صوتها. ويتركها تحلق له أو تليِّف له كل جسمه وكأنه طفل، حقًّا وكأنه طفل.

الفصل العاشر

تقضي كوني الآن وقتًا طويلًا بمفردها، وقل عدد من يأتون راجبي. لم يعد كلفورد يرغب في وجودهم. انقلب حتى على الأصدقاء. كان غريبًا. فضَّل الراديو، وقد ثبَّته ببعض التكلفة، وبقدر كبير من النجاح في النهاية. التقط أحيانًا مدريد أو فرانكفورت، حتى في ميدلندز القلقة.

وكان يجلس وحيدًا لساعات يستمع إلى الميكرفون يدوِّي. مما أدهش كوني وأذهلها. لكنه يجلس وتعبير بهجة خاوية على وجهه، مثل شخص يفقد عقله، ويستمع، أو يبدو أنه يستمع، إلى شيء لا يوصف.

هل يستمع حقًّا؟ أم أنه نوع من المخدر يتناوله، بينما يعتمل في أعماقه شيء آخر؟ لا تعرف كوني. تفر إلى غرفتها، أو إلى الخميلة. يسيطر عليها أحيانًا نوع من الهلع، هلع الجنون الوشيك لكل الجنس المتحضر.

لكن كلفورد ينجرف لهذه الغرابة الأخرى الآن، غرابة النشاط الصناعي، ويصبح تقريبًا مخلوقًا بصدَفة صلبة وفعالة من الخارج وهشًّا من الداخل، الكابوريا وسرطان البحر المذهل في العالم الحديث، عالم

الصناعة والمال، لافقاريات من فصيلة القشريات، بأصداف من الحديد، مثل الآلات، وأجسام داخلية من عجين طري، وكوني نفسها محصورة تمامًا.

ليست حتى حرة، لأن كلفورد لابد أن يجدها. ويبدو أنه يعاني من هلع نفسي من أن تتركه. الجزء الهش الغريب منه، الجزء العاطفي المتميز بشكل إنساني، يعتمد عليها بهلع، مثل طفل، مثل معتوه تقريبًا. ينبغي أن توجد الليدي تشاترلي، زوجته، في راجبي، وإلا تاه مثل معتوه في مستنقع.

تدرك كوني هذا الاعتماد المدهش بنوع من الفزع. تسمعه يتحدث مع مدراء المنجم، ومع أعضاء من مجلسه، ومع علماء شباب، وتدهش من بصيرته البارعة للأمور، وسلطته، سلطته المادية الخارقة على من يوصفون بأنهم رجال عمليون. صار رجلًا عمليًا، رجلًا قويًا وذكيًا بشكل مدهش، سيدًا. وأرجعت كوني ذلك لتأثير مسز بولتون عليه، بالضبط في لحظة حرجة من حياته.

لكن هذا الرجل العملي الذكي يكاد يكون معتوهًا حين يترك بمفرده لحياته العاطفية. يعبد كوني. إنها زوجته، كائن أسمى، يعبدها عبادة جبانة غريبة، مثل همجي، عبادة تتأسس على خوف هائل، وحتى على كراهية سلطة المعبود، المعبود الفظيع. كان كل ما يريده أن تقسم كوني، تقسم على ألا تتركه، ألا تتخلى عنه.

تقول له- بعد أن حصلت على مفتاح للكوخ: «كلفورد، هل ترغب حقًا في أن يكون لي طفل ذات يوم؟».

ينظر إليها وفي عينيه الجاحظتين الباهتتين نظرة ماكرة.

يقول: «لا أمانع، إن لم يحدث هذا أي اختلاف بيننا».

تسأل: «اختلاف في ماذا؟»

«فيك وفيَّ؛ في حب كل منا للآخر. وإذا كان سيؤثر عليه فأنا ضده تمامًا. لماذا، ربما يكون لي ذات يوم طفل من صلبي».

تنظر إليه باندهاش.

«أقصد، قد يعود لي يومٌ من تلك الأيام».

تظل تحدق فيه باندهاش، فيشعر بعدم ارتياح.

تقول: «بالتالي لا ترغب في أن يكون لي طفل؟».

يرد بسرعة، مثل كلب محاصر: «أقول لك، أرغب تمامًا، بشرط ألا يمس حبك لي. وإذا مسه فأنا ضده بالتأكيد».

لم يكن أمام كوني إلا أن تصمت بخوف بارد وازدراء. كان هذا الحديث ثرثرةَ معتوهٍ حقًّا. لم يعد يعرف عما يتحدث.

تقول بتهكم: «أوه، لن يحدث أي اختلاف في مشاعري تجاهك».

يقول: «اتفقنا! تلك هي القضية! في هذه الحالة لا أمانع قط. أقصد إنه أمر رائع إلى أقصى حد أن يكون لدينا طفل يلهو في المنزل، ويشعر المرء بأنه يبني مستقبلًا له. يكون لدي ما أكافح من أجله، وأنا أعرف أنه طفلك، أليس كذلك، يا عزيزتي؟ وسوف يبدو بالضبط وكأنه طفلي. لأنك أنت ما يهم في هذه المسائل. تعرفين ذلك، أليس كذلك،

يا عزيزتي؟ لا أتدخل، إنني صفر. أنت عظيمة الأهمية! بقدر ما تستمر الحياة. تعرفين، أليس كذلك؟ أعني بقدر ما يعنيني. أعني، لكنني بالنسبة لك عدم مطلق. أعيش من أجلك ومن أجل مستقبلك. أنا عدم بالنسبة لنفسي».

تسمعت كوني هذا كله بفزع ونفور عميقين. إنه أحد أنصاف الحقائق المروعة التي تسمم الوجود الإنساني. أي رجل في وعيه يمكن أن يقول مثل هذه الأشياء لامرأة! لكن الرجال ليسوا في وعيهم. أي رجل بذرَّة شرف يمكن أن يضع هذا العبء المفزع لمسئولية الحياة على كاهل امرأة، ويتركها في الفراغ؟

بالإضافة إلى ذلك، خلال نصف ساعة، تسمع كوني كلفورد يتحدث إلى مسز بولتون، بصوت حار مندفع، كاشفًا نفسه بعاطفة باردة للمرأة، وكأنها نصف خليلة، نصف أم حاضنة له. وكانت مسز بولتون تلبسه ملابس المساء بعناية، لأن في المنزل ضيوفًا مهمين من العمل.

في ذلك الوقت شعرت كوني أحيانًا بأنها تموت حقًّا. شعرت بأنها تنهار حتى الموت من الأكاذيب الغريبة، ومن الوحشية المذهلة للغباء. أفزعتها، بشكل ما، الكفاءة العملية الغريبة لكلفورد، إلى أقصى حد، وأصابها إعلانه للعبادة الخاصة بنوبة هلع. ليس بينهما شيء. لا تمسه قط في تلك الأيام، ولا يمسها قط. لا يأخذ حتى يدها ويمسكها برقة قط. لا، ولأنهما لا يتمسان قط، عذبها بإعلانه للعبودية. إنها وحشية العنَّة بمعنى الكلمة. وشعرت بصوابها يتلاشى، أو أنها تموت.

كانت تفر بأسرع ما يمكن إلى الخميلة. وبعد ظهر أحد الأيام، وهي

تجلس مكتئبة، تشاهد المياه تتدفق ببرود في بئر جون، يأتي الحارس مسرعًا إليها.

يقول محييًا وهو يقدم لها المفتاح: «صنعت لك مفتاحًا يا سيدتي!»

تقول مشدوهةً: «شكرًا جزيلًا».

يقول: «الكوخ ليس مرتبًا، إذا لم تمانعي، أنظفه بقدر ما أستطيع».

قالت: لكنني لا أرغب في إزعاجك!»

«أوه، ليس هناك أي إزعاج. أضع الدراريج في الداخل حوالي أسبوع. لكنها لن تفزع منك. سيكون عليَّ أن أراها صباحًا وليلًا، لكنني لن أزعجك أكثر مما يمكن أن أساعد».

تدافع: «لكنك لن تزعجني. لن أذهب إلى الكوخ إطلاقًا، إلا إذا كنْتُ في الطريق».

ينظر إليها بعينيه الزرقاوين الثاقبتين. يبدو عطوفًا، لكنه بعيد. كان عاقلًا على الأقل، وصحيح البدن، حتى لو بدا نحيفًا ومعتلًّا. أزعجه سعال.

تقول: «لديك سعال».

«لا شيء- برد! الالتهاب الرئوي الأخير تركني بسعال، لكنه لا شيء».

يبقى بعيدًا عنها، ولا يقترب منها.

كثيرًا ما كانت تذهب إلى الكوخ، في الصباح أو بعد الظهر، لكنه لم يكن هناك قط. لا شك أنه تجنبها عمدًا. يريد أن يحافظ على خصوصيته.

يرتب الكوخ، ويضع الطاولة الصغيرة والمقعد قرب المدفأة، ويترك كومة صغيرة من المواد الملتهبة والألواح الصغيرة، ويبعد الأدوات والعفش قدر المستطاع، طامسًا معالمه. في الخارج، قرب البقعة منزوعة الأشجار، يبني سقفًا صغيرًا منخفضًا من الأغصان والقش، مأوى للطيور، وتحته توجد الأقفاص الخمسة. وحين تأتي ذات يوم تجد دُرَّاجتين بنيتين تجلسان بانتباه وشراسة في الأقفاص، تجلسان على بيض الدراريج، وتنتفخان بزهو وعمق بكل حرارة الدماء الأنثوية المتأملة. يحطم هذا المشهد قلب كوني تقريبًا. هي نفسها مهجورة بلا فائدة، ليست أنثى إطلاقًا، مجرد كيان من الهلع.

كانت الدراريج تحتل كل الأقفاص الخمسة، ثلاثًا بنية وواحدة رمادية وواحدة سوداء. ترقد كلها على حد سواء على البيض بتثاقل رقيق يتسم به الدافع الأنثوي، الطبيعة الأنثوية، نافشة ريشها. وبعيون متألقة تراقب كوني، وهي تقترب منها. تصيح صيحات قصيرة حادة، صيحات غضب وتحذير، لكنها أساسًا صيحات غضب أنثوي عند الاقتراب منها.

تجد كوني ذرة في علبة الذرة في الكوخ. تقدمه للدراريج في يدها. لا تأكله. دُرَّاجة واحدة فقط تنقر يدها بوخزة ضئيلة شرسة، فتفزع كوني. لكنها كانت متلهفة لتقديم شيء للأمهات الراقدات اللائي لم يأكلن ولم يشربن. تحضر ماء في علبة صغيرة، وتبتهج حين تشرب دُرَّاجة.

تأتي إلى الدراريج يوميًا، الشيء الوحيد في العالم الذي يدفئ قلبها. أصابتها تصريحات كلفورد بالبرودة من رأسها إلى قدمها. وأصابها صوت مسز بولتون بالبرودة، وصوت رجال الأعمال الذين يأتون.

وأثرت عليها رسالة عارضة من ميكاليس بالبرودة نفسها. تشعر أنها ستموت بالتأكيد إذا استمر هذا الوضع فترة أطول.

لكنه الربيع، وكان الجريس[1] يظهر في الخميلة، وبراعم الأوراق تتفتح على أشجار البندق مثل رذاذ مطر أخضر. كم كان مرعبًا أن يأتي الربيع، وكل شيء بارد، بارد. الدراريج وحدها، نافشة ريشها بشكل مدهش على البيض، دافئة بحرارتها، الأجساد الأنثوية الراقدة! تشعر كوني بأنها تعيش على حافة الإغماء طول الوقت.

ثم ذات يوم، يوم مشرق رائع بباقات كبيرة من بخور مريم[2] تحت أشجار البندق، وبنفسجات كثيرة تتناثر في الممرات، تأتي بعد الظهر إلى الأقفاص وكان هناك كتكوت مرح ضئيل، ضئيل يقفز قفزات ضئيلة أمام قفص، والدراجة الأم تصيح برعب. كان الكتكوت الصغير النحيل بنيًّا رماديًّا بعلامات سوداء، وكان البريق الضئيل الأكثر حيوية لمخلوق في الممالك السبع في تلك اللحظة. تقبع كوني لتراقبه بنشوة. حياة، حياة! حياة جديدة نقية براقة لا تعرف الخوف! حياة جديدة. ضئيل جدًّا وبدون خوف تمامًا! حتى حين يندفع، اندفاعة ضئيلة إلى القفص مرة أخرى، ويختفي تحت ريش الدُّرَّاجة استجابة لصيحات الدراجة الأم، الصيحات التحذيرية الوحشية، لم يكن خائفًا حقًّا، وبدا الأمر مثل لعبة، لعبة الحياة. لأن، بعد لحظة، كان رأس حاد ضئيل يبحث بين الريش البني الذهبي للدراجة، ويحدق في الكون.

---

(١) نبات أوروبي من عائلة الزنبق، له زهور زرقاء، على شكل أجراس.

(٢) أو زهور الربيع، نبات أوروبي، له زهور صفراء يزهر في بداية الربيع.

تُفتَن كوني. وفي الوقت ذاته، لم تشعر قط بألم بؤسها الأنثوي بمثل هذه الحدة. أصبح غير محتمل.

كانت لديها رغبة وحيدة، الذهاب إلى البقعة منزوعة الأشجار في الخميلة. وكان ما تبقى حلمًا مؤلمًا. لكنها كانت أحيانًا تبقى طول اليوم في راجبي، بسبب مهامها بوصفها مضيفة. فتشعر وكأنها ستصبح خاوية أيضًا، خاوية ومجنونة.

ذات مساء، سواء كان هناك ضيوف أو لم يكن، تهرب بعد الشاي. الوقت متأخر، تفر عبر المنتزه مثل إنسان يخاف أن يستدعى للعودة. كانت الشمس تسطع وردية وهي تدخل الخميلة، لكنها تندفع بين الزهور. يبقى الضوء فترة طويلة في الأفق.

تصل إلى البقعة منزوعة الأشجار متوهجة وشبه واعية. كان الحارس هناك، في قميصه، يغلق الأقفاص بحلول الليل، حرصًا على سلامة الطيور الصغيرة. لكن واحدة من الثلاثي الصغير كانت تعدو على قدمين ضئيلتين، منبهة السوس الكسول، تحت سقيفة القش، رافضة نداء الدخول من الأم القلقة.

تقول، وهي تلهث وتحدق بخجل في الحارس، وتكاد لا تدركه: «أتيت لأرى الكتاكيت، هل هناك المزيد؟».

يقول: «ستة وتلاتين لغاية دلوقتي! مش وحشين!».

كان هو أيضًا يستمتع بشكل غريب بمشاهدة الكتاكيت وهي تخرج من البيض.

تقبع كوني أمام القفص الأخير. كانت الكتاكيت الثلاثة قد دخلت فيه. لكن رؤوسها الممتلئة مازالت تبرز بحدة من الريش الأصفر، ثم تنسحب، وحينها يبرز رأس واحد ضئيل بحجم الخرزة إلى الأمام من الجسم الهائل للأم.

تقول وهي تضع أصابعها بحذر شديد بين أعمدة القفص: «أحب لمسها». لكن الدراجة الأم تنقر يد كوني بشراسة، فتتراجع مشدوهة وفزعة.

تقول بصوت يعبر عن الدهشة: «كيف تنقرني! إنها تكرهني! لكنني لن أؤذيها!»

يضحك الرجل الذي يراقبها، ويقبع بجوارها، وركبتاه متباعدتان، ويضع يده بثقة تامة وبطء في القفص. تنقره الدراجة الكبيرة، لكن ليس بتلك الوحشية. وببطء، ورقَّة، وبأصابع رقيقة واثقة، يتحسس ما بين ريش الدراجة الأم ويخرج كتكوتًا يصيح بصوت ضعيف في يده المغلقة.

يقول: «خذي!» وهو يمد يده إلى يدها. تأخذ الكتكوت المتكاسل بين يديها، حيث يقف على ساقين ضئيلتين لا تحملانه، وذرة توازن حياته ترتجف عبر قدمين لا وزن لهما تقريبًا إلى يدي كوني. لكنه يرفع رأسه الضئيل الجميل والنظيف بجرأة، وينظر حوله بحدة ويصيح «صيحة» واهية. تقول كوني برقة: «بديع جدًّا! شقي جدًّا!»

وكان الحارس أيضًا، يقرفص بجوارها، يتفرج بوجه مندهش على الطائر الصغير الجريء في يديها. وفجأة يرى دمعة تسقط على رسغها.

يقف، ويبتعد، منتقلًا إلى القفص الآخر. لأنه أدرك فجأة اللهب القديم يتأجج ويقفز إلى خاصرتيه، وقد تمنى أن يهدأ إلى الأبد. قاومه، مديرًا ظهره إليها. لكن اللهب يقفز، يقفز إلى أسفل، مطوقًا ركبتيه.

يلتفت مرة أخرى لينظر إليها. كانت راكعة وتمد يديها ببطء إلى الأمام، بدون وعي، ليدخل الكتكوت إلى الدراجة الأم مرة أخرى. فيها شيء صامت وبائس جدًّا، تتأجج الشفقة في أحشائه من أجلها.

بدون أن يدري، يأتي بسرعة إليها ويقبع بجوارها مرة أخرى، وهو يأخذ الكتكوت من يديها، لأنها خائفة من الدراجة، ويعيده إلى القفص. في مؤخرة خاصرتيه تنتفض النار فجأة بشكل أقوى.

يرمقها بقلق. وهي تشيح بوجهها، وتبكي بلا وعي، بكل ألم بؤس جيلها. يذوب قلبه فجأة، مثل قطرة من النار، يمد يده ويضع أصابعه على ركبتها.

يقول برقة: «لا تبكي».

لكنها تضع يديها على وجهها وتشعر أن قلبها محطم حقًّا ولم يعد هناك ما يهم.

يضع يده على كتفها، وبرقة ولطف، تبدأ النزول إلى منحنى ظهرها؛ بتهور، بحركة مداعبة متهورة، إلى منحنى خاصرتيها القابعتين. وهناك تداعب يده برقة، برقة، منحنى خاصرتها، بملاطفة غريزية متهورة.

تجد منديلها وتحاول بلا وعي تجفيف وجهها.

يقول بصوت هادئ وحيادي: «هل تأتين إلى الكوخ؟».

وهو يغلق يده برقة على ذراعها، يسحبها ويقودها ببطء إلى الكوخ، ولا يتركها حتى دخلت. ثم يزيح الكرسي والطاولة جانبًا، ويأخذ بطانية بنية، بطانية جندي، من صندوق الأدوات، ويفرشها ببطء. تحدق في وجهه، وهي تقف ساكنة.

كان وجهه شاحبًا وخاليًا من التعبير، مثل رجل يستسلم للقدر.

يقول برقة: «تستلقين هنا»، ويغلق الباب، فتعم الظلمة، ظلمة تامة.

بطاعة غريبة، تستلقي على البطانية. ثم تشعر باليد الرقيقة المتلهفة المتلمسة طريقها المغلوبة على أمرها تلمس جسمها، وتتحسس وجهها. تداعب اليدُ وجهها برقة، برقة، وبنعومة لا نهائية ويقين، وأخيرًا تأتي اللمسة الرقيقة لقبلة على خدها.

تستلقي ساكنة تمامًا، في نوع من النوم، نوع من الحلم. ثم ترتجف وهي تشعر بيده تتلمس طريقها برقة، لكن بطريقة خرقاء محبطة وغريبة، بين ثيابها. لكن اليد عرفت، أيضًا، كيف تخلع عنها ثيابها حين أرادت. تسحب الشيث[١] الحريري الرقيق، ببطء وعناية، إلى أسفل حتى قدميها. ثم برجفة اللذة الرائعة يلمس الجسد الرقيق الدافئ، ويلمس سرتها للحظة في قبلة. يأتيها على الفور، يدخل سلام الأرض في جسدها الرقيق الهادئ. الدخول إلى جسد المرأة لحظة سلام محض بالنسبة له.

مازالت مستلقية، في نوع من النوم، دائمًا في نوع من النوم. كان النشاط، الأورجازم، نشاطه، نشاطه تمامًا؛ لم تعد تستطيع النضال من

---

(١) الشيث: ثوب نسوي ضيق.

أجل نفسها. حتى قبضة ذراعيه حولها، حتى الحركة المكثفة لجسده، ونثر بذرته فيها، كانت نوعًا من الحلم، لم تستفق منه حتى انتهى واستلقى يلهث برقة تجاه ثديها.

ثم تتساءل، تتساءل بشكل مبهم، لماذا؟ لماذا كان هذا ضروريًّا؟ لماذا رفع هذا غيمة هائلة عنها ومنحها سلامها؟ هل كان واقعًا؟ هل كان واقعًا؟

مازال دماغها المعذَّب، دماغ المرأة الحديث، لا يعرف الراحة. هل كان واقعًا؟ وكانت تعرف أنها إذا أعطت نفسها للرجل، أنه كان واقعًا. لكنها إذا احتفظت بنفسها لنفسها فإنه عدم. كانت تشعر بأنها عجوز، عمرها ملايين السنين. وأخيرًا، لم تعد تحتمل عبء نفسها. يجب أن تكون للأخذ. أن تكون للأخذ.

يستلقي الرجل في سكون غامض. بم يشعر؟ بم يفكر؟ لا تعرف. كان رجلًا غريبًا بالنسبة لها، لا تعرفه. ليس عليها إلا أن تنتظر، لأنها لا تجرؤ على اختراق سكونه الغامض. يستلقي وذراعاه حولها، وجسده على جسدها، وجسده المبلل يلامس جسدها، قرب شديد. كان مجهولًا تمامًا. لكنه لم يكن غير مسالم. كان سكونًا مسالمًا.

تعرف ذلك، حين ينهض أخيرًا ويبتعد عنها. يشبه الهجْر. يسحب فستانها في الظلام حتى ركبتيها ويقف لحظات، يعدل ملابسه على ما يبدو. ثم يفتح الباب بهدوء ويخرج.

ترى قمرًا صغيرًا رائعًا جدًّا يسطع فوق الشفق على أشجار البلوط.

تنهض بسرعة وترتب نفسها لتكون أنيقة. وتذهب إلى باب الكوخ.

الخميلة المنخفضة كلها في الظل، في الظلام تقريبًا. لكن السماء في الأفق بلورية. لا تلقي بأي ضوء. يأتي عبر الظل المنخفض باتجاهها، ووجهه مرفوع مثل بقعة باهتة.

يقول: «هل نذهب إذن؟».

«إلى أين؟».

«أذهب معك إلى البوابة».

يرتب الأشياء بطريقته. يغلق باب الكوخ ويأتي خلفها.

يسأل وهو يمضي بجوارها: «لست نادمة، أليس كذلك؟».

تقول: «لا! لا! وأنت؟».

يقول: «من أجل ذلك! لا!» ثم أضاف بعد برهة: «لكن هناك بقية الأمور».

تقول: «ما بقية الأمور؟».

«السير كلفورد. الآخرون. كل المضاعفات».

تقول محبطة: «لماذا المضاعفات؟».

«الأمر كذلك دائمًا. بالنسبة لك وبالنسبة لي. هناك مضاعفات دائمًا». يواصل السير بثبات في الظلام.

تقول: «وهل أنت نادم؟».

يرد وهو ينظر إلى السماء: «بطريقة ما! اعتقدت أنني انتهيت من هذا

كله. والآن بدأْتُ مرة أخرى».

«ماذا بدأْتَ؟».

«الحياة».

تردد بنشوة غريبة: «الحياة!».

يقول: «إنها الحياة. لا يمكن تجنبها. وإذا تجنبْتُها أموت غالبًا. وإذا تحطمْتُ مرة أخرى، فليكن».

لا ترى الأمر بهذه الطريقة، لكن يبقى...

تقول ببهجة: «إنه الحب».

يرد: «مهما يكن».

يسيران صامتين في الخميلة المظلمة حتى البوابة تقريبًا.

تقول بحزن: «لكنك لا تكرهني، أليس كذلك؟».

يرد: «لا، لا». وفجأة يضمها إلى صدره مرة أخرى، بشغف التواصل القديم. «لا، بالنسبة لي كان أمرًا رائعًا، كان أمرًا رائعًا. هل كان كذلك بالنسبة لك؟».

ترد، بدون ثقة تقريبًا، لأنها ليست في وعيها تمامًا: «أجل، بالنسبة لي أيضًا».

يقبّلها برقة، برقة، قبلات حارة.

يقول بحزن: «فقط لو لم يكن في العالم كثير من الآخرين».

تضحك. كانا عند البوابة المفضية إلى المنتزه. يفتحها لها.

يقول: «لن آتي مرة أخرى».

«لا!» وتمد يدها، وكأنها تصافحه. لكنه أخذها في يديه.

تسأل بحزن: «هل أعود مرة أخرى؟».

«أجل! أجل!».

تتركه وتمضي عبر المنتزه.

تبتعد ويراقبها وهي تسير في الظلام، مواجهة شحوب الأفق. بمرارة تقريبًا يراقبها وهي تمضي. تربطه بالحياة من جديد، ويريد أن يكون وحيدًا. تكلِّفه تلك الخصوصية المريرة، خصوصية رجل لا يريد في النهاية إلا أن يكون وحيدًا.

يلتفت إلى ظلمة الخميلة. كان كل شيء ساكنًا، وقد غاب القمر. لكنه يعي صخب الليل، المحركات في ستاكس جيت، حركة المرور على الطريق الرئيس. ببطء يتسلق الهضبة الجرداء. ومن القمة يرى البلدة، صفوفًا ساطعة من الأضواء عند ستاكس جيت، وأنوارًا أقل عند منجم تفرشال، الأضواء الصفراء لتفرشال والأضواء في كل مكان، هنا وهناك، في البلدة المظلمة، مع احمرار الأفران البعيدة، الخامدة والمتوهجة، كان الليل صافيًا، اللون الوردي لتدفق المعدن الأبيض المتوهج. الأضواء الكهربية الحادة الخبيثة في ستاكس جيت! فيها حدة شيطانية لا توصف! وكل الفزع القلق المتقلب باستمرار لليل الصناعي في ميدلندز. يسمع الروافع في ستاكس جيت يتسلمها عمال الساعة السابعة. كان المنجم يعمل ثلاث دوريات.

ينزل مرة أخرى إلى ظلام الخميلة وعزلتها. لكنه يعرف أن عزلة الخميلة وهمية. الصخب الصناعي يحطم الوحدة، والأضواء الحادة، رغم أنها لا تُرَى، تسخر منها. لم يعد الرجل يستطيع أن ينعزل وينسحب. لا يسمح العالم بوجود نساك. والآن يقبل المرأة، ويدخل حلقة جديدة من الألم والخسارة. لأنه يعرف بالخبرة ما يعنيه ذلك.

ليست غلطة المرأة، أو حتى غلطة الحب، أو غلطة الجنس. تكمن الغلطة هناك، في الخارج، في تلك الأضواء الكهربية الشريرة وفي الحشرجة الشيطانية للمحركات. هناك، في عالم الجَشِع الآلي وآلية الجَشِع والجَشَع الآلي، يتألق بالأنوار والمعدن المتوهج الفوار ويهدر مع حركة المرور، يكمن هناك الشيء الهائل الشرير، مستعدًّا لتدمير كل ما لا يتواءم معه. وبسرعة سيدمر الخميلة، ولن ينبت الجريس بعد ذلك. لابد أن تهلك الأشياء الهشة تحت لف الحديد ودورانه.

يفكر في المرأة بحنان لا نهاية له. البائسة المسكينة، أجمل مما يعرف، أوه! لطيفة جدًّا في التواصل معه مقارنة بذلك القدر الكبير من الصرامة التي كانت عليها. المسكينة، لديها أيضًا بعض هشاشة الياقوتيات البرية، ليست متينة إطلاقًا مثل المنتجات المطاطية والبلاتين، مثل الفتاة الحديثة. يقتلونها! بشكل مؤكد مثل الحياة، يقتلونها، كما يفعلون في كل الحياة الرقيقة الطبيعية. الرقيقة! كانت رقيقة في موضع ما، رقيقة رقة الياقوتيات النامية، شيء انتهى من نساء اليوم، نساء السيليلويد. لكن عليه أن يحميها بقلبه لبعض الوقت. لبعض الوقت، قبل أن يقتلهما العالم الفولاذي المتبلد وشيطان الجشع الآلي، يقتلها كما يقتله.

يذهب إلى البيت ببندقيته وكلبته، إلى الدار المظمة، ويشعل اللمبة، والمدفأة، ويتناول عشاء من الخبز والجبن، والبصل الأخضر، والبيرة. كان وحيدًا، في صمت يحبه. غرفته نظيفة ومرتبة، لكنها قاسية بعض الشيء. النار ساطعة، والموقد أبيض، واللمبة الجاز معلقة ساطعة على الطاولة، بمشمعها الأبيض. يحاول قراءة كتاب عن الهند، ولا يستطع القراءة في تلك الليلة. يجلس بقميصه جوار المدفأة، بدون أن يدخن، لكن مع مج من البيرة في متناول يده. ويفكر في كوني.

إنه، إذا شئنا الحقيقة، نادم على ما حدث، وربما معظم الندم من أجلها. لديه إحساس بنذير شؤم. ليس إحساسًا بالخطأ أو الذنب؛ ما كان ضميره ليزعجه بشأن هذا. يعرف أن الضمير أساسًا خوفٌ من المجتمع، أو خوف المرء من نفسه. لا يخاف من نفسه. لكنه يخاف بوعي تام من المجتمع، ويعرف بالغريزة أنه وحش خبيث ومجنون.

المرأة! لو تكون معه، ولا يكون في العالم أحد آخر! تتأجج الرغبة مرة أخرى، يبدأ قضيبه في الانتفاض مثل طائر حي. وفي الوقت ذاته، يرهقه غم، فزع من أن يعرض نفسه ويعرضها لذلك الشيء الخارجي المتألق بخبث في الأنوار الكهربية، يرهق كاهله. الشابة المسكينة مجرد مخلوق أنثوي شاب في نظره؛ لكنها مخلوق أنثوي، شابة مارس معها الجنس ويرغب فيها مرة أخرى.

يتمدد بتثاؤب غريب من الرغبة، لأنه كان وحيدًا بعيدًا عن الرجال أو النساء لأربع سنوات، ينهض ويتناول معطفه مرة أخرى، وبندقيته، ويخفض نور اللمبة ويخرج إلى الليل المرصع بالنجوم، ومعه الكلبة.

مدفوعًا بالرغبة والفزع من الشيء المؤذي في الخارج، يقوم بجولة في الخميلة ببطء وهدوء. يحب الظلام ويتلفع بها. كان مناسبًا لطنين رغبته، وكانت، رغم كل شيء، مثل ثروة؛ التوتر المتأجج لقضيبه، النار المتأججة في خاصرتيه! أوه، لو هناك رجال آخرون يكون معهم، ليحارب الشيء الكهربي المتألق في الخارج هناك، ليحافظ على رقة الحياة، رقة النساء، والثروات الطبيعية المتمثلة في الرغبة. لو كان هناك رجال آخرون يحارب معهم! لكن الرجال جميعًا في الخارج، هناك، يمجدون الشيء، منتصرين أو مسحوقين، في اندفاع الجشع الآلي أو الآلية الجشعة.

ومن جانبها تسرع كونستنس عبر المنتزه، إلى البيت، بدون تفكير تقريبًا. لم تخطر على بالها فكرة أخرى. إنه وقت العشاء.

لكنها تنزعج حين تجد الأبواب مغلقة مما اضطرها لرن الجرس. تفتح مسز بولتون.

تقول بمكر: «لماذا سموك هناك! بدأت أتساءل إن كنت قد تُهْتِ! رغم أن السير كلفورد لم يسأل عنك؛ كان معه مستر لينلي، يتحدثان عن شيء ما. يبدو وكأنه سيبقى حتى العشاء، أليس كذلك، سيدتي؟».

تقول كوني: «غالبًا».

«هل أضع العشاء بعد ربع ساعة؟ حتى يكون لديك الوقت لارتداء ملابس مناسبة».

«ربما يكون ذلك أفضل».

كان مستر لينلي المدير العام للمناجم، عجوزًا من الشمال، ليس قويًا

بشكل يناسب كلفورد؛ لا يستطيع التعامل مع ظروف ما بعد الحرب، أو مع عمال مناجم ما بعد الحرب، بعقيدتهم «الحذرة». لكن كوني معجبة بمستر لينلي، رغم سعادتها بالنجاة من تملق زوجته.

يبقى لينلي حتى العشاء، وكانت كوني مضيفة يعجب بها الرجال كثيرًا، متواضعة جدًّا، ويقظة وواعية جدًّا، بعينيها الزرقاوين الكبيرتين الواسعتين ورباطة جأش رقيقة تكفي لتواري ما تفكر فيه حقًّا. لعبت كوني دور هذه المرأة كثيرًا جدًّا، كان تقريبًا طبيعة ثانية بالنسبة لها؛ لكنها تبقى ثانية بالتأكيد. لكن كم كان غريبًا اختفاء كل شيء من وعيها وهي تلعبه.

تنتظر بصبر لتصعد وتستغرق في أفكارها الخاصة. بدا أن الانتظار **حصنها** دائمًا.

لكن، بمجرد الوصول إلى غرفتها، تشعر بالتشوش والارتباك. ولا تعرف فيما تفكر. أي نوع من الرجال حقًّا؟ هل هو معجب بها حقًّا؟ تشعر بأنه لا يعجب بها كثيرًا. لكنه عطوف. فيه شيء ما، نوع من العطف الدافئ الساذج، غريب وفجائي، حتى أنه فتح أعماقها له تقريبًا. لكنها تشعر بأنه قد يكون عطوفًا بهذا الشكل مع أية امرأة. ورغم ذلك كان الأمر ناعمًا ومريحًا بشكل غريب. إنه رجل عاطفي، سليم وعاطفي. لكن ربما لا يكون متميزًا تمامًا؛ ربما يكون مع أية امرأة كما كان معها. الأمر ليس شخصيًّا حقًّا. إنها مجرد أنثى بالنسبة له.

لكن ربما يكون ذلك أفضل. ورغم ذلك، كان كريمًا مع الأنثى فيها، كما لم يكن أي رجل من قبل. الرجال كرماء جدًّا مع شخصها، لكنهم

قساة إلى حد ما مع الأنثى، يحتقرونها أو يتجاهلونها تمامًا. الرجال كرماء إلى أبعد حد مع كونستنس ريد أو الليدي تشاترلي؛ لكنهم ليسوا كرماء بشكل يؤثر في أعماقها. وهو لم يلتفت إلى كونستنس أو الليدي تشاترلي؛ داعب برقة خاصرتيها أو ثدييها.

تذهب إلى الخميلة في اليوم التالي. الجو رمادي، لكن الوقت مازال بعد الظهر، وزئبق الكلب الأخضر الغامق ينتشر تحت أيكة البندق، وكل الأشجار تجتهد في صمت لتتفتح براعمها. اليوم أن تشعر تقريبًا في جسدها بالجيشان الهائل للنسغ في الأشجار الضخمة، يرتفع، يرتفع، يرتفع إلى أطراف البراعم، يندفع في أوراق البلوط البراقة الصغيرة، البرونزية مثل الدم. مثل مد ينتفخ إلى أعلى، وينتشر في السماء.

تصل إلى البقعة منزوعة الأشجار، لكنه ليس هناك. لم تتوقعه إلا نصف توقع. كانت كتاكيت الدراج تجري بخفة إلى الخارج، خفيفة مثل حشرات، من الأقفاص حيث تصيح الدراريج بقلق. تجلس كوني تراقبها، وتنتظر. تنتظر فقط. لا ترى حتى الكتاكيت. تنتظر.

يمر الوقت ببطء وكأنه حلم، ولا يأتي. لم تتوقعه إلا نصف توقع. لا يأتي قط بعد الظهر. عليها أن تعود إلى البيت لتناول الشاي. وعليها أن ترغم نفسها على الانصراف.

وهي في طريقها إلى البيت، يسقط رذاذ خفيف من المطر.

يقول كلفورد، وهو يراها تهز قبعتها: «هل تمطر مرة أخرى؟».

«مجرد رذاذ».

تصب الشاي في صمت، مستغرقة في نوع من المكابرة. كانت تريد أن ترى الحارس اليوم، أن تعرف إن كان واقعًا حقًّا. إن كان واقعًا حقًّا.

يقول كلفورد: «هل أقرأ لك قليلًا بعد ذلك؟».

تنظر إليه. هل حس بشيء؟

تقول: «يجعلني الربيع أشعر بأنني غريبة- أعتقد أنني قد أستريح قليلًا».

«كما تحبين. لا تشعرين حقًّا بأنك لسْتِ على ما يرام، أليس كذلك؟».

«لا! مرهقة فقط إلى حد ما- مع الربيع. هل تلعب مع مسز بولتون لعبة ما؟».

«لا! أعتقد أنني سأسمع شيئًا».

تسمع نبرة ارتياح غريب في صوته. تصعد إلى غرفة النوم. حيث تسمع الميكروفون وقد بدأ يجأر، بصوت أنيق مخملي ببلاهة، شيء ما عن سلسلة نداءات في الشارع، زبدة التكلف الأنيق تقلد المنادين القدامى. تسحب معطف المطر البنفسجي، وتنسل من المنزل من الباب الجانبي.

رذاذ المطر يشبه حجابًا على العالم، غامضًا وهادئًا، وغير بارد. تشعر بدفء شديد وهي تسرع عبر المنتزه. تضطر إلى فتح معطفها الخفيف.

كانت الخميلة صامتة وساكنة وغامضة في رذاذ مطر المساء، مليئة بسر البيض والبراعم نصف المتفتحة، والزهور نصف المزهرة. في عتمتها تلمع كل الأشجار عارية وقاتمة وكأنها تعرت، وبدا أن الأشياء

الخضراء على الأرض تدندن بالخضرة.

لا أحد في البقعة منزوعة الأشجار. ذهبت كل الكتاكيت تحت الدراريج الأمهات، وليس هناك إلا آخر واحد أو اثنان مغامران ما زالا ينقران في الأرض الجافة تحت قش سقف العشة، بارتياب.

هكذا! لم يظهر بعد. تعمد أن يبتعد. أو ربما حدثت مشكلة ما. ربما عليها أن تذهب إلى الدار وترى.

لكنها خُلِقتْ لتنتظر. تفتح الكوخ بمفتاحها. كان مرتبًا تمامًا، والذرة في العلبة، والبطاطين مطبقة على الرف، والقش منسقًا في الركن؛ حزمة جديدة من القش. ولمبة الأعاصير معلقة على مسمار. وقد أعيدت الطاولة والكرسي إلى حيث كانت تستلقي.

تجلس على مقعد في المدخل. كم كان كل شيء ساكنًا! المطر الرائع يهطل برقة شديدة، بشفافية، لكن الريح لا تصدر أي صخب. لا يصدر صوت عن أي شيء. تقف الأشجار مثل كائنات قوية، قاتمة، شفقية، صامتة، وحية. كم كان كل شيء حيًّا!

يقترب الليل مرة أخرى؛ عليها أن تذهب. كان يتجنبها.

لكنه يأتي فجأة بخطى سريعة إلى البقعة منزوعة الأشجار، بجاكيت المطر الأسود مثل سائق، يبرق بقطرات المطر. يحدق بسرعة في الكوخ، يحيي نصف تحية، ثم ينحرف جانبًا ويمضي إلى الأقفاص حيث يقبع في صمت، ناظرًا بدقة إلى كل شيء، ثم يغلق على الدراريج والكتاكيت لتكون آمنة في الليل.

وفي النهاية يتجه إليها ببطء. مازالت جالسة في مقعدها. يقف أمامها تحت الشرفة.

يقول منغمًا اللهجة: «جئتِ إذًا».

تقول وهي تنظر إليه: «أجل. تأخرْتَ!».

يرد، وهو ينظر بعيدًا في الخميلة: «آي!».

تنهض، ساحبة مقعدها جانبًا.

وتسأل: «ألا تريد أن تتدخل؟».

ينظر إليها بمكر.

يقول: «الناس مش هيفتكروا إن فيه حاجة، لما تيجي هنا كل ليلة؟».

تنظر إليه في حيرة: «لماذا. قلت سآتي. ولا أحد يعرف».

يرد: «ومع ذلك سيعرفون سريعًا. وبعد كده؟».

تحتار في الرد.

تقول: «لماذا يعرفون؟».

يقول بشكل قاتل: «يعرف الناس دائمًا».

ترتجف شفتها رجفة خفيفة.

تقول مداهنة: «حسنًا، لا حيلة لي في الأمر».

يقول: «لأ. ليك، متجيش- لو حبيتي»، يضيف بنبرة منخفضة.

تهمهم: «لكنني لا أحب».

يتطلع بعيدًا في الخميلة، في صمت.

ويسأل أخيرًا: «لكن ماذا حين يكتشف الناس الأمر؟ فكري في الأمر! فكري كم ستشعرين بأنك تدنيت، واحد من خدم زوجك».

تنظر إلى وجهه الذي يشيح به.

تتلعثم: «هل، هل لا تريدني؟».

يقول: «فكري. فكري لو الناس اكتشفت الحكاية والسير كلفورد و- وكل واحد يتكلم-»

«حسنًا، يمكن أن أرحل».

«إلى أين؟».

«إلى أي مكان! لدي أموال خاصة. تركت أمي لي عشرين ألف جنيه في وديعة، وأعرف أن كلفورد لا يمكن أن يمسها. يمكن أن أرحل».

«لكن لو مش عايزة ترحلي».

«أجل، أجل! لا أهتم بما يحدث لي».

«آي، تعتقدين ذلك! لكنك سوف تهتمين! سوف تضطرين إلى الاهتمام، على كل واحد أن يهتم. عليك أن تتذكري سموك أنك تنخرطين في علاقة مع حارس طرائد. يختلف الأمر لو كنْتُ جنتلمان. أجل، ستهتمين. ستهتمين».

«لا ينبغي. لماذا أهتم بلقبي! أكرهه حقًّا. أشعر أن الناس يتهكمون كلما قالوا ذلك. وهم يتهكمون، يتهكمون! وحتى أنت تتهكم حين تقول ذلك».

«أنا!».

ينظر إليها مباشرة للمرة الأولى، وفي عينيها.

يقول: «لا أتهكم عليك».

وهو يتطلع إلى عينيها يرى عينيها تظلمان، تظلمان تمامًا، والبؤبؤان يتسعان.

يسأل بصوت أجش: «لا تهتمين بالخطر؟ ينبغي أن تهتمي. لا تهتمي حين يفوت الأوان!»

كان في صوته توسل حذر غريب.

تقول عابسة: «لكن ليس لديَّ ما أخسره. لو عرفته لعرفت أنني سأكون سعيدة بخسارته. لكن هل تخاف على نفسك؟».

يقول بإيجاز: «آي. أنا. أنا خايف. أنا خايف. خايف من كل حاجة».

تسأل: «أية حاجة؟».

يهز رأسه إلى الخلف بشكل غريب، مشيرًا إلى العالم الخارجي.

«الحاجات! الناس! كتير منهم».

ثم ينحني ويقبلها فجأة في وجهها الحزين.

يقول: «لأ، لا أهتم. ليكن، واللعنة على ما تبقى. لكن لو ندمت لأنك فعلت ذلك!»

تقول متوسلة: «لا تحبطني».

يضع أصابعه على خدها ويقبلها مرة أخرى فجأة.

يقول برقة: «دعيني أدخل إذًا. واخلعي البالطو».

يعلق البندقية، ويخلع الجاكيت الجلد المبلل، ويتناول البطاطين.

يقول: «أحضرت بطانية أخرى، ويمكن أن نضع علينا واحدة إذا أحببت».

تقول: «لا يمكن أن أبقى فترة طويلة. العشاء في السابعة والنصف».

ينظر إليها نظرة خاطفة، ثم إلى ساعته.

يقول: «حسنًا».

يغلق الباب، ويشعل نورًا خافتًا في لمبة الأعاصير المعلقة.

ويقول: «ذات مرة سيكون أمامنا وقت طويل».

يضع البطاطين بعناية، ويطبق واحدة لرأسها. ثم يجلس لحظة على المقعد، ويجذبها إليها، ويضمها بذراع، متحسسًا جسدها بيده الحرة. تسمع انحباس نفَسه وهو يجد مأربه. تحت تنورتها التحتية الرقيقة كانت عارية.

يقول: «إيه! كم هو رائع أن ألمسك!» وإصبعه يداعب البشرة الدافئة السرية لوسطها ووركيها. يخفض وجهه ويحك خده في بطنها وفي فخذيها مرة بعد أخرى. ومرة أخرى تندهش قليلًا من طبيعة نشوته. لا تفهم الجمال الذي يجده فيها، خلال لمس جسدها الحي السري، نشوة الجمال تقريبًا. لأن العاطفة وحدها تنتبه لذلك. وحين تكون العاطفة ميتة، أو غائبة، يكون الارتجاف الرائع للجمال غير مفهوم وحتى حقيرًا بعض الشيء؛ الجمال الحي الدافئ، جمال التواصل، أكثر عمقًا بكثير

من جمال النظر. تشعر بانزلاق خده على فخذيها وبطنها وردفيها، والاحتكاك القوي لشاربه وشعره الكثيف الناعم، وتبدأ ركبتاها ترتجفان. تشعر في أعماقها بشعور جديد يتحرك، بعري جديد ينبثق. وهي شبه خائفة. نصف متمنية ألا يعانقها بهذه الطريقة. يطوقها بشكل ما. لكنها تنتظر، تنتظر.

وحين يدخل فيها، مع تكثيف الارتياح والاكتمال يكون سلامًا خالصًا بالنسبة له، لكنها مازالت تنتظر. تشعر بأنها مهملة بعض الشيء. وتعرف أنها غلطتها جزئيًّا. دفعت نفسها إلى هذا الانفصال. والآن ربما كان محكومًا عليها به. تستلقي ساكنة، تشعر بحركته فيها، بتصميمه العميق، رجفته الفجائية عند غرس بذرته، ثم الاندفاع الذي يهدأ ببطء. اندفاع الأرداف، من المؤكد أنه مثير للسخرية بعض الشيء. إذا كنت امرأة، وجزءًا في المهمة، من المؤكد أن ذلك الاندفاع لردفي الرجل مثير جدًّا للسخرية.

لكنها تستلقي ساكنة، بدون تراجع. حتى حين ينتهي، لا تنهض لتحصل على نشوتها، كما فعلت مع ميكاليس؛ تستلقي ساكنة، والدموع تملأ عينيها وتنهمر منهما.

يستلقي ساكنًا أيضًا. لكنه يضمها ويحاول تغطية ساقيها العاريتين البائستين بساقيه، ليبقيهما دافئتين. يستلقي عليها بدفء حميم لا شك فيه.

يسأل بصوت منخفض رقيق، وكأنها قريبة، قريبة جدًّا: «إنت بردانة؟». وكانت مهملة، بعيدة.

تقول بصوت عذب: «لا! لكن لابد أن أذهب».

يتنهد، يضمها أكثر، ثم يسترخي ليستريح مرة أخرى.

لم يكن قد خمن دموعها. كان يعتقد أنها معه.

تكرر: «لابد أن أذهب».

ينهض مقرفصًا بجوارها لحظة، يقبِّل الناحية الداخلية من فخذيها، ثم يسحب جيبتها إلى أسفل، يزرر ملابسه بدون تفكير، ولا ينتحي حتى جانبًا، في الضوء الشاحب، الشاحب المنبعث من اللمبة.

يقول، وهو ينظر إليها بوجه دافئ وواثق وهادئ: «لازم تيجي للكوخ مرة تانية».

لكنها تستلقي هناك هامدة، وتحدق فيه مفكرة: غريب! غريب! وتمتعض منه قليلًا.

يرتدي معطفه ويبحث عن قبعته، وقد سقطت، ثم يعلق بندقيته.

يقول: «تأتين إذًا!»، وهو يتطلع إليها بهاتين العينين الدافئتين المسالمتين.

تنهض ببطء. لا ترغب في الذهاب. وتستاء أيضًا من البقاء. يساعدها في ارتداء معطفها الرقيق ويرى أنها أنيقة.

ثم يفتح الباب. كان الجو في الخارج مظلمًا تمامًا. تقف الكلبة الوفية تحت الشرفة بسعادة وهي تراه. وقد أصبح رذاذ المطر في الظلام كئيبًا. كان الجو مظلمًا تمامًا.

يقول: «لازم آخد اللمبة. مش هيكون فيه حد».

يمشي أمامها مباشرة في الممر الضيق، وقد أمال لمبة العواصف إلى أسفل، ليكشف العشب المبلل، وجذور الأشجار السوداء الساطعة مثل الثعابين، والزهور الذابلة. بالنسبة لبقية المكان كان كله ضبابًا كئيبًا وظلمة تامة.

يقول: «لازم تيجي للكوخ مرة تانية، مش كده؟ لو سرقنا نسرق جمل».

تحيرها رغبته الغريبة المستمرة فيها، حين لا يكون بينهما شيء، حين لا يتكلم حقًّا قط معها، ورغمًا عنها تستاء من اللهجة. بدا أن تعبيره «لازم تيجي» غير موجه إليها، لكن إلى عاهرة. تتعرف على أوراق قفاز الثعلب[1] في الممر وتعرف مكانهما تقريبًا.

يقول: «إنها السابعة والربع، ستأتين». يغير صوته، يبدو أنه يشعر أنها بعيدة. وهما ينتقلان إلى آخر منعطف في الممر باتجاه سور البندق والبوابة، يطفئ النور. يقول: «سنرى من هنا»، ويأخذ ذراعها برقة.

لكن الطريق وعر، والأرض تحت أقدامها لغز، لكنه يتحسس طريقه بالدوس: كان معتادًا عليه. عند البوابة يعطيها كشافه الكهربي. ويقول: «الطريق منير أكثر في المنتزه؛ لكن خديه لتخرجي عن الطريق».

كان ذلك صحيحًا، بدا هناك وميض شاحب رمادي في الفضاء المفتوح في المنتزه. يضمها فجأة إليه ويدس يده تحت ملابسها مرة أخرى، ويتحسس جسدها الدافئ بيده المبتلة الباردة.

---

(١) نبات أوروبي طويل بزهور شوكية، أرجوانية أو بيضاء، يستخرج منه عقار ينبه عضلة القلب (دجيتالس).

يقول من حلقه: «أموت علشان لمسة من امرأة مثلك. لو يتوقف دقيقة تانية».

تشعر بالقوة المفاجئة لرغبته فيها مرة أخرى.

تقول ببعض العنف: «لا، لابد أن أسرع».

يرد: «آي»، ويتغير فجأة، ويتركها تمضي.

تنصرف، وعلى الفور تعود إليه قائلة: «قبِّلني».

ينحني عليها بدون تمييز ويقبلها في عينها اليسرى. تضم فمها فيقبله برقة، لكنه ينسحب سريعًا. كان يكره قبلات الفم.

تقول، وهي تبتعد: «سآتي غدًا»؛ وتضيف: «إن استطعْتُ».

يرد من الظلام: «آي! ليس متأخرًا جدًّا». وهي لا تراه إطلاقًا.

تقول: «طابت ليلتك».

يأتي صوته: «طابت ليلتك، سموك».

تتوقف وتنظر إلى الخلف في الظلام الرطب. ترى جسده فقط. وتقول: «لماذا قلْتَ ذلك؟».

يرد: «لأ. طابت ليلتك إذًا، اجري!».

تواصل الاندفاع في الليلة المظلمة الواقعية. تجد الباب الجانبي مفتوحًا، فتتسلل إلى غرفتها بدون أن يراها أحد. وهي تغلق الباب يُقرَع الجرس، لكنها تأخذ حمامها كالمعتاد- لابد أن تأخذ حمامها. تقول لنفسها: «لكنني لن أتأخر أكثر. إنه مزعج جدًّا».

لا تذهب في اليوم التالي إلى الخميلة. تذهب بدلًا من ذلك مع كلفورد إلى أوثيت. كان يخرج أحيانًا بالسيارة، مع سائق شاب قوي، يساعده في الخروج من السيارة إن أراد. يريد خاصة أن يرى أباه الروحي، ليسلي وينتر، وكان يعيش في شيبلي هول، ليس بعيدًا عن أوثيت. كان وينتر جنتلمان عجوزًا حينذاك، ثريًّا، أحد أثرياء ملاك المناجم الذين عاشوا عصرهم الذهبي في عهد الملك إدوارد[١]. وقد أقام الملك إدوارد أكثر من مرة في شيبلي، للصيد. كانت قاعة قديمة فخمة مزخرفة بالجص، مصممة ببراعة، حيث كان وينتر أعزب ويفتخر بأسلوبه؛ لكن المكان محاط بعمال المناجم. كان ليسلي وينتر مرتبطًا بكلفورد، لكنه بشكل شخصي لا يكنُّ له احترامًا كبيرًا، بسبب الصور الفوتوغرافية في الصحف المصورة والأدب. كان العجوز رجلًا من مدرسة الملك إدوارد، يعتقد أن الحياة حياة والرفاق المتعجلين شيء آخر. مع كوني كان الرجل النبيل ظريفًا دائمًا؛ يعتقد أنها سيدة رزينة وجذابة تبدد نفسها مع كلفورد، وكان أمرًا مثيرًا للشفقة ألف مرة ألا تكون لديها فرصة لتنجب وريثًا لراجبي. وكان هو نفسه بلا وريث.

تتساءل كوني عما يمكن أن يقول إذا عرف أن حارس طرائد كلفورد يمارس الجنس معها، ويقول لها «لازم تيجي للكوخ مرة تانية». قد يكرهها ويحتقرها، لأنه يكره تقريبًا الاندفاع باتجاه الطبقات العاملة. لكنه ما كان ليمانع لو كان الرجل من طبقتها، لأن الطبيعة منحت كوني مظهر السيدة الرزينة المطيعة، وربما كان ذلك جزءًا من طبيعتها. كان

---

(١) الإشارة إلى إدوارد السابع (١٨٤١-١٩١٠)، اعتلى العرش من ١٩٠١ حتى وفاته.

وينتر يناديها «طفلتي العزيزة» وأعطاها منمنمة جميلة لسيدة من القرن الثامن عشر، ضد إرادتها إلى حد ما.

لكن كوني مشغولة البال بعلاقتها مع الحارس. رغم ذلك، يعاملها مستر وينتر، وكان حقًّا جنتلمان ورجل العالم، بوصفها شخصًا وفردًا متميزًا؛ ولا يضعها مع كل بقية الإناث باستخدامه «أنت» و«تلك».

لم تذهب إلى الخميلة في ذلك اليوم أو في اليوم التالي، أو في اليوم الذي يليه. لم تذهب طالما كانت تشعر، أو تتخيل أنها تشعر، بأن الرجل ينتظر من أجلها، ينتظرها. لكنها كانت في اليوم الرابع مضطربة وقلقة بشكل رهيب. لكنها مازالت ترفض الذهاب إلى الخميلة وفتح فخذيها مرة أخرى للرجل. تفكر في كل ما قد تفعله- تذهب بالسيارة إلى شيفلد، تقوم بزيارات، وكان التفكير في كل هذه الأشياء بغيضًا. وفي النهاية تقرر أن تتمشى، ليس في اتجاه الخميلة، بل في الجهة المقابلة؛ يمكن أن تذهب إلى مرهاي، عبر البوابة الحديد الصغيرة في الجانب الآخر من سياج المنتزه. كان يومًا رماديًّا هادئًا من أيام الربيع، دافئًا تقريبًا. تمشي غير منتبهة، مستغرقة في أفكار ولا تعي حتى أنها لا تدرك حقًّا أي شيء خارجها، حتى يروِّعها النباح العالي للكلبة في مزرعة مارهاي. مزرعة مرهاي! مراعيها تمتد إلى سياج منتزه راجبي، وهكذا كانوا جيرانًا، لكن مر بعض الوقت منذ دعتهم كوني.

تقول للبول تيرير[1] البيضاء الضخمة: «بِلّ! بِلّ! هل نسيتني؟ ألا تعرفينني؟» كانت تخاف من الكلاب، تتراجع بِلّ وتجأر، وكوني تريد أن

(١) سلاسلة من الكلاب قصيرة الشعر.

تمر عبر فناء المزرعة إلى مسار المأربة.

تظهر مسز فلينت. امرأة في عمر كونستنس، تعمل معلمة في مدرسة، لكن كوني تشتبه في أنها شيء صغير زائف.

«لماذا، إنها الليدي تشاترلي! لماذا!» وتلمع عينا مسز فلينت مرة أخرى، وتتورد مثل فتاة صغيرة. «بِلّ، بِلّ. لماذا! تنبحين على الليدي تشاترلي! بل! اهدئي!» تتقدم وتقطع الطريق على الكلبة بثوب أبيض تمسكه في يدها، ثم تتقدم باتجاه كوني.

تقول كوني وهي تصافحها: «من المعتاد أن تعرفني». وكان آل فلينت مستأجرين عند آل تشاترلي.

تقول مسز فلينت، متألقة وهي تنظر بارتباك الخجل: «بالطبع تعرف سموك! إنها تستعرض فقط. لكنها لم ترك منذ وقت طويل. أتمنى أن تكوني أفضل».

«أجل، شكرًا، أنا بخير».

«لم نرك طول الشتاء. هل تدخلين وتلقي نظرة على الطفلة؟».

تقول كوني مترددة: «حسنًا! دقيقة فقط».

تندفع مسز فلينت إلى الداخل لترتب المكان، وتأتي كوني ببطء بعدها، مترددة في المطبخ المظلم إلى حد ما حيث البراد يغلي على النار. وتعود مسز فلينت.

وتقول: «أتمنى أن تعذريني. هل تدخلين هنا؟».

تدخلان غرفة المعيشة، حيث تجلس طفلة على سجادة بالية أمام

المدفأة، والطاولة موضوعة بفظاظة للشاي. تعبر الممر خادمة صغيرة خجلة ومرتبكة.

الطفلة ضئيلة مرحة عمرها سنة تقريبًا، بشعر أحمر مثل أبيها، وعينين زرقاوين فاتحتين جريئتين. بنت لا ينبغي إفزاعها. تجلس بين وسائد، محاطة بدُمًى بالية ولعب أخرى بالشكل الحديث المبالغ فيه.

تقول كوني: «لماذا، كم هي حبُّوبة! وكم كبرتْ! فتاة كبيرة! فتاة كبيرة!».

وكانت قد أعطتها شالًا حين وُلِدتْ، وبطات من السيليلويد في الكريسماس.

«هيا يا جوزفين! من جاءت لتراك؟ من هذه يا جوزفين؟ الليدي تشاترلي- تعرفين الليدي تشاترلي، أليس كذلك؟».

تحدق المخلوقة الصغيرة الغريبة المفعمة بالحيوية بجرأة في كوني. كانت كل السيدات واحدة بالنسبة لها.

تقول كوني للطفلة: «تعالي! هل تأتين إليَّ؟».

لا تبالي الطفلة إطلاقًا، تحملها كوني وتضعها في حجرها. كم كان دافئًا وجميلًا أن تضع طفلة في حجرها، والذراعان الصغيرتان الناعمتان، والساقان الصغيرتان الجريئتان بلا وعي.

«تناولت للتو كوب شاي وحدي. ذهب لوقا إلى السوق، ويمكن أن أتناوله حين أحب. هل تأخذين كوبًا يا ليدي تشاترلي؟ لا أعتقد أنه ما تعودْتِ عليه، لكن إذا أردت..».

كوني تريد، لكنها لا ترغب في تذكيرها بما اعتادت عليه. هناك فرش فخم للطاولة، وقد جلبت أفضل الأكواب وأفضل براد شاي.

تقول كوني: «فقط إن لم يزعجك ذلك».

لكن مسز فلينت لا تنزعج، حيث كان المرح! وهكذا تلعب كوني مع الطفلة وتستمتع بجرأتها الأنثوية الصغيرة، وتشعر بلذة حسية عميقة من دفء الصغيرة الرقيقة. حياة نضرة! ولا تعرف الخوف! لا تعرف الخوف، إنها مسالمة. وكل الآخرين، مقيدون بالخوف!

تتناول كوبًا من الشاي، كان ثقيلًا إلى حد ما، وخبزًا جيدًا جدًّا وزبدة، وخوخًا معبأ. تتورد مسز فلينت وتتألق وتنتشي بالإثارة، كما لو كانت كوني فارسًا شجاعًا. وتثرثران ثرثرة أنثوية حقيقية، وتستمتعان بها.

تقول مسز فلينت: «قليل من الشاي السيئ رغم ذلك».

تقول كوني بصدق: «أفضل بكثير مما أتناوله في البيت».

تقول مسز فلينت، غير مصدقة بالطبع: «أوه-ه!».

لكن كوني تنهض في النهاية.

تقول: «لابد أن أمشي. زوجي لا يعرف مكاني. سيخطر على باله كل أنواع الأفكار».

تضحك مسز فلينت منتشية: «لن يخطر على باله أنك هنا. سوف يرسل مناديًا».

تقول كوني: «باي جوزفين» وهي تقبل الطفلة وتداعب شعرها الأحمر الناعم.

تصر مسز فلينت على فتح الباب الأمامي المغلق برتاج. تخرج كوني إلى الحديقة الأمامية الصغيرة للمزرعة، المغلقة بطوق من التمر حنة. حيث يوجد صفان من الأذينية بجانب الممر، مخملية جدًّا وثرية.

تقول كوني: «أذينية جميلة».

تضحك مسز فلينت قائلة: «متهورة كما يصفها لوقا. تأخذين بعضًا منه».

وبشغف تلتقط الزهور المخملية وبخور مريم.

تقول كوني: «كفاية! كفاية!».

تصلان إلى بوابة الحديقة الصغيرة.

تسأل مسز فلينت: «في أي طريق تسلكين؟».

«طريق المأربة».

«دعيني أرى! أوه، أجل، الأبقار في الفناء المغلق. لكنها لم تنهض بعد. والبوابة مغلقة، وعليك أن تتسلقي».

تقول كوني: «يمكن أن أتسلق».

«ربما يمكن أن أذهب معك فقط إلى الفناء المغلق».

تذهبان حتى مرعى الأرانب، المرعى المقضوم النحيل. كانت الطيور تغرد في انتصار المساء البري في الخميلة. وكان رجل ينادي على البقرات الأخيرة، وكانت تسير ببطء في ممر المرعى البالي.

تقول مسز فلينت بحدة: «تأخروا عن الحلب الليلة. يعرفون أن لوقا

لن يعود قبل حلول الظلام».

تصلان إلى السياج، خلفه تنتصب أيكة أشجار التنوب الصغيرة بكثافة. هناك بوابة صغيرة، لكنها مغلقة. في العشب في الداخل تقف زجاجة فارغة.

توضح مسز فلينت: «إنها زجاجة فارغة للبن الحارس. نأتي بها إلى هنا من أجله، ويأخذها بنفسه».

تقول: «متى؟».

«أوه، وقتما يكون هنا. في الصباح غالبًا. حسنًا، باي ليدي تشاترلي! وتأتين ثانية. رائع جدًّا أن أراك».

تتسلق كوني السياج إلى الممر الضيق بين أشجار التنوب الصغيرة المنتصبة بكثافة. تعود مسز فلينت مسرعة عبر المرعى، في بونيه الشمس؛ إنها حقًّا معلمة في مدرسة. لا يعجب كونستنس هذا الجزء الجديد الكثيف من الخميلة؛ يبدو بشعًا وخانقًا. تسرع ورأسها إلى أسفل، وتفكر في طفلة فلينت. صغيرة رائعة، لكنها قد تكون مقوسة الساقين قليلًا مثل أبيها. وقد ظهر ذلك بالفعل، لكن قد تتخلص منه. كم هو مثير ومبهج أن يكون لديك طفل، وكم تباهت مسز فلينت بالطفلة! لديها على أية حال شيء لم تحصل عليه كوني، ومن الواضح أنها لا تستطيع الحصول عليه. أجل، تباهت مسز فلينت بأمومتها. وكانت كوني غيورة قليلًا، قليلًا جدًّا. لا حيلة لها في الأمر.

تبدأ الخروج من تأملها، وتطلق صرخة واهية من الخوف. هناك رجل.

إنه الحارس. يقف في الممر مثل حمارة بلعام[1]، يسد عليها الطريق.

يقول في دهشة: «كيف هذا؟».

تقول وهي تلهث: «كيف جئْتَ؟».

«كيف جئتِ أنت؟ هل كنت في طريقك إلى الكوخ؟».

«لا! لا! ذهبت إلى مرهاي».

ينظر إليها باستعراب، متفحصًا، وقد ارتبكت بشعور بالذنب.

يسأل بحدة إلى حد ما: «وكنت ذاهبة إلى الكوخ الآن؟».

«لا! لا ينبغي أن أذهب. بقيت في مرهاي. ولا أحد يعرف مكاني. أنا متأخرة. وعلي أن أعود مسرعة».

يقول بابتسامة شاحبة ساخرة: «تتهربين مني، أتحبين؟».

«لا! لا! ليس ذلك. فقط-».

يقول: «لماذا، ماذا أيضًا؟» ويصعد إليها ويضع ذراعيه حولها. تشعر بمقدمة جسمه قربها مرعبة، وحية.

تصرخ محاولة دفعه بعيدًا: «أوه، ليس الآن، ليس الآن».

«لماذا لا؟ الساعة لم تتجاوز السادسة. نصف ساعة. لأ! لأ! أريدك».

يضمها بسرعة وتشعر برغبته الملحة. تقاوم غريزتها القديمة من أجل حريتها. لكن فيها شيئًا آخر غريبًا وخاملًا وثقيلًا. يلح جسده في مواجهة جسدها، ولم تعد قادرة على المقاومة.

---

(١) انظر العهد القديم، سفر العدد، إصحاح ٢٢.

يتلفت حوله.

يقول، متطلعًا بشكل ثاقب إلى أشجار التنوب الكثيفة، وكانت صغيرة ولم تبلغ أكثر من نصف طولها: «تعالي- تعالي هنا! من هنا».

يعاود النظر إليها. ترى عينيه، متوترتين ومتألقتين وشرستين، وخالتين من الحب. لكن إرادتها تتخلى عنها. في أطرافها ثقل غريب. تستسلم. تستسلم.

يقودها خلال سور من الأشجار الشائكة، وكان من الصعب أن تمر خلالها، إلى حيث يوجد فضاء صغير وكومة من الأغصان الميتة. يلقي بغصن جاف أو اثنين على الأرض، ويضع معطفه وصدريته عليهما وكان عليها أن تستلقي هناك تحت أغصان الشجرة، مثل حيوان، بينما ينتظر، وهو يقف بقميصه وبنطلونه القصير، يراقبها بعينين شبحيتين. لكنه مازال بعيد النظر- يجعلها تستلقي بشكل صحيح، بشكل صحيح. لكنه يقطع شريط ملابسها الداخلية، لأنها لم تساعده، تستلقي خاملة فقط.

يعري أيضًا الجزء الأمامي من جسمه وتشعر بجسده العاري في مواجهة جسدها وهو يدخل فيها. للحظة يسكن بداخلها، يتضخم هناك ويرتجف. ثم وهو يبدأ الحركة، في أورجازم فجائي يائس، تستيقظ فيها ارتعاشات جديدة وغريبة تموج بداخلها مثل رفرفة تداخل شعلات ناعمة، ناعمة مثل الريش، تندفع إلى نقاط متألقة رائعة، رائعة تذيبها وتصهر كل ما بداخلها. مثل أجراس تتصاعد وتتصاعد إلى الذروة. تستلقي ولا تعي الصرخات البرية الضعيفة التي تطلقها في النهاية. لكن الأمر ينتهي بسرعة شديدة، بسرعة شديدة، ولم تعد تستطيع فرض

خاتمتها بنشاطها الخاص. هذه المرة مختلفة، مختلفة. لا تستطيع القيام بشيء. لا تستطيع أن تنشط وتقبض عليه لتشبع. يمكن فقط أن تنتظر، تنتظر وتئن روحيًّا وهي تشعر به ينسحب، ينسحب وينقبض، ويصل إلى اللحظة الرهيبة حين ينزلق منها وينتهي. بينما كل رحمها مفتوح وناعم، ويلغط بنعومة، مثل شقائق البحر[1] تحت المد والجزر، يلغط من أجله ليدخل مرة أخرى ويحقق نشوتها. تتشبث به شغفًا بدون وعي، ولا ينزلق منها تمامًا قط، وتشعر ببرعمه الناعم يتحرك بداخلها، وإيقاعات غريبة تندفع فيها بحركة إيقاعية غريبة متنامية، تتضخم وتتضخم حتى تملأ كل وعيها المتشقق، ثم تبدأ مرة أخرى حركة لا توصف، لم تكن حركة حقًّا، بل دوامات عميقة من الإحساس تدوِّم أعمق وأعمق في كل أنسجتها ووعيها، حتى تصبح سائلًا من الشعور، تامًّا ومركزًا، وهي تستلقي، تصرخ بلا وعي صرخات لا تنم عن شيء. صوت يخرج من أعماق الليل، صوت الحياة! يسمعه الرجل تحته برهبة، وكأن حياته تثب إليها. والصوت يخمد، يخمد الرجل أيضًا ويستلقي ساكنًا تمامًا، بلا وعي، بينما ترتخي قبضتها عليه ببطء، وتستلقي خاملة. ويستلقيان لا يدركان شيئًا، حتى أن أحدهما لا يدرك الآخر، تاه الاثنان. حتى بدأ أخيرًا ينهض ويدرك عريه العاجز، وتدرك أن جسمه يفك قبضته عليها. يبتعد؛ لكنها تشعر في صدرها أنها لا يمكن أن تحتمل أن يتركها مكشوفة. لابد أن يغطيها الآن إلى الأبد.

---

(١) كائنات بحرية ساكنة بأجسام عمودية وحلقة من المخالب حول فمها.

لكنه ينسحب أخيرًا ويقبِّلها ويغطيها، ويبدأ تغطية نفسه. تستلقي متطلعة إلى أغصان الشجرة، ومازالتْ عاجزة عن الحركة. يقف ويربط بنطلونه القصير، ويتلفت. كان كل شيء كثيفًا وصامتًا، باستثناء الكلبة المذعورة التي تستلقي وأطرافها أمام أنفها. يجلس مرة أخرى على الغصن المقطوع ويأخذ يد كوني في صمت.

تلتفت وتنظر إليه. يقول: «وصلنا معًا هذه المرة».

لا ترد.

يتحدث بشكل حالم: «جميل أن يكون الأمر على هذا النحو. يعيش معظم الناس حياتهم حتى النهاية ولا يعرفون ذلك أبدًا».

تنظر في وجهه المستغرق في التفكير.

تقول: «هل هم كذلك؟ هل أنت سعيد؟».

يعاود النظر في عينيها. ويقول: «سعيد، آي، لكن لا تبالي». لا يرغب في الكلام. ينحني عليها ويقبلها، وتشعر بأن عليه أن يقبلها إلى الأبد.

أخيرًا تنهض وتجلس.

تسأل بفضول ساذج: «ألا يصل الناس معًا غالبًا؟».

يتحدث بشكل عفوي، نادمًا على أنه بدأ: «عدد كبير منهم لا يصل أبدًا. يمكن أن تعرفي من النظرة العابرة إليهم».

«هل وصلت على هذا النحو مع نساء أخريات؟».

ينظر إليها مستمتعًا.

يقول: «لا أعرف، لا أعرف».

وتعرف أنه لن يقول لها أبدًا أي شيء لا يريد أن يقول لها. تشاهد وجهه، ويتحرك الشغف له في أحشائها. تقاومه بقدر ما تستطيع، لأنه خسارة نفسها لنفسها.

يرتدي صدريته ومعطفه، ويندفع في طريقه إلى الممر مرة أخرى.

يلامس آخر شعاع من الشمس الخميلة. يقول: «لن آتي معكِ؛ الأفضل ألا آتي».

تنظر إليه بتوق قبل أن تستدير. كلبته تنتظره بقلق شديد لتذهب، ويبدو أنه ليس لديه ما يقوله. لم يتبق شيء.

تمضي كوني إلى البيت ببطء، وهي تدرك عمق الشيء الآخر فيها. فيها ذات أخرى حية، تحترق منصهرة وناعمة في رحمها وأحشائها، ومع هذه الذات تهيم به. تهيم به حتى وهنت ركبتاها وهي تمشي. في رحمها وأحشائها هي الآن مزدهرة وحية وهشة، لا حول ولا قوة لها في هيامها به، مثل المرأة الأكثر سذاجة. تبدو مثل طفل، تقول لنفسها إنها تبدو مثل طفل في أعماقها. وهكذا تبدو، وكأن رحمها، وكان مغلقًا دائمًا، قد تفتح وامتلأ بحياة جديدة، بعبء تقريبًا، لكنه جميل.

تفكر في نفسها: «إذا كان لي طفل؛ إذا كان هو في داخلي مثل طفل».- وتذوب أطرافها من الفكرة، وتدرك الفرق الهائل بين فكرة أن يكون لديها طفل لنفسها وأن يكون لديها طفل لرجل تحن إليه أحشاؤها. تبدو الأولى إحساسًا عاديًّا: لكن فكرة أن يكون لديها طفل من رجل

تهيم به في أحشائها ورحمها، تجعلها تشعر بأنها مختلفة جدًّا عن ذاتها القديمة وكأنها غارقة بعمق، بعمق حتى مركز كل الأنوثة ونوم الخلق.

الجديد بالنسبة لها ليس العاطفة، إنه الهيام المتلهف. تعرف أنها كانت تخشاه دائمًا، لأنه تركها عاجزة؛ ومازالت تخشاه، خوفًا من أن تهيم به كثيرًا جدًّا، ثم تفقد نفسها، وتُمحَى، وهي لا تريد أن تُمحَى، أن تكون جارية، مثل امرأة همجية. يجب ألا تصبح جارية. تخشى هيامها، وفي الوقت ذاته لا تقاومه. تعرف أنها تستطيع مقاومته. لديها شيطان الإرادة الذاتية في صدرها يستطيع مقاومة الهيام الكامل الرقيق الجياش، هيام رحمها، ويسحقه. ويمكن حتى أن تفعل ذلك الآن، أو هذا ما تعتقده، ويمكن إذًا أن تتحدى عاطفتها بإرادتها.

آه، أجل، أن تكون عاطفية مثل باخوسية[1]، مثل هاربة باخوسية في الخميلة، تدعو إياكوس[2]، القضيب المشرق الذي لا توجد خلفه شخصية مستقلة، لكنه خادم إلهي مخلص للمرأة! الرجل، الفرد، لا تسمحي له بالجرأة على الاقتحام. كان خادم معبد، حامل القضيب المشرق وراعيه، الخاص بها.

وهكذا، في تدفق الصحوة الجديدة، تشتعل العاطفة القديمة فيها لبعض الوقت، ويتضاءل الرجل إلى كائن خسيس، مجرد حامل القضيب، ليُمزَّق أشلاءً حين ينجز خدمته. تشعر بقوة الباخوسيات في أطرافها وجسدها، المرأة، متألقة وسريعة، تقهر الذكر؛ لكن وهي تشعر

(١) كاهنة من أتباع باخوس، إله الخمر وملهم طقوس البهجة والنشوة.

(٢) حامل الشعلة في الأساطير اليونانية.

بذلك، كان قلبها ثقيلًا. لا تريده، كان معروفًا وقاحلًا، لا ينجب؛ الهيام كنزها. كان بلا قرار، ناعمًا جدًّا، عميقًا جدًّا ومجهولًا جدًّا. لا، لا، سوف تتخلى عن قوتها الأنثوية المشرقة الصارمة؛ أنهكتها، تيبست معها؛ ينبغي أن تغطس في حمام الحياة الجديدة، في أعماق رحمها وأحشائها التي تغني أغنية الهيام صامتة. الوقت مازال مبكرًا لتبدأ الخوف من الرجل.

تقول لكلفورد: «تمشيت إلى مرهاي، وتناولت الشاي مع مسز فلينت. أردْتُ أن أرى الطفلة. إنها فاتنة جدًّا، شعرها يشبه خيوط عنكبوت حمراء. حبُّوبة جدًّا! وكان مستر فلينت قد ذهب إلى السوق، فتناولت أنا وهي والطفلة الشاي معًا. هل سألْتَ أين كنْتُ؟».

يقول كلفورد بغيرة: «حسنًا، سألْتُ، وخمنت أنك ذهبت إلى مكان ما لتناول الشاي». وبنوع من الحاسة السادسة يشعر بشيء جديد فيها، شيء غير مفهوم تمامًا بالنسبة له، لكنه يرجعه إلى الطفلة. يعتقد أن كل ما يزعج كوني أنها ليس لديها طفل، تنجبه آليًّا، إذا جاز التعبير.

تقول مسز بولتون: «رأيتك تذهبين عبر المنتزه إلى البوابة الحديد، يا سيدتي. فاعتقدْتُ أنك ربما استدعيت إلى بيت الكاهن».

«كدْتُ أفعل، ثم استدرت باتجاه مرهاي بدلًا من ذلك».

تلتقي عيون المرأتين: عينا مسز بولتون رماديتان ومشرقتان وفاحصتان؛ عينا كوني زرقاوان وكتومتان وجميلتان بشكل غريب. تكاد مسز بولتون تكون متأكدة تقريبًا من أن لها عشيقًا؛ لكن كيف يمكن ذلك، ومن يكون؟ وأين يكون الرجل؟

تقول مسز بولتون: «أوه، رائع جدًّا بالنسبة لك، أن تخرجي وتري بعض الرفاق أحيانًا. كنت أقول للسير كلفورد، سيكون العالم أفضل لسموها إذا خرجتْ أكثر بين الناس».

تقول كوني: «أجل، أنا سعيدة لأنني ذهبت، وتلك الطفلة الحبُّوبة الطريفة الرائعة، يا كلفورد. شعرها مثل خيوط العنكبوت بالضبط، وبرتقالي مشرق، والأغرب، والأكثر روعة، عيناها الصينيتان الزرقاوان الفاتحتان. إنها بنت بالطبع، وإلا لن تكون جريئة هكذا، أجرأ من أي سير فرنسيس دريك[1] صغير».

تقول مسز بولتون: «أنت على حق يا سيدتي- فلينت صغيرة عادية. كانوا دائمًا أسرة مقدامة بشعر أحمر فاتح».

«ألا تحب أن تراها يا كلفورد؟ دعوتهم على الشاي لتراها».

يسأل، وهو ينظر إلى كوني بقلق شديد: «من؟».

«مسز فلينت والطفلة، الإثنين القادم».

يقول: «يمكن أن تقدمي لهما الشاي فوق، في غرفتك».

تصيح: «لماذا، ألا تريد أن ترى الطفلة؟».

«أوه، سوف أراها، لكن لا أريد أن أجلس وقت تناول الشاي معهما».

تصيح كوني ناظرة إليه بعينين واسعتين كتومتين: «أوه».

لم تره حقًّا، كان شخصًا آخر.

---

(١) السير فرانسيس دريك (١٥٤٠-١٥٩٦): قبطان إنجليزي، وتاجر رقيق، وسياسي في العصر الإليزابيثي.

تقول مسز بولتون: «يمكن أن تتناولي معهما شايًا دافئًا رائعًا فوق في غرفتك، يا سيدتي، وستكون مسز فلينت على راحتها أكثر في عدم وجود السير كلفورد».

كانت متأكدة من أن لكوني عشيقًا، وكان في روحها شيء متهلل. لكن من هو؟ من هو؟ ربما تقدم مسو فلينت مفتاحًا.

لا تأخذ كوني حمامها في هذا المساء. كان الإحساس بجسمه يلامسها، التصاقه الشديد بها، محببًا لها، وبمعنى ما مقدسًا.

كان كلفورد متوترًا جدًّا. لا يتركها تذهب بعد العشاء، وكانت ترغب بشدة في أن تكون وحدها. تنظر إليه، وتذعن بشكل غريب.

يسأل بتوتر: «هل نلعب لعبة، أم أقرأ لك، أم ماذا؟».

تقول كوني: «تقرأ لي».

«ماذا أقرأ- شعرًا أم نثرًا؟ أم دراما؟».

تقول: «اقرأ راسين».

كان أحد أعماله المثيرة في الماضي أن يقرأ راسين بفرنسية صحيحة بطريقة رائعة، لكنه الآن أجش، وقلق بعض الشيء؛ كان في الواقع يشبه الميكرفون. لكن كوني تخيط ثوبًا حريريًّا صغيرًا من حرير بخور مريم، قصَّتْه من أحد فساتينها، لطفلة مسز فلينت. بين الرجوع إلى البيت والعشاء قصته، وجلست في نشوة نفسها الهادئة الرخوة تخيط، بينما يتواصل صخب القراءة.

تشعر في أعماقها بطنين العاطفة، مثل طنين ما بعد الأجراس العميقة.

يقول لها كلفورد شيئًا عن راسين. تفهم المعنى بعد أن تنتهي الكلمات.

تقول وهي تنظر إليه: «أجل! أجل! رائع».

مرة أخرى يفزع من التألق الأزرق العميق في عينيها، وسكونها الهادئ، وهي تجلس هناك. لم تكن قط هادئة وساكنة بهذا الشكل. فتنته رغمًا عنه، وكأن عطرًا حولها أسكره. فيواصل قراءته رغمًا عنه، وكان الصوت الحلقي للفرنسية مثل الريح في المداخن بالنسبة لها. ولم تسمع من راسين مقطعًا من لفظ.

تغرق في نشوتها الهادئة، مثل غابة تهمهم بتنهيدة سعيدة خافتة، تنهيدة ربيع، تنتقل إلى برعم. ويمكن أن تشعر في العالم نفسه بالرجل معها، رجل مجهول، يتحرك على قدمين جميلتين، جميلتين في اللغز القضيبي. وفي نفسها في كل عروقها، تشعر به وبطفله. كان طفله في كل عروقها، مثل الشفق.

«ليس لها يدان، أو عينان، أو قدمان، أو كنز ذهبي من الشَّعْر..».[1]

مثل غابة، مثل التواشج المظلم لأيكة البلوط، تهمهم بشكل غير مسموع مع عدد هائل من البراعم المتفتحة. بينما طيور الرغبة نائمة في التعقد المتواشج لجسدها.

لكن صوت كلفورد يتواصل، مدويًا ومقعقعًا بأصوات غير عادية. كم كان صوته استثنائيًا! كم كان استثنائيًا وهو ينحني على الكتاب، غريبًا ونهمًا ومتحضرًا، بكتفين عريضتين وبدون ساقين حقيقيتين! يا له

(١) الاقتباس من قصيدة «الحجاج» لسوينبرن.

من مخلوق غريب، بإرادة طائر ما، بإرادة حادة وباردة لا تعرف المرونة، وبدون دفء، بدون دفء على الإطلاق! أحد مخلوقات آخر الزمان، بدون روح، لكن بإرادة بالغة اليقظة، إرادة باردة. ترتجف قليلًا، خائفة منه. لكن لهب الحياة، اللهب الدافئ الناعم كان أقوى منه، وكانت الأشياء الحقيقية مختفية عنه.

تنتهي القراءة. كانت مشدوهة. تتطلع، وتُشدَه أكثر حين ترى كلفورد يراقبها بعينين غريبتين شاحبتين، بما يشبه الكراهية.

تقول برقة: «شكرًا جزيلًا لك! تقرأ راسين بشكل جميل!».

يقول بوحشية: «جميل بقدر جمال استماعك له تقريبًا».

ويسأل: «ماذا تفعلين؟».

«أصنع فستان طفلة، لطفلة مسز فلينت».

يشيح بوجهه. طفل! طفل! هذا كل ما يشغلها.

تقول بصوت انفعالي: «مع ذلك، يحصل المرء على كل ما يريد من راسين. المشاعر المنظمة والمتبلورة أكثر أهمية من المشاعر المشوشة».

تشاهده بعنين واسعتين مبهمتين كتومتين.

وتقول: «أجل، إنني متأكدة من ذلك».

«لا يعرف العالم الحديث إلا المشاعر المبتذلة، يتركها مهلهلة. ما نحتاج إليه هو الانضباط الكلاسيكي».

تقول ببطء، مفكرة فيه وهو يستمع بوجه أبله للبلاهة العاطفية

المنبعثة من الراديو: «أجل، يتظاهر الناس بأن لديهم مشاعر، وهم حقًّا لا يشعرون بشيء. أعتقد أنها رومانسية».

يقول: «بالضبط».

كان مرهقًا في الواقع. أرهقته هذه الأمسيةُ. كان من الأفضل أن يقضيها مع كتبه التقنية، أو مهندس المنجم، أو في الاستماع إلى الراديو.

تدخل مسز بولتون بكأسين من اللبن المخلوط بالجعة: كأس لكلفورد، تساعده على النوم، وكأس لكوني، تساعدها على استرداد وزنها مرة أخرى. كانت كأسًا ليلية منتظمة أدخلتها مسز بولتون.

تسعد كوني بالانصراف، بعد تناول كأسها، وتشكر الرب لأنها لا تحتاج إلى مساعدة كلفورد في الذهاب إلى السرير. تأخذ كأسها وتضعها على الصينية، ثم تأخذ الصينية، وتتركها في الخارج.

«طابت ليلتك يا كلفورد! نومًا هنيئًا! يدخلني راسين فيما يشبه الحلم. طابت ليلتك!».

تندفع إلى الباب. تذهب بدون أن تقبله قبلة قبل النوم. يراقبها بعينين حادتين باردتين. هكذا! لم تقبله حتى قبلة قبل النوم، بعد أن قضى أمسية يقرأ لها. مثل هذه القسوة في أعماقها! حتى لو لم تكن القبلة إلا إجراء شكليًّا، على هذه الشكليات تعتمد الحياة. إنها بلشفية حقًّا. غرائزها بلشفية! يحدق في الباب ببرود ويغضب وهي تنصرف. يغضب!

مرة أخرى يهاجمه الفزع من الليل. كان شبكة من الأعصاب، وحين لا يكون على استعداد للعمل، ومفعمًا بالطاقة: أو حين لا يستمع، ويكون

حياديًّا تمامًا: يطارده القلق وإحساس بخواء خطير وشيك. كان خائفًا. ويمكن لكوني أن تخلصه من الخوف إذا أرادت. لكن من الواضح أنها لا تريد، لا تريد. كانت قاسية، باردة وقاسية تجاه كل ما فعله لها. تخلى عن حياته لها، وهي قاسية معه. لا تريد إلا طريقها. «الليدي تعشق إرادتها».

إنها الآن مهووسة بطفل. وكأنه ينبغي أن يكون طفلها، طفلها تمامًا، وليس طفله!

كان كلفورد يتمتع بصحة جيدة. يبدو في حالة جيدة، متورد الوجه، كتفاه عريضان وقويان، وصدره عميق، وقد زاد وزنه. لكنه في الوقت ذاته يخشى الموت. بدا أن غورًا رهيبًا يهدده في مكان ما، بشكل ما، خواء وفي هذا الخواء تنهار طاقته. وبلا طاقة، يشعر أحيانًا أنه ميت، ميت حقًّا.

وهكذا تبدو في عينيه الشاحبتين الجاحظتين نظرة غريبة، زائغة، لكنها وحشية بعض الشيء، وباردة جدًّا: وفي الوقت ذاته، وقحة تقريبًا. وكأنه ينتصر على الحياة رغم أنف الحياة. «من يعرف أسرار الإرادة- قد تنتصر حتى على الملائكة-».

لكن فزعه يظهر في الليالي التي لا يستطيع النوم فيها. ويكون فظيعًا حقًّا حين يضغط عليه الفناء من كل جانب. ويكون الأمر مروعًا، حين يوجد بدون أية حياة: حين يوجد في الليل بلا حياة.

لكنه الآن يستطيع أن يرن الجرس لمسز بولتون. وكانت تأتي دائمًا. كان شعورًا عظيمًا بالارتياح. تأتي بالروب، وشعرها ضفيرة تتدلى على ظهرها، صبية وهزيلة بشكل غريب، رغم أن الضفيرة البنية

يتخللها الشيب. وقد تصنع له القهوة أو شاي البابونج، وقد تلعب معه الشطرنج أو البيكيت. امرأة تتمتع بقدرة غريبة على لعب حتى الشطرنج بشكل جيد، وهي شبه نائمة، بشكل جيد يجعلها جديرة بالفوز. هكذا يجلسان في حميمية صامتة في الليل، أو تجلس ويستلقي على السرير، ولمبة القراءة تلقي بنورها الوحيد عليهما، تدخل في النوم تقريبًا، ويدخل تقريبًا في نوع من الخوف، وهما يلعبان، يلعبان معًا- ثم يتناولان كأسًا من القهوة والبسكويت معًا، ومن النادر أن يتكلما، في صمت الليل، لكن كلًّا منهما يبعث الطمأنينة في الآخر.

وفي هذه الليلة تتساءل عن عشيق الليدي تشاترلي. وهي تفكر في زوجها تيد، وقد مات منذ زمن بعيد، لكنه بالنسبة لها لم يمت تمامًا قط. وحين تفكر فيه، يستيقظ الحقد القديم، القديم تجاه العالم، وخاصة تجاه السادة الذين قتلوه. لم يقتلوه حقًّا. لكنهم، بالنسبة لها، قتلوه عاطفيًّا. ونتيجة لذلك كانت، في أعماق نفسها، عدمية وفوضوية حقًّا.

وفيما يشبه النوم، تمتزج أفكارها عن زوجها تيد وأفكارها عن العشيق المجهول لليدي تشاترلي، ثم تشعر أنها تشارك المرأة الأخرى حقدًا عظيمًا ضد السير كلفورد وكل ما يمثله. وفي الوقت ذاته تلعب البيكيت معه، ويقامران بستة بنسات. وكان مصدر رضا لها أن تلعب بيكيت مع بارون، حتى لو خسرت ستة بنسات لصالحه.

وحين يلعبان الكوتشينة يقامران دائمًا. فينسى نفسه. وكان يكسب عادة. وفي هذه الليلة أيضًا يكسب. ولا يذهب للنوم قبل ظهور أول خيوط الفجر. ولحسن الحظ تبدأ الظهور في الرابعة والنصف تقريبًا.

كانت كوني في السرير، مستغرقة في النوم طول هذا الوقت. لكن الحارس أيضًا لم يعرف الراحة. يغلق الأقفاص ويأخذ جولته في الخميلة، ثم يذهب إلى البيت ويتناول عشاءه. لكنه لا يذهب إلى السرير. وبدلًا من ذلك يجلس بجوار المدفأة يفكر.

يفكر في صباه في تفرشال، وفي السنوات الخمس أو الست من حياته الزوجية. يفكر في زوجته، بمرارة دائمًا. بدت وحشية جدًّا. لكنه لا يراها منذ ١٩١٥، في الربيع حين جُنِّد. لكنها هناك، على بعد أقل من ثلاثة أميال، أكثر وحشية مما كانت في أي وقت. يتمنى ألا يراها مرة أخرى في حياته.

يفكر في حياته جنديًّا خارج البلاد. الهند ومصر، ثم الهند مرة أخرى: حياته المتهورة الطائشة في الجياد: العقيد الذي أحبه وكان يحبه: السنوات العديدة التي كان ضابطًا فيها، ملازمًا مع فرصة كبيرة جدًّا في أن يكون نقيبًا. ثم موت العقيد من التهاب رئوي، ونجاته بصعوبة من الموت: تدهور صحته: توتره العميق: ترك الجيش والعودة إلى إنجلترا ليكون عاملًا مرة أخرى.

يماطل مع حياته. يفكر في أن يكون آمنًا، على الأقل لبعض الوقت، في هذه الخميلة. لم يحن موعد الصيد: كان يربي الدراريج. لم يكن لديه بنادق للخدمة. كان وحيدًا، وبعيدًا عن الحياة، وهذا كل ما يريده. لابد أن تكون له خلفية من نوع ما. وهذا مكانه الأصلي. هناك أمه، رغم أنها لا تعني له الكثير. يستطيع الاستمرار في الحياة، والعيش من يوم لآخر، بدون ارتباط وبدون أمل. لأنه لا يعرف ماذا يفعل مع نفسه.

لا يعرف ماذا يفعل مع نفسه. وحيث إنه كان ضابطًا لبضع سنوات، واختلط بالضباط الآخرين والموظفين المدنيين، ومع زوجاتهم وعائلاتهم، فقد كل طموح في «التقدم». هناك صرامة، صرامة غريبة بلهاء وانهيار بين الطبقات الوسطى والعليا، كما عرفهم، مما يتركه بشعور بالبرودة والاختلاف عنهم.

وهكذا عاد إلى طبقته. ليجد فيها ما نسيه خلال سنوات غيابه، التفاهة والابتذال بأسلوب بغيض جدًّا. ويعترف الآن في النهاية بأن الأسلوب بالغ الأهمية. ويعترف، أيضًا، بأهمية **التظاهر** حتى بأنه لا يهتم بنصف البنس وصغائر الحياة. لكن بين العامة لا يوجد تظاهر. بنس أكثر أو أقل في لحم الخنزير المقدد أسوأ من تغيير في الإنجيل. لا يمكن أن يحتمله.

ومرة أخرى، نشبت مشاجرات حول الأجور. وقد عاش بين طبقات الملَّاك، عرف العبث التام لتوقع أي حل للمشاجرات حول الأجور. لم يكن هناك حل، إلا بالموت. الحل الوحيد ألا تهتم، ألا تهتم بالأجور.

لكن إذا كنت فقيرًا وبائسًا فعليك أن تهتم. على أية حال، أصبح الشيء الوحيد الذي يهتمون به. **الاهتمام** بالمال مثل سرطان هائل، ينهش الأفراد من كل الطبقات. رفض أن يهتم بالمال.

وماذا إذًا؟ ماذا تقدم الحياة بعيدًا عن الاهتمام بالمال؟ لا شيء.

لكنه استطاع العيش وحيدًا، برضا شاحب بوحدته، وتربية دراريج ليصطادها في النهاية رجال سمان بعد الفطور. كان عبثًا، عبثًا إلى أقصى حد.

لكن لماذا الاهتمام، لماذا الانزعاج؟ وهو لم يهتم ولم ينزعج حتى الآن، حين دخلت هذه المرأة حياته. إنه أكبر منها بعشر سنوات تقريبًا. وأكبر بآلاف السنوات من الخبرة، ويبدأ من القاع. والارتباط بينهما يقوى. يمكنه رؤية اليوم الحسم، يوم يكون عليهما أن يعيشا معًا. «لأن من السيئ أن تنحل روابط الحب!».

وماذا بعد؟ ماذا بعد؟ لابد أن يبدأ مرة أخرى، بدون شيء يبدأ منه؟ هل لابد من الوقوع في شرك هذه المرأة؟ هل لابد من الدخول في صراع رهيب مع زوجها الكسيح؟ وأيضًا في صراع رهيب مع زوجة وحشية تكرهه؟ بؤس! كثير من البؤس! لم يعد شابًّا مبتهجًا ببساطة. وليس من النوع الذي لا يبالي. تؤذيه كل مرارة وكل بشاعة: والمرأة!

حتى لو تحررا من السير كلفورد ومن زوجته، حتى لو تحررا، ماذا يفعلان؟ ماذا يفعل، هو نفسه ماذا يفعل؟ ماذا يفعل بحياته؟ لأنه لابد أن يفعل شيئًا. لا يمكن أن يكون مجرد عالة، على مالها ومعاشه الصغير جدًّا.

ليس هناك حل. يمكن التفكير في الذهاب إلى أمريكا، ليجرب جوًّا جديدًا. لا يؤمن بالدولار تمامًا. لكن ربما، ربما كان هناك شيء آخر.

لا يستطيع أن يستريح أو يذهب حتى إلى السرير. بعد الجلوس في ذهول الأفكار المرة حتى منتصف الليل، ينهض فجأة من كرسيه ويتناول معطفه وبندقيته.

يقول للكلبة: «هيا يا حبيبتي. من الأفضل أن نخرج».

كانت ليلة مرصعة بالنجوم، لكنها ليست مقمرة. يذهب بخطوات بطيئة ودقيقة وهادئة في جولة استكشافية. وكان الشيء الوحيد الذي عليه التعامل معه الفخاخ التي ينصبها عمال المناجم للأرانب، وخاصة عمال مناجم ستاكس جيت، في ناحية مرهاي. لكنه موسم التكاثر، وحتى عمال المناجم لا يحترمونه. ومع ذلك تهدئ الخطوات الاستكشافية للجولة بحثًا عن صيادين أعصابه وتبعد الأفكار عن عقله.

لكنه حين ينتهي من تفقده الحذر البطيء لحدوده- خمسة أميال من المشي تقريبًا- يرهق. يذهب إلى قمة التل يتطلع. ليس هناك صوت إلا الصخب، صخب الزحف الشاحب من منجم ستاكس جيت، ولم يكن يتوقف قط: وليس هناك أي ضوء، إلا الصفوف الكهربية المتألقة التي تعمل. يتمدد العالم مظلمًا ونائمًا بعمق. كانت الثانية والنصف. لكنه حتى في نومه كان عالمًا قلقًا متوحشًا، يموج بصخب قطار أو لوري كبير على الطريق، ويومض ببعض الومضات الوردية المضيئة من الأفران. كان عالمًا من الحديد والفحم، وحشية الحديد ودخان الفحم، والجشع اللانهائي، اللانهائي الذي يدفعه. لم يكن إلا الجشع، جشع يموج في نومه.

كان الجو باردًا، يسعل. يهب تيار بارد ورائع على التل. يفكر في المرأة. الآن يقدم كل ما لديه أو ربما كل ما قد يكون لديه ليحتضنها دافئة في ذراعيه، ويلتف الاثنان في بطانية واحدة، ويناما. يقدم كل آمال الأبدية وكل ما كسبه من الماضي لتكون معه، لتلتف دافئة معه في بطانية واحدة، ويناما، يناما فقط. بدا أن النوم والمرأة في ذارعيه الضرورة الوحيدة.

يذهب إلى الكوخ، ويلتف في البطانية ويستلقي على الأرض لينام. لكنه لا يستطيع، يشعر بالبرد. وبجانب ذلك، يشعر بوحشية طبيعته الدائمة. يشعر بوحشية وحدته الدائمة. يريدها، يريد أن يلمسها، أن يضمها في لحظة اكتمال وينام.

ينهض مرة أخرى ويخرج، باتجاه بوابات المنتزه هذه المرة: ثم ببطء بطول الممر باتجاه المنزل. كانت الرابعة تقريبًا، الجو مازال صافيًا وباردًا، لكن ليست هناك علامة من علامات الفجر. اعتاد الظلام، وكان يستطيع أن يرى جيدًا.

ببطء، ببطء جذبه المنزل الكبير، مثل مغناطيس. يريد أن يكون قريبًا منها. ليست الرغبة، ليست إطلاقًا. إنه إحساس وحشي بعزلة دائمة، يحتاج إلى امرأة صامتة يضمها في ذراعيه. ربما يمكن أن يجدها. ربما يمكن حتى أن يدعوها لتخرج إليه: أو يجد طريقة ما للدخول إليها. لأن الحاجة ملحة.

يتسلق ببطء وصمت المنحدر إلى القاعة. ثم يلتف حول الأشجار الضخمة على قمة التل، إلى الممر الذي يمتد بشكل هائل حول العشب أمام المدخل. يرى شجرتي الزان الرائعتين اللتين تقفان في هذا المسطح الكبير أمام المنزل، وتنفصلان بقتامة في الهواء المظلم.

ها هو المنزل، منخفض وطويل ومظلم، مع ضوء وحيد مشتعل في الدور الأرضي، في غرفة السير كلفورد. لكن في أية غرفة توجد المرأة التي تمسك بالطرف الآخر من الخيط الواهي الذي يسحبه بقسوة، لا يعرف.

يقترب قليلًا، والبندقية في يده، ويقف ساكنًا في الممر، يراقب المنزل. ربما يجدها الآن، يأتيها بطريقة ما. المنزل ليس حصينًا: وهو ماهر مثل اللصوص. لماذا لا يدخل إليها؟

يقف ساكنًا، ينتظر، والفجر ينبلج خلفه بشكل خافت وغير محسوس. يرى نور المنزل يُطفَأ. لكنه لا يرى مسز بولتون وهي تأتي إلى النافذة وتفتح الستارة القديمة المصنوعة من الحرير الأزرق الغامق، وتقف في الغرفة المظلمة، تتطلع إلى النهار القادم شبه المظلم، باحثة بشغف عن الفجر، منتظرة، منتظرة كلفورد لتتأكد حقًّا من أنه الفجر. لأنه حين يتأكد من أنه الفجر، ينام غالبًا على الفور.

تقف عند النافذة والنوم يغالب عينيها، تنتظر. وهي واقفة، تبدأ الصراخ، وقد صرخت تقريبًا. لأن في الخارج عند الممر رجلًا، شخصًا أسود في الشفق. تنتبه بتوجس، وتراقب، لكن بدون أن تصدر صوتًا حتى لا تزعج السير كلفورد.

يبدأ انتشار نور النهار في العالم، وبدا أن الشخص الأسود يصغر ويتحدد أكثر. تميز البندقية والجرموق والجاكيت الفضفاض- إنه أوليفر ملورز، الحارس. أجل، لأن الكلبة هناك تتشمم مثل ظل وتنتظره!

وماذا يريد الرجل؟ هل يريد أن يوقظ المنزل؟ لماذا يقف هناك، ثابتًا، يتطلع إلى المنزل مثل كلب ولهان خارج المنزل حيث توجد الكلبة؟

رائع! تصل المعلومة لمسز بولتون مثل طلقة. إنه عشيق الليدي تشاترلي! هو! هو!

تعتقد ذلك! لماذا، ذات يوم شعرت هي نفسها، إيفي بولتون، ببعض الحب تجاهه. وكان فتى في السادسة عشرة وكانت امرأة في السادسة والعشرين. وهي تدرس، وقد ساعدها كثيرًا في التشريح والأشياء التي كان عليها أن تتعلمها. كان فتى ذكيًّا، حصل على منحة للدراسة في مدرسة شيفلد جرامر، وتعلم الفرنسية وأشياء أخرى: ثم صار حدادًا على سطح المنجم يصنع حدوات الجياد، لأنه مغرم بالخيول، كما قال: لكن في الحقيقة لأنه يخشى الخروج ومواجهة العالم، لكنه لم يعترف بهذا قط.

لكنه كان فتى رائعًا، فتى رائعًا، ساعدها كثيرًا، ذكيًّا جدًّا في توضيح الأمور. كان ذكيًّا مثل السير كلفورد: وكان يخدم النساء دائما. النساء أكثر من الرجال، كما قالوا.

حتى مضى وتزوج برتا كوتس، وكأنها نكاية في نفسه. يتزوج بعض الناس نكاية في أنفسهم، لأنهم محبطون من شيء ما. ولا غرابة في أن يفشل.- غاب سنوات، زمن الحرب كله: وكانت رتبة ملازم أقصى ما وصل إليه: جنتلمان تمامًا، حقًّا جنتلمان تمامًا!- ثم يعود إلى تفرشال ويواصل العمل حارسا للطرائد! حقًّا، لا يمكن لبعض الناس أن يأخذوا فرصهم حين ينبغي أخذها! ويتكلم لهجة ديربشاير مرة أخرى، مثل أسوأ الناس، وكانت هي، إيفي بولتون، تعرف أنه يتحدث مثل جنتلمان **حقًّا**.

حسنًا، حسنًا! هكذا وقعت سيدتها في حبه! حسنًا- لم تكن سيدتها الأولى: كان هناك شيء ما بشأنه. ليست إلا نزوة! فتى ولد ونشأ في تفرشال، وهي سيدتها في راجبي هول! إنها، بالتأكيد، صفعة لعائلة

تشاترلي، الرفيعة والقوية!

لكنه هو، الحارس، والنهار يبزغ، يدرك: ليس أمرًا طيبًا! محاولة التخلص من عزلتك ليست أمرًا طيبًا. عليك الالتصاق بها طول حياتك. فقط أحيانًا، أحيانًا، تمتلئ الفجوة. أحيانًا! لكن عليك أن تنتظر هذه الأحيان. تقبل عزلتك والتصق بها، طول حياتك. سوف تأتي الأحيان. لا يمكن إرغامها.

في غمضة مفاجئة تتحطم الرغبة النازفة التي جرَّتْه وراءها. يحطمها، لأنها لابد أن تتحطم. لابد أن يأتيا معًا على الجانبين. وكما أنها لا تأتي إليه، لن يتتبعها. لابد ألا يتتبعها. عليه أن يبتعد، حتى تأتي.

يستدير ببطء، متأملًا، متقبلًا عزلته مرة أخرى. يعرف أن هذا أفضل. عليها أن تأتي إليه: لا فائدة من تتبعه لها. لا فائدة!

تراه مسز بولتون يختفي، وترى كلبته تجري وراءه.

تقول: «حسنًا، حسنًا! إنه الرجل الوحيد الذي لم أفكر فيه قط؛ الرجل الوحيد الذي كان ينبغي التفكير فيه. كان لطيفًا بالنسبة لي وهو فتى، بعد أن فقدْتُ تيد. حسنًا، حسنًا! بصرف النظر عما يقوله إذا عرف!»

وتحدق بانتصار في كلفورد النائم، وهي تخرج بهدوء من الغرفة.

* * *

الفصل الحادي عشر

كانت كوني تفرز إحدى الغرف الممتلئة في راجبي. وكان فيه الكثير: المنزل مكتظ، ولم تبع العائلة شيئًا قط. كان والد السير جيفري يحب الصور ووالدة السير جيفري تحب أثاث القرن السادس عشر. والسير جيفري نفسه يحب الخزائن القديمة المنحوتة من خشب البلوط، خزائن مجلس الكنيسة. واستمر الوضع عبر الأجيال. وجمع كلفورد صورًا حديثة جدًّا، بأسعار معتدلة جدًّا.

وهكذا كان في الغرفة الممتلئة أشياء سيئة تخص السير إدوين لاندسيرز وأعشاش الطيور المثيرة للشفقة التي تخص وليم هنري هانت: وأشياء أكاديمية أخرى، كافية لترعب ابنة عضو من أعضاء الأكاديمية الملكية. صممت على فحصها ذات يوم، والتخلص منها. وأثار الأثاث الغريب اهتمامها.

لُفَّ سرير مهد العائلة القديم بعناية لحفظه من التلف والتسوس، وكان من خشب الورد. تفكه لتنظر إليه. له سحر: تنظر إليه وقتًا طويلًا.

تتنهد مسز بولتون، وكانت تساعدها: «أمر مثير للشفقة ألف مرة ألا يستخدم. رغم أن أسِرَّة المهد من هذا النوع عفا عليها الزمن الآن».

تقول كوني عرضًا، وكأنها تقول إنها قد يكون لديها قبعة جديدة: «قد يستخدم. قد يكون لدي طفل».

تتلعثم مسز بولتون: «تقصدين إن حدث أي شيء للسير كلفورد».

تقول كوني، وهي تكذب بشكل طبيعي كما تتنفس: «لا! أقصد على هذا الوضع. يعاني السير كلفورد من شلل في العضلات فقط- لا يؤثر عليه».

واضعًا الفكرة في رأسها، قال كلفورد: «بالطبع يمكن أن يكون عندي طفل. لسْتُ مشوَّهًا إطلاقًا. قد تعود القدرة بسهولة، حتى لو كانت عضلات الوركين والساقين مشلولة. ومن ثم يمكن نقل البذرة».

تشعر حقًّا، في فترات طاقته وهو يعمل بجدية في مسألة المناجم، وكأن قدرته الجنسية تعود. وكانت كوني تنظر إليه في هلع. لكنها حادة الذكاء بما يكفي لاستخدام إيحائه للحفاظ على نفسها. لأنها سيكون لديها طفل إن استطاعت: لكنه لن يكون طفله.

تحبس مسز بولتون أنفاسها مشدوهة لحظة. ولا تصدق ذلك: ترى فيه خدعة. لكن الأطباء يمكن أن يفعلوا تلك الأشياء الآن. ربما يشتلون البذرة بشكل ما.

«حسنًا سيدتي، أتمنى وأدعو لك فقط. سيكون ذلك جميلًا لك: وللجميع. بالتأكيد، طفل في راجبي، أي تغيير يصنعه!».

تقول كوني: «أليس كذلك!».

واختارت ثلاث صور للأكاديمية الملكية ترجع إلى ستين عامًا، لترسلها إلى دوقة شورتلندز[1] للبازار الخيري التالي الذي تقيمه السيدة. وكانت قد دعيت «لبازار الدوقة»، وكانت تطلب دائمًا من كل المقاطعة أن يرسلوا إليها أشياء لتبيعها. سوف تبتهج بثلاث صور مؤطرة للأكاديمية الملكية. ربما حتى تعلن عنها من شدة إعجابها بها. وكم يحتد كلفورد حين تعلن عنها!

لكن أوه يا عزيزتي! تفكر مسز بولتون في نفسها. هل هو طفل أوليفر ملورز الذي تعديننا له؟ أوه يا عزيزتي، سيكون طفلًا من تفرشال في مهد راجبي، بالتأكيد! ولن يجلب له العار، لا!

ومن بين الأشياء البشعة في هذه الغرفة الممتلئة صندوق كبير أسود مطلي بالورنيش، صنع بمهارة وبراعة منذ ستين سنة أو سبعين، مكتظ بكل ما يمكن تخيله. على القمة طقم تواليت مركز: فُرَش وزجاجات ومرايا وأمشاط وصناديق، وحتى ثلاثة أمواس صغيرة وجميلة في أغلفتها، وإناء للحلاقة وغيرها. تحتها تظهر أدوات مكتبية: ورق نشاف وأقلام حبر ودوايات حبر وورق وأظرف ومذكرات: ثم معدات خياطة كاملة، مع ثلاثة مقصات مختلفة الحجم، وأقماع خياطة وإبر وحرير وقطن، وبيضة خشبية للرتق، كلها من أفضل الأنواع ومكتملة بشكل رائع. وهناك خزانة أدوية صغيرة، بها زجاجات تسمى لودانوم، وصبغة المر، إيسّ. وقرنفل وغير ذلك: لكنها فارغة. كان كل شيء جديدًا تمامًا،

(١) قرية في ضاحية من ضواحي لندن.

ولم يكن الصندوق كله، حين يغلق، بما فيه من أشياء كبيرة صغيرة، إلا حقيبة عطلة نهاية الأسبوع منتفخة. وفي الداخل مكتظة مثل لغز. لا يحتمل سكب الزجاجات: لا يوجد مكان.

الصندوق كله مصنوع ومصمم بشكل رائع، حرفة ممتازة من النظام الفيكتوري. لكنه بشع بشكل ما. ربما لم يشعر حتى أحد من آل تشاترلي بذلك، لأن الصندوق لم يستخدم قط. كانت فظاظته غريبة.

لكن مسز بولتون تنتشي.

«انظري، يا لها من فرش جميلة، غالية جدًّا، وحتى فرش الحلاقة، ثلاث فرش رائعة! لا! وهذا المقص! إنه أفضل ما يمكن أن تشتريه الفلوس. أوه، أراه جميلًا!».

تقول كوني: «أترينه؟ خذيه إذًا».

«أوه، لا يا سيدتي!».

«بالطبع! سيبقى هنا إلى يوم القيامة. إذا لم تأخذيه أرسله إلى الدوقة مثل الصور، وهي لا تستحق هذا كله. خذيه!».

«أوه، سموك! لماذا، لن أستطيع أبدًا أن أشكرك».

تقول كوني ضاحكة: «لا تحتاجين حتى للمحاولة».

وتهبط مسز بولتون وفي ذراعيها الصندوق الضخم الأسود جدًّا، متوردة من الإثارة.

يأخذها مستر بيتس في عربة بدولابين إلى منزلها في القرية، مع الصندوق. وكان لديها هناك صديقات تفرجهن عليه: معلمة المدرسة

وزوجة الكيميائي، ومسز ويدون زوجة معاون أمين الصندوق. يرينه مدهشًا. ثم يبدأن الهمس على طفل الليدي تشاترلي.

تقول مسز ويدون: «لن تتوقف الغرائب!».

وكانت مسز بولتون **مقتنعة** بأنه سيكون، إذا جاء، طفل السير كلفورد. بالتأكيد!

بعد ذلك بفترة قصيرة يقول الكاهن لكلفورد بشكل مهذب:

«وربما نأمل حقًّا في وريث لراجبي؟ آه، سيكون ذلك رحمة من يد الرب، حقًّا!».

يقول كلفورد بسخرية خافتة، وفي الوقت ذاته ببعض القناعة: «حسنًا! قد نأمل». وكان قد بدأ يصدق حقًّا أنه ربما حتى يكون طفله.

وبعد ظهر أحد الأيام يأتي ليسلي وينتر، القاضي وينتر، كما يدعوه الجميع: وكان نحيلًا تقيًّا في السبعين: جنتلمان في كل بوصة منه، كما قالت مسز بولتون لمسز بيتس. كل مليمتر في الحقيقة! وبطرازه القديم، وقهقهته إلى حد ما! وبطريقته في الكلام بدا أنه قد عفا عليه الزمن أكثر من الباروكات بكيس[1]. الزمن، في طيرانه، يسقط هذه الريشات القديمة الرائعة.

يناقشان أمور المناجم. وكانت فكرة كلفورد أن فحمه، حتى من النوع الرديء، يمكن تحويله إلى وقود صلب مركَّز يمكن أن يشتعل بحرارة هائلة إذا زوِّد ببعض الهواء الحمضي الرطب تحت ضغط عال

(١) باروكة يوضع فيها الشعر الخلفي في كيس، وكانت تستخدم بكثرة في القرن الثامن عشر.

جدًّا. وقد لوحظ منذ وقت طويل أن رصيف المنجم يحترق في الرياح الرطبة القوية جدًّا بنار متأججة جدًّا، ولا يبعث أدخنة، ويخلف رمادًا ناعمًا يشبه البودرة، بدلًا من الحصى القرنفلي البطيء.

يسأل وينتر: «ولكن أين تجد المحركات المناسبة لحرق وقودك؟»

«أصنعها بنفسي. وأستخدم وقودي بنفسي. وأبيع الطاقة الكهربية. أنا متأكد من أنني أستطيع القيام بذلك».

«إذا كنت تستطيع صنعها، رائع إذًا، رائع، يا ولدي العزيز. ها! رائع! إن كان يمكن أن أقدم أية مساعدة، سأكون سعيدًا. أخشى أن يكون قد عفا عليَّ الزمن قليلًا، ومناجمي مثلي. لكن من يعرف، حين أرحل، قد يكون هناك رجال مثلك. رائع! سوف يتم توظيف كل الرجال مرة أخرى، ولن يكون عليك أن تبيع فحمك، أو تفشل في بيعه. فكرة رائعة، وأتمنى أن تنجح. إذا كان لي أبناء من صلبي، بدون شك سيكون لهم أفكار حديثة تتعلق بشيبلي: بدون شك! وبالمناسبة يا بني العزيز، هل هناك أي أساس للشائعة بأننا قد نستمتع بتحقيق الآمال في وريث لراجبي؟».

يسأل كلفورد: «هل هناك شائعة؟».

«حسنًا يا بني العزيز، سألني مرشال من فيلينجوود، هذا كل ما يمكن أن أقوله بشأن الشائعة. وبالطبع لن أكررها إن لم يكن لها أساس».

يقول كلفورد بتوتر، وبعينين مشرقتين غريبتين: «حسنًا، يا سير. هناك أمل. هناك أمل».

يقطع وينتر الغرفة ويشد على يد كلفورد.

«يا بني العزيز، يا فتاي العزيز، هل يمكن أن تصدق ما يعنيه لي أن أسمع هذا! وأسمع أنك تعمل في ظل الآمال في ابن: وقد توظف مرة أخرى كل رجل في تفرشال. آه، يا بني! أن تحافظ على مستوى السباق، ويكون لديك عمل في انتظار أي رجل يهتم بأن يعمل!-».

كان العجوز متأثرًا حقًّا.

في اليوم التالي كانت كوني تنسق زهور توليب صفراء طويلة في فازة من الزجاج.

يقول كلفورد: «كوني، هل تعرفين أن هناك شائعة بأنك ستمدين راجبي بابنٍ ووريث؟».

تشحب كوني وينتابها شعور بالهلع، لكنها تقف ساكنة تمامًا، وهي تلمس الزهور.

تقول: «لا! هل هي نكتة؟ أم خبث؟».

يتوقف قبل أن يرد:

«أتمنى ألا تكون هذا أو ذاك. أتمنى أن تكون نبوءة».

تواصل كوني تنسيق الزهور.

تقول: «تلقيت رسالة من والدي هذا الصباح. يريدُ أن يعرف إن كنت أعلم أنه قبل دعوة السير ألكسندر كوبر لي لقضاء يوليو وأغسطس في فيلا إزميرالدا في فينسيا».

يقول كلفورد: «يوليو وأغسطس؟».

«أوه، لن أمكث هذا الوقت كله. هل أنت متأكد من أنك لن تأتي؟».

يقول بحزم: «لن أسافر خارج البلاد». تأخذ زهورها إلى النافذة.

تقول: «هل تمانع في أن أذهب؟ تعرف أنه كان وعدًا لهذا الصيف».

«كم تقضين هناك؟».

«ربما ثلاثة أسابيع».

يخيم الصمت لبعض الوقت.

يقول كلفورد ببطء، وببعض الكآبة: «حسنًا. أعتقد أنني يمكن أن أحتمل ثلاثة أسابيع: إذا كنت متأكدًا بشكل مطلق من أنك ترغبين في العودة».

تقول، ببساطة تامة، مثقلة بالقناعة: «لابد أنني أرغب في العودة». وكانت تفكر في الرجل الآخر.

يشعر كلفورد بقناعتها، ويصدقها بشكل ما، يصدق أن ذلك من أجله. يشعر في الحال بارتياح هائل وبهجة.

يقول: «لا أمانع في تلك الحالة».

تقول: «أظن ذلك».

«هل تستمتعين بالتغيير؟».

تنظر إليه بعينين زرقاوين غريبتين.

تقول: «أحب رؤية فينسيا مرة أخرى، والاستحمام في إحدى الجزر المفروشة بالحصى عبر البحيرة. لكنك تعرف أنني أقرف من الليدو[1]!

---

(١) الليدو: جزيرة من الشعب المرجانية قبالة الساحل الشمالي الشرقي لإيطاليا.

ولا أتخيل أن أعجب بالسير ألكسندر كوبر والليدي كوبر. لكن إذا كانت هيلدا هناك، ويكون لنا جندولنا الخاص: أجل، سيكون ذلك جميلًا. أتمنى أن تأتي».

قالت بصدق. وكانت تحب أن تسعده بهذه الطرق.

«آه، لكن رغم ذلك، فكري فيَّ، عند جير دو نور[1]: على رصيف كاليه!»[2].

«لكن لماذا لا؟ أرى رجالًا آخرين محمولين في نقالات، وقد جرحوا في الحرب. بالإضافة إلى ذلك، نتحرك بسيارة طول الطريق».

«نحتاج إلى اصطحاب رجلين».

«أوه، لا! يمكن أن نتصرف مع فيلد. وسيكون هناك رجل آخر دائمًا».

لكن كلفورد يهز رأسه.

«ليس هذه السنة يا عزيزتي! ليس هذه السنة! ربما أحاول في السنة القادمة».

تنصرف بكآبة. السنة القادمة! ماذا تجلب السنة القادمة؟ هي نفسها لا ترغب في الذهاب إلى فينسيا حقًّا: ليس الآن، الآن هناك الرجل الآخر. لكنها تذهب نوعًا من الانضباط: وأيضًا، ليعتقد كلفورد، إذا أنجبت طفلًا، أنه كان لها عشيق في فينسيا.

---

(١) جير دو نور: محطة رئيسة في باريس، وهي المحطة التي تربط باريس بلندن.

(٢) كاليه: بلدة في شمال فرنسا في إقليم باد كاليه وهي إحدى ولايات الإقليم.

كان مايو بالفعل، وفي يونيو يفترض أن يبدأوا. هذه الترتيبات دائمًا! دائمًا حياة المرء ترتب من أجل أحد! عجلات تشغل واحدًا وتنقل واحدًا، وليس لأحد سيطرة عليها!

كان مايو بالفعل، لكن الجو بارد ورطب مرة أخرى. مايو بارد ورطب، جيد للذرة والقش! الكثير من الذرة والقش مهم هذه الأيام! كان على كوني أن تذهب إلى أوثويت، بلدتهم الصغيرة، حيث مازال آل تشاترلي آل تشاترلي. تذهب وحدها، وفيلد يقود السيارة.

برغم أنه مايو وبرغم الخضرة الجديدة، كانت البلدة موحشة. الجو بارد إلى حد ما، وفي المطر دخان، وإحساس معين ببخار عوادم في الهواء. على المرء أن يعيش فقط بمقاومته. لا غرابة في أن يكون هؤلاء الناس بشعين وقساة.

تشق السيارة طريقها أعلى الهضبة عبر الامتداد البائس الطويل لتفرشال، مساكن من القرميد المسود، الأسقف الصخرية السوداء تلمع في حوافها الحادة، والطين أسود من تراب الفحم، والأرصفة مبللة وسوداء. يبدو وكأن الوحشة تتغلغل في كل شيء. كان النفي التام للجمال الطبيعي، النفي التام لسعادة الحياة، الغياب التام لغريزة الجمال المتناسق، الغريزة التي تتمتع بها كل الطيور والبهائم، الموت التام للمَلَكة الحدسية الإنسانية، مروِّعًا. أكوام الصابون في محلات البقالين، الراوند والليمون عند باعة الخضروات! القبعات الفظيعة عند بائعي القبعات! كلها بشعة، بشعة، بشعة، يليها السينما بواجهتها المرعبة من الجص المطلي بإعلاناتها المبللة، لفيلم «حب امرأة!»، الكنيسة البدائية الكبيرة

الجديدة، بدائية جدًّا بقرميدها الصارخ، والألواح الكبيرة من الزجاج المخضر والتوتي في النوافذ. كانت كنيسة ويسليان، مرتفعة، من القرميد المسود خلف أسيجة من الحديد وشجيرات مسودة. وقد بنيت الكنيسة الجامعية، وكانت تعتقد أنها متفوقة، من الحجر الرملي المعلق وكان لها برج، لكنه ليس مرتفعًا جدًّا. وراءها مباشرة مباني مدرسة جديدة، من القرميد الوردي الغالي، وفناء مفروش بالحصى داخل أسيجة من الحديد، كلها مهيبة جدًّا، وتؤكد الإيحاء بكنيسة وسجن. كانت فتيات مدرسة ستاندرد فايف يحضرن درسًا في الغناء، وقد انتهين للتو من تدريبات لا مي دو لا ويبدأن «أغنية الأطفال الحلوين». أي شيء إلا أن تكون أغنية، أغنية تلقائية، لا يمكن تخيلها: صرخة غاضبة غريبة تتبع الخطوط العريضة للنغمة. لا تشبه صرخة الهمج: عرف الهمج إيقاعات متقنة. لا تشبه صرخة الحيوانات: تعني الحيوانات شيئًا ما حين تصرخ. لا تشبه شيئًا على الأرض، وتسمى غناء. تجلس كوني وتستمع وهي محبطة جدًّا، وفيلد يمون السيارة بالبترول. ماذا يمكن أن يخرج من أناس الملكة الحدسية الحية فيهم ميتة مثل المسامير، ولم يبقَ إلا الصرخات الآلية الغريبة وقوة الإرادة الغريبة؟

كانت عربة فحم تهبط التل، تقعقع في المطر. يبدأ فيلد الصعود، مارًّا بتجار الكوخ المرهقين ومحلات الملابس، ومكتب البريد، إلى مكان السوق الصغير في فضاء مهجور، حيث يحدق سام بلاك من باب حانة الشمس، وكانت تسمى نُزُلًا لا حانة، حيث يمكث التجار المسافرون، وينحني لسيارة الليدي تشاترلي.

كانت الكنيسة بعيدة إلى اليسار بين الأشجار السوداء. تنزلق السيارة على المنحدر، مارة بمطعم المداينرز آرمز. وقد عبرت الويلينجتون، والنيلسون، والثري تونز، وحانة الشمس، وتمر الآن بالمداينرز آرمز، ثم الميكانيكز هول، والمداينرز ويلفير الجديد والمبهرج تقريبًا، إلخ، مارة ببضع «فيلات» جديدة، منطلقة إلى الطريق المسود بين الأسيجة القاتمة والحقول الخضراء القاتمة، باتجاه ستاكس جيت.

تفرشال! تلك تفرشال! ميري إنجلترا![1] إنجلترا شكسبير! لا، لكن إنجلترا اليوم، كما تدركها كوني منذ جاءت وعاشت فيها. كانت تنتج عرقًا جديدًا من البشر، أكثر وعيًا بالمال والبعد الاجتماعي والسياسي، وميت في البعد الحدسي التلقائي. أنصاف جثث، كلهم: لكن بوعي لافت رهيب بالنصف الآخر. هناك شيء غريب وسري بشأن هذا كله. إنه عالم سفلي. متقلب تمامًا. كيف نفهم ردود أفعال أنصاف الجثث؟ حين تشاهد كوني اللوريات الكبيرة ممتلئة بعمال الصلب من شيفلد، كائنات غريبة وضئيلة ومشوهة تشبه الرجال، حين تخرج في نزهة إلى ماتلوك، تصعق وتفكر: يا ربي، ماذا فعل الإنسان بالإنسان؟ ماذا فعل القادة من أجل زملائهم؟ قلصوهم إلى أقل من الإنسانية؛ والآن لم تعد هناك زمالة! مجرد كابوس.

تشعر مرة أخرى بموجة هلع من اليأس الرمادي الصارم من هذا كله. مع مثل هذه المخلوقات من الجماهير الصناعية، والطبقات العليا كما

---

(١) ميري إنجلترا: يشير إلى مفهوم طوباوي للمجتمع والثقافة الإنجليزية مؤسس على طريقة رعوية في الحياة.

تعرفهم، لكن أمل، لم يعد هناك أمل. لكنها تنتظر طفلًا، وريثًا لراجبي! وريثًا لراجبي! ترتجف رهبةً.

لكن ملورز خرج من هذا كله!- أجل، لكنه بعيد عنه بقدر بعدها. لم تُترَك حتى زمالة فيه. كانت ميتة. الزمالة ميتة. ليس هناك إلا بُعْدٌ ويأس، بقدر ما يتعلق بهذا كله. وهذه هي إنجلترا، الجزء الأكبر من إنجلترا: كما تعرف كوني، حيث إنها تتحرك بسيارة من مركزها.

كانت السيارة تصعد باتجاه ستاكس جيت. يتوقف المطر، وينتشر في الهواء بريق صاف غريب في مايو. تمتد البلدة في تموجات طويلة، جنوبًا باتجاه بيك[1]، وشرقًا باتجاه مانسفيلد ونوتنجهام. وكوني تسافر جنوبًا.

وهي تصعد باتجاه أعلى البلدة، يمكن أن ترى على يسارها، على ارتفاع فوق الأرض الزلجة، المبنى القوي المظلل لقلعة وارسوب، رمادية غامقة، تحتها مساكن عمال المناجم من الجص المحمر، جديدة وتحت هذه المنازل أعمدة الدخان الأسود والبخار الأبيض من المنجم الكبير الذي يضع آلاف الجنيهات سنويًا في جيوب الدوق والمساهمين الآخرين. كانت القلعة القوية القديمة خربة، لكنها ترتفع بكتلتها في الأفق المنخفض، على الأعمدة السوداء والبيضاء التي تتحرك في الهواء الرطب تحتها.

يأخذان منعطفًا وينطلقان في المستوى العالي إلى ستاكس جيت. وستاكس جيت، كما ترى من الطريق السريع، مجرد فندق جديد ضخم

(١) مقاطعة بيك: منطقة مرتفعة في إنجلترا، معظمها في شمال ديربيشاير.

ورائع، كونينجسباي أرمز، ينتصب أحمر وأبيض ومذهَّبًا منعزلًا على الطريق. لكن إذا نظرْتَ، ترى على اليسار صفوفًا من المساكن «الحديثة» الجميلة، مرصوصة مثل لعبة دومينو، مع فراغات وحدائق، لعبة دومينو غريبة يلعبها بعض «السادة» الغرباء على الأرض المدهشة. وبعد هذه المساكن، في الخلف، ترتفع كل المباني المرتفعة المدهشة والمرعبة لمنجم جديد حقًّا، أعمال كيميائية ومعارض طويلة هائلة، وأشكال لم يعرفها الإنسان من قبل. وكانت مجموعة الآلات ورصيف المنجم نفسه عديمة الأهمية بين المنشآت الجديدة الضخمة. وأمام هذا، تقف لعبة الدمينو للأبد في نوع من الدهشة، في انتظار أن تُلعَب.

هذه ستاكس جيت الجديدة على وجه الأرض منذ الحرب. لكن في الواقع، رغم أن كوني لا تعرف، كانت ستاكس جيت القديمة تحت الهضبة على بعد نصف ميل تحت «الفندق»، بها منجم صغير قديم، ومساكن قديمة مسودة من القرميد، وكنيسة أو اثنتان، ومحل أو اثنان وحانة صغيرة أو اثنتان.

لكنها لم تعد مهمة. ترتفع الأعمدة الهائلة من الدخان والبخار من الأعمال الجديد فوقها، وهذه هي ستاكس جيت الآن: لا كنائس، أو حانات، أو حتى محلات. «أعمال» ضخمة فقط، أولمبيا الحديثة بمعابد لكل الآلهة؛ ثم المساكن النموذجية: ثم الفندق. والفندق في الحقيقة مجرد حانة لعمال المناجم، رغم أنه بدا من الطراز الأول.

حتى وصول كوني إلى راجبي كان هذا المكان الجديد يرتفع على وجه الأرض، وتمتلأ المساكن النموذجية بالرعاع المنجرفين من كل

مكان، ليصطادوا أرانب كلفورد ضمن مهام أخرى.

تواصل السيارة على طول المرتفعات، والبلدة المتعرجة تمتد مرئية. البلدة! كانت ذات يوم بلدة فخمة تدعو للفخر. في الواجهة، تلوح في الأفق مرة أخرى معلقة على جبين الأفق، الكتلة الضخمة الرائعة لشادويك هول، نافذة أكثر مما هي جدار، أحد أشهر المنازل الإليزابيثية. نبيلة تقف وحيدة فوق منتزه كبير، لكن الزمن عفا عليها، تجاوزها. مازالت قائمة، لكنها مكان للعرض. «انظر كيف بجّلها أسلافنا!».

هذا هو الماضي. ويكمن الحاضر تحت. ويعلم الرب وحده أين يكمن المستقبل. تنعطف السيارة، بين الأكواخ القديمة المسودة لعمال المناجم، لتهبط إلى أوثويت. وأوثويت، في يوم رطب، تتصاعد منها مجموعة كاملة من أعمدة الدخان والبخار، إلى حيث توجد الآلهة. أوثويت أسفل الوادي، بكل الخيوط الفولاذية من القضبان المرسومة عبرها إلى شيفيلد، ومناجم الفحم، وأعمال الصلب التي يتصاعد منها الدخان والوهج من أنابيب طويلة، وقمة الكنيسة، قمة لولبية صغيرة مثيرة للشفقة، في طريقها إلى الانهيار، مازالت تلتقط الأدخنة، وكانت تؤثر دائمًا على كوني بشكل غريب. كانت بلدة لسوق قديم، مركزًا نائيًا. كان تشاترلي آرمز واحدًا من أهم النُزُل. وهناك، في أوثويت، يُعرَف راجبي بوصفه راجبي، وكأنه المكان كله، وليس مجرد منزل، كما كان بالنسبة للغرباء: راجبي هول، قرب تفرشال: راجبي، «مركز».

تنتصب ديار عمال المناجم، مسودة ومتوهجة على الرصيف، مع المساكن الحميمة والصغيرة لعمال المناجم لأكثر من مائة عام.

تصطف على الطريق كله. صار الطريق شارعًا، وأنت تغطس، تنسى على الفور البلدة المفتوحة المتعرجة حيث مازالت القلاع والمنازل الكبيرة مسيطرة، لكنها مثل الأشباح. الآن أنت بالضبط فوق خطوط السكك الحديدية العارية، وقد ارتفعت المسابكك و«الأعمال» الأخرى حولك، كبيرة بحيث لا تدرك منها إلا جدرانها. يصلصل الحديد صلصلة هائلة يتردد صداها، واللوريات الضخمة تهز الأرض، والصفارات تدوي.

لكن مرة أخرى، بمجرد أن تمضي إلى اليمين إلى قلب البلدة المتشابكة والمتعرجة، خلف الكنيسة، تكون في عالم يرجع إلى قرنين، في الشوارع المتعرجة حيث يقف تشاترلي آرمز، والصيدلية القديمة، الشوارع التي استخدمت للخروج إلى العالم البري المفتوح، عالم القلاع والمنازل الشامخة بفخامة.

لكن في الزاوية يرفع شرطي يده وثلاثة لوريات محملة بالحديد تمر، ترج الكنيسة القديمة البائسة. وبعد أن تمر اللوريات يحيي سموها.

هذا ما كان. فوق الشوارع المتميزة المتعرجة القديمة تزدحم حشود من المساكن القديمة المسودة، مصطفة على الطرق. وبعدها مباشرة تأتي الصفوف الأحدث الوردية لمنازل أكبر إلى حد ما، تغطي الوادي بالجص: بيوت العمال الأحدث. وبعد تلك مرة أخرى، في المناطق الواسعة المتعرجة، مناطق القلاع، ينتشر الدخان في مواجهة البخار، وبقعة بعد بقعة من القرميد الفج المحمر تظهر فيها مستعمرات التعدين الأحدث، أحيانًا في الأغوار، وأحيانًا بشعة بشكل مروع بطول أفق المنحدرات. وبينها، فيما بينها، بقايا رثة لإنجلترا العربات القديم

والأكواخ، حتى إنجلترا روبن هوود، حيث طاف عمال المناجم بكآبة الغرائز الرياضية المقموعة، حين لا يكونون في العمل.

إنجلترا إنجلتراي! لكن ما إنجلتراي؟ البيوت الفخمة في إنجْلترا تصنع صورًا جيدة، وتخلق وهم الارتباط بالإليزابيثيين. القاعات القديمة الأنيقة، من أيام الملكة آن الطيبة وتوم جونز[1]. لكن السخام يسقط ويسوِّد الجص الأسمر، الذي لم يعد ذهبيًا منذ وقت طويل. وقاعة بعد أخرى، مثل البيوت الفخمة، تُهجَر. والآن تهدم. وكما بالنسبة لأكواخ إنجلترا- هناك- تبدو طبقات الجص الهائلة لمساكن القرميد في الريف اليائس.

يهدمون الآن البيوت الفخمة، والقاعات الجورجية في طريقها للهدم. وكان فريتشلي، وهو قصر جورجي قديم رائع، حتى الآن، وكوني تمر في السيارة، يهدم. كان في الترميم الكامل: حتى الحرب كانت عائلة ويزيرلي تعيش فيه برفاهية. لكنه الآن كبير جدًّا، غالٍ جدًّا، والبلدة سيئة جدًّا. كان أبناء الطبقة الثرية يغادرون إلى أماكن أكثر جاذبية، حيث يمكن أن ينفقوا أموالهم بدون أن يعرفوا كيف تُكسَب.

هذا هو التاريخ. إنجلترا تمحو إنجلترا أخرى. جعلت المناجم القاعات ثرية. والآن تمحوها، كما محت الأكواخ. إنجلترا الصناعية تمحو إنجلترا الزراعية. معنى يمحو معنى آخر. إنجلترا الجديدة تمحو إنجلترا القديمة. والاستمرار ليس عضويًا، لكنه ميكانيكي.

---

(١) آن (١٦٦٥-١٧١٤): ملكة من ١٧٠٢-١٧١٤. توم جونز: رواية لهنري فيلدنج (١٧٠٧-١٧٥٤).

وكانت كوني، التي تنتمي للطبقات الثرية، تتشبث ببقايا إنجلترا القديمة. وقد استغرق الأمر منها سنوات لتدرك أن إنجلترا الجديدة والبشعة بشكل رهيب تمحوها حقًّا، وأن المحو سوف يستمر حتى يكتمل. انتهى فريتشلي، انتهى إيستوود. وكان شيبلي ينتهي: شيبلي محبوب القاضي وينتر.

دعيت كوني لحظة إلى شيبلي. فتحت بوابات المنتزه، في الخلف، بالقرب من مستوى تقاطع قضبان المنجم؛ منجم شيبلي نفسه يقف خلف الأشجار مباشرة. البوابات مفتوحة، لأن الطريق الذي من حق عمال المناجم استخدامه يمر خلال المنتزه. كانوا يتسكعون حول المنتزه.

تجتاز السيارة أحواض الزينة، التي ألقى عمال المناجم جرائدهم فيها، وتأخذ الدرب الخاص إلى المنزل. يقف هناك، على جانب الطريق، مبنى جصي رائع جدًّا من منتصف القرن الثامن عشر. به زقاق جميل من أشجار الطقسوس[١]، يقترب من المنزل الأقدم، وتمتد القاعة بهدوء، وتبرز لوحاتها الجورجية وكأنها مبتهجة. وخلفها حدائق جميلة حقًّا.

أحبت كوني الداخل أكثر بكثير من راجبي. إنه أكثر إشراقًا، وأكثر حيوية، ومتميز ورائع. الغرف مكسوة بألواح مدهونة باللون الكريمي، والسقوف مذَّهبة، وكل شيء محفوظ بنظام رائع، كل التجهيزات مثالية، بصرف النظر عن التكلفة. حتى الأروقة رائعة وجميلة، منحنية انحناءات خفيفة ومليئة بالحياة.

---

(١) شجر صنوبري، له ثمرة حمراء تشبه التوت، يستخدم خشبه في صناعة الخزائن.

لكن ليسلي وينتر كان وحيدًا. متيمًا بمنزله. مع أن على حدود منتزهه ثلاثة من مناجمه. كان سخيًّا في أفكاره. يرحب غالبًا بعمال المناجم في منتزهه. ألم يجعله عمال المناجم ثريًّا! وهكذا، حين يرى مجموعات من رجال مشوهين يتسكعون بجوار مياه الزينة- ليس في الجزء الخاص من المنتزه، لا، يرسم خطًّا هناك- يقول: «ربما لا يكون عمال المناجم مزخرفين مثل الغزلان، لكنهم مربحون أكثر بكثير».

لكن هذا كان في النصف الثاني الذهبي- المالي- من عهد الملكة فيكتوريا. حين كان عمال المناجم «عمالًا طيبين».

وضع وينتر هذه الخطبة، شبه معتذر، لضيفه، وكان أمير ويلز. ورد الأمير بإنجليزيته الحلقية إلى حد ما:

«أنت محق تمامًا. إذا كان هناك فحم تحت قصر ساندرينجهام، لفتحت منجمًا على المروج، واعتقدت أنه بستنة لمشهد طبيعي من الطراز الأول. أوه، أريد تمامًا أن أستبدل عمال المناجم بالأيائل[1]، بأي سعر. وأسمع أن رجالك رجال طيبون أيضًا».

لكن ربما بالغ الأمير، حينها، في فكرة جمال المال، وبركات التصنيع.

ومع ذلك، صار الأمير ملكًا، ومات الملك، والآن هناك ملك آخر، بدا أن وظيفته الأساسية فتح مطاعم للفقراء.

---

(١) الأيل، أو اليحمور الأوروبي: حيوان أوروبي وأسيوي، من فصيلة الأيليات.

وكان العمال الطيبون يطوقون شيبلي بشكل ما. تزدحم قرى جديدة للتعدين في المنتزه، ويشعر القاضي بشكل ما أن السكان غرباء. واعتاد أن يشعر، بطريقة لطيفة لكنها سامية تمامًا، أنه سيد مقاطعته وسيد عمال مناجمه أيضًا. والآن، بالتغلل الخفي للروح الجديدة، أزيح بشكل ما. يشعر بأنه لم يعد منتميًا للمكان. كان ذلك واضحًا. للمناجم والصناعة إرادتها الخاصة، وهذه الإرادة ضد المالك الجنتلمان. لكل عمال المناجم نصيب في الإرادة ومن الصعب مقاومتها. ستدفعك خارج المكان، أو خارج الحياة تمامًا.

وكان القاضي وينتر، الجندي، يلاحظ ذلك. لكنه لم يعد يهتم بالسير في المنتزه بعد العشاء. كان يختفي غالبًا في الداخل. ذات مرة مشي، مكشوف الرأس، وهو ينتعل حذاءه الجلدي اللامع وجوربًا حريريًا أرجوانيًا، مع كوني إلى البوابة، متحدثًا معها بطريقته المهذبة مع القهقهة إلى حد ما. لكن وهو يمر بمجموعات صغيرة من عمال المناجم الذين يقفون ويحدقون بدون تحية أو غيرها، تشعر كوني بالطريقة التي جفل بها العجوز المهذب، جفل كما يجفل ظبي أنيق في قفص من تحديقة سوقية. لم يكن عمال المناجم عدائيين بشكل شخصي: لم يكونوا عدوانيين إطلاقًا. لكن روحهم باردة، وكانت تدفعه للخارج. وفي العمق ضغينة عميقة. كانوا «يعملون من أجله». وفي بشاعتهم استاءوا من وجوده الأنيق المهندم المهذب. «من هو!» كانوا يستاءون من **الاختلاف**.

وفي موضع ما في قلبه الإنجليزي الكتوم، الجندي إلى حد كبير، يؤمن بأنهم محقون في الاستياء من الاختلاف. يشعر بأنه مخطئ بعض

الشيء، لأنه يتمتع بكل المزايا. وهو، رغم ذلك، يمثل نظامًا، ولن يُدفَع خارجه إلا بالموت. وقد أتاه بعد دعوة كوني بقليل، فجأة. وتذكَّر كلفورد ببراعة في وصيته.

أمر الورثة على الفور بهدم شيبلي. يحتاج الحفاظ عليه الكثير جدًّا. لن يعيش أحد فيه. وبالتالي هُدِم. قُطِع طريق الطقسوس. جُرِّد المنتزه من أشجاره، وقُسِّم إلى حصص. كان قريبًا جدًّا من أوثويت. في الصحراء الجرداء الغريبة لهذه الأرض التي لم تنتقل ملكيتها لأحد، شقت شوارع جديدة صغيرة شبه منفصلة، جذابة جدًّا! عزبة شيبلي هول.

حدث هذا في خلال سنة من الدعوة الأخيرة لكوني. كانت عزبة شيبلي هول تقف هناك، مجموعة من «الفيلات» شبه المنفصلة من القرميد الأحمر في شوارع جديدة. ولم يكن لأحد أن يتخيل أن القاعة الجصية كانت تقف هناك قبل اثني عشر شهرًا.

لكنها المرحلة الأخيرة من بستنة المشهد الطبيعي للملك إدوارد، بستنة فيها منجم الفحم يزخرف المرج.

إنجلترا تمحو إنجلترا أخرى. انتهت إنجلترا قاعات القاضي وينتر وراجبي، ماتت. فقط لم يكتمل المحو بعد.

ماذا يأتي بعد ذلك؟ لا يمكن لكوني أن تتخيل. يمكن فقط أن ترى شوارع جديدة من القرميد تنتشر في الحقول، بنايات جديدة ترتفع في مناجم الفحم، فتيات جديدات بجواربهن الحريرية، وعمال المناجم الجدد يتسكعون في بالي أو ويلفير. لا يعي الجيل الأصغر تمامًا إنجلترا

القديمة. في استمرارية الوعي، الأمريكي تقريبًا، فجوة: لكنها صناعية حقًّا. ماذا بعد؟

تشعر كوني دائمًا بأنه ليس هناك بَعْدُ. تريد أن تدفنِ رأسها في الرمال: أو على الأقل في حضن رجل حي.

العالم بالغ التعقيد والغرابة والشناعة! العامة كثر جدًّا، ومفزعون جدًّا في الواقع. هذا ما تفكر فيه وهي عائدة إلى البيت، وهي ترى عمال المناجم يتتابعون من المنجم، كالحين ومشوهين، وكتف أعلى من الآخر، يجرون أحذيتهم الثقيلة بنعالها الحديد. وجوه رمادية تحت الأرض، وبياض العيون يتدحرج، والأعناق تنحني من سقف الحفرة، والأكتاف هزيلة. رجال! رجال! واحسرتاه، بطرق ما صبورون وطيبون. وبطرق أخرى، بلا وجود. شيء ما ينبغي أن يكتسبه الرجال بالطبيعة لم يعد له وجود. لكنهم رجال. أنجبوا أطفالًا. يمكن أن تحمل المرأة طفلًا منهم. فكرة رهيبة، رهيبة! طيبون وكرماء. لكنهم نصف فقط، النصف الرمادي فقط لكائن بشري. حتى الآن، «طيبون». لكنها طيبة النصف. بافتراض أن الميت فيهم نهض! لكن لا، التفكير في هذا رهيب جدًّا. تفزع كوني تمامًا من الجماهير الصناعية. يبدون لها غرباء جدًّا. حياة ليس فيها أي جمال، لا حدس، «في المنجم» دائمًا.

أطفال من مثل هؤلاء الرجال! يا إلهي، يا إلهي!

لكن ملورز جاء من أب بهذا الشكل. ليس تمامًا. أربعون عامًا تصنع الفرق، فرقًا مرعبًا في الرجولة. ينهش الحديد والفحم عميقًا في أجساد الرجال وأرواحهم.

القبح مجسد، وحي! ماذا يصبحون جميعًا؟ ربما مع انتهاء الفحم يختفون مرة أخرى، من على وجه الأرض. ظهروا من حيث لا أحد يعلم بالآلاف، حين دعاهم الفحم. ربما لم يكونوا إلا حيوانات غريبة من طبقات الفحم. كائنات من واقع آخر، ينتمون للعناصر، يخدمون عناصر الفحم، مثلما كان عمال المعادن ينتمون للعناصر، يخدمون عنصر الحديد. رجال ليسوا رجالًا، بل حيوانات الفحم والحديد والطين. حيوانات العناصر، الكربون والحديد والسيليكون: ينتمون للعناصر. ربما يتمتعون بالجمال الغريب اللاإنساني للمعادن، بريق الفحم، ثقل الحديد وزرقته ومقاومته، شفافية الزجاج. مخلوقات تنتمي للعناصر، غريبة ومشوهة، مخلوقات العالم المعدني! ينتمون للفحم والحديد والطين، كما تنتمي الأسماك للبحر والديدان للخشب الميت. أنيما[١] التفسخ المعدني!

تسعد كوني بالعودة للبيت لتدفن رأسها في الرمل. تسعد حتى بالثرثرة مع كلفورد. لأن الخوف من ميدلندز التعدين والحديد أثر عليها بمشاعر غريبة تجتاحها، كالإنفلونزا.

تقول: «بالطبع كان عليَّ أن أتناول الشاي في محل مس بينتلي».

«حقًّا! كان وينتر سيقدم لك الشاي».

«أوه أجل، لكنني لم أجرؤ على إحباط مس بينتلي».

(١) مصطلح من مصطلحات يونج يشير للجزء الأنثوي في شخصية الرجل.

مس بينتلي آنسة عجوز سطحية بأنف كبير إلى حد ما ونزعة رومانسية تقدم الشاي بحرص شديد جدير بسر من الأسرار المقدسة.

يقول كلفورد: «هل سألت عني؟».

«بالطبع! **هل لي** أن أسأل سموك عن حال السير كلفورد!- أعتقد أنها تضعك في مرتبة أعلى حتى من الممرضة كافل!»[1]

«وأفترض أنك قلت إنني متألق».

«أجل! وبدت منتشية كأنني قلت إن السماء فتحت لك. عرضت عليها أن تأتي لتراك إن أتت في أي وقت إلى تفرشال».

«أنا! لأي شيء! تراني!».

«لماذا، أجل يا كلفورد. لا يمكن أن تكون معشوقًا بدون أن تقدم مقابلًا بسيطًا. لم يكن القديس جورج من كابوديكا[2]، في عينيها، شيئًا بالنسبة لك».

«وتعتقدين أنها سوف تأتي؟».

«أوه، توردت! وبدت جميلة تمامًا للحظة، مسكينة! لماذا لا يتزوج الرجال من النساء اللائي يهمن بهم حقًّا؟».

«تبدأ النساء الهيام بعد فوات الأوان. لكن هل قالت إنها ستأتي؟».

---

(١) إديث لويزا كافيل (١٨٦٥ ١٩١٥) ممرضة بريطانية. اشتهرت بإنقاذ حياة الجنود من كلا الجانبين دون تمييز خلال الحرب العالمية الأولى. واتهمت بالخيانة، وحكم عليه بالإعدام.

(٢) مطران، ولد في فلسطين ومات مقتولًا في الأسكندرية في عام ٣٦١.

تقول كوني مقلدة لهات مس بينتلي: «أوه! سموكِ، إن كان لي أن أتجرأ على أن أعتقد ذلك!».

«تتجرأ على أن تعتقد! يا له من أمر عبثي! لكن أتمنى من الرب ألا تحضر. وكيف كان شايها؟».

«أوه، ليبتون، وثقيل جدًّا. لكن يا كلفورد، هل تدرك أنك **حكاية الوردة**[1] لمس بينتلي والكثيرات من أمثالها؟».

«لا أُتملَّق حتى بذلك».

«إنهن يكنزن كل صورة من صورك في الصحف المصورة، وربما يصلين من أجلك كل ليلة. إنه لأمر مدهش».

تصعد لتغير ملابسها.

في ذلك المساء يقول لها:

«تعتقدين، أليس كذلك، أن في الزواج شيئًا أبديًّا؟».

تنظر إليه.

«لكنك يا كلفورد تجعل الأبدية تبدو مثل غطاء أو سلسلة طويلة، طويلة تتبع المرء أينما ذهب».

ينظر إليها منزعجًا.

يقول: «أقصده أنك إذا ذهبْتِ إلى فينسيا، لن تنخرطي في آمال علاقة غرامية يمكن أن تأخذيها على **محمل الجد**[2]، هل ستفعلين ذلك؟».

---

(١) قصيدة فرنسية من القرون الوسطى في صورة حلم مجازي.

(٢) على محمل الجد، بالفرنسية في الأصل.

«علاقة غرامية في فينسيا على **محمل الجد**؟ لا. أؤكد لك، لن آخذ علاقة غرامية في فينسيا إلا **بقدر ضئيل من الجدية**».[1]

تتحدث بازدراء غريب. يقطب حاجبيه ناظرًا إليها.

تهبط إلى الطابق الأرضي في الصباح لتجد فلوسي، كلبة الحارس، قابعة في الرواق خارج غرفة، تنشج بشكل ضعيف جدًّا.

تقول برقة: «لماذا، فلوسي! ماذا تفعلين هنا؟».

وتفتح غرفة كلفورد بهدوء. كان يجلس في السرير، وقد أزيحت طاولة السرير والآلة الكاتبة جانبًا، والحارس يقف منتبهًا عند طرف السرير. تندفع فلوسي إلى الغرفة. بإيماءة ضعيفة من الرأس والعينين، يأمرها ملورز بالرجوع إلى الباب من جديد، فتنسل خارجة.

تقول كوني: «أوه، صباح الخير يا كلفورد! لم أكن أعرف أنك مشغول». ثم تنظر إلى الحارس وتقول له صباح الخير. يهمهم بالرد، وهو ينظر، بشكل غامض. لكنها تشعر بنفحة من العاطفة تلامسها، من مجرد وجوده.

«هل قاطعْتُك يا كلفورد؟ آسفة».

«لا، لا شيء مهم».

تنسحب من الغرفة مرة أخرى، وتصعد إلى مخدعها الأزرق في الدور الأول. تجلس عند النافذة وتراه يمضي في الدرب، بحركته الغريبة الصامتة، ويتلاشى. يتمتع بنوع طبيعي من التميز التام، زهو متحفظ،

(١) بقدر ضئيل من الجدية، بالفرنسية في الأصل.

ومظهر هش أيضًا. أجير. أحد أُجَراء كلفورد! «الخطأ يا عزيزي بروتس، ليس في نجومنا، بل في أنفسنا، في أتباعنا». [1]

هل كان تابعًا؟ هل كان؟ ماذا يظن بها؟

كان يومًا مشمسًا، وكوني تعمل في الحديقة، ومسز بولتون تساعدها. لسبب ما، تنجرف المرأتان معًا، في نوبة من تدفق التعاطف، بين الناس، وانحساراته، غير القابلة للتفسير. كانتا تثبتان القرنفل، وتغرسان نباتات صغيرة للصيف. كان عملًا تحبه الاثنتان. تشعر كوني ببهجة خاصة في وضع الجذور الرقيقة للنباتات الصغيرة في طمي أسود طري، وغرسها. في هذا الصباح الربيعي تشعر برجفة في رحمها أيضًا، وكأن أشعة الشمس تلمسه وتسعده.

تقول لمسز بولتون وهي تأخذ نبتة أخرى صغيرة وتضعها في حفرتها: «فقدت زوجك منذ سنوات طويلة؟».

تقول مسز بولتون، وهي تفصل بعناية الكولومبين[2] الصغير إلى نباتات مفردة: «ثلاث وعشرون! اثنتان وعشرون سنة منذ أحضروه إلى البيت».

يترنح قلب كوني بشكل رهيب. «أحضروه إلى البيت!».

تسأل: «لماذا، هل تعتقدين أنه قتل؟ هل كان سعيدًا معك؟».

كان سؤال امرأة لامرأة. تبعد مسز بولتون خصلة من الشعر عن وجهها، بظهر يدها.

---

(١) الاقتباس عن شكسبير من مسرحية «يوليوس قيصر».

(٢) نبات يحتوي على زهور ملونة زاهية بخمس بتلات مدببة.

«لا أعرف، سيدتي! كان من نوع لا يستسلم للأمور: لم يكن يذهب حقًّا مع البقية. وكان يكره أن يدس رأسه في الأرض لأي سبب. نوع من العناد، يجعله يقتل. تعرفين، لم يكن يهتم حقًّا. وضعته في المنجم. ما كان ينبغي أن يوضع في المنجم قط. لكن والده جعله ينزل، وهو فتى؛ ثم وهو فوق العشرين، لم يكن من السهل أن يخرج».

«هل قال إنه يكرهه؟».

«أوه، لا! قط! لم يقل قط إنه يكره أي شيء. كان مجرد ساخر. كان واحدًا ممن لا يبالون: مثل بعض الفتية الأوائل ينطلقون مرحين إلى الحرب ويقتلون على الفور. لم يكن أحمق حقًّا. لكنه لم يكن يبالي. اعتدْتُ أن أقول له: 'أنت لا تهتم بشيء أو بأحد!' لكنه كان يهتم! الطريقة التي جلس بها حين ولدت الطفلة الأولى، بلا حراك، وهو ينظر إليَّ بعينين قاتلتين، حين انتهى الأمر! قضيْتُ وقتًا سيئًا، لكن كان عليَّ أن أريحه. قلت له: 'كل شيء على ما يرام، يا رجل، كل شيء على ما يرام!' فنظر إليَّ بابتسامة بهجة. لم يقل شيئًا قط. لكن لا أعتقد أنه استمتع معي متعة حقيقية في الليالي التي تلت ذلك؛ لم يفصح عن نفسه قط. واعتدت أن أقول له: أوه، فضفض يا راجل! كنت أتكلم معه بالعامية أحيانًا. ولم يقل شيئًا. لكنه لم يفصح عن نفسه، أو لم يستطع. لم يكن يريد أن أنجب أي أطفال آخرين. كنت ألوم أمه دائمًا. لأنها تتركه في الغرفة. لا يصح أن يكون هناك، يصنع الرجال أشياء أكثر أهمية بكثير، بمجرد أن يبدأوا التفكير».

تقول كوني باستغراب: «هل كان يمانع كثيرًا؟».

بأن عليه أن يعود ويتمدد بجانبي، لأشعر به معي. كان هذا كل ما أريده، الدفء. وصدمت ألف مرة قبل أن أعرف أنه لن يعود: استغرق الأمر سنوات».

تقول كوني: «لمْسته».

«صحيح سيدتي، لمْسته! لم أحصل عليها قط حتى اليوم، ولن أحصل عليها. وإذا كانت هناك سماء في الأعالي، سيكون هناك، وسوف يتمدد بجانبي لأنام».

تنظر كوني بخوف إلى الوجه الوسيم الحزين. عاطفية أخرى من تفرشال! لمسته! لأن من السيئ أن تنحل روابط الحب.

تقول: «إنه أمر رهيب، بمجرد أن يكون في دمك رجل. أوه، سيدتي! وهذا ما يجعلك تشعرين بالمرارة. تشعرين بأن الناس أرادوا قتله. تشعرين أن المنجم أراد قتله. أوه، شعرْتُ، لو لم يكن المنجم، ومن يديرون المنجم، ما كان ليتركني. لكنهم جميعًا يريدون فصل المرأة والرجل، إن كانا معًا».

تقول كوني: «إذا كانا معًا جسديًّا».

«صحيح، سيدتي! هناك الكثير من قساة القلوب في العالم. وكل صباح حين يستيقظ ويذهب إلى المنجم، كنت أشعر بأنه خطأ، خطأ. لكن ماذا كان يمكن أن يفعل غير ذلك؟ ماذا يمكن لرجل أن يفعل؟».

تتأجج فيها كراهية غريبة.

تسأل كوني فجأة: «لكن هل يمكن للمسة أن تستمر طول هذه المدة.

أن تشعري به طول هذه المدة؟».

«أوه سيدتي، ماذا غير ذلك يمكن أن يستمر؟ يكبر الأبناء ويبتعدون عنك. لكن الرجل، حسنًا! حتى إذا أرادوا قتل فكرة لمسته بداخلك. حتى أبناؤك! آه حسنًا! ربما انجرفنا بعيدًا، من يعرف. لكن المشاعر شيء مختلف. من الأفضل ألا نبالي قط. لكن هناك، حين أنظر إلى نساء لم يعرفن قط دفء الرجل، حسنًا، يبدين مكتئبات مسكينات رغم ذلك، مهما لبسن وسعين للمتعة. لا، سأبقى مع نفسي. لا أحترم الناس كثيرًا».



الفصل الثاني عشر

تذهب كوني إلى الخميلة بعد الغداء مباشرة. كان يومًا جميلًا حقًّا، بشائر الهندباء تصنع شموسًا، وبشائر الأقحوان بيضاء جدًّا. أجمة البندق تشبه أشغال الدانتيلا من أوراق نصف متفتحة، وآخر عسيل الصفصاف العمودي المغبر. وبقلة الخطاطيف في مجموعات، متفتحة تمامًا، مضغوطة للخلف مرغمة، ببريقها الأصفر. الأصفر، الأصفر القوي لبداية الصيف. وبخور مريم عريضة، ولم تعد بخور مريم، المليئة بالعناقيد الشاحبة المهجورة السميكة، خجولة. والأخضر الداكن الشهواني للياقوتيات بحر، ببراعم ترتفع مثل الذرة الباهتة، بينما تنتفخ في الدرب زهور لا تنسني، وتفتح زهور الحماميات كشكشتها الأرجوانية مثل الحبر، وتحت شجيرة فتات من قشر بيض طائر أزرق. تَبرعُم العُقَدِ وقفزة الحياة في كل مكان!

لم يكن الحارس في الكوخ. كل شيء هادئ، والدراريج البنية تجري بحيوية. تمشي كوني باتجاه داره، تريد العثور عليه.

الدار في الشمس، قبالة حافة الخميلة. وترتفع في الحديقة الصغيرة زهور النرجس المزدوجة في باقات، قرب الباب المفتوح على مصراعيه، ويصنع الأقحوان المزدوج الأحمر حدودًا للممر. تسمع نباح كلبة، تأتي فلوسي راكضة.

الباب مفتوح! إنه في الدار إذًا. وأشعة الشمس تسقط على أرضية من القرميد الأحمر! وهي تمضي في الممر، تراه من خلال النافذة، يجلس إلى الطاولة بقميصه، يأكل. تنبح الكلبة بلطف، وتهز ذيلها ببطء.

ينهض ويأتي إلى الباب، وهو يمسح فمه بمنديل أحمر ومازال يمضغ.

تقول: «أدخل؟».

«ادخلي!».

كانت الشمس تسطع في الغرفة العارية، ورائحة شريحة الضأن مازالت تفوح فيها، مطبوخة في فرن هولندي أمام المدفأة، لأن الفرن الهولندي مازال على الحاجز، وطاسة سوداء من البطاطس على قطعة من الورق، بجانبه على الموقد الأبيض. النار حمراء، منخفضة، وقد سقط القضيب، والبراد يغني.

طبقه على الطاولة، مع البطاطس وبقايا شريحة اللحم؛ وخبز أيضًا في سلة، وملح، وكأس زرقاء بها بيرة. ومفرش الطاولة مشمع أبيض، والحارس يقف في الظل.

تقول: «تأخرتَ جدًّا. استمر في الأكل!».

تجلس على مقعد خشبي، في أشعة الشمس بجوار الباب.

يقول، وهو يجلس إلى الطاولة ولا يأكل: «كان عليَّ أن أذهب إلى أوثويت».

تقول: «كُلْ». لكنه لا يلمس الطعام.

يسألها: «تخدي حاجة؟ تخدي كوباية شاي؟ البراد بيغلي»- ينهض مرة أخرى نصف نهوض من على مقعده.

تقول وهي تنهض: «إذا جعلتني أعمله بنفسي». يبدو حزينًا، وتشعر بأنها تزعجه.

«حسنًا، براد الشاي هناك»- ويشير إلى صوان صغير باهت في الركن؛ «والكوبيات. والشاي على المستوقد فوق راسك».

تأخذ براد الشاي الأسود، وعلبة الشاي من رف المستوقد. وتشطف براد الشاي بالماء الساخن، وتقف لحظة متسائلة أين تدلقه.

يقول، مدركًا ما تريد: «ادلقيه في الخارج. إنه نظيف».

تمضي إلى الباب وتدلق نقطة الماء في الممر. كم كان المكان جميلًا هنا، ساكنًا جدًّا، خميلة حقيقية. تنتشر على أشجار البلوط أوراق صفراء فاتحة: الأقحوانات الحمراء في الحديقة مثل أزرار من القطيفة الحمراء. تلقي نظرة على اللوح الحجري للعتبة، بعد أن تعبرها بخطوات.

تقول: «المكان جميل هنا. سكون جميل، كل شيء حي وساكن».

يعود إلى الأكل من جديد، ببطء وبلا رغبة، وتشعر بأنه أحبط. تصنع الشاي في صمت، وتضع براد الشاي على رف المدفأة، وكانت تعرف أن

الناس يفعلون ذلك. يزيح طبقه جانبًا ويمضي إلى الخلف؛ تسمع مزلاجًا يطقطق، ثم يعود بجبن في طبق، وزبدة.

تضع الكوبين على الطاولة؛ هناك اثنان فقط. تقول: «هل تأخذ كوب الشاي؟».

«لو أحببْتِ. السكر في الصوان، وهناك إبريق صغير به كريمة. اللبن في إبريق في المخزن».

تسأله: «هل أبعد طبقك؟» فينظر إليها بابتسامة شاحبة ساخرة.

يقول ببطء وهو يأكل الخبز والجبن: «لماذا... لو أحببْتِ». تذهب إلى الخلف، إلى المطبخ، حيث المضخة. على اليسار باب، لا شك أنه باب المخزن. تفتحه، وتسخر تقريبًا مما يسميه مخزنًا؛ مساحة طويلة ضيقة مكلسة بها صوان. لكنه يحتوي على برميل صغير من البيرة، كما يحتوي على بضعة أطباق وقليل من الطعام. تأخذ كمية صغيرة من اللبن من الإبريق الأصفر.

تسأله حين تعود إلى الطاولة: «كيف تحصل على اللبن؟».

«آل فلينت! يتركون لي زجاجة عند طرف المأربة. تعرفين، حيث قابلْتُكِ!».

لكنه محبط. تصب الشاي، وتضع إبريق الكريمة.

يقول: «لا تضعي لي لبنًا»؛ ثم يبدو أنه يسمع صخبًا، فينظر بدقة من المدخل.

يقول: «نقفل أحسن».

ترد: «يبدو أمرًا مؤسفًا. لن يأتي أحد، أليس كذلك؟».

«لا إن لم يكن واحدًا في الألف، لكنك لا تعرفين أبدًا».

تقول: «حتى لو جاء أحد، لا يهم. إنه مجرد كوب من الشاي. أين الملاعق؟».

يمد يده، ويفتح درج الطاولة. وكوني تجلس إلى المائدة في أشعة الشمس عند المدخل.

يقول للكلبة، وكانت تقبع على حصيرة صغيرة أسفل السلم: «فلوسي! روحي وأنصتي، أنصتي!».

يرفع إصبعه، وتأتي «أنصتي» التي نطق بها واضحة جدًّا. تهرع الكلبة لتستطلع الأمر.

تسأله: «هل أنت حزين اليوم؟».

يدير عينيه الزرقاوين بسرعة، ويحدق فيها مباشرة.

«حزين! لا، ضجر! كان عليَّ أن أذهب للمثول أمام القضاء من أجل صيادَيْن أمسكْتُ بهما، وأنا، أوه حسنًا، لا أحب الناس».

تحدث ببرود بإنجليزية جيدة، وكان في صوته غضب.

تسأل: «هل تكره أن تكون حارس طرائد؟».

«أن أكون حارس طرائد، لا! طالما تُرِكْتُ وحيدًا. لكن حين اضطر للذهاب إلى نقطة البوليس، وأماكن أخرى متنوعة، وأنتظر كثيرًا من الحمقى للتعامل معي... أوه حسنًا، أُجنُّ..». ويبتسم بدعابة شاحبة.

تسأل: «ألا تستطيع أن تكون مستقلا حقًّا؟».

«أنا؟ أعتقد أنني أستطيع، إذا كنت تقصدين أن أعيش على معاشي. أستطيع! لكن ينبغي أن أعمل، أو أموت. هذا كل ما في الأمر، يجب أن يكون لدي ما يشغلني باستمرار. ولست في حالة مزاجية جيدة تسمح لي بأن أعمل لحسابي. ينبغي أن تكون وظيفة عند شخص آخر، وإلا تخليت عنها في شهر، نتيجة المزاج السيئ. ومن ثم فأنا في حالة جيدة هنا تمامًا، وخاصة مؤخرًا..».

يضحك مرة أخرى، في دعابة ساخرة.

تسأل: «لكن لماذا مزاجك سيئ؟ هل تعني أن مزاجك سيئ دائمًا؟».

يقول وهو يضحك: «غالبًا. لا أهضم مرارتي تمامًا».

تقول: «أية مرارة؟»

يقول: «المرارة! ألا تعرفينها؟» تصمت محبطة. لا يلتفت إليها.

تقول: «سأبتعد لبعض الوقت في الشهر القادم».

«ستبتعدين! إلى أين؟».

«فينسيا».

«فينسيا! مع السير كلفورد؟ إلى متى؟».

ترد: «لشهر تقريبًا. كلفورد لن يذهب».

يسأل: «سيبقى هنا؟».

«أجل! يكره السفر بوضعه الحالي».

يقول بتعاطف: «آه، الشيطان المسكين!».

وقفة.

تسأله: «لن تنساني وأنا مسافرة، أليس كذلك؟» يرفع عينيه مرة أخرى ويحدق فيها.

يقول: «أنسى؟ تعرفين، لا أحد ينسى. ليست مسألة الذاكرة».

كانت تريد أن تقول: «متى إذًا؟» لكنها لا تقول. وبدلًا من ذلك، تقول بصوت خافت: «أخبرت كلفورد بأنني قد يكون عندي طفل».

الآن يحدق فيها حقًّا، متفحصًا بقوة.

ويقول في النهاية: «أخبرْتِه؟ وماذا قال؟».

«أوه، لم يمانع. كان سعيدًا، حقًّا، طالما بدا أنه طفله». ولا تجرؤ أن تنظر إليه.

يصمت وقتًا طويلًا، ثم يحدق في وجهها مرة أخرى.

يقول: «لم يكن هناك ذكر لي بالطبع؟».

تقول: «لا. لا ذكر لك».

«لا، من الصعب أن يبلعني مربِّيًا بديلًا. ثم من أين يفترض أن تحصلي على طفل؟»

تقول: «قد تكون لي علاقة غرامية في فينسيا».

يرد ببطء: «قد يكون لك. لذا تذهبين؟».

تقول وهي تنظر له مدافعة: «ليس ليكون لي علاقة غرامية».

يقول: «مجرد ظهور أحد».

يخيم الصمت. يجلس محدقًا من النافذة، وعلى وجهه ابتسامة شاحبة، نصف ساخرة، نصف مرة. تكره ابتسامته.

يسألها فجأة: «لم تأخذي إذًا أي احتياط حتى لا يكون لك طفل؟ لأنني لم آخذ».

تقول بشكل خافت: «لا. أكره ذلك».

ينظر إليها، ثم مرة أخرى بالابتسامة الغريبة من النافذة. يخيم صمت متوتر.

وفي النهاية يلتفت برأسه ويقول ساخرًا:

«لهذا تريدينني إذًا، لتحصلي على طفل؟».

ترتبك.

تقول: «لا. لا حقًّا؟».

يسأل بغضب إلى حد ما: «ماذا إذًا، **حقًّا**؟».

تنظر إليه موبخة وهي تقول: «لا أعرف».

ينفجر ضاحكًا.

يقول: «ملعون أنا إن فعلْتُ».

وقفة طويلة من الصمت، الصمت البارد.

يقول في النهاية: «حسنًا. كما تحبين سموك. إذا حصلت على طفل فسوف يرحب به السير كلفورد. لن أخسر شيئًا. على العكس، حصلت

على خبرة رائعة جدًّا، رائعة جدًّا في الحقيقة!» يتمطع في تثاؤب شبه مقموع. ويقول: إن كنت قد استخدمْتِني، فهي ليست المرة الأولى التي أستخدم فيها؛ ولا أعتقد أنه كان ممتعًا بقدر ما كان في هذه المرة؛ رغم أن المرء لا يستطيع بالطبع أن يشعر بأنه يبجل الأمر كثيرًا».- يتمطع مرة أخرى، بشكل غريب، وعضلاته ترتجف، وفكه في وضع غريب.

تقول مدافعة: «لكنني لم أستخدمك».

يرد: «في خدمة سموك».

تقول: «لا. أعجبت بجسمك».

يرد، ويضحك: «هل أعجبت به؟ حسنًا، إذًا، براءة، لأنني أعجبت بجسمك».

يحدق فيها بعينين غريبتين حزينتين.

يسألها بصوت مختنق: «هل تريدين أن تصعدي إلى الدور العلوي الآن؟».

تقول بتثاقل: «لا، ليس هنا. ليس الآن!» وكأنه استخدم سلطة عليها، وكان عليها أن تنصرف، لأنها لا تملك أية قوة على مواجهته.

يشيح بوجهه مرة أخرى، ويبدو وكأنه نسيها.

تقول: «أود أن ألمسك كما تود أن تلمسني. لم ألمس جسدك قط في الحقيقة».

ينظر إليها ويبتسم مرة أخرى. ويقول: «الآن؟».

تقول: «لا! لا! ليس هنا! في الكوخ. هل تمانع؟».

يسأل: «كيف ألمسك؟».

«حين تشعر بي».

ينظر إليها، وتلتقي عيناه بعينيها الثقيلتين القلقتين.

يسأل، ساخرًا من سكونها: «وهل تحبين أن أشعر بك؟».

تقول: «أجل، هل تحب ذلك؟».

«أوه، أنا!» ويغير نبرته. ويقول: «أجل. تعرفين بدون أن تسألي». وكان ذلك صحيحًا.

تنهض وتتناول قبعتها. وتقول: «لابد أن أنصرف».

يرد بأدب: «هل تنصرفين؟».

تريد أن يلمسها، أن يقول لها شيئًا، لكنه لا يقول شيئًا، ينتظر فقط بأدب.

تقول: «شكرًا على الشاي».

يقول: «لم أشكر سموك على تشريفك لي بإعداد براد الشاي».

تمضي إلى الطريق، ويقف في المدخل، وهو يبتسم ابتسامة شاحبة. تأتي فلوسي راكضة وذيلها مرفوع. وكان على كوني أن تتهادى صامتة إلى الخميلة، وهي تعرف أنه يقف هناك ويراقبها، بتلك الابتسامة الغامضة على وجهه.

تسير إلى البيت مكتئبة ومنزعجة جدًا. لم تحب إطلاقًا قوله إنه

يستخدم لأنه، بمعنى ما، صحيح. لكن ما كان ينبغي أن يقول ذلك. لذلك كانت مقسمة، مرة أخرى، بين شعورين: الاستياء منه، والرغبة في تسوية الأمر معه.

تقضي وقت الشاي قلقة ومتوترة جدًّا، وتصعد إلى غرفتها فورًا. لكن وهي هناك لا تكون على ما يرام. لا تستطيع الجلوس أو الوقوف. عليها أن تفعل شيئًا. عليها أن تعود إلى الكوخ؛ وإن لم يكن هناك، فلا بأس.

تتسلل من الباب الجانبي، وتشق طريقها مباشرة بتجهم. وحين تصل إلى البقعة منزوعة الأشجار تشعر بقلق رهيب. لكنه هناك مرة أخرى، بقميصه، منحنيًا، يخرج الدراريج من الأقفاص، بين الكتاكيت وقد صارت الآن خرقاء بعض الشيء، لكنها مزخرفة أكثر بكثير من الدراريج الأمهات.

تمضي إليه مباشرة. وتقول: «ترى أنني أتيْتُ!».

يقول وقد استقام ظهره، وهو ينظر إليها ببعض الاستمتاع: «آي، أرى ذلك!».

تسأل: «هل تخرج الدراريج الآن؟».

يقول: «جلست حتى صارت جلدًا على عظم. والآن لم تعد متلهفة على الخروج والأكل. لا روح في دراجة راقدة؛ كلها في البيض والكتاكيت».

الدراريج الأمهات المسكينات؛ إخلاص أعمى! حتى البيض ليس

لها! تنظر كوني إليها بشفقة. يخيم صمت يائس بين الرجل والمرأة.

يسأل: «نخش جوه في الكوخ؟».

تسأل بنوع من الريبة: «هل تريدني؟».

«آي، لو أحببْتِ».

تصمت.

يقول: «هيا إذًا!».

تدخل معه إلى الكوخ. كانت الظلمة تامة حين أغلق الباب، يشعل نورًا خافتًا في اللمبة، كما فعل من قبل.

يسألها: «هل خلعت ملابسك الداخلية؟».

«أجل!».

«آي، حسنًا، سأخلع أشيائي أيضًا».

يفرش البطانيات ويضع واحدة جانبًا للغطاء. تخلع قبعتها وتهز شعرها. يجلس ويخلع حذاءه وجرموقه، ويفك رباط بنطلونه القصير.

يقول، وهو يقف بقميصه: «استلقي!» تطيع في صمت، يتمدد بجوارها، ويشد البطانية عليهما.

يقول: «ها!».

ويرفع ثوبها إلى الخلف، حتى يصل إلى ثدييها. يقبّلهما برقة، ويأخذ الحلمتين في شفتيه ويداعبهما قليلًا.

يقول فجأة: «إيه، لكن كده كويس، كده كويس!» وهو يحك وجهه

مقتربًا أكثر من بطنها الدافئ.

تضع ذراعيها حوله تحت قميصه، لكنها خائفة، خائفة من جسده النحيل الناعم العاري، وقد بدا قويًّا جدًّا، خائفة من العضلات العنيفة. تنقبض، خائفة.

وحين يقول بتنهيدة خافتة: «إيه، كده كويس!» يرتجف فيها شيء، يتصلب في روحها شيء ما مقاومًا: يتصلب من الحميمية الجسدية الرهيبة، ومن السرعة الغريبة لسيطرته. وهذه المرة لا تتغلب عليها حدة نشوة شغفها؛ تستلقي ويداها خاملتان على جسده النشط، تفعل ما تستطيع، وبدا أن روحها تطل من قمة رأسها، وبدت لها حركة وركية مضحكة، وبدا توتر قضيبه وهو يصل ذروة التفريغ الضئيلة هزليًّا. نعم، إنه حب، هذا التذبذب المضحك للردفين، وذبول القضيب المسكين التافه المبلل بعض الشيء. هذا هو الحب الإلهي! رغم ذلك، كان المحدثون محقين حين شعروا بازدراء الأداء؛ لأنه أداء. صحيح تمامًا، كما قال بعض الشعراء، أن الرب الذي خلق الإنسان لابد أنه كان يتمتع بحس شرير للدعابة، يخلقه كائنًا عقلانيًّا، ويرغمه على أن يتخذ هذا الوضع المضحك، ويدفعه برغبة عمياء إلى هذا الأداء المضحك. حتى موباسان وجده إحباطًا مخزيًا. احتقر الرجال الجماع ومارسوه.

يبتعد عقلها الأنثوي الغريب باردًا وساخرًا، رغم أنها تستلقي ساكنة تمامًا، ورغبتها تدفع خاصرتيها، وتلقي بالرجل بعيدًا، متخلصة من قبضته البشعة، والهيمنة القوية لوركيه الغريبين. كان جسده أحمق، وقحًا، معيبًا، مثيرًا للاشمئزاز بفظاظته التي لا تنتهي. ومن المؤكد أن

تطورًا تامًّا سوف يستبعد هذا الأداء، هذه «الوظيفة».

لكنه حين ينتهي، ينتهي بسرعة، ويستلقي ساكنًا جدًّا جدًّا، متراجعًا إلى الصمت، ومبتعدًا وساكنًا بشكل غريب، بعيدًا، أبعد من أفق وعيها، يبدأ قلبها البكاء. تشعر به ينحسر بعيدًا، ينحسر بعيدًا، ويتركها مثل حجر على شاطئ. ينسحب، تغادرها روحه. وكان يعرف.

وفي أسى حقيقي، معذَّبةً بوعيها المزدوج ورد فعلها، تبدأ البكاء. لا يلتفت، أو لا يعرف حتى. تتضخم عاصفة البكاء وترجُّها، وترجُّه.

يقول: «آي! هذه المرة لم تكن لذيذة. لم تكوني هنا». يعرف إذًا. يصير نحيبها عنيفًا.

يقول: «ما الخطأ؟ كان الأمر بهذه الطريقة غالبًا».

تنتحب، وتشعر فجأة بقلبها يتحطم: «أنا... أنا لا يمكن أن أحبك».

«مش ممكن؟ طيب، متعيطيش! مفيش قانون بيقول الحاجة دي تمشي إزاي. زي ما أنت عايزة».

مازال مستلقيًا ويده على ثديها. لكنها تسحب يديها الاثنتين من عليه.

لم ترحها كلماته. تنتحب بصوت مرتفع.

يقول: «لأ، لأ! خدي الغث مع السمين. والمرة دي كانت وحشة شوية».

تبكي بمرارة، تنتحب. «لكنني أريد أن أحبك، ولا أستطيع. يبدو الأمر فظيعًا.

يضحك، ضحكة نصف مرة، نصف مبتهجة.

يقول: «مش فظيع. حتى لو شفتيه كده. وده مش معناه إنه فظيع. متعيطيش على حبك ليَّ. مش هغصبك أبدًا. لازم تكون في القفص بندقة بايظة. يعني لازم تخدي الوحش مع الكويس».

يبعد يده عن صدرها، لا يلمسها. والآن وهو لا يلمسها تشعر بنشوة شاذة تقريبًا. تكره اللهجة، استخدامه لضمير المخاطب. كان يمكن أن ينهض إذا أراد، ويقف هناك، قربها، يزرر هذا البنطلون القصير الغريب، أمامها مباشرة. ومع ذلك، كان ميكاليس يتمتع بكياسة تجعله يبتعد. كان هذا الرجل واثقًا من نفسه بحيث لا يعرف أن الآخرين يرونه بهلوانًا، لم يعرف التربية.

لكن، وهو ينسحب، لينهض في صمت ويتركها، تتشبث فيه بهلع.

«لا! لا تذهب! لا تتركني! لا تغضب مني! احضني! احضني بقوة!» تهمس بجنون أعمى، وهي لا تعرف حتى ما تقول، وتتشبث به بقوة غريبة. تريد من أعماقها أن تأمن غضبها ومقاومتها الداخلية. كم كانت هذه المقاومة الداخلية التي تسيطر عليها قوية!

يأخذها في ذراعيه مرة أخرى ويضمها، وفجأة تصير صغيرة في ذراعيه، صغيرة وهادئة. انتهت، انتهت المقاومة، وبدأت تذوب في سلام عجيب. وهي تذوب صغيرة ومدهشة في ذراعيه، يرغبها بشكل لا نهائي، بدا أن كل عروق دمائه تحترق برغبة قوية لكنها رقيقة، فيها، في نعومتها، في جمالها الخارق في ذراعيه، تسري في دمه. وبرقة، مع هذا العناق العجيب الذي يشبه الإغماء ليده في رغبة رقيقة خالصة، برقة يملِّس على المنحدر الحريري لخاصرتيها، إلى أسفل، إلى أسفل بين

ردفيها الدافئين، مقتربًا أكثر وأكثر إلى منطقتها الحساسة جدًّا. تشعر أنه شعلة رغبة، شعلة رقيقة، وتشعر أنها تذوب في الشعلة. تترك نفسها. تشعر بقضيبه ينتصب تجاهها بقوة صامتة مذهلة وتترك نفسها تنساق إليه. تستسلم برجفة تشبه الموت، تمضي منجذبة إليه تمامًا. وأوه، لو لم يكن رقيقًا معها الآن، كم يكون قاسيًا، لأنها منجذبة إليه تمامًا ويائسة!

ترتجف مرة أخرى عند الدخول القوي المتصلب فيها، بشكل غريب جدًّا ورهيب. قد يأتي بطعنة سيف في جسدها المفتوح الرقيق، ويكون الموت. تتشبث في هلع شديد مفاجئ. لكنه يأتي بطعنة غريبة وبطيئة، طعنة سلام، طعنة سلام مبهم ورقة خرقاء وبدائية، وكأنها تجعل العالم في البداية. ويخمد الهلع في صدرها، ويتجرأ ثديها على أن يمضي في سلام، لا يحمل شيئًا. تتجرأ على ترك كل شيء يمضي، كل ذاتها، يمضي في الطوفان.

وبدا أنها مثل البحر، لا شيء سوى أمواج مظلمة ترتفع وتندفع، تندفع بتضخم هائل، وهكذا تتحرك ظلمتها كلها ببطء، كانت محيطًا يدحرج كتلته المظلمة البكماء. أوه، وبعيدًا في داخلها تتمزق الأعماق وتتدحرج متشظية، في عباب الرحلة الطويلة، إلى الأبد، في منطقتها الحساسة، تتمزق الأعماق وتتدحرج متشظية، من مركز الغوص الناعم، والغواص يغوص أعمق وأعمق، ملامسًا القاع، وهي تتكشف أعمق وأعمق، وكلما ثقل عبابها يتدحرج بعيدًا إلى شاطئ ما، ويكشفها، ويغوص المجهول الملموس أقرب وأقرب، وتدحرجها أمواجها أكثر وأكثر بعيدًا عن نفسها وتتركها، حتى تلمس فجأة، في تشنج رقيق مرتعد،

تدفق دمائها كلها، تعرف أنها لمست، وأن الإنجاز مسئوليتها، وتلاشت. تلاشت، لم تكن، وقد ولدت: امرأة.

آه، جميل جدًّا، جميل جدًّا! في الانحسار تدرك كل الجمال. والآن يتشبث جسدها كله بحب رقيق للرجل المجهول، وبشكل أعمى للقضيب الذاوي، وهو ينسحب برقة وضعف بشكل لا يدرك، بعد قوة طعنته الشرسة. وهو ينسحب للخارج ويترك جسمها، الشيء السري الحساس، تطلق صرخة لا شعورية، صرخة الفقد التام، وتحاول أن تعيده. كان رائعًا جدًّا! وقد أحبته كثيرًا!

والآن فقط وهي تدرك التردد الصغير الذي يشبه البرعم ورقة القضيب، تفر منها صرخة واهية تعبر عن الدهشة والانفعال، صرخة قلبها على الهشاشة الرقيقة لذلك الذي كان قويًّا.

تتنهد: «كان جميلًا جدًّا! كان جميلًا جدًّا!» لكنه لا يقول شيئًا، يقبِّلها فقط برقة، وهو يستلقي برقة فوقها. تتنهد بنوع من الهناء، مثل أضحية، وشيء حديث الولادة.

والآن يستيقظ في قلبها إعجاب غريب به. رجل! القوة الغريبة للرجولة فوقها! ويداها شاردتان فوقه، ومازالت خائفة بعض الشيء. خائفة من الشيء الغريب العدواني، المقرف قليلًا الذي كان بالنسبة لها رجلًا. والآن تلمسه، وكان أبناءَ الرب مع بنات البشر[1]. تشعر بأنه

(١) «أبناء الرب مع بنات البشر»، إشارة إلى سفر التكوين، الإصحاح السادس، ٢، ٤.

جميل، كم كان نقيًا في النسيج! كم كان هذا السكون للجسد الحساس جميلًا، كم كان جميلًا، وقويًا، لكنه نقي ورقيق! هذا السكون التام لقوة الجسد ورقته. كم كان جميلًا! كم كان جميلًا! تمتد يداها بتوتر إلى أسفل ظهره، إلى الكرتين الرقيقتين الصغيرتين لردفيه. جمال! أي جمال! تتغلغل فيها شعلة ضئيلة مفاجئة من الإدراك الجديد. كيف وجد هذا الجمال هنا، حيث كانت تنفر فقط من قبل؟ جمال لا يوصف للمسة الردفين الدافئين الحيين! الحياة في الحياة، الجمال الدافئ القوي التام. والوزن الغريب للكرتين بين ساقيه! أي سر! أي وزن غريب وثقيل للسر، يمكن أن يكمن رقيقًا وثقيلًا في يد المرء! الجذور، جذر كل ما هو جميل، الجذر البدائي لكل الجمال التام.

تلتصق به، بهسهسة دهشة تكاد تكون رعبًا، هلعًا. يضمها أكثر، ولا يقول شيئًا. لن يقول أبدًا أي شيء. تزحف مقتربة منه أكثر، أكثر، فقط لتكون بالقرب من دهشته الحسية. ومن سكونه التام المبهم، تشعر مرة أخرى بالارتفاع البطيء الخطير العاصف لقضيبه مرة أخرى، القوة الأخرى. ويذوب قلبها رعبًا.

وهذه المرة يكون وجوده فيها رقيقًا وقزحيًا تمامًا، رقيقًا وقزحيًا بشكل نقي، لا يمكن لوعي أن يأسره. ترتجف ذاتها كلها بلا وعي وحية، مثل البلازما. لا تعرف حقيقتها. لا تتذكر ما كان. إنه فقط أجمل مما يمكن أن يكون أي شيء على الإطلاق. ذلك فقط. وبعد ذلك تسكن تمامًا، لا تدري تمامًا، ولا تدرك كم استمر. وكان ساكنًا معها، في صمت بلا غور بجانبها. وعن هذا لن يتكلما أبدًا.

حين يبدأ إدراك الخارج يعود، تلتصق بصدره، مهمهمة «حبي! حبي!» يضمها في صمت. تنكمش على صدره، تمامًا.

لكن صمته لا يسبر غوره. تضمها يداه مثل الزهور، ساكنتين وغريبتين. تهمس له: «أين أنت؟ أين أنت؟ تحدث معي! قل لي شيئًا!».

يقبِّلها برقة مهمهمًا: «آي، يا معشوقتي!».

لكنها لا تفهم ما يعنيه، لا تعرف أين كان. في صمته بدا لها تائهًا.

تهمهم: «تحبني، أليس كذلك؟».

يقول: «آي، إنتِ عارفة!».

تقول متوسلة: «لكن قل لي!».

يقول بشكل غامض، لكنه رقيق ويقيني: «آي! آي! منتش حاسة؟» تلتصق به أكثر، أكثر. كان هادئًا في الحب أكثر مما كانت بكثير، وكانت تريد أن يطمئنها.

تهمس بحزم: «تحبني!» وقد داعبتها يداه برقة، وكأنها زهرة، بدون رجفة الرغبة، لكن بقرب مرهف. ومازالت تطاردها ضرورة متوترة لتمسك بالحب.

تقول متوسلة: «قل إنك سوف تحبني دائمًا!».

يقول وهو شارد: «آي!» وتشعر أن أسئلتها تبعده عنها.

وفي النهاية يقول: «مش المفروض نقوم؟».

تقول: «لا!».

لكنها تشعر بوعيه يشرد، منصتًا للضجيج في الخارج.

يقول: «سيحل الظلام قريبًا». وتسمع ضغط الظروف في صوته. تقبّله بأسى امرأة تتنازل عن ساعة حظها.

ينهض، ويرفع نور اللمبة، ويبدأ ارتداء ملابسه، مختفيًا داخلها بسرعة. ويقف هناك، بجوارها يربط بنطلونه القصير ويتطلع إليها بعينين واسعتين قاتمتين، ووجهه متورد قليلًا وشعره أشعث، دافئًا وساكنًا وجميلًا بشكل غريب في الضوء الخافت للمبة، جميل جدًّا، ولن تقول له أبدًا كم كان جميلًا. يجعلها هذا ترغب في أن تلتصق به، أن تحضنه، لأن في جماله بعدًا دافئًا شبه وسنان يجعلها ترغب في الصراخ والتشبث به، امتلاكه. لن تمتلكه أبدًا. وهكذا تستلقي على البطانية بوركين منحنيين رقيقين عاريين، لا يعرف ما تفكر فيه، لكنها بالنسبة له أيضًا جميلة، الشيء الرقيق العجيب الذي يمكن أن يدخل فيها، متجاوزًا كل شيء.

يقول: «أحبك لدرجة إني ممكن أدخل فيكِ».

تقول وقلبها يدق: «هل أعجبك؟».

«كل حاجة تبقى تمام، لو ممكن أدخل فيكِ. أحبك لأنك فتحتي قلبك ليّا. أحبك لدرجة إني أتيتك بالشكل ده».

ينحني ويقبّل خصرها الناعم، ويحك خده فيه، ثم يغطيها.

تقول: «ولن تتركني أبدًا؟».

يقول: «متسأليشي الأسئلة دي».

تقول: «لكن هل تصدق أنني أحبك؟».

«بتحبيني دلوقتي، أكتر من أي حاجة. لكن مين يعرف إيه اللي هيحصل لما تفكري في المسألة!».

«لا، لا تقل هذه الأشياء!- وألا تعتقد حقًّا أنني أريد أن أستخدمك، أليس كذلك؟».

«كيف؟».

«ليكون لي طفل-؟».

يقول وهو يجلس ويربط طماقه: «دلوقتي أي حد في الدنيا ممكن يبقى عنده أطفال».

تصرخ: «آه لا! أنت لا تقصد ذلك؟».

يقول وهو ينظر إليها من تحت حاجبيه: «إيه كويس! ده أفضل لنا».

تستلقي ساكنة. يفتح الباب بهدوء. السماء زرقاء قاتمة، بحافة بلورية فيروزية. يخرج، ليغلق على الدراريج، متحدثًا بهدوء مع كلبته. وقد استلقت متعجبة من غرائب الحياة، والوجود.

مازالت مستلقية، حين يعود، متألقة مثل غجرية. يجلس على المقعد بجوارها.

يسأل، وهو يرفع حاجبيه وينظر إليها، ويداه متدليتان بين ركبتيه: «لازم تجي ليلة في الدار قبل ما تسافري؛ مش كده؟».

تردد بغيظ: «مش كده؟».

يبتسم. ويكرر: «آي، مش كده؟».

تقول مقلدة صوت اللهجة: «آي!».

يقول: «يي!».

تردد: «يي!».

يقول: «وتنامي معايا. احتاج ده. هتيجي إمتى؟».

تقول: «آجي إمتى؟».

يقول: «لأ. مش ممكن. هتيجي إمتى بقى؟».

تقول: «يوم الحد».

«يوم الحد! آي!».

يسخر منها بسرعة.

يعترض: «لأ، مش ممكن».

يقول: «ليه مش ممكن؟».

يضحك. محاولاتها في نطق اللهجة مضحكة.

يقول: «تعالي بقى، لازم تيجي!».

قالت: «لازم تيجي!».

قال مصححًا لها: «لازم آجي!».

تعترض: «لماذا ينبغي أن أقول آجي وأنت تقول تيجي، أنت لا تلعب بنزاهة».

يقول مائلًا إلى الأمام ومداعبًا وجهها برقة: «مش أنا!».

«بتاعك كويس، رغم كده، مش كده؟ أحلى بتاع على وجه الأرض. لما تحبي! لما تعوزي!».

تقول: «ما البتاع؟».

«مش عارفة؟ البتاع! تحت هناك؛ واللي بلاقيه لما أكون جواك، واللي بتلاقيه لما أكون جواك؛ هو هو، كل حاجة».

تردد بغيظ: «كل حاجة، البتاع! إنه يشبه الجماع إذًا».

«لأ، لأ! الجماع اللي بتعمليه. الحيوانات بتجامع. لكن البتاع أكتر بكتير من ده. هناك، مش شايفه، وهو كتير بجانب الحيوان، مش كده؟ البتاع إيه! ده جمالك، يا حبيبتي!».

تنهض وتقبله بين العينين، وكانتا تنظران إليها قاتمتين ورقيقتين ودافئتين بشكل لا يوصف، جميلتين بشكل لا يحتمل.

تقول: «هذا؟ وهل تهتم بي؟».

يقبلها ولا يرد.

يقول: «لازم تمشي، سبيني أنفض التراب من عليك».

تمر يده على حنايا جسمها، بثبات بدون رغبة، لكن بمعرفة رقيقة وحميمة.

وهي تعدو إلى البيت في الشفق يبدو العالم حلمًا؛ يبدو أن الأشجار في المنتزه تتضخم وتندفع في مرساة على المد والجزر، وكان جيشان المنحدر إلى المنزل حيًّا.

الفصل الثالث عشر

يود كلفورد الذهاب إلى الخميلة يوم الأحد. كان صباحًا جميلًا، وقد ظهرت فجأة براعم الكمثرى والبرقوق في العالم في دهشة البياض هنا وهناك.

كان الأمر قاسيًا على كلفورد، والعالم يزهر، لابد من مساعدته للانتقال من الكرسي إلى كرسي الحمام. لكنه ينسى، ويبدو حتى أنه يغتر بنفسه في عجزه. لكن كوني عانت، وكان عليها رفع ساقيه الخاملتين إلى مكانهما. لكن مسز بولتون تفعل ذلك الآن، أو فيلد.

تنتظره على قمة الدرب، عند حافة حاجز أشجار الزان. يأتي كرسيه زاحفًا بنوع سقيم من العجز البطيء. يقول وهو يلحق بزوجته:

«السير كلفورد على جواده الجوال!».

تقول ضاحكة: «ليصهل على الأقل!».

يقف وينظر إلى واجهة المنزل الطويل المنخفض البني القديم.

يقول: «راجبي لا يرجف له جفن. لكن لماذا يرجف له جفن! أعتمدُ على إنجازات عقل الإنسان، وهذا الكرسي يتفوق على حصان».

تقول: «أعتقد أنه يتفوق عليه. والأرواح عند أفلاطون تصعد إلى السماء في عربة بحصانين ويمكن الآن أن تصعد في سيارة فورد».

«أو رولز رويس: كان أفلاطون أرستقراطيًّا!».

«تمامًا! لم يعد هناك حصان أسود يجلد وتساء معاملته. لم يعتقد أفلاطون قط أننا قد نذهب على ما هو أفضل من جواده الأسود وجواده الأبيض، وبدون أي جياد، محرك فقط!».

يقول كلفورد: «محرك وبنزين فقط!».

«أتمني أن أتمكن من إجراء بعض الإصلاحات على المكان القديم في العام القادم. أعتقد أنني سيكون معي ألف جنيه تقريبًا أخصصها له»، ويضيف: «لكن العمل يتكلف الكثير جدًّا!».

تقول كوني: «أوه، حسنًا! فقط إن لم يكن هناك مزيد من الإضرابات!».

«فيما يفيد إضرابهم مرة أخرى! مجرد تدمير للصناعة، لما تبقى منها: ومن المؤكد أن البوم يرى ذلك!».

تقول كوني: «ربما لا يبالون بتدمير الصناعة».

يقول، مستخدمًا طريقة تحمل بشكل غريب أثر حديث مسز بولتون: «آه، لا تتحدثي مثل امرأة! الصناعة تملأ بطونهم، حتى لو لم تتمكن من إبقاء جيوبهم منتفخة جدًّا».

تسأل ببراءة: «لكن ألم تقل في ذلك اليوم أنك فوضوي محافظ؟».

يرد بحسم: «وهل فهمْتِ ما أقصد؟ كل ما قصدته أن الناس يمكن أن يكونوا ما يشاءون ويشعروا بما يشاءون ويفعلوا ما يشاءون، بشكل خاص تمامًا، طالما يحافظون على **شكل** الحياة سليمًا، وعلى الأدوات».

تواصل كوني السير بضع خطوات في صمت. ثم تقول بعناد:

«يبدو مثل القول بأن البيضة قد تفسد كما تحب طالما تحافظ على قشرتها سليمة. لكن البيض الفاسد ينكسر من تلقاء نفسه».

يقول: «لا أعتقد أن الناس بيض. ولا حتى بيض ملائكة، يا عزيزتي المبشرة الصغيرة».

روحه المعنوية مرتفعة في هذا الصباح المشرق. القبرات تغرد عاليًا في المنتزه، والمنجم البعيد في الغور يطلق بخارًا صامتًا. كان يومًا يشبه تقريبًا الأيام الخوالي، قبل الحرب. لا تريد كوني أن تجادل حقًّا. لكنها لا تريد أيضًا مواصلة السير إلى الخميلة مع كلفورد. وهكذا تسير بجانب كرسيه بعناد قوي.

يقول: «لا. لن يكون هناك مزيد من الإضرابات، إذا عالجنا الأمر بشكل صحيح».

«لماذا لا؟».

«لأن الإضرابات ستكون مستحيلة تقريبًا».

تسأل: «هل يسمح لك الرجال؟».

«لن نسألهم. سنفعلها وهم غافلون: لمصلحتهم، لإنقاذ الصناعة».

تقول: «ولمصلحتك أيضًا».

«بطبيعة الحال! لمصلحة الجميع. لكن لمصلحتهم حتى أكثر من مصلحتي. يمكن أن أعيش بدون المناجم. لا يمكنهم. يجوعون إن لم تكن هناك مناجم. لديَّ مورد آخر».

ينظران إلى الوادي الضحل في المنجم، وما خلفه، إلى منازل تفرشال المكسوة بالسواد تزحف مثل حية فوق التل. في الكنيسة البنية القديمة تقرع الأجراس: الأحد، الأحد، الأحد!

تقول: «لكن هل يسمح الرجال لك بإملاء الشروط؟».

«يا عزيزتي، عليهم أن يسمحوا: إذا تصرفْتُ بلطف».

«لكن قد لا يكون هناك تفاهم متبادل؟».

«إطلاقًا: حين يدركون أن الصناعة تأتي قبل الفرد».

تقول: «لكن هل ينبغي أن تملك الصناعة؟».

«لا ينبغي. لكن بقدر ما أمتلكها، أجل، قطعًا. صارت ملكية الممتلكات الآن مسألة دينية: كما كانت منذ يسوع والقديس فرنسيس[1]. القضية ليست خذ كل ما تملك وامنحه للفقراء، بل استخدم كل ما تملك لتشجيع الصناعة وامنح العمل للفقراء. إنها الطريقة الوحيدة لإطعام كل الأفواه وتوفير الملابس لكل الأجسام. التخلي عن كل ما نملك للفقراء يسبب مجاعة للفقراء بقدر ما يسبب لنا. والمجاعة العالمية ليست هدفًا ساميًا. وحتى الفقر العام ليس شيئًا لطيفًا. الفقر بشع».

«لكن التفاوت؟».

(١) القديس فرنسيس الأسيزي (١١٨١-١٢٢٦): قديس كاثوليكي، ينحدر من مدينة أسيزي، وسط إيطاليا.

«إنه قدر. لماذا كوكب المشترى أكبر من كوكب نبتون؟ لا يمكن البدء بتبديل بنية الأشياء!».

تبدأ: «لكن حين يكون هذا الحسد والغيرة والاستياء قد بدأ مرة واحدة».

«افعلي أقصى ما في وسعك لإيقافه. ينبغي أن يكون شخص ما رئيس العرض».

تسأل: «لكن من رئيس العرض؟».

«الرجال الذين يملكون الصناعات ويديرونها».

يخيم صمت طويل.

تقول: «يبدو لي أنهم رئيس سيئ».

«اقترحي إذًا ما ينبغي أن يفعلوه».

تقول: «لم يأخذوا رئاستهم بجدية كافية».

يقول: «إنهم يأخذونها بجدية أكثر بكثير مما تأخذين لقبك».

تنفجر قائلة: «هذا طعن فيَّ. لا أريده حقًّا». يوقف كرسيه وينظر إليها.

يقول: «من يتهرب من مسئوليته الآن. من يحاول التخلي الآن عن مسئولية رئاسته، كما تقولين؟».

تعترض: «لكنني لا أريد أية رئاسة».

«آه! لكن هذا جبن. حصلت عليها: قدرك. وينبغي أن تكوني على قدرها. من منح عمال المناجم أحقية امتلاك كل ما يملكون: كل

ليبراليتهم السياسية، وتعليمهم، وما شابه، ونظامهم الصحي، وظروفهم الصحية، وكتبهم وموسيقاهم، كل شيء. من أعطاها لهم؟ هل أعطاها عمال المناجم لعمال المناجم؟ لا! أعطى كل آل راجبي وآل شيبلي في إنجلترا نصيبهم، وينبغي أن يواصلوا العطاء. هنا مسئوليتك».

تنصت كوني وقد احمر وجهها تمامًا.

تقول: «أردت إعطاء شيء. لكن لم يسمح لي. كل شيء للبيع والشراء الآن؛ وكل الأشياء التي تذكرها الآن، راجبي وشيبلي تبيع للناس، بربح جيد. يباع كل شيء. لا تقدم نبضة قلب من التعاطف الحقيقي. وبالإضافة إلى ذلك، من سلب الناس حياتهم الطبيعية ورجولتهم، وأعطاهم هذه الهلع الصناعي؟ من فعل ذلك؟».

يسأل بسذاجة: «وماذا ينبغي أن أفعل؟ أطلب منهم أن يأتوا وينهبوني؟».

«لماذا تفرشال بهذه البشاعة، بهذا القبح؟ لماذا حياتهم يائسة على هذا النحو؟».

«بنوا تفرشالهم، هذا جزء من عرضهم للحرية. بنوا بأنفسهم تفرشالهم الجميلة، ويعيشون حياتهم الجميلة. لا يمكن أن أعيش حياتهم لهم. على كل خنفساء أن تعيش حياتها».

«لكنك تجعلهم يعملون من أجلك. إنهم يعيشون حياة منجمك».

«لا، إطلاقًا. كل خنفساء تجد طعامها. لا يُرغَم رجل واحد على العمل من أجلي».

تصرخ: «حياتهم مصنَّعة ويائسة، وكذلك حياتنا».

«لا أعتقد ذلك. هذه ليست إلا صورة رومانسية في الحديث، أثر قديم من رومانسية تتلاشى وتموت. لا يمكن أن تنظري لكل صورة يائسة تقف هناك، يا عزيزتي كوني».

وهو ما كان صحيحًا. لأن عينيها الزرقاوين الغامقتين تلمعان، وقد احمر خداها، وبدت مفعمة بعاطفة متمردة بعيدة عن كآبة اليأس. تعلق، في الأماكن النامية من العشب، زهور الحقل الصغيرة القطنية تنتصب ساكنة تدمع في زغبها. وتتساءل بغضب عما يجعلها تشعر بأن كلفورد مخطئ تمامًا، لكنها لا تستطيع أن تقول ذلك له، لا تستطيع أن تحدد بالضبط أين يكمن الخطأ.

تقول: «لا غرابة في أن يكرهك الرجال».

يرد: «لا يكرهونني! ولا تقعي في الأخطاء: بالمعنى الذي تقصدينه من الكلمة ليسوا رجالًا. إنهم حيوانات لا تفهمينهم، ولن تستطيعي أبدًا. لا تثقي في أوهامك عن الآخرين. الجماهير على الشاكلة نفسها دائمًا، وسوف يكونون عليها دائمًا. لا يختلف عبيد نيرون عن عمال مناجمنا أو عمال سيارات فورد. أقصد عبيد منجم نيرون وعبيد حقوله. إنهم الجماهير: لا يتغيرون. ربما يبرز فرد من الجماهير. لكن البروز لا يبدل الجمهور. الجماهير لا تتبدل. هذه إحدى أكثر حقائق علم الاجتماع أهمية. الخبز والسيرك![1] اليوم فقط التعليم أحد البدائل السيئة للسيرك.

(١) باللاتينية في الأصل، عن جوفينال (٥٥-١٢٧ م. تقريبًا).

الخطأ اليوم أننا أحدثنا تلفًا عميقًا في سيرك البرنامج، وسممنا جماهيرنا بقدر ضئيل من التعليم».

حين تستيقظ حقًّا مشاعر كلفورد بشأن العوام، تفزع كوني. فيما قال شيء حقيقي بشكل مدمر. لكنها حقيقة قاتلة.

يبدأ كلفورد، وقد رأى شحوبها وصمتها، تحريك كرسيه مرة أخرى، ولا تُنطَق كلمة أخرى حتى يقف عند بوابة الخميلة وتفتحها.

يقول: «وما نحتاج إليه الآن السياط لا السيوف. حُكِمت الجماهير منذ بداية الزمن، وحتى نهاية الزمن، ومن الضروري أن تُحكَم. من النفاق التام والمهزلة القول بأنهم يمكن أن يحكموا أنفسهم».

تسأل: «لكن هل تستطيع حكمهم؟».

«أنا! أوه، أجل! لا عقلي ولا إرادتي مشلولة، ولا أحكم بساقيَّ. يمكن أن أقوم بنصيبي من الحكم: نصيبي بشكل مطلق؛ وأن تمنحيني ابنًا، ويكون قادرًا على أخذ نصيبه من الحكم من بعدي».

تتلعثم: «لكنه لن يكون ابنك، من طبقتك الحاكمة؛ أو ربما لا».

«لا أهتم بأبيه، طالما كان رجلًا معافى وذكاؤه ليس تحت المتوسط. أعطيني ابنًا من أي رجل معافى يتمتع بذكاء عادي، وسوف أصنع منه واحدًا من آل تشاترلي كفؤًا تمامًا. لا يهم من ينجبنا، بل أين يضعنا القدر. ضعي أي طفل بين الطبقة الحاكمة، وسوف ينشأ، طبقًا لقدراته، حاكمًا. ضعي أبناء الملوك والدوقات بين الجماهير وسوف يكونون من العامة، نتاج الجماهير. إنه الضغط الساحق للبيئة».

تقول: «العوام إذًا ليسوا عرقًا، والأرستقراطيون ليسوا دمًا».

«لا، يا طفلتي! هذا كله وهم رومانسي. الأرستقراطية وظيفة، جزء من قدر. والجماهير وظيفة جزء آخر من القدر. الفرد لا يهم. المسألة هي أية وظيفة نشأت لها وتأقلمت عليها. الأفراد لا يصنعون الأرستقراطية: إنها وظيفة الكل الأرستقراطي. ووظيفة الجماهير كلها ما يصنع من أحد العوام حقيقته».

«ليست هناك إذًا إنسانية مشتركة بيننا جميعًا!».

«كما تحبين بالضبط. نريد جميعًا أن نملأ بطوننا. لكن فيما يتعلق بالوظيفة التعبيرية والتنفيذية، أؤمن بأن هناك فجوة وفجوة مطلقة بين الطبقات الحاكمة والطبقات الخادمة. الوظيفتان متضادتان. والوظيفة تحدد الفرد».

تنظر إليه كوني بعينين ذاهلتين.

تقول: «ألن تتقدم؟».

يبدأ تحريك كرسيه. قال رأيه. الآن ينتقل إلى خموله الغريب الفارغ، وتراه كوني مُتعِبًا جدًّا. في الخميلة على أية حال تصمم على ألا تجادل.

أمامهما الشق المفتوح للدرب، بين جدران البندق والأشجار الرمادية المبهجة. يواصل الكرسي ببطء، عاصفًا ببطء باتجاه زهور لا تنسني، التي ترتفع في الدرب مثل زبد الحليب، وراء ظلال البندق. يتوجه كلفورد إلى المسار الأوسط، حيث ترك مرور الأقدام قناة بين الزهور. لكن كوني، وكانت تسير خلفه، تشاهد العجلات تهتز على الجويسئة

العطرية والنفير[1]، وتسحق الكؤوس الصفراء الصغيرة للجيني الزاحفة. والآن تترك أثرًا بين زهور لا تنسني.

توجد كل الزهور، بشائر الجريس في البرك الزرقاء، مثل المياه الراكدة.

يقول كلفورد: «أنت محقة تمامًا بشأن جمالها. إنها مدهشة. لا شيء أجمل من الربيع الإنجليزي!»

تعتقد كوني أنه يبدو وكأن الربيع أزهر بمرسوم من البرلمان. الربيع الإنجليزي! لماذا لا يكون ربيعًا أيرلنديًّا؟ أو يهوديًّا. يتحرك الكرسي ببطء إلى الأمام، ويمر بخصل من الجريس الثابت المنتصب مثل القمح وفوق أوراق الأرقطيون[2] الرمادية. حين يصلان إلى المكان المفتوح الذي قطعت فيه الأشجار، يتدفق النور ساطعًا. وقد صنع الجريس ملاءات من اللون الأزرق المشرق، هنا وهناك، منفصلًا فجأة إلى الليلك والأرجواني. وبينها يرفع السرخس رؤوسه البنية الملتفة، مثل فيالق من صغار الحيات تحمل سرًّا جديدًا تهمس به لحواء.

يحافظ كلفورد على تقدم الكرسي حتى يصل إلى حافة التل؛ وكوني وراءه تتبعه ببطء. كانت براعم البلوط تتفح رقيقة وبنية. وكل شيء يخرج بنعومة من الصلابة القديمة. حتى أشجار البلوط الناتئة الحادة أورقت أنعم الأوراق الصغيرة، ناشرة أجنحة رقيقة بنية صغيرة

---

(١) الجويسئة العطرية: نبات زهوره بيضاء؛ النفير: نبات زاحف من عائلة النعناع، بزهور زرقاء.

(٢) نبات عشبي كبير.

مثل أجنحة الخفاش في النور. لماذا لم يعرف البشر تجديدًا فيهم، لم تخرج منهم أية طزاجة! بشر ذابلون!

يوقف كلفورد الكرسي على قمة المرتفع وينظر إلى أسفل. يغسل الجريس اللون الأزرق مثل فيضان المياه على الدرب الواسع، ويضيء سفح التل بزرقة دافئة.

يقول كلفورد: «لون رائع جدًّا في ذاته، لكنه بلا فائدة في صناعة لوحة».

تقول كوني بدون أي اهتمام: «تمامًا!».

يقول كلفورد: «هل أغامر بقدر ما يغامر الربيع؟».

تقول: «هل يصعد الكرسي مرة أخرى؟».

«نحاول؛ لا ربح بدون مغامرة!».

يبدأ الكرسي التقدم ببطء، مهتزًّا في الدرب الجميل الواسع المغسول بالياقوتيات الزرقاء التي تقتحمه. يا آخر كل السفن، خلال الضحالة الياقوتية! يا زورقًا على آخر المياه المتلاطمة، تبحر في آخر رحلات حضارتنا! إلى أين أيتها السفينة ذات العجلات الغريبة يتقدم مسارك البطيء. يجلس كلفورد، هادئًا وراضيًا، على عجلات المغامرة: في قبعته السوداء القديمة وجاكيت من التويد، حذرًا بلا حراك. يا كابتن، يا كابتني، انتهت رحلتنا الرائعة! مع أنها لم تنتهِ بعد! سفح التل، في أعقابه، تتقدم كونستنس في فستانها الرمادي، تشاهد الكرسي يهتز إلى أسفل.

يعبران المسار الضيق إلى الكوخ. شكرًا للسماء لأنه ليس واسعًا بما يكفي لمرور الكرسي: يسع شخصًا واحدًا بالكاد. يصل الكرسي إلى قاع المنحدر، وينحرف حوله ليختفي. وتسمع كوني همسة منخفضة وراءها. تحدق حولها بحدة: كان الحارس يسرع إلى سفح التل باتجاهها، وكلبته وراءه.

يسأل وهو ينظر في عينيها: «هل السير كلفورد ذاهب إلى الدار؟».

«لا، إلى النبع فقط».

«آه! حسن! يمكن أن أختفي إذًا عن الأنظار. لكنني سأراك الليلة. سوف أنتظر عند بوابة المنتزه في حوالي العاشرة».

ينظر مرة أخرى في عينيها مباشرة.

تتلعثم: «أجل».

يسمعان صفيرًا! صفيرًا! من بوق كلفورد، يصفِّر لكوني. ترد: «حاضر!» يهتز وجه الحارس بتكشيرة ضئيلة، وبيده يمس ثديها برفق، من تحت. تنظر إليه، خائفة، وتبدأ الجري إلى التل، وهي تنادي حاضر! مرة أخرى على كلفورد. يلتفت الرجل إليها من فوق، مبتسمًا ابتسامة باهتة، ويعود إلى مساره.

تجد كلفورد يصعد إلى النبع ببطء، وكان في منتصف منحدر أجمة الأركس القاتمة. كان هناك حين تلحق به.

يقول مشيرًا إلى الكرسي: «أتم المهمة على خير وجه».

تنظر كوني إلى أوراق الأرقطيون، الرمادية الكبيرة، وقد نبتت بشكل

شبحي من حافة أجمة الأركس. يسميها الناس راوند روبن هوود. كم تبدو صامتة وكئيبة بجوار النبع! لكن المياه تتدفق بشكل رائع ومدهش! وهناك نتف من إشراق العين[١] والنفير الأبيض القوي. وتحت الضفة تتحرك الأرض الصفراء. خلد![٢] يظهر، يجدف بيديه القرمزيتين، ويلوِّح بالثقب الأعمى في وجهه، وطرف أنفه القرمزي الصغير مرفوع.

تقول كوني: «يبدو أنه يرى بطرف أنفه».

يقول: «أفضل من أن يرى بعينيه! هل تشربين؟».

«هل تشرب؟».

تأخذ مجًّا مطليًّا بالمينا من على غصن شجرة، وتنحني لتملأه له. يرشفه. ثم تنحني مرة أخرى وتشرب كمية ضئيلة.

تقول مبهورة: «إنه مثلج جدًّا!».

«حسن، أليس كذلك! هل كنت تريدينه؟».

«هل كنت تريده؟».

«أجل، كنت أريده. لكنني لم أقل».

تدرك قرع نقار الخشب، ثم الرياح، رقيقة وغريبة خلال أشجار الأركس. تنظر إلى أعلى. تعبر السماء الزرقاء سحب بيضاء.

تقول: «سحب!».

يرد: «مجرد حملان بيضاء».

(١) نبات صغير يوجد في الحقول الجافة على جانب الطريق. كان يستخدم في علاج العين.
(٢) الخُلد حيوان صغير من الثدييات آكلة الحشرات والديدان، يعيش في الأنفاق؛ أعمى.

يعبر ظلٌّ البقعة الصغيرة منزوعة الأشجار. يتحرك الخلد على الأرض الصفراء الناعمة.

يقول كلفورد: «حيوان صغير بغيض، ينبغي أن نقتله».

تقول: «انظر! إنه مثل كاهن على المنبر».

تجمع بعض أغصان الوودرف[1] وتحضرها له.

تقول: «قش مقطوع حديثًا. أليست رائحته مثل رائحة السيدات الرومانسيات في القرن الماضي، لكنهن كن حكيمات وعمليات!».

تنظر إلى السحب البيضاء.

تقول: «أتساءل إن كانت ستمطر».

«تمطر! لماذا! هل تريدين أن تمطر؟».

يبدآن رحلة العودة، وكلفورد يهتز بحذر إلى سفح التل. يصلان إلى القاع المظلم للغور، يستديران إلى اليمين، وبعد مائة ياردة ينحرفان إلى سفح المنحدر الطويل، حيث ينتصب الجريس في النور.

يقول كلفورد وهو يضع الكرسي عليه: «الآن، أيتها الفتاة الكبيرة!».

كان تسلقًا حادًّا ووعرًا. يتحرك الكرسي، بطريقة نضالية عنيدة. ومازال يتلمس طريقه إلى أعلى بشكل متقطع، حتى يصل إلى حيث كانت الياقوتيات حوله، ثم يتردد، ويكافح، مهتزًّا هزة ضئيلة خارج الزهور، ثم يتوقف.

---

(١) نبات بزهور بيضاء، تفوح منه رائحة القش المقطوع حديثًا حين يجفف أو يسحق.

تقول كوني: «من الأفضل أن نطلق البوق ونرى إن كان الحارس سيأتي. يمكن أن يدفع الكرسي قليلًا. وإلا فسوف أدفعه، إنه يساعدني».

يقول كلفورد: «نترك الكرسي يتنفس. هل تمانعين في وضع وتد تحت العجلة؟»

تجد حجرًا، وينتظران. بعد برهة يبدأ كلفورد تشغيل محركه مرة أخرى، ثم يحرك الكرسي. يكافح الكرسي ويتلعثم مثل شيء معتل، بصخب غريب.

تقول كوني آتية خلفه: «دعني أدفعه!».

يقول بغضب: «لا! لا تدفعي! ما فائدة هذا الشيء اللعين، إذا كان لابد أن يُدفَع! ضعي الحجر تحته!».

توقف آخر، ثم بداية أخرى؛ وكان أقل فعالية.

تقول: «ينبغي أن تتركني أدفعه. أو أطلق البوق للحارس».

«انتظري!».

تنتظر؛ ويحاول مرة أخرى، وكانت محاولة ضارة.

تقول: «أطلق البوق إذًا، إذا كنت لا تريد أن أدفعه».

«اللعنة! اهدئي لحظة!».

تهدأ لحظة: يبذل جهدًا مضنيًا مع المحرك الصغير.

تحتج: «سوف تحطمه فقط يا كلفورد؛ بجانب أنك تبدد طاقتك العصبية».

يقول ساخطًا: «لو استطعْتُ فقط أن ألقي نظرة على هذا الشيء اللعين». ويطلق البوق بحدة: «ربما يعرف ملورز طبيعة العطل».

ينتظران بين الزهور المهروسة تحت سماء ملبدة بسحابة لطيفة. في الصمت تبدأ ورشان[1] تهدل كو روو-هوو هوو! روو-هووو هوو! يسكتها كلفورد بصرخة من البوق.

يظهر الحارس على الفور، مسرعًا ومستكشفًا حول الركن. يحيي.

يسأله كلفورد بحدة: «هل تعرف أي شيء عن المحركات؟».

«أخشى أنني لا أعرف. هل فيه عطل؟».

يرد كلفورد بشكل قاطع: «على ما يبدو!»

يقبع الرجل جزعًا بجوار العجلة، ويحدق في المحرك الصغير.

يقول بهدوء: «أخشى أنني لا أعرف أي شيء في الأشياء الميكانيكية، يا سير كلفورد. إذا كان فيه ما يكفي من البترول والزيت-».

يرد كلفورد بشكل قاطع: «انظر فقط بدقة إن كان يمكن أن ترى أي شيء مكسور».

يسند الرجل بندقيته إلى شجرة، ويخلع معطفه، ويلقيه بجوارها. وتجلس الكلبة تحرس. ثم يجلس على كعبيه ويحدق تحت الكرسي، فاحصًا بإصبعه المحرك الصغير المشحم، ويستاء من بقع الشحم على قميص الأحد النظيف.

---

(١) وَرَشان: طائرٌ أكبرُ قليلاً من الحمامة، يستوطن أَوربا ويهاجر في جماعات إِلى العراق والشام.

يقول: «لا يبدو أن هناك شيئًا مكسورًا». يقف، دافعًا قبعته عن جبهته، وحاكًّا حاجبه متأملًا على ما يبدو.

يسأله كلفورد: «هل نظرْتَ على القضبان تحت؟ انظر إن كانت سليمة!».

يستلقي الرجل على بطنه على الأرض، وعنقه مضغوط إلى الخلف، ملتويًا تحت المحرك ومتفحصًا بإصبعه. تفكر كوني كم كان الرجل مثيرًا للشفقة، ضعيفًا، ويبدو ضئيلا، وهو يستلقي على بطنه على الأرض الكبيرة.

يأتي صوته المكتوم: «تبدو سليمة بقدر ما أرى».

يقول كلفورد: «لا أعتقد أنك يمكن أن تفعل أي شيء».

«يبدو وكأنني لا يمكنني!» ينهض ويجلس على كعبيه، بطريقة عمال المناجم. «بالتأكيد ليس هناك شيء مكسور بوضوح».

يبدأ كلفورد محركه، ثم يعشق التروس. ولا يتحرك.

يقول الحارس: «تشغيله صعب بعض الشيء على ما يبدو».

يستاء كلفورد من التدخل: لكنه يجعل محركه يئز مثل ذبابة زرقاء. ثم يسعل المحرك ويجأر وبدا أنه يمضي بشكل أفضل.

يقول ملورز: «يبدو وكأنه أصبح أفضل».

لكن كلفورد عشَّق التروس بالفعل. يتمايل الكرسي بسقم ويندفع الى الأمام بضعف.

يقول الحارس وهو يذهب خلف الكرسي: «لو أعطيته دفعة فسوف يسير».

يقول كلفورد بحسم: «ابتعدْ. سوف يسير وحده».

تدخل كوني من الضفة: «لكن يا كلفورد. تعرف أن هذا كثير جدًّا عليه. لماذا تعاند؟».

يشحب كلفورد غضبًا. يضرب على روافعه. يهرول الكرسي بشكل ما، ويترنح بضع ياردات أخرى، ويصل طرفه وسط بقعة واعدة جدًّا من الجريس.

يقول الحارس: «تحرك! قوته غير كافية».

يقول كلفورد ببرود: «كان هنا من قبل».

يقول الحارس: «لن يفعلها هذه المرة».

لا يرد كلفورد. يبدأ يفعل أشياء مع محركه، يديره بسرعة وبطء وكأنه يريد أن يحصل منه على لحن من نوع ما. تردد الخميلة الصدى بصخب غريب. ثم يعشِّقه بهزة، ويكبح فرامله.

يهمهم الحارس: «ستحطمه من الداخل».

يندفع الكرسي في تمايل سقيم باتجاه القناة.

تصيح كوني مندفعة إلى الأمام: «كلفورد!».

لكن الحارس يمسك الكرسي من الحاجز. لكنه، مستخدمًا كل ضغطه، ينجح في التوجه إلى الدرب، وبصخب غريب يصارع الكرسي

التل. يدفع ملورز من الخلف بثبات، فيتحرك الكرسي وكأنه استرد نفسه.

يقول كلفورد، منتصرًا، يلقي نظرة سريعة، يرى وجه الحارس: «ترى، إنه يفعلها».

«هل تدفعه؟».

«لم يكن ليتحرك بدون ذلك».

«اتركه وحده. طلبت منك ألا تدفعه».

«لن يتحرك».

يقول كلفورد بحسم، وتأكيد: «**اتركه يحاول!**».

يتراجع الحارس: ثم يستدير ليأخذ معطفه وبندقيته. بدا أن الكرسي شل على الفور. وقف خاملًا. كان كلفورد، وقد جلس سجينًا، شاحبًا من الغيظ. يضرب على الروافع بيده، وقدماه عاجزتان. يحصل على صخب غريب من الكرسي. وبنفاد صبر وحشي يحرك المقابض قليلًا ليحصل على المزيد من الصخب. لكن الكرسي لا يتزحزح. لا، لا يتزحزح. يوقف المحرك ويجلس جامدًا من الغضب.

تجلس كونستنس على الضفة وتنظر إلى الجريس البائس المسحوق. «لا شيء أجمل من الربيع الإنجليزي». «ما نحتاج إليه الآن السياط لا السيوف». «الطبقات الحاكمة!»

يسرع الحارس بمعطفه وبندقيته. وفلوسي تتعقبه بحذر. يطلب كلفورد من الرجل أن يفعل شيئًا ما للمحرك. كوني، التي لا تفهم شيئًا في تقنيات المحركات، وكانت لها خبرة في الأعطال، تجلس بصبر على

الضفة وكأنها صفر. يستلقي الحارس على بطنه مرة أخرى. الطبقات الحاكمة والطبقات الخادمة!

ينهض ويقول بصبر:

«جربه مرة أخرى إذًا».

يتحدث بصوت هادئ، وكأنه يتحدث إلى طفل تقريبًا.

يجربه كلفورد، ويقفز ملورز بسرعة إلى الخلف ويبدأ دفعه. يتحرك، يقوم المحرك بنصف عمله تقريبًا، ويقوم الرجل بالبقية.

يحدق كلفورد حوله، أصفر من الغضب.

«كُفَّ هنا!».

يفك الحارس قبضته على الفور، ويضيف كلفورد: «كيف أعرف أنه يعمل!».

ينزل الرجل بندقيته ويبدأ ارتداء معطفه. ارتداه.

يبدأ الكرسي يتحرك إلى الخلف ببطء.

تصيح كوني: «فراملك يا كلفورد!».

تتحرك هي وملورز وكلفورد على الفور، تندفع كوني والحارس بخفة. يقف الكرسي. يخيم الصمت التام لحظة.

يقول كلفورد: «من الواضح أنني تحت رحمة الجميع!» كم كان أصفر من الغضب.

لا أحد يرد. ملورز يعلق البندقية على كتفه، ووجهه غريب وخال

من التعبير، باستثناء نظرة شاردة من الصبر. والكلبة فلوسي تتحرك بقلق، وتقف متأهبة بين ساقي سيدها، تنظر إلى الكرسي بريبة وكراهية هائلتين، ومرتبكة كثيرًا بين الكائنات البشرية الثلاثة. يبقى **المشهد لوحة حية**[1] بين الجريس المسحوق، ولا يتفوّه أحد بكلمة.

في النهاية يقول كلفورد، **بدم بارد**[2]: «توقعت أنه لابد أن يُدفَع».

لا أحد يرد. يبدو ملورز شاردًا وكأنه لا يسمع شيئًا. وتحدق كوني فيه بقلق. ويحدق كلفورد أيضًا حوله.

يقول بنبرة باردة متعالية: «هل تمانع في دفعه إلى البيت يا ملورز!» ويضيف بنبرة كراهية: «أتمنى ألا أكون قد قلت شيئًا أساء لك».

«لا شيء إطلاقًا يا سير كلفورد! هل تريد أن أدفع ذلك الكرسي؟».

«إذا سمحْتَ».

يتقدم الرجل إلى الكرسي: لكن هذه المرة بدون نتيجة. كانت الفرامل مشدودة. يدفع ويجذب، ينزل الحارس بندقيته ويخلع معطفه مرة أخرى. ولا يتفوه كلفورد بكلمة. وفي النهاية يرفع الحارس ظهر الكرسي من فوق الأرض، وبدفعة فورية من قدمه يحاول تليين العجلات. يفشل، ويغوص الكرسي. كان كلفورد يمسك بالجانبين. والرجل يلهث من الحمولة.

تصيح كوني فيه: «لا تفعل!».

(١) بالفرنسية في الأصل.

(٢) بالفرنسية في الأصل.

يقول لها، موضحًا لها الطريقة: «إذا سحبْت العجلة بهذه الطريقة، هكذا!».

تقول، وقد احمر وجهها غضبًا: «لا! لا ينبغي أن ترفعها! سترهق نفسك».

لكنه ينظر في عينيها ويومئ. وكان عليها أن تذهب وتمسك بالعجلة، مستعدة. يرفع وتسحب، ويترنح الكرسي.

يصيح كلفورد هلعًا: «يا إلهي!».

لكن كل شيء على ما يرام. يضع الحارس حجرًا تحت العجلة، ويمضي ليجلس على الضفة، قلبه يدق ووجهه شاحب من المجهود، فيما يشبه الغيبوبة.

تنظر كوني إليه، وتصرخ تقريبًا بغضب. وقفة وصمت تام. ترى يديه ترتجفان على وركيه.

تسأل وهي تذهب إليه: «هل آذيت نفسك؟».

«لا، لا!» ويشيح بوجهه في غضب تقريبًا.

يخيم صمت تام. لا تتحرك المؤخرة الشقراء لرأس كلفورد. حتى الكلبة تقف ساكنة. وتتلبد السماء بالسحب.

يتنهد في النهاية، ويمسح أنفه بمنديله الأحمر.

يقول: «هذا الالتهاب الرئوي يرهقني كثيرًا».

لا أحد يرد. تحسب كوني القوة التي ينبغي بذلها لرفع الكرسي

من التعبير، باستثناء نظرة شاردة من الصبر. والكلبة فلوسي تتحرك بقلق، وتقف متأهبة بين ساقي سيدها، تنظر إلى الكرسي بريبة وكراهية هائلتين، ومرتبكة كثيرًا بين الكائنات البشرية الثلاثة. يبقى **المشهد لوحة حية**(١) بين الجريس المسحوق، ولا يتفوَّه أحد بكلمة.

في النهاية يقول كلفورد، **بدم بارد**(٢): «توقعت أنه لابد أن يُدفَع».

لا أحد يرد. يبدو ملورز شاردًا وكأنه لا يسمع شيئًا. وتحدق كوني فيه بقلق. ويحدق كلفورد أيضًا حوله.

يقول بنبرة باردة متعالية: «هل تمانع في دفعه إلى البيت يا ملورز!» ويضيف بنبرة كراهية: «أتمنى ألا أكون قد قلت شيئًا أساء لك».

«لا شيء إطلاقًا يا سير كلفورد! هل تريد أن أدفع ذلك الكرسي؟».

«إذا سمحْتَ».

يتقدم الرجل إلى الكرسي: لكن هذه المرة بدون نتيجة. كانت الفرامل مشدودة. يدفع ويجذب، ينزل الحارس بندقيته ويخلع معطفه مرة أخرى. ولا يتفوه كلفورد بكلمة. وفي النهاية يرفع الحارس ظهر الكرسي من فوق الأرض، وبدفعة فورية من قدمه يحاول تليين العجلات. يفشل، ويغوص الكرسي. كان كلفورد يمسك بالجانبين. والرجل يلهث من الحمولة.

تصيح كوني فيه: «لا تفعل!».

---

(١) بالفرنسية في الأصل.

(٢) بالفرنسية في الأصل.

يقول لها، موضحًا لها الطريقة: «إذا سحبْت العجلة بهذه الطريقة، هكذا!».

تقول، وقد احمر وجهها غضبًا: «لا! لا ينبغي أن ترفعها! سترهق نفسك».

لكنه ينظر في عينيها ويومئ. وكان عليها أن تذهب وتمسك بالعجلة، مستعدة. يرفع وتسحب، ويترنح الكرسي.

يصيح كلفورد هلعًا: «يا إلهي!».

لكن كل شيء على ما يرام. يضع الحارس حجرًا تحت العجلة، ويمضي ليجلس على الضفة، قلبه يدق ووجهه شاحب من المجهود، فيما يشبه الغيبوبة.

تنظر كوني إليه، وتصرخ تقريبًا بغضب. وقفة وصمت تام. ترى يديه ترتجفان على وركيه.

تسأل وهي تذهب إليه: «هل آذيت نفسك؟».

«لا، لا!» ويشيح بوجهه في غضب تقريبًا.

يخيم صمت تام. لا تتحرك المؤخرة الشقراء لرأس كلفورد. حتى الكلبة تقف ساكنة. وتتلبد السماء بالسحب.

يتنهد في النهاية، ويمسح أنفه بمنديله الأحمر.

يقول: «هذا الالتهاب الرئوي يرهقني كثيرًا».

لا أحد يرد. تحسب كوني القوة التي ينبغي بذلها لرفع الكرسي

وكلفورد الضخم: كثيرة جدًّ، كثيرة جدًّا إلى حد كبير! إن لم تقتله!

ينهض، ويلتقط معطفه مرة أخرى، ويعلقه في مقبض الكرسي.

«مستعد إذًا يا سير كلفورد؟».

«حين تكون مستعدًّا!».

ينحني ويبعد الوتد، ثم يضغط بوزنه على الكرسي. كان أكثر شحوبًا مما رأته كوني في أي وقت سابق: وأكثر ذهولًا. كلفورد رجل ثقيل: والتل شديد الانحدار. تسير كوني بجوار الحارس.

تقول: «أدفع أن أيضًا!».

وتبدأ الدفع بكل الطاقة العنيفة لغضب امرأة. يمضي الكرسي أسرع. يتطلع كلفورد حوله.

يقول: «هل هذا ضروري؟».

«جدًّا! تريد أن تقتل الرجل! إذا تركت المحرك يعمل حين ينبغي-».

لكنها لا تتوقف. تلهث. تتراخى قليلًا، إنه عمل شاق بشكل غريب.

يقول الرجل بجوارها، وابتسامة شاحبة في عينيه: «آي! أبطأ!».

تقول بعنف: «هل أنت متأكد من أنك لم تؤذِ نفسك؟».

يهز رأسه. تنظر إلى يده الصغيرة القصيرة الحية، البنية بفعل الطقس. إنها اليد التي عانقتها. لم تكن قد نظرت إليها قط من قبل. تبدو ساكنة جدًّا، مثله، بصمت داخلي غريب يجعلها ترغب في القبض عليها، وكأنها لا تستطيع الوصول إليها. وفجأة تنجرف روحها كلها باتجاهه:

كان صامتًا جدًّا، وبعيد المنال! يشعر بأن أطرافه تبعث من جديد. دافعًا بيده اليسرى، يضع يمناه على رسغها الأبيض المستدير، ويضم رسغها برقة، ويداعبه. وقد سرى لهب القوة إلى ظهره وخاصرتيه، باعثًا فيه الحياة. تنحني فجأة وتقبِّل يده. وفي أثناء ذلك تبقى مؤخرة رأس كلفورد ملساء ساكنة، أمامهما مباشرة.

عند قمة التل يستريحان، وتسعد كوني بالتوقف عن الدفع. كانت لديها أحلام شاردة عن صداقة بين هذين الرجلين: أحدهما زوجها، والآخر والد طفلها. وترى الآن العبثية الصارخة لأحلامها. كان الذكران عدوين مثل النار والماء. يبيد أحدهما الآخر بالتبادل. تدرك للمرة الأولى دقة الكراهية وغرابتها. للمرة الأولى، تكره كلفورد بحسم ووعي، كراهية حية: وكأنه ينبغي أن يمحى من على وجه الأرض. وكان غريبًا أن تجعلها الحياة الحرة الكاملة تشعر بأنها تكرهه، وتعترف بذلك لنفسها تمامًا. تخطر الفكرة على ذهنها: «كرهته الآن، لن أستطيع الاستمرار في العيش معه».

على الأرض المستوية يستطيع الحارس دفع الكرسي وحده. يجري كلفورد محادثة قصيرة معها: عن العمة إيفا، وكانت في دييب[1]، وعن السير مالكولم، وقد كتب يسأل إن كان يمكن أن تذهب كوني معه في سيارته الصغيرة، إلى فينسيا، أم أنها ستذهب مع هيلدا بالقطار.

تقول كوني: «أفضِّل أن أذهب بالقطار. لا أحب السفر مسافات طويلة بالسيارات، وخاصة حين يكون هناك غبار. لكنني سأعرف ما تريده هيلدا».

---

(١) دييب: مدينة فرنسية.

يقول: «سوف تريد أن تقود سيارتها، وتأخذك معها».

«ربما!- ينبغي أن أساعد هنا. ليست لديك فكرة عن مدى ثقل هذا الكرسي».

تذهب إلى ظهر الكرسي، وتتهادى جنبًا إلى جنب مع الحارس، دافعة الكرسي في مسار القرنفل. ولا تبالي بمن يرى.

يقول كلفورد: «لماذا لا تتركيني أنتظر، وأدعو فيلد؟ إنه قوي بما يكفي للمهمة».

تقول وهي تلهث: «المكان قريب جدًّا».

لكنها تجفف هي وملورز العرق من على وجهيهما حين يصلان إلى القمة. الأمر غريب، لكن هذا العمل معًا جعلهما أقرب بكثير مما كانا من قبل.

يقول كلفورد، وهم على باب المنزل: «شكرًا جزيلًا يا ملورز. لابد أن أحصل على محرك من نوع مختلف، هذا كل ما في الأمر. ألن تذهب إلى المطبخ وتتناول وجبة؟ لابد أننا تجاوزنا موعد الغداء».

«شكرًا يا سير كلفورد. أنا ذاهب لتناول العشاء مع والدتي اليوم، الأحد».

«كما تحب».

يرتدي ملورز معطفه، وينظر إلى كوني، ويحيي، وينصرف. تصعد كوني إلى الدور العلوي غاضبة.

وعلى الغداء لا تستطيع كتم مشاعرها.

تقول له: «لماذا تستهتر مع الآخرين بشكل مقيت يا كلفورد؟».

«مع من؟».

«مع الحارس! إذا كان هذا ما تسميه الطبقات الحاكمة، فأنا آسفة من أجلك».

«لماذا؟».

«رجل مريض، وليس قويًا! من المؤكد أنني لو كنت من الطبقات الخادمة، لتركتك تنتظر من أجل الخدمة. لتركتك تصفِّر».

«أصدق ذلك تمامًا».

«إذا كان يجلس في كرسي بساقين مشلولتين، وتصرف كما تصرفْتَ، ماذا كنت تفعل له؟».

«يا عزيزتي المبشرة، هذا الخلط بين الأشخاص والشخصيات سوقي».

«ورغبتك المقرفة العقيمة في التعاطف العام سوقية أكثر مما تتخيل. التزام النُّبْل! أنت وطبقتك الحاكمة!».

«وبم ينبغي أن يلزمني؟ أن أحمل الكثير من المشاعر غير الضرورية لحارس طرائدنا؟ أرفض. أتركه كله لمبشرتي».

«وكأنه ليس إنسانًا مثلك، بالتأكيد!».

«حارس طرائدنا بالإضافة إلى ذلك، وأنا أدفع له جنيهين أسبوعيًا وأعطيه منزلًا».

«تدفع له! مقابل أي شيء تعتقد أنك تدفع له، بجنيهين أسبوعيًّا ومنزل؟».

«خدماته».

«ياه! أقول لك احتفظْ بجنيهيك أسبوعيًّا ومنزلك».

«ربما يحب ذلك: لكنه لا يمكن أن يتحمل الرفاهية!».

تقول: «أنت، **والحكم**. أنت لا تحكم، لا تداهن نفسك. حصلْتَ فقط على أكثر من نصيبك من المال، وتجعل الناس يعملون لك مقابل جنيهين أسبوعيًّا، أو تهددهم بالجوع. حكم! ماذا تقدم للحكم؟ لماذا، أنت تجف! أنت فقط متسلط بأموالك، مثل أي يهودي أو أي جشع!»(١)

«أنت رائعة جدًّا في حديثك يا ليدي تشاترلي!».

«أؤكد لك أنك كنت رائعًا جدًّا هناك في الخميلة. خجلت تمامًا منك. لماذا، أبي إنسان عشرة أمثالك: يا جنتلمان!».

يمد يده إلى الجرس ويرن لمسز بولتون. ووجهه أصفر.

تصعد إلى غرفتها، غاضبة، وتقول لنفسها: «هو وشراء الناس! حسنًا، لا يشتريني، ولذا لا حاجة بي للبقاء معه. سمكة ميتة في صورة جنتلمان، بروحه السيليوليد! وكيف يخدعونني، بسلوكهم وحنينهم الزائف ودماثتهم. لديهم مشاعر بقدر ما لدى السيليوليد».

تضع خططًا لليلة، وتعزم على إخراج كلفورد من تفكيرها. لا تريد أن تكرهه. ولا تريد أن تختلط معه بحميمية في أي نوع من المشاعر.

---

(١) جشع، بالألمانية في الأصل.

تريد ألا يعرف شيئًا عنها: وخاصة، ألا يعرف أي شيء عن مشاعرها تجاه الحارس. هذا الشجار بسبب موقفها من الخدم كان قديمًا. رآها أليفة جدًّا، ورأته متشددًا بغباء، وفظًّا ومطاطًا تجاه الآخرين.

تنزل إلى الدور الأرضي هادئة، بسلوكها القديم المحتشم، في وقت العشاء. مازال وجهه أصفر: من المؤكد أنها نوبة من نوبات الكبد، حيث يكون غريبًا جدًّا.- كان يقرأ كتابًا فرنسيًّا.

يسألها: «هل سبق أن قرأْتِ بروست؟».

«أنا متعبة، لكنه يصيبني بالملل».

«إنه استثنائي جدًّا في الواقع».

«ربما! لكنه يصيبني بالملل: كل هذه الحذلقة! ليست لديه مشاعر، لديه فقط تيارات من الكلمات عن المشاعر. أنا مرهقة من العقليات المختالة».

«هل تفضلين الحيوانات المختالة؟».

«ربما! لكن ربما أحصل على شيء ما ليس مختالًا».

«حسنًا، أحب براعة بروست وفوضاه الأصيلة».

«تجعلك ميتًا جدًّا، في الواقع».

«ها هي زوجتي المبشرة الصغيرة تتحدث».

عادوا إلى الشجار، عادوا إلى الشجار! لكن لم يكن بوسعها إلا الشجار معه. بدا أنه يجلس هناك مثل هيكل عظمي، يرسل إرادة رمادية

باردة لهيكل عظمي ضدها. تكاد تشعر بأن الهيكل العظمي يقبض عليها ويضغطها إلى قفص ضلوعه. وكان أيضًا غاضبًا جدًّا: وكانت تشعر ببعض الخوف منه.

تصعد إلى الدور العلوي بأسرع ما يمكن، وتذهب إلى السرير مبكرًا تمامًا. لكنها تنهض في التاسعة والنصف، وتخرج لتنصت. ليس هناك صوت. تلبس روبًا وتنزل إلى الدور الأرضي. يلعب كلفورد ومسز بولتون الكوتشينة، يقامران. ويحتمل أن يواصلا حتى منتصف الليل.

تعود كوني إلى غرفتها، تلقي البيجامة على السرير المنكوش، وترتدي ملابس تنس رقيقة وفوقها فستانًا من الصوف، وتلبس حذاء تنس من المطاط، ومعطفًا خفيفًا. تستعد. إذا قابلت أحدًا فهي خارجة فقط لبضع دقائق. وفي الصباح، حين تعود مرة أخرى، كانت في نزهة قصيرة في الطل، كما تفعل غالبًا قبل الإفطار. بالنسبة للبقية، كان الخطر الوحيد دخول أحد غرفتها في الليل. لكنه مستبعد: الاحتمال أقل من واحد في المائة.

لم يغلق بيتس الباب. كان يغلق المنزل في العاشرة، ويفتحه مرة أخرى في السابعة صباحًا. تتسلل في صمت ولا يراها أحد. هناك نصف قمر يسطع، بما يكفي لنشر بعض النور في العالم، ليس كافيًا ليراها أحد في معطفها الرمادي الغامق. تمشي بسرعة إلى المنتزه، ليست حقًّا في نشوة لقاء غرامي، لكن ببعض الغضب والتمرد يتأجج في قلبها. ليس قلبًا في وضع يسمح بأخذه إلى لقاء غرامي. لكن **الحرب هي الحرب**![1]

(١) بالفرنسية في الأصل.

الفصل الرابع عشر

حين تصل قرب بوابة المنتزه، تسمع طقطقة الترباس. إنه هناك، إذًا، في ظلمة الخميلة، وقد رآها!

يقول من الظلام: «أنت رائعة ومبكرة. هل كان كل شيء على ما يرام؟».

«كان الأمر سهلًا تمامًا».

يغلق البوابة بعدها بهدوء، ويسقط بقعة نور على الأرض المظلمة، كاشفًا الزهور الشاحبة التي تقف ساكنة متفتحة في الليل. يواصلان السير متباعدين، في صمت.

تسأل: «هل أنت متأكد من أنك لم تؤذِ نفسك في الصباح بذلك الكرسي؟».

«لا، لا!».

«متى أصبْتَ بذلك الالتهاب الرئوي، وماذا فعل لك؟».

«أوه، لا شيء! لم يعد قلبي قويًا ولم تعد رئتاي مرنتين. لكنه يفعل ذلك دائمًا».

«وعليك ألا تقوم بجهد جسدي عنيف؟».

«ليس غالبًا».

تتهادى في صمت غاضب.

تقول في النهاية: «هل كرهْتَ كلفورد؟»

«أكرهه، لا! قابلْتُ كثيرين مثله بشكل يجعلني لا أزعج نفسي بكراهيته. أعرف سلفًا ألا أهتم بنوعه، وأكتفي بذلك».

«ما نوعه؟».

«لأ، تعرفين أفضل مني. جنتلمان صغير يشبه الليدي إلى حد ما، وبدون كرات».[1]

«أية كرات؟».

«كرات! كرات الرجل!».

تفكر فيما قال.

تقول، منزعجة بعض الشيء: «لكن هل هذا هو المهم؟»

«تصفين الرجل بأنه لا عقل حين يكون أحمق؛ وبلا قلب حين يكون حقيرًا؛ وبلا معدة حين يكون رعديدًا. وحين لا يكون لديه أي قدر من ذلك الشيء البري الشجاع مما يتسم به الرجل، تصفينه بأنه بدون كرات. حين يكون مدجَّنًا».

(١) يتم شرح التعبير في السطور التالية، ويعني أنه جبان.

تفكر فيما قال.

تسأل: «وهل كلفورد مدجن؟».

«مدجن، ومقرف: مثل معظم رفاقه، حين تواجهينهم».

«وهل تعتقد أنك غير مدجن؟».

«ربما ليس تمامًا!».

بعد وقت طويل ترى نورًا أصفر عن بعد.

تقف ساكنة.

تقول: «هناك نور!».

يقول: «أترك عادة نورًا في المنزل».

تواصل السير مرة أخرى بجانبه، لكنها لا تلمسه، وتتساءل عما يجعلها تذهب معه عمومًا.

يفتح الباب، يدخلان، ويغلق الباب خلفهما. وكأنه سجن، تفكر! كان البراد يدندن بجوار المدفأة الحمراء، وأكواب على الطاولة.

تجلس على كرسي خشبي بذراعين بجوار المدفأة. كان المكان دافئًا بعد البرد في الخارج.

تقول: «سأخلع حذائي، إنه مبتل».

تجلس وقدماها بالجورب على الحاجز الصلب اللامع. يذهب إلى المخزن، ويحضر طعامًا: خبزًا وزبدًا ولحمًا محفوظًا. تشعر بالدفء: تخلع معطفها. يعلقه على الباب.

يسأل: «تشربين كوكا أم شايًا أم قهوة؟».

تقول وهي تنظر إلى الطاولة: «أعتقد أنني لا أريد أي شيء. لكن كُلْ».

«لأ، لا أهتم به. سأطعم الكلبة فقط».

يسير بهدوء حتمي على الأرضية القرميد، يضع الطعام للكلبة في وعاء بني. تنظر الكلبة السبيلية إليه بقلق.

يقول: «آه، ده عشاك، مش ضروري تبصي زي ما تكوني مش هتخديه».

يضع الوعاء على حصيرة الدرج، ويجلس على كرسي بجوار الحائط، ليخلع طماقه وحذاءه. تذهب الكلبة إليه مرة أخرى بدل أن تأكل، وتجلس وهي تتطلع إليه، منزعجة.

يفك طماقه ببطء. وتقترب الكلبة منه أكثر.

«وبعدين، إيه اللي ناقصك؟ مضيقة علشان فيه حد تاني هنا؟ إنتِ نتاية، إنتِ! روحي كلي عشاك».

يضع يده على رأسها، فتميل الكلبة برأسها جانبًا في مواجهته. ببطء ورقة يشد الأذن الحريرية الطويلة.

يقول: «هناك! هناك! روحي وكلي عشاك! روحي!».

يميل بمقعده باتجاه الوعاء على الحصيرة، وتذهب الكلبة بخنوع، وتأكل.

تسأله كوني: «هل تحب الكلاب؟».

«لا، لا في الواقع. إنها مدجنة جدًّا ولزقة».

يخلع طماقه ويفك رباط حذاءه الثقيل. تبتعد كوني عن المدفأة. كم كانت الغرفة الصغيرة عارية! لكن على الحائط فوق رأسه صورة مكبرة بشعة لزوجين شابين، من الواضح أنه هو وامرأة شابة بوجه جريء، لا شك أنها زوجته.

تسأله كوني: «هل هذا أنت؟».

يلف وينظر إلى الصورة المكبرة فوق رأسه.

ينظر إلى الصورة بتبلد: «آه! التقطت قبل الزواج مباشرة، وأنا في الحادية والعشرين».

تسأله كوني: «هل تحب الصورة؟».

«أحبها؟ لا! لم أحبها قط. لكنها ثبتتها لمجرد أن تثبتها، على هذا النحو».

وعاد يخلع حذاءه.

تقول: «لماذا تحتفظ بها معلقة إذا كنت لا تحبها؟ ربما تحب زوجتك أن تأخذها».

يتطلع إليها بابتسامة مفاجئة.

يقول: «اهتمت بأخد كل حاجة تستاهل تاخدها من البيت. وسابت دي!»

«لماذا تحتفظ بها إذًا؟ لأسباب عاطفية؟».

«لأ، عمري ما بصيت عليها. معرفش إنها هنا. متعلقة من ساعة ما جينا هنا».

تقول: «لماذا لا تحرقها؟».

يلف مرة أخرى وينظر إلى الصورة المكبرة. كانت في إطار بني مذهَّب بشع. فيها رجل حلق ذقنه وشاربه، يقظ، يبدو شابًّا جدًّا، بياقة مرتفعة، وامرأة شابة جريئة، ممتلئة بعض الشيء، شعرها منفوش ومجعد، ترتدي بلوزة سوداء من الساتان.

يقول: «لن تكون فكرة سيئة، أليس كذلك؟».

كان قد خلع حذاءه وانتعل شبشبًا. يقف على الكرسي وينزل الصورة. تترك مكانًا كبيرًا شاحبًا على ورق الحائط المخضر.

يقول وهو يضع الصورة بجوار الحائط: «لا فائدة من تنظيفها من الغبار الآن».

يذهب إلى المطبخ، ويعود بمطرقة وكماشة. يجلس حيث كان يجلس من قبل، يبدأ تمزيق خلفية الإطار الكبير، ويخلع الحُلِي التي تثبت اللوح الخلفي في موضعه، يعمل بانهماك تام على الفور، وكان هذا يميزه.

يخلع المسامير بسرعة: ويسحب اللوح الخلفي، ثم الصورة المكبرة نفسها، من الحامل الصلب الأبيض. ينظر إلى الصورة باستمتاع.

يقول: «تكشف لي ما كنت عليه، مساعد خوري شاب، وما كانت

عليه، متسلطة. مغرورة ومتسلطة!».

تقول كوني: «دعني أنظر!».

يبدو حليقًا جدًّا ونظيفًا تمامًا، أحد الشبان النظاف من عشرين سنة مضت. لكن حتى في الصورة كانت عيناه يقظتين وجسورتين. ولم تكن المرأة متسلطة إطلاقًا، رغم أن فكها ثقيل. فيها لمسة جاذبية.

تقول كوني: «ينبغي ألا نحتفظ بهذه الأشياء أبدًا. لا ينبغي لنا! ينبغي ألا نصنعها أبدًا!».

يمزق الصورة ويضعها على ركبته وحين تصبح قطعًا صغيرة جدًّا يضعها في النار.

يقول: «لكنها ستفسد النار».

يأخذ زجاج اللوح الخلفي بعناية إلى الدور العلوي.

ويحطم الإطار بضربات من المطرقة، فتطير الزخارف. ثم يأخذ القطع إلى المطبخ.

يقول: «نحرقه غدًا. عليه الكثير جدًّا من الجص».

يجلس بعد أن ينظف المكان.

تسأله: «هل تحب زوجتك؟».

يقول: «حب؟ هل تحبين السير كلفورد؟».

لكنها لم تكن لتسمح بأن يماطلها.

تصر: «هل تهتم بها؟».

تبتسم: «أهتم؟».

تقول: «ربما تهتم بها الآن؟».

تتسع عيناه: «أنا!» ويقول بهدوء: «آه، لا، لا يمكن أن أفكر فيها».

«لماذا؟».

يهز رأسه.

تقول كوني: «لماذا لا تطلقها إذًا؟ سوف تعود إليك ذات يوم».

ينظر إليها بحدة.

«لن تأتي على بعد ميل مني. تكرهني أكثر بكثير مما أكرهها».

«سترى أنها سوف تعود إليك».

«لن يحدث ذلك أبدًا. انتهى الأمر! سأصاب بالغثيان لو رأيتها».

«ستراها. وأنتما حتى لم تنفصلا قانونيًا، أليس كذلك؟».

«أجل».

«آه حسنًا، سوف تعود إذًا، وسيكون عليك أن تدخلها».

يحدق في كوني بثبات. ثم يحرك رأسه لها حركة غريبة.

«قد تكونين على حق. كنت أحمق دائمًا في العودة إلى هنا. لكنني شعرت بأنني محاصر وكان عليَّ أن أذهب إلى مكان ما. رجل بائس ضائع تلقى صفعة. لكنك على حق. سأطلقها وأتخلص منها. إنني أكره هذه الأشياء مثل الموت، الموظفين والمحاكم والقضاة. لكن ينبغي أن أتعامل معهم. سأحصل على الطلاق».

ترى التصميم على وجهه. تتهلل في أعماقها.

تقول: «أعتقد أنني سأتناول كوبًا من الشاي الآن».

ينهض ليصنع الشاي. لكن التصميم يبدو على وجهه. وهما يجلسان إلى الطاولة تسأل:

«لماذا تزوجتها؟ كانت من العامة أكثر منك. حدثتني مسز بولتون عنها. لم تفهم قط لماذا تزوجتها».

ينظر إليها بثبات.

يقول: «سأخبرك. الفتاة الأولى التي تعرفت عليها، بدأت معها وأنا في السادسة عشرة، كانت ابنة مدرس مدرسة في أوليرتون[1]، فاتنة، جميلة حقًّا. كان يفترض أنني فتى ماهر من مدرسة شفيلد جرامر، على دراية ببعض الفرنسية والألمانية، متفوق جدًّا. وكانت من النوع الرومانسي الذي يكره الشائع. شجعتني على الشعر والقراءة: بطريقة ما جعلت مني رجلًا. كنت أقرأ وأفكر بحماس شديد، من أجلها. وكنت كاتبًا في مكاتب بترلي[2]، فتى شاحب الوجه محتشدًا بكل ما قرأته. وتحدثت معها عن **كل شيء**: عن كل شيء. تحدثنا عن بيرسبوليس وتمبكتو[3]. كنا أكثر ثنائي مثقف أدبيًّا في المقاطعات العشرة. واصلت الحديث معها بنشوة، بنشوة إيجابية. احترقت ببساطة. وهامت بي. وكان الجنس هو

---

(١) بلدة صغيرة في نوتنجهام شاير، إنجلترا.

(٢) قرية في ديربيشاير، إنجلترا.

(٣) بيرسبوليس: مدينة في بلاد فارس القديمة، كانت تقع شمال شرق شيرازر. تبمكتو: مدينة في مالي.

الثعبان المختبئ في العشب. بشكل ما لم تمارسه؛ أو على الأقل لم تمارسه حيث يفترض أن يمارس. صرْتُ أكثر نحافةً وجنونًا. قلْتُ ينبغي أن نكون عاشقين. حدثتها في ذلك كالمعتاد. فتركتني. كنت مثارًا دائمًا، ولم تكن تريد قط. كانت فقط لا تريد. هامت بي، أحبتني لأتحدث إليها وأقبِّلها: بهذه الطريقة شعرت بعاطفة تجاهي. لكن بالنسبة للمسألة الأخرى، لم تكن تريد فقط. وكانت هناك نساء كثيرات مثلها. **وكنت** أريد الأخرى فقط. انفصلنا. كنت قاسيًا، وتركتها. ثم التقيتُ بفتاة أخرى، مُدرِّسة، كانت لها فضيحة بإقامة علاقة مع رجل متزوج ودفعته إلى حافة الجنون. كانت رقيقة، بيضاء، امرأة من النوع الرقيق، أكبر مني، تعزف على الكمان. وكانت شيطانة. تحب كل شيء في الحب، إلا الجنس. الالتصاق، المداعبة، الزحف إليَّ بكل الطرق: لكنني إذا أرغمْتُها على الجنس نفسه، تكز على أسنانها وتنطلق منها الكراهية. أكرهْتُها عليه، وقد شلتني بالكراهية بسبب ذلك. ضعت مرة أخرى. كرهت هذا كله. كنت أريد امرأة تريدني، وتريده.

«ثم جاءت بيرتا كوتس. كانوا يسكنون في البيت المجاور لنا وأنا فتى صغير، وكنت أعرفهم جيدًا. كانوا من العامة. ذهبت بيرتا إلى مكان ما في برمنجهام؛ مصاحبة لسيدة، كما قالت؛ ونادلة أو شيئًا ما في فندق، كما قال الجميع. وعلى أية حال، بالضبط وقد سئمت جدًّا من العلاقة مع تلك الفتاة الأخرى، وأنا في الحادية والعشرين، عادت بيرتا، بمظهر جميل وملابس أنيقة ونوع من البريق: نوع من البريق الحسي الذي تربنه أحيانًا في المرأة، أو في ترولّلي. حسنًا، كنت في حالة قتل. استقلت من

وظيفتي في بترلي لأنني اعتقدْتُ أنني عشبة ضارة، وأنا كاتب هناك: وعملت حدادًا في تفرشال: أصنع حدوات للجياد غالبًا. كانت وظيفة أبي، وكنت معه دائمًا. كانت وظيفة أحببتها: التعامل مع الجياد: وقد جاءتني بشكل طبيعي. وتوقفت عن الحديث 'الراقي'، كما يصفونه، عن الحديث بإنجليزية سليمة، وعدت إلى الحديث بالعامية. مازلت أقرأ الكتب، في البيت: لكنني مارست الحدادة ووفرت خمسة وعشرين جنيهًا بمجهودي، وكانت اللورد دكفوت[1] بالنسبة لي. وترك أبي لي ثلاثمائة جنيه حين مات. فواصلت علاقتي مع بيرتا، وكنت سعيدًا بأنها من العامة. كنت أريدها من العامة. وأريد أن أكون من العامة. حسنًا، تزوجتها، ولم تكن سيئة. أولئك النساء الأخريات 'النقيات' استنفدن كل حماسي تقريبًا، لكنها كانت على ما يرام في هذه المسألة. كانت تريدني، ولم تحاول إخفاء ذلك. وقد سررْتُ جدًّا. كان هذا ما أريده: إمرأة تريد أن أضاجعها. فضاجعتها بشكل جيد. وأعتقد أنها احتقرتني بعض الشيء لأنني سررْتُ بالعملية، وكنت آتي لها بإفطارها في السرير أحيانًا. وكانت تهمل بعض الأمور، لم تكن تجهز لي عشاء مناسبًا حين أعود إلى البيت من العمل، وإذا قلْتُ أي شيء، تهب في فأهب فيها، بقوة وعنف. قذفت بكوب عليَّ فأمسكتها من مؤخرة العنق وكدت أقتلها. وأشياء من هذا القبيل! لكنها عاملتني بوقاحة. واستمرت على هذا الوضع ولم تعد تستجيب لي قط حين أريدها: قط. كانت تنفرني باستمرار، بوحشية كما تحبين. وحين نفرتني تمامًا، لم أعد أريدها، تصبح رومانسية تمامًا،

(١) أو اللورد رجل البطة، اسم كوميدي، يطلق على من يعيش حياة جنتلمان رغم أنه عامل عادي.

وتحصل على ما تبتغي. وكنت أستجيب دائمًا. لكن حين آتيها، لم تكن تصل قط حين أصل. قط. كانت تنتظر فقط. إذا بقيت نصف ساعة، تبقى فترة أطول. وحين أنتهي حقًّا، تبدأ لحسابها الخاص، ويكون عليَّ أن أبقى بداخلها حتى تصل إلى الذروة، ترتجف وتصرخ، وتتشبث هناك، ثم تصل إلى الذروة، في نشوة تامة. ثم تقول: ذلك جميل! تدريجيًّا سئمت هذا: وصارت أسوأ. وصار إيصالها إلى الذروة أصعب وأصعب، وكانت تمزقني، كما لو كانت منقارًا يمزقني. بربك، هل تتصورين امرأة رقيقة هناك، مثل تينة. لكني أخبرك عن الزاحفات العجائز اللائي لهن مناقير بين أرجلهن، ويمزقن المرء حتى يمرض. الذات! الذات! الذات! الذات تمامًا! يمزقن ويصرخن! يتحدثون عن أنانية الرجال، لكنني أشك إن كان يمكن أن تمس المنقار الأعمى لامرأة، بمجرد أن تمضي في هذا الطريق. مثل عاهرة عجوز! ولم تكن لها حيلة في ذلك. حدثْتُها في الأمر، أخبرتها عن مدى كراهيتي له. وقد حاولت. حاولت أن تستلقي ساكنة وتتركني أقوم بالمهمة. حاولت. لكن بدون جدوى. لم تشعر بشيء مما أقوم به. كان عليها أن تقوم بالأمر بنفسها، أن تطحن قهوتها بنفسها. وعادت إليها الفكرة مثل ضرورة جامحة، وتركت نفسها تنساق، وتمزق، تمزق، تمزق، وكأنها لا تشعر بإحساس داخلها إلا في قمة منقارها، الطرف العلوي الخارجي جدًّا، الذي يحك ويمزق. هذا ما اعتادت عليه العاهرات العجائز، كما اعتاد الرجال أن يقولوا. كان نوعًا رديئًا من الإرادة الذاتية فيها، نوعًا جامحًا من الإرادة الذاتية: كما في امرأة تشرب. حسنًا، في النهاية لم أحتمل. نمنا متباعدين. بدأت هي نفسها،

في نوباتها حين أرادت أن تتخلص مني، حين قالت إنني أتسلط عليها. بدأت تتخذ غرفة لنفسها. لكن جاء وقت لم أكن أحتمل أن تأتي إلى غرفتي. لم أعد أحتمل.

«كرهت الأمر. وكرهتني. يا إلهي، كم كرهتني قبل أن تولد هذه الطفلة! أعتقد غالبًا أنها حملت بها نتيجة الكراهية. وعلى أية حال، بعد أن ولدت الطفلة، تركْتُها وحدها. ثم جاءت الحرب، وجندت. وحين رجعت عرفت أنها مع رفيق في ستاكس جيت».

يتوقف، شاحب الوجه.

تسأل كوني: «وماذا يشبه الرجل في ستاكس جيت؟».

«طفل كبير في صورة رجل، بذيء اللسان. تتسلط عليه، والاثنان يسكران».

«أوه، لو رجعتْ!».

«يا إلهي، أجل! ينبغي أن أذهب، أن أختفي مرة أخرى».

يسود الصمت. وتحترق ورقة الكرتون في النار وتتحول إلى رماد رمادي.

تقول كوني: «وهكذا حين حصلْتَ على امرأة تريدك، حصلْتَ على شيء جيد جدًّا».

«آي! يبدو ذلك! وكنت أفضل أن أضاجعها أكثر ممن كُنَّ يرفضن دائمًا: الحب الأبيض في شبابي، وتلك الزنبقة الأخرى سامة الرائحة، والبقية».

تقول كوني: «ماذا عن البقية؟».

«البقية؟ ليست هناك بقية. في حدود خبرتي جمهور النساء على هذه الشاكلة: يريد معظمهن رجلًا، ولا يردن الجنس، يقبلنه على مضض، جزءًا من الصفقة. النوع الأكثر قدمًا يستلقين فقط مثل العدم ويتركن المرء يمضي قدمًا. لا يبالين بما يحدث بعد ذلك: ثم يعجبن به. لكن الشيء الحقيقي نفسه عدم بالنسبة لهن، مثير للاشمئزاز. بالإضافة إلى ذلك معظم الرجال يحبون هذه الطريقة. أكرهها. لكن النساء السخيفات بهذا الشكل يتظاهرن بأنهن لسن كذلك. يتظاهرن بأنهن عاطفيات ويشعرن بالنشوة. لكنه محض هراء. إنهن يصطنعنه. ثم هناك من يحببن كل شيء، كل أنواع المشاعر ويرحبن بها ويصلن إلى الذروة، من كل نوع إلا النوع الطبيعي. يجعلن المرء يصل دائمًا إلى الذروة حين لا يكون في المكان الوحيد الذي ينبغي أن يكون فيه، حين يصل إلى الذروة.- ثم هناك النوع الصعب، لا يصل الشيطان معهن إلى الذروة إطلاقًا، ويصلن هن إلى الذروة، مثل زوجتي. يردن أن يكنَّ شريكًا فعَّالًا.- ثم هناك النوع الميت في داخله: لكنهن موتى: ويعرفن ذلك. ثم هناك من يرهقن المرء قبل أن 'يصل' حقًّا، ويمضين يرجرجن خواصرهن حتى يصلن إلى الذروة على وركيه. لكنهن من النوع السحاقي غالبًا. مدهشة حقيقة السحاقيات، بوعي أو بدون وعي. يبدو لي أنهن جميعًا سحاقيات تقريبًا».

تسأل كوني: «هل تمانع؟».

«يمكن أن أقتلهن. حين أكون مع سحاقية حقًّا، أصرخ من أعماقي، رغبة في قتلها».

«وماذا تفعل؟».

«أبتعد عنها بأسرع ما يمكن».

«لكن هل تعتقد أن النساء السحاقيات أسوأ من الرجال المثليين؟»

«أعتقد! لأنني عانيت منهن أكثر. وبشكل مجرد، ليست لديَّ فكرة. حين أكون مع سحاقية، سواء تعرف أو لا تعرف أنها سحاقية، يجتاحني الغضب. لا، لا! لكنني لم أعد أريد فعل أي شيء مع أية امرأة. أريد أن أبقى وحيدًا. أحافظ على خصوصيتي واحتشامي».

يبدو شاحبًا، ومكفهرًّا.

تسأل: «وهل أسفْتَ على ظهوري في حياتك؟».

«أسفْتُ وسعدْتُ».

«وبم تشعر الآن؟».

«بالأسف، من الخارج: كل التعقيدات والبشاعة والاتهامات التي ستسأتي، عاجلًا أو آجلًا. حين تبرد الدماء، وأشعر بالاكتئاب. لكن حين تتأجج الدماء، أكون سعيدًا. وقد أشعر حتى بنشوة الانتصار. كنت أشعر بالمرارة حقًّا. اعتقدْتُ أنه لم يعد هناك جنس حقيقي: لم تعد هناك قط امرأة «تصل» بشكل طبيعي مع رجل: باستثناء الزنجيات، وبشكل ما، حسنًا، نحن الرجال البيض: وهن مثل الوحل إلى حد ما».

تسأل: «والآن، هل أنت سعيد بي؟».

«أجل! حين أستطيع نسيان البقية. وحين لا أستطيع نسيان البقية، أود أن أنزل تحت الطاولة وأموت».

«لماذا تحت الطاولة؟».

يضحك» «لماذا؟ أختبئ، على ما أفترض. رضيع!».

تقول: «يبدو أنك مررْتَ بتجارب بشعة مع النساء».

«ترين، لم أستطع خداع نفسي. وهو ما ينجح فيه معظم الرجال. يأخذون موقفًا، ويقبلون كذبة. لم أستطع قط خداع نفسي. كنت أعرف ما أريده من المرأة، ولم أستطع قط أن أقول إنني حصلت عليه حين لا أحصل عليه».

«وهل حصلت عليه الآن؟».

«يبدو وكأنني حصلت عليه».

«إذًا لماذا أنت شاحب وكئيب؟».

«متخم بالذكريات: وربما خوفًا من نفسي».

تجلس في صمت. كان الوقت متأخرًا جدًّا.

تسأله: «وهل تعتقد أن هذا مهم، رجل وامرأة؟».

«بالنسبة لي مهم. إنه جوهر حياتي بالنسبة لي: إن كنت على علاقة سوية بامرأة».

«وإذا لم تحصل عليها».

«يكون عليَّ إذًا أن أتأقلم على الحياة بدونها».

مرة أخرى تفكر قبل أن تسأل:

«وهل تعتقد أنك كنت دائمًا على حق مع النساء؟».

«يا إلهي، لا! تركت زوجتي تصل إلى ما وصلت إليه: غلطتي إلى حد بعيد. أفسدْتُها. وأنا شكَّاك جدًّا. عليك أن تتوقعي ذلك. يستغرق الأمر كثيرًا لأثق في أي شخص، داخليًّا. وربما أكون محتالًا أيضًا. أرتاب. والحنان ليس خطأ».

تنظر إليه.

تقول: «لا ترتاب في جسدك، حين تثور دماؤك. لا ترتاب حينذاك، أليس كذلك؟».

«لا، للأسف! هكذا وقعت في كل المشاكل. وهذا ما يجعل عقلي يرتاب تمامًا».

«دع عقلك يرتاب. ما المشكلة!».

تتنهد الكلبة بعدم ارتياح على الحصيرة. وتخمد النار المثقلة بالرماد.

تقول كوني: «إننا محاربان جريحان».

يضحك: «هل أنت جريحة أيضًا؟ ونحن هنا عائدان إلى المعركة!»

«أجل! أشعر برعب حقيقي».

«آي!».

ينهض، ويضع حذاءها ليجف، ويجفف حذاءه ويضعه قرب المدفأة. سيكون عليه تلميعه في الصباح. يحرك رماد الصورة خارج النار بقدر المستطاع. ويقول: «إنها قذرة حتى بعد أن احترقت». ثم يحضر قطعًا صغيرة من الخشب ويضعها على الصفيحة للصباح. ثم يخرج برهة مع الكلبة.

حين يعود، تقول كوني:

«أريد أن أخرج أنا أيضًا، لدقيقة».

تمضي وحدها في الظلام. وكانت هناك نجوم في الأفق. تشم رائحة الزهور في هواء الليل. وتشعر بأن حذاءها المبتل ابتل أكثر. وتشعر وكأنها تبتعد، تبتعد تمامًا عنه وعن الجميع.

كان الجو قارسًا. ترتجف، وتعود إلى المنزل. كان يجلس أمام النار المنخفضة.

تقول وهي ترتجف: «أوف! برد!».

يضع قطع الخشب في النار، ويجلب المزيد، حتى صارت شعلة كبيرة تطقطق. يسعدهما تموج اللهب الأصفر، ويدفئ وجهيهما وروحيهما.

تقول وهي تأخذ يده وهو يجلس صامتًا وشاردًا: «لا تبالِ! نفعل أقصى ما في وسعنا».

يتنهد بابتسامة ملتوية: «آي!».

تنزلق إليه، في ذراعيه، وهو يجلس أمام النار.

تهمس: «انسَ إذًا! انسَ!».

يحضنها بقوة، ودفء النار يسري. اللهب نفسه مثل النسيان. ووزنها الرقيق الدافئ الرائع! ببطء تعود دماؤه، وتبدأ تميل مرة أخرى إلى القوة والحيوية المستهترة.

تقول: «لكن قد ترغب النساء **حقًا** في أن يَكُنَّ هناك ويحببنك بشكل مناسب، ولا يستطعن. ربما لم تكن غلطتهن تمامًا».

«أعرف ذلك. هل تعتقدين أنني لا أعرف أن الثعبان مكسور الظهر الذي ديس كان أنا نفسي».

تلتصق به فجأة. لم ترغب في بدء هذا كله مرة أخرى. لكن دفعها بعض الانحراف.

تقول: «لكنك لسْتَ الآن. لسْتَ ذلك الآن: الثعبان مكسور الظهر الذي ديس».

«لا أعرف من أنا. أمامي أيام سوداء».

تعترض متشبثة به: «لا! لماذا؟ لماذا؟».

يكرر باكتئاب نبوئي: «هناك أيام سوداء قادمة بالنسبة لنا وبالنسبة للجميع».

«لا! لا تقل ذلك!».

يصمت. لكنها تشعر بخواء اليأس الأسود في أعماقه. وكان موت الرغبة كلها، موت الحب كله: ذلك اليأس مثل كهف مظلم داخل البشر، فيه تضيع أرواحهم.

تقول: «وتتحدث بهذا البرود عن الجنس. تتحدث وكأنك لا تريد إلا متعتك ونشوتك».

كانت تعترض عليه بعصبية.

يقول: «لأ! أريد الحصول على لذتي ونشوتي من امرأة، ولم أحصل عليهما قط: لأنني لا أستطيع الحصول على متعتي ونشوتي منها إلا إذا حصلتْ عليهما في الوقت ذاته. وهذا لم يحدث قط. الأمر يشمل اثنين».

تقول: «لكنك لم تثق بنسائك قط. أنت لا تثق حتي بي».

«لا أعرف ماذا تعني الثقة بامرأة».

«هذه هي المسألة، ترى!».

مازالت تقبع في حجره. لكن روحه رمادية وغائبة، لم يكن هناك بالنسبة لها. وكان كل ما تقوله يبعده أكثر.

تلحُّ: «هل تثق فيَّ؟».

«لا أعرف».

تقول: «عدم، مثل كل الرجال الذين عرفْتُهم».

يصمت الاثنان. ثم ينهض ويقول:

«أجل، أثق في شيء ما. أثق في أنني دافئ القلب. أثق خاصة في أنني دافئ القلب في الحب، في المضاجعة بقلب دافئ. أثق في أنه إذا استطاع الرجال المضاجعة بقلوب دافئة، واستطاعت النساء التعامل مع الأمر بقلوب دافئة، فسوف يكون كل شيء على ما يرام. هذه المضاجعة بقلب بارد هي الموت والغباء».

تعترض: «لكنك لم تضاجعني بقلب بارد».

«لا أريد أن أضاجعك إطلاقًا. قلبي بارد مثل البطاطس الباردة الآن».

تقول وهي تقبله ساخرة: «أوه! لنتناولها **مقلية**». يضحك، ويعتدل في جلسته.

يقول: «إنها حقيقة! أي شيء من أجل القليل من دفء القلب. لكنه لا يعجب النساء. حتى أنت لا يعجبك. تعجبك المضاجعة الجيدة الحادة النافذة بقلب بارد، ثم تتظاهرين بأنها حلوة جدًّا. أين حنانك عليَّ؟ ترتابين فيَّ كما ترتاب قطة في كلب. أقول لك إنها عملية تشمل اثنين لتكون لطيفة وبقلب دافئ. تحبين المضاجعة تمامًا: لكنك تريدنها لتوصف بأنها شيء عظيم وغامض، بالضبط لتشبعي غرورك. غرورك أكثر أهمية بالنسبة لك، أكثر خمسين مرة، من أي رجل، أو من وجودك مع رجل».

«لكن هذا ما أقوله لك. غرورك هو كل شيء بالنسبة لك».

يقول، وهو يتحرك، كأنه يريد أن ينهض: «آي! حسنًا جدًّا إذًا. لنبتعدْ إذًا. أفضل أن أموت ولا أقوم بأية مضاجعة أخرى بقلب بارد».

تبتعد عنه، وتقف.

تقول: «وهل تعتقد أنني أريدها؟».

يرد: «أتمني ألا تريديها. لكن على أية حال، اذهبي إلى السرير وأنام هنا».

تنظر إليه. كان شاحبًا، ومتجهمًا، ومبتعدًا مثل قطب بارد. الرجال متشابهون تمامًا.

تقول: «لا يمكن أن أعود إلى البيت قبل الصباح».

«لا! اذهبي إلى السرير. إنها الواحدة إلا الربع».

تقول: «لن أذهب بالتأكيد».

يجتاز الغرفة ويتناول حذاءه.

يقول: «أخرج أنا إذًا!».

يبدأ انتعال الحذاء. تحدق فيه.

تقول مداهنة: «انتظر! انتظر! ماذا يحدث بيننا؟».

ينحني، يربط الحذاء، ولا يرد. تمر اللحظات. تشعر بغشاوة تجتاحها، مثل إغماءة. يموت كل وعيها، وهي تقف بعينين واسعتين، تنظر إليه من المجهول، ولم تعد تعرف شيئًا.

ينظر إليها، في الصمت، يراها واسعة العينين وشاردة. ينهض وكأن ريحًا ضربته ويعرج إليها، فردة حذاء في رجل وفردة مخلوعة، ويأخذها في ذراعيه، ويضغطها إلى جسمه، وقد شعر بشكل ما بالأذى تمامًا. وهناك ضمها، وهناك بقيت.

حتى امتدت يداه بدون وعي إلى أسفل وتحسس جسدها، وتحسس تحت الملابس حيث النعومة والدفء.

يهمهم: «يا حبيبتي! يا حبيبتي الصغيرة! مش لازم نتخانق! مش لازم نتخانق أبدًا! بحبك وبحب لمستك. متجادليش معايا! متجادليش! متجادليش! متجادليش! لنكن معًا».

ترفع وجهها وتنظر إليه.

تقول بثبات: «لا تنزعج. ليس جيدًا أن تنزعج. هل تريد حقًّا أن تكون معي».

تنظر بعينين واسعتين ثابتتين في وجهه. يتوقف، ويسكن فجأة، مشيحًا بوجهه. ويسكن جسمه تمامًا، لكنه لا يتراجع.

ثم يرفع رأسه وينظر في عينيها، بابتسامته الغريبة الساخرة الشاحبة، ويقول: «آي-آي! لنقسم أن نكون معًا».

تقول، وعيناها مليئتان بالدموع: «لكن حقًّا؟».

«آي حقًّا! بالقلب والبطن والقضيب».

ومازال يبتسم ابتسامته الشاحبة، وفي عينيه ومضة سخرية، ومسحة مرارة.

تبكي في صمت، وقد استلقتْ معه على سجادة المدفأة، وهكذا يشعران بقدر من الاتزان. ويذهبان بسرعة إلى السرير، لأن الجو يزداد برودة، وكان كل منهما قد أرهق الآخر. تستكين في حضنه، وتشعر بأنها ضئيلة ومحتواة، ينامان فورًا، نومًا عميقًا. هكذا تمددا ولم يتحركا قط، حتى أشرقت الشمس على الخميلة وبدأ النهار.

ثم يستيقظ وينظر إلى النور. كانت الستائر مسدلة. ينصت إلى النداء البري العالي للشحارير والسمان في الخميلة. كان صباحًا رائعًا، في الخامسة والنصف تقريبًا، ساعة استيقاظه. نام بعمق! كان يومًا جديدًا! والمرأة مازالت نائمة ملتفة ورقيقة. تتحرك يده عليها، فتفتح عينيها الزرقاوين المندهشتين، مبتسمة بلا وعي في وجهه.

تقول له: «هل استيقظْتَ؟».

ينظر في عينيها. يبتسم، ويقبِّلها. وفجأة تنهض وتجلس.

تقول: «تخيل أنني هنا!».

تنظر حولها في غرفة النوم الصغيرة المطلية بالجير بسقفها المائل ونافذتها الجملون حيث الستائر البيضاء مغلقة. كانت الغرفة خالية إلا من خزانة بأدراج مطلية بالأصفر وكرسي: والسرير الأبيض الصغير الذي تتمدد فيه معه.

تقول، وهي تنظر إليه: «تخيل أنني هنا!» كان مستلقيًا يشاهدها، ويداعب ثدييها بأصابعه، من تحت قميص النوم الرقيق. حين كان دافئًا وسلسًا، بدا شابًا وسيمًا. عيناه مفعمتان بالحنان. وكانت يانعة وشابة مثل زهرة.

تقول، وهي تلم قميص النوم الباتيستة الرقيق وتسحبه على رأسها: «أريد أن أخلعه!» تجلس بكتفين عاريين وثديين متدليين ذهبيين. ويحب أن يؤرجح ثدييها برقة، مثل جرسين.

تقول: «ولابد أن تخلع بيجامتك أيضًا».

«إيه، لأ!».

تأمر: «أجل! أجل!».

يخلع جاكيت بيجامته القطنية القديمة، ويسحب البنطلون. باستثناء يديه ورسغيه ووجهه وعنقه كان أبيض مثل الحليب، بجسد قوي نحيل ناعم. بالنسبة لكوني صار فجأة جميلًا جدًا مرة أخرى، كما رأته بعد

ظهيرة اليوم الذي كان يستحم فيه.

يمس ذهب أشعة الشمس الستارة البيضاء المغلقة. تشعر أنها تريد أن تدخل.

تقول: «أوه، اسحب الستارة! الطيور تغرد! دع الشمس تدخل».

ينزلق من السرير وظهره لها، عاريًا وأبيض ونحيلًا، ويذهب إلى النافذة، ويسحب الستارة وينظر إلى الخارج لحظة. ظهره أبيض وناعم، والردفان الصغيران جميلان برجولة رائعة ورقيقة، وقفاه أحمر ورقيق لكنه قوي.

في الجسد الرقيق الناعم قوة داخلية لا خارجية.

تقول: «لكنك جميل! نقي جدًّا وناعم! تعال!» وتفتح ذراعيها.

يخجل من العودة إليها، بسبب عريه المثار.

يمسك بقميصه من على الأرض، ويضمه إليه، وهو يتجه إليها.

تقول وهي لا تزال تمد ذراعيها الجميلتين النحيلتين من ثدييها المتدليين: «لا! دعني أشاهدك!».

يسقط القميص ويقف ساكنًا ينظر باتجاهها. ترسل الشمس من خلال النافذة شعاعًا أضاء وركيه وبطنه النحيل وقضيبه المنتصب يرتفع قاتمًا وجذابًا من السحابة الصغيرة للشعر الأحمر الذهبي الزاهي. تجفل وتخاف.

تقول ببطء: «يا له من غريب! يا له من غريب يقف هناك! كبير جدًّا! وقاتم جدًّا وبغطرسة هائلة! هل هو على هذا النحو؟».

ينظر الرجل إلى أسفل، إلى جسمه الأبيض المرهف، ويضحك. بين الثديين النحيلين كان الشعر قاتمًا، أسود تقريبًا. لكن جذر البطن، حيث يرتفع القضيب سميكًا ومقوسًا، كان أحمر ذهبيًّا، وزاهيًا في سحابة صغيرة.

تهمهم بقلق: «مغرور جدًّا! متعجرف جدًّا! أعرف الآن لماذا الرجال متغطرسون جدًّا! لكنه جميل، **حقًّا**. مثل كائن آخر! رهيب بعض الشيء! لكنه جميل حقًّا! ويأتي إليَّ!-» وتمسك بشفتها السفلى بين أسنانها، خوفًا واستثارة.

ينظر الرجل في صمت إلى القضيب المتوتر، الذي يبقى على حاله.- ويقول في النهاية بصوت منخفض: «آي! آي فتاي! أنت هناك بشكل ملائم جدًّا. يي، لازم ترفع راسك! هناك على صاحبك، إيه؟ ومتهتمش بحد! متصغرنيش، يا جون توماس. أنت ريسي؟ إيه كويس، أنت مغرور أكتر مني، ومبتتكلمش كتير. يا جون توماس! مش عايزها؟ مش عايز ستي؟ متجبليش العار مرة تانية، يلا. آي، قوم وابتسم.- اسألها بقى! اسأل الليدي جين![1] تكلم: ارفعن أيتها الأرتاج رؤوسكن، وارفعنها أيتها الأبواب الدهريات، فيدخل ملك المجد[2]. آي، حط خدك عليه! البتاع، فيه إيه تاني بعده. قل لليدي جين إنك عايز البتاع. جون توماس، والليدي جين!-».

---

(١) جون توماس: القضيب. الليدي جين: الفرج.

(٢) المزامير، الإصحاح ٢٤ آية ٩، عن الترجمة العربية للكتاب المقدس.

تقول كوني: «أوه، لا تزعجه»، وهي تزحف على ركبتيها على السرير باتجاهه وتضع ذراعيها حول خاصرتيه المرهفتين البيضاوين، وتسحبه إليها حتى يلمس ثدياها المتدليان المتأرجحان طرف القضيب المنتصب المثار، ويشعران بقطرة من الرطوبة. تحتضن الرجل بقوة.

يقول: «استلقي! استلقي! دعيني آتِ!» وكان الآن في عجلة من أمره.

وبعد ذلك، حين يسكنان تمامًا، تكشف المرأةُ الرجلَ مرة أخرى، لتنظر إلى سر القضيب.

تقول، وهي تأخذ القضيب الصغير الرقيق في يدها: «والآن صغير، رقيق مثل برعم صغير من براعم الحياة. أليس جميلًا بشكل ما! في حد ذاته، غريبًا جدًّا وبريئًا جدًّا! وهو يتوغل بعيدًا فيَّ! ولا ينبغي أن تهينه أبدًا، تعرف. إنه يخصني أيضًا. لا يخصك وحدك! إنه يخصني! وهو جميل جدًّا وبريء!» وهي تمسك بالقضيب رقيقًا في يدها.

يضحك.

يقول: «مباركة هي الرابطة التي تربط قلبينا بحب أصيل».

تقول: «بالطبع! حتى حين يكون رقيقًا وصغيرًا أشعر ببساطة بأن قلبي يرتبط به. وكم هو جميل شعرك هناك! مختلف تمامًا، تمامًا!».

يقول: «إنه شعر جون توماس، لا شعري!».

«جون توماس! جون توماس!» وتقبل بسرعة القضيب الرقيق، وقد بدأ يستثار مرة أخرى.

يقول الرجل، وهو يتمطع بألم تقريبًا: «آي! جذوره في روحي،

جذور هذا الجنتلمان! وساعات ما أعرفش إيه اللي بيحصله. آي، ليه إرادة تخصه، وصعب جدًّا تسيطري عليه. لكن مش هأقتله».

تقول: «لا غرابة في أنك كنت تخشاه دائمًا. إنه رهيب».

كانت الرجفة تسري في جسد الرجل، وتيار الوعي يغير اتجاهه مرة أخرى، متجهًا إلى أسفل. وكان مغلوبًا على أمره والقضيب في تموجات بطيئة ورقيقة يمتلئ ويندفع وينتصب، ويصبح صلبًا، يقف هناك صلبًا ومعجبًا بنفسه، بشكله الضخم الغريب. وترتجف المرأة أيضًا بعض الشيء وهي تشاهد.

يقول الرجل: «ها هو! خذيه إذًا! إنه ملكك».

ترتجف، ويذوب عقلها. تجتاحها موجات حادة رقيقة من لذة لا توصف وهو يدخل فيها، وتبدأ النشوة الذائبة الغريبة تنتشر وتنتشر إلى أن أثيرت بآخر تدفق أعمى إلى أقصى حد.

يسمع عن بعد من ستاكس جيت صفارات الساعة السابعة. كان صباح الاثنين. يرتعش قليلًا، وبوجهه بين ثدييها يضغط ثدييها الرقيقين إلى أعلى أذنه، حتى لا يسمع.

لم تسمع حتى الصفارات. تستلقي ساكنة تمامًا، وقد شفَّتْ روحها.

يهمهم: «لابد أن تنهضي، أليس كذلك؟».

يأتي صوتها بلا لون: «كم الساعة؟».

«صفارات الساعة سابعة كانت من شويه».

«أعتقد أنني لابد أن أنهض».

تستاء كما استاءت دائمًا، الإكراه من الخارج.

يجلس وينظر بانشداه من النافذة إلى الخارج.

تسأل بهدوء: «تحبني، أليس كذلك؟».

ينظر إليها.

يقول، عابسًا بعض الشيء: «إنتِ عارفة ما أنتي عارفة. ليه السؤال!»

تقول: «أريد أن تبقيني، لا أن تتركني أذهب».

تبدو عيناه ممتلئتين بظلمة دافئة رقيقة حتى أنه لا يستطيع التفكير.

«متى؟ الآن؟»

«الآن في قلبك. ثم أريد أن آتي وأعيش معك، دائمًا، بسرعة».

يجلس عاريًا في السرير، ورأسه متدلٍّ، عاجزًا عن التفكير.

تسأل: «ألا ترغب في ذلك؟».

قال: «آي!».

ثم بالعينين نفسيهما قاتمتين بلهب شعوري آخر، مثل النوم تقريبًا، ينظر إليها.

قال: «متسألنيش. سبيني. معجب بيكِ. بحبك. بحبك وإنتِ ممددة كده. المرأة شيء جميل لما تمارس الجنس بعمق، ويكون بتاعها كويس. أنا بحبك، رجليكِ، وشكلك، والأنوثة اللي فيكِ. أنا بحب الأنوثة اللي فيكِ. أنا بحبك بروحي وقلبي. متسألنيش. متصمميش إني أرد عليكِ. خليني كده شوية. ممكن تسأليني عن كل حاجة بعد كده. سبيني، سبيني!».

وبرقة، يضع يده على عانتها، على الشعر البني البكر الناعم، ويجلس ساكنًا وعاريًا على السرير، ووجهه ساكن في تجرد جسدي، مثل وجه

بوذا تقريبًا. ساكن، وفي شعلة غير مرئية للوعي الآخر، يجلس ويده عليها، ينتظر.

بعد برهة، يتناول قميصه ويرتديه، يرتدي ملابسه بسرعة في صمت، وينظر إليه مرة وهي مازالت تستلقي عارية وذهبية بشكل شاحب مثل وردة مجد ديجون[١] في السرير، ويمضى. تسمعه في الدور الأرضي يفتح الباب.

وتظل مستلقية متأملة، متأملة. من الصعب جدًّا أن تمضي: أن تخرج من ذراعيه. ينادي من أسفل الدرج: «السابعة والنصف!» تتنهد، وتنهض من السرير. الغرفة الصغيرة الخاوية! لا شيء فيها إلا خزانة الأدراج الصغيرة والسرير الصغير. لكن أرضية الألواح الخشبية نظيفة. وفي الزاوية بجوار النافذة الجملون رف عليه بعض الكتب، وبعضها من مكتبة متنقلة. تلقي نظرة. هناك كتب عن روسيا البلشفية، كتب رحلات، ومجلد عن الذرة والإلكترون، وآخر عن تركيب باطن الأرض، وأسباب الزلازل: ثم بضع روايات: ثم ثلاثة كتب عن الهند. هكذا! كان قارئًا رغم ذلك.

تسقط الشمس على أطرافها العارية عبر النافذة الجملون. في الخارج ترى الكلبة فلوسي تتجول. وأجمة البندق منداة وتحتها زئبق الكلب الأخضر[٢]، والأخضر القاتم. كان صباحًا صافيًا والطيور تحلق مغردة بانتصار. فقط إن كان يمكن أن تبقى! فقط إن لم يكن العالم الآخر المروع هناك، عالم الدخان والحديد! فقط إن صنع لها عالمًا.

---

(١) نوع من الورد عرض في مدينة ديجون الفرنسية في معرض للبستنة في ١٨٥٢، وتحمل اسم المدينة.
(٢) نبات بزهور خضراء صغيرة.

تنزل إلى الدور الأرضي، على الدرج الخشبي الضيق المنحدر بشدة. لكنها مازالت مقتنعة بهذا المنزل الصغير، فقط إذا كان في عالم خاص به.

اغتسل وانتعش، وكانت النار مشتعلة.

يقول: «هل تأكلين أي شيء؟».

«لا! سلفني مشطًا فقط».

تتبعه إلى المطبخ، وتمشط شعرها أمام مرآة صغيرة بجانب الباب الخلفي. وتستعد للذهاب.

تقف في الحديقة الأمامية الصغيرة، تنظر إلى الزهور الندية، والحوض الرمادي، حوض القرنفل، وقد برعم بالفعل.

تقول: «أود أن يختفي باقي العالم، وأعيش معك هنا».

يقول: «لن يختفي».

يمضيان في صمت تقريبًا عبر الخميلة الندية الجميلة. لكنهما كانا معًا في عالم خاص بهما.

كانت مواصلة السير إلى راجبي مُرَّةً بالنسبة لها.

تقول وهي تتركه: «أريد أن آتي بسرعة وأعيش معك تمامًا».

يبتسم ولا يرد.

تصل إلى البيت بهدوء وبدون أن يلاحظها أحد، وتصعد إلى غرفتها.

الفصل الخامس عشر

في صينية الإفطار رسالة من هيلدا. «سيأتي أبي إلى لندن هذا الأسبوع، وألتقي بك خميس هذا الأسبوع، ١٧ يونيو. وينبغي أن تكوني مستعدة لنذهب فورًا. لا أريد إضاعة الوقت في راجبي، إنه مكان بشع. ربما أقضي الليل في رتفورد مع آل كولمان، بحيث أكون معك على الغداء، يوم الخميس. ويمكن أن نبدأ وقت تناول الشاي، وربما ننام في جرنتهام[1]. لا جدوى من إضاعة أمسية مع كلفورد. إذا كان يكره ذهابك، فلن يكون الأمر ممتعًا بالنسبة له».

هكذا! تُدفَع على رقعة الشطرنج مرة أخرى.

يكره كلفورد ذهابها، فقط لأنه لا يشعر **بالأمان** في غيابها. يجعله وجودها، لسبب ما، يشعر بالأمان، وبأنه حر في عمل أشياء ينشغل بها. كان يقضي وقتًا طويلًا في المناجم، ويصارع بروحه مع مشاكل صعبة لاستخراج فحمه بأفضل طريقة اقتصادية وبيعه بعد استخراجه. كان يعرف أن عليه إيجاد طريقة ما **لاستخدامه**، أو تحويله، فلا يكون في

(١) رتفورد: بلدة تجارية في نوتينجهام شاير، شرق ميدلاندز. جرنتهام: بلدة تجارية في لينكلون شاير.

حاجة إلى بيعه، أو في حاجة إلى الشعور بالغم للفشل في بيعه. لكنه إذا صنع طاقة كهربية، فهل يمكنه بيعها أو استخدامها؟ وكان تحويله إلى زيت باهظ التكلفة ومعقدًا جدًّا. ليحافظ على صناعة حية لابد من صناعة أخرى؛ جنون.

جنون، ويحتاج إلى مجنون لينجح. حسنًا، إنه مجنون. تعتقد كوني ذلك. وتبدو لها حدته وفطنته في شئون المناجم تجليا من تجليات الجنون، إلهاماته إلهامات الجنون.

يتحدث إليها عن كل مخططاته الخطيرة، وتنصت له في دهشة، وتتركه يتحدث. ثم يتوقف التدفق، ويدير مكبر الصوت، ويشرد، ومخططاته تلتف على ما يبدو في داخله مثل حلم.

وكان الآن يلعب كل ليلة البلاك جاك، لعبة الجنود البريطانيين، مع مسز بولتون، مقامرًا بقطع عملة من فئة ستة بنسات. ومرة أخرى، في القمار يشرد في نوع من اللاوعي، أو تسمم فارغ، أو تسمم الفراغ، مهما يكن. لا تحتمل كوني رؤيته. وحين تنام، يقامر مع مسز بولتون حتى الثانية أو الثالثة صباحًا، بأمان، وبنشوة غريبة. وكانت النشوة تسيطر على مسز بولتون بقدر ما تسيطر على كلفورد: وكانت على الأرجح، تخسر باستمرار تقريبًا.

تقول لكوني ذات يوم: «خسرت الليلة الماضية ثلاثة وعشرين شلنًا مع السير كلفورد».

تسأل كوني بذعر: «وهل أخذ الفلوس منك؟».

«لماذا بالطبع، يا سيدتي! دين شرف!».

تحتج كوني بعنف، وتغضب من الاثنين. وكانت النتيجة النهائية أن السير كلفورد رفع أجر مسز بولتون إلى مائة جنيه في السنة، وكان يمكنها أن تقامر عليها. وفي أثناء ذلك، بدا لكوني، أن كلفورد كان حقًّا في طريقه إلى الهلاك.

تخبره في النهاية بأنها سترحل في السابع عشر.

يقول: «السابع عشر! ومتى تعودين؟».

«في العشرين من يوليو على أقصى تقدير».

«أجل! في العشرين من يوليو».

ينظر إليها بانشداه غريب، بالتباس طفل، لكن بمكر خاو غريب لرجل عجوز.

يقول: «لن تتركيني مكتئبًا، الآن، أليس كذلك؟».

«كيف؟».

«أعني وأنت بعيدة، هل أنت متأكدة من أنك ستعودين؟».

«أنا متأكدة بقدر ما يمكن أن أكون متأكدة من أي شيء، من أنني سوف أعود».

«أجل! حسنًا! في العشرين من يوليو!».

ينظر إليها بشكل غريب جدًّا.

لكنه يريد حقًّا أن تذهب. كان ذلك غريبًا جدًّا. يريد أن تذهب حقًّا،

أن تكون لها مغامرات صغيرة وربما تعود إلى البيت حاملًا، وكل ذلك. وفي الوقت ذاته، يخاف من ذهابها.

وكانت منتشية، وهي تشاهد فرصتها الحقيقية لتركه تمامًا، وتنتظر حتى يكون الوقت، وقتها، ووقته، مناسبًا.

تجلس وتتحدث إلى الحارس عن ذهابها إلى خارج البلاد.

تقول: «وحين أعود، يمكن أن أخبر كلفورد بأنني ينبغي أن أتركه. ويمكن أن نبتعد أنت وأنا. وليس من الضروري حتى أن يعرفوا أنه أنت. يمكن أن نذهب إلى بلد أخرى، سنذهب؟ إلى أفريقيا أو أستراليا. سنذهب؟».

كانت منتشية تمامًا بخطتها.

يسألها: «لم تذهبي إلى المستعمرات قط، أليس كذلك؟».

«لا! هل ذهبْتَ؟».

«ذهبت إلى الهند وجنوب أفريقيا ومصر».

«لماذا لا نذهب إلى جنوب أفريقيا؟».

يقول ببطء: «قد نذهب!».

تسأل: «أم أنك لا تريد؟».

«لا أبالي. لا أبالي كثيرًا بما أفعل».

«ألا يسعدك هذا؟ لماذا لا؟ لن نكون فقراء. لدي دخل ستمائة جنيه في السنة، كتبْتُ وسألْتُ. ليس مبلغًا كبيرًا، لكنه يكفي، أليس كذلك».

«إنه ثروة بالنسبة لي».

«أوه، كم يكون ذلك جميلًا!».

«لكن يجب عليَّ الحصول على الطلاق، وهو ما يجب عليك، إلا إذا كنا على استعداد للتعرض للعواقب».

كان هناك الكثير مما يجب التفكير فيه.

في يوم آخر تسألْه عن نفسه. كانا في الكوخ، وكانت هناك عاصفة رعدية.

«ألم تكن سعيدًا، حين كنت ملازمًا وضابطًا وجنتلمان؟».

«سعيد؟ على ما يرام. كنت معجبًا بالكولونيل».

«هل كنت تحبه؟».

«أجل! أحببْتُه».

«وهل كان يحبك؟».

«أجل! أحبني بطريقة ما».

«حدثني عنه».

«أحدثك عن ماذا؟ ترقى في صفوف الجيش. وكان يحب الجيش. ولم يتزوج قط. كان أكبر مني بعشرين سنة. كان ذكيًّا جدًّا: ووحيدًا في الجيش، كما يكون الرجل: رجل عاطفي بطريقته: وضابط ماهر جدًّا. كنت أعيش تحت تأثير سحره وأنا معه. تركته بشكل ما يدير حياتي. ولم أندمْ قط».

«وهل عانيت كثيرًا جدًّا حين مات؟».

«كنت أنا نفسي قريبًا من الموت. وحين أفقْتُ، عرفْتُ أن جزءًا آخر مني انتهى. كنت أعرف دائمًا أنه سينتهي بالموت. كل شيء يموت، إنها طبيعة الأمور».

تجلس تتأمل. يدوي الرعد في الخارج. يبدو وكأنها في فُلْك صغير في الطوفان.

تسأل: «يبدو أن وراءك الكثير».

«أنا؟ يبدو أنني مت مرة أو اثنتين. لكنني هنا مقيد، في انتظار المزيد من المشاكل».

تفكر بعمق، وتنصت للعاصفة.

«ألم تكن سعيدًا وأنت ضابط وجنتلمان، حين مات الكولونيل؟».

يضحك فجأة: «لا! كانوا بخلاء جدًّا. اعتاد الكولونيل أن يقول: يا فتى، على الطبقات الوسطى الإنجليزية مضغ اللقمة ثلاثين مرة لأن أحشاءهم ضيقة جدًّا، قضمة بحجم حبة بازلاء تدفعهم إلى التوقف. إنهم أبخل فئة ابتكرت على الإطلاق من الشنقب[1] المهذب: ممتلئون غرورًا بأنفسهم، يفزعون إذا لم تكن أحذيتهم مربوطة بشكل صحيح، متعفنون مثل الطرائد العليا، ومحقون دائمًا. هذا ما يقضي عليَّ. يتذللون، يتذللون، ويلحسون مثل الحمارة حتى تجف ألسنتهم: لكنهم محقون دائمًا. متغطرسون على قمة كل شيء. متغطرسون! جيل من المتغطرسين المهذبين كل منهم بنصف كرة-».

(١) طائر كبير بمنقار طويل وساقين قصيرين، لونه بني مخطط بالأبيض، يعيش في المستنقعات والمروج.

تضحك كوني. وكان المطر ينهمر.

«كرههم!».

قال: «لا. لم ينزعج. لم يحبهم فقط. هناك فرق. لأن الجنود البريطانيين، كما قال، يتصرفون فقط بوصفهم متغطرسين بنصف كرة وأحشاء ضيقة. مصير البشرية أن تمضي بتلك الطريقة».

«العوام أيضًا، العمال؟».

«الجميع. ماتت شجاعتهم. امتصت السيارات ودور السينما والطائرات آخر قطعة منهم. أقول لك، كل جيل ينجب جيلًا أكثر جبنًا، بأنابيب من المطاط الهندي للأحشاء وسيقان من القصدير ووجوه من القصدير. شعب من القصدير! الجميع نوع ثابت من البلشفية التي تقتل فقط الشيء الإنساني، وتعبد الشيء الميكانيكي. المال، المال، المال! كل الحشد الحديث يحصل على لذته الحقيقية بقتل الشعور الإنساني القديم في الإنسان، ويصنع لحمًا مفرومًا من آدم القديم وحواء القديمة. الجميع على حد سواء. العالم كله على حد سواء: قتل الواقع الإنساني، قضمة لكل قلفة، قضمتان لكل كرتين. الفرج ليس إلا آلة للمضاجعة!- الكل على حد سواء. ادفعي لهم مالًا ليقطعوا قضيب العالم. ادفعي لهم مالًا، مالًا، مالًا وسوف يجرد هذا الجنس البشري من الشجاعة، واتركي لهم كل آلات العبث الصغيرة».

يجلس في الكوخ، وترتسم على وجهه علامات السخرية. لكن حتى حينها كانت إحدى أذنيه تنصت للعاصفة في الخميلة، فيشعر بأنه وحيد.

تقول: «لكن ألن ينتهي هذا؟».

«آي، سوف ينتهي. سوف يحقق خلاصه. حين يُقتَل آخر إنسان حقيقي، وهم **جميعًا** مدجنون: البيض والسود والصفر، كل ألوان المدجنين: ثم يُجنُّون **جميعًا**. لأن جذر العقل في الكرات. ثم يُجنُّون **جميعًا**، وسوف يصنعون **حرقًا**[1] رائعًا خاصًّا بهم. تعرفين **الحرق** يعني **طقس الإيمان**؟ آي، حسنًا، سوف يصنعون طقسهم الصغير الرائع، طقس الإيمان. جميعًا سوف يضحي كل منهم بالآخر».

«تعني أن يقتل أحدهم الآخر؟».

«أعني، يا أَمُّورة! إذا واصلنا بمعدلنا الحالي فلن يكون هناك في خلال مائة سنة عشرة آلاف في هذه الجزيرة. سوف يمحو كل منا الآخر بولع». وكان الرعد يبتعد.

تقول: «يا له من أمر رائع!».

«رائع تمامًا! أن تتأملي إبادة الجنس البشري والوقفة الطويلة التي تلي ذلك قبل أن يظهر جنس آخر، إنه يهدئ المرء أكثر من أي شيء آخر. وإذا واصلنا بهذه الطريقة، والجميع، المثقفين والفنانين والحكومة ورجال الصناعة والعمال يقتلون تمامًا بشكل محموم آخر المشاعر الإنسانية، آخر جزء من حدسهم، آخر غريزة صحية؛ إذا استمر الأمر بمتوالية حسابية، مثلما هو مستمر: الوداع إذًا! للجنس البشري! الوداع! يا حبيبتي! تبتلع الحية نفسها وتترك الخواء، فاسدًا بشكل كبير، لكنه ليس

(١) بالفرنسية في الأصل، وتعني حرق المهرطقين بواسطة محاكم التفتيش.

ميؤوسًا منه. رائع جدًّا! حين تنبح الكلاب البرية الوحشية في راجبي، وتترك جياد المناجم البرية الوحشية بصمتها على رصيف منجم تفرشال! **نحمدك يارب!**»[١].

تضحك كوني، لكن ليس بسعادة حقيقية.

تقول: «ينبغي إذًا أن تفرح لأنهم جميعًا بلاشفة. ينبغي أن تفرح لأنهم يسرعون باتجاه النهاية».

«وهكذا أنا. لا أوقفهم. لأنني لا أستطيع إذا أردْتُ».

«لماذا إذًا تشعر بمرارة شديدة؟».

«لا أشعر! لن أهتم إذا صاح ديكي صيحته الأخيرة».

تقول: «لكن إذا كان لديك طفل؟».

يدلِّي رأسه.

يقول في النهاية: «لماذا. يبدو لي القيام بذلك، جلب طفل إلى هذا العالم، القيام بذلك خطأ مرير».

تقول متوسلة: «لا! لا تقل ذلك! لا تقل ذلك! أعتقد أنني سأنجب طفلًا. قل إنه سيفرحك». وتضع يدها على يده.

يقول: «يفرحني لأنه يفرحك. لكن بالنسبة لي يبدو خيانة بشعة لمخلوق لم يولد».

تقول، مصدومة: «آه لا! لا تريدني إذًا حقًّا! لا تريدني، إذا كنت تشعر بذلك!».

---

(١) باللاتينية في الأصل.

يصمت مرة أخرى، ويتجهم. ليس في الخارج إلا قطرات من المطر.

تهمس: «ليس صحيحًا تمامًا! ليس صحيحًا تمامًا! هناك حقيقة أخرى». تشعر بأنه يشعر بالمرارة جزئيًّا لأنها ستغادره، ستذهب متعمدة إلى فينسيا. فتفرح.

تفتح ملابسه وتكشف بطنه، وتقبِّل سرته. ثم تضع خدها على بطنه وتضغط ذراعها حول خاصرتيه الصامتتين الدافئتين. كانا وحيدين في الطوفان.

تهمهم وهي تضغط وجهها على بطنه: «قل لي إنك تريد طفلًا، تتمنى! قل لي إنك تريد!».

يقول في النهاية: «لماذا!»، وتشعر بالرجفة الغريبة لتغير الوعي والاسترخاء تسري في جسده. «لماذا، فكرت أحيانًا أنه إذا اكتفيت بالمحاولة، حتى هنا بين عمال المناجم! إنهم يعملون بشكل سيئ الآن، ولا يكسبون الكثير. إذا استطعت أن أقول لهم: مبتفكروش في حاجة غير الفلوس. لو بصيتم **لاحتياجاتكم**، لا نحتاج إلا القليل. لنعش لغير المال-».

تحك خدها برقة في بطنه، وتجمع كرتيه في يدها. تحرك القضيب بهدوء، بحياة غريبة، ولا ينتصب. كان المطر يضرب بخفة في الخارج.

«لنعش لشيء آخر. لنعش لغير المال، لا لأنفسنا أو لأي شخص آخر. الآن نحن مرغمون. مرغمون على صناعة القليل لأنفسنا، والكثير لرؤسائنا. لنوقف ذلك! جزءًا جزءًا، لنوقف ذلك. لا نحتاج إلى التبجح

والعنف. لنسقط الحياة الصناعية كلها، جزءًا جزءًا، ونعود. يكفي أقل القليل من المال. للجميع، لي ولكم، للرؤساء والسادة، وحتى الملك. أقل القليل من المال يكفي حقًّا. هيئوا أنفسكم فقط، وسوف تخرجون من الفوضى». يتوقف ثم يواصل:

«وهأقول لهم: بصوا! بصوا لجو! إنه يتحرك بشكل جميل! بصوا كيف يتحرك، حيًّا ومدركًا. إنه جميل! وبصوا لجونا! إنه أخرق، إنه قبيح، لأنه عمره ما كان عنده إرادة لينهض. سأقول لهم: بصوا! بصوا لنفسكم! كتف أعلى من التاني، السيقان مقوسة، والأقدام مورمة! عملتم إيه لنفسكم، بالشغل الكريه؟ عفنتم. مفيش حاجة للشغل الكتير. اخلعوا هدومكم وبصوا لنفسكم. المفروض تكونوا مليانين حيوية وجمال، وأنتم بشعين وزي الأموات. هكذا أقول لهم. وسأجعل رجالي يرتدون ملابس مختلفة: لنفرض بنطلونات حمراء مقفولة، أحمر فاتح، وسترات بيضاء قصيرة. لماذا، إذا كان للرجال سيقان حمراء رائعة، سوف يغيرهم هذا وحده في شهر. سوف يكونون رجالًا مرة أخرى، يكونون رجالًا! ويمكن أن ترتدي النساء ما يشأن. لأنه بمجرد أن يسير الرجال بسيقان قرمزية فاتحة مقفولة، وأرداف رائعة والقرمزي مكشوف تحت سترة بيضاء قصيرة: تكون النساء نساء. لأن الرجال **ليسوا** رجالًا، لذا لابد أن تكون النساء.- وفي الوقت المناسب تهدم تفرشال وتشيد بضعة مبان جميلة، تضمنا جميعًا. وننظف البلدة مرة أخرى. ولا ننجب الكثير من الطفال، لأن العالم مكتظ.

«لكنني لن أعظ الرجال: أعريهم فقط وأقول: انظروا إلى أنفسكم!

إنه عمل من أجل المال!- أنصتوا إلى أنفسكم! إنه عمل من أجل المال. كنتم تعملون من أجل المال! انظروا إلى تفرشال! إنها رهيبة. لأنها شيدت وأنتم تعملون من أجل المال. انظروا إلى فتياتكم! لا يهتممن بكم، وأنتم لا تهتمون بهن. لأنكم تقضون وقتكم تعملون وتهتمون بالمال. لا تستطيعون أن تتحدثوا أو تتحركوا أو تعيشوا، لا تستطيعون أن تكونوا كما ينبغي مع امرأة. لستم أحياء. انظروا إلى أنفسكم!».

يخيم صمت تام. كانت كوني نصف منصتة، ترتب في شعر أسفل بطنه بضع زهرات من زهور لا تنسني جمعتها وهي في طريقها إلى الكوخ. في الخارج، كان العالم ساكنًا، وجليديًّا بعض الشيء.

تقول له: «لديك أربعة أنواع من الشعر. على صدرك أسود تقريبًا، وشعر رأسك ليس داكنًا: لكن شاربك خشن وأحمر غامق، وشعرك هنا، شعرك الحبيب، مثل أجمة صغيرة من الهدال[1] الذهبي الأحمر الفاتح. إنه أجملها جميعًا!».

ينظر إلى أسفل ويرى الأجزاء اللبنية من لا تنسني في شعر أربيته.

«آي! حيث وضعت لا تنسني، في شعر الرجل، أو شعر العذراء. لكن ألا تهتمين بالمستقبل؟».

تنظر إليه.

تقول: «أوه، أهتم، بشكل رهيب!».

(١) نبات طفيلي ينمو على التفاح والبلوط وأشجار أخرى عريضة الأوراق، يحمل ثمرات لزجة في الشتاء.

«لأنني حين أرى العالم الإنساني يحكم عليه بالفشل، يحكم على نفسه بشحه الوحشي، أشعر أن المستعمرات ليست بعيدة جدًّا. القمر ليس بعيدًا جدًّا، لأنه حتى هناك يمكن النظر إلى الخلف ورؤية الأرض، قذرة ووحشية، وتافهة بين النجوم: جعلها البشر شنيعة. أشعر أنني ابتلعت المرارة، وأخذت تنهش في أعماقي، وليس هناك مكان بعيد بما يكفي للابتعاد. لكن حين أحصل على دور، أنسى هذا كله. ومع أنه عار، ما حدث للناس في آخر مائة سنة: تحول الرجال إلى حاملي حشرات، وتلاشت كل رجولتهم، وكل حياتهم الحقيقية. سأمحو الآلات من على وجه الأرض مرة أخرى، وأنهي الحقبة الصناعية تمامًا، مثل غلطة سوداء. لكن حيث إنني لا أستطيع، ولا أحد آخر، من الأفضل أن أحافظ على سلامي، وأحاول أن أعيش حياتي: إذا كانت لي حياة أعيشها، وهو ما أشك فيه».

يتوقف الرعد في الخارج، لكن المطر، وقد خف، ينهمر فجأة، مع آخر رعشة من البرق ودمدمة العاصفة المنتهية. كانت كوني قلقة. تحدث طويلًا، تحدث في الواقع إلى نفسه لا إليها. بدا أن اليأس يجتاحه تمامًا، وكانت تشعر بالسعادة، وتكره اليأس. وتعرف أنها ستغادره، وهو ما كان يدركه في داخله فقط مما دفعه إلى هذا المزاج. وكانت تشعر ببعض الانتصار.

تفتح الباب وتنظر إلى المطر الغزير المتواصل، مثل ستارة فولاذية، وتنتابها فجأة رغبة في الاندفاع إليه، الاندفاع بعيدًا. تتحمس، وتخلع جوربها بسرعة، ثم فستانها وملابسها الداخلية، فيحبس أنفاسه. يميل

ثدياها الحيوانيان المدببان القويان ويهتزان وهي تتحرك. بلون العاج في النور المخضر. تنتعل حذاءها المطاط مرة أخرى وتخرج تعدو بضحكة برية منخفضة، رافعة ثدييها للمطر الغزير وفاردة ذراعيها، وهي تعدو والرؤية غير واضحة بحركات الرقص الإيقاعي الذي تعلمته منذ زمن بعيد في درسدن. كانت شكلًا شاحبًا غريبًا يرتفع ويهبط، ينحني بحيث يضرب المطر ويلمع على ردفيها تمامًا، متطوحة إلى أعلى مرة أخرى ثم مائلة ببطنها إلى الأمام خلال المطر، ثم منحنية مرة أخرى بحيث تُعرَض الخاصرتان والردفان كاملين إجلالًا له، مكررة توقيرًا بريًّا.

يضحك بشكل غريب، وينزع ملابسه. أكثر من اللازم. يقفز إلى الخارج، عاريًا وأبيض، برجفة ضئيلة، في المطر المائل القوي. وتثب فلوسي أمامة بنبحة مسعورة خافتة. تلتفت كوني، وشعرها كله مبلل وملتصق في رأسها، بوجهها المتوهج وتراه. تتقد عيناها الزرقاوان بالإثارة وهي تلتفت وتجري بسرعة، باندفاع غريب، خارج البقعة منزوعة الأشجار إلى الممر، والأغصان المبللة تلسعها. تجري، ولا يرى إلا الرأس المبلل المستدير، والظهر المبلل يميل إلى الأمام محلِّقًا، والردفين المستديرين يتلألآن: عري أنثوي مرتعد مدهش محلق.

كانت تقريبًا في الدرب الواسع حين يأتي ويدفع بذراعه حول وسطها الرقيق المبلل العاري. تصدر عنها صرخة وتفرد جسمها وكتلة لحمها الرقيق البارد تبزغ أمام جسده. يضغطها عليه، بجنون، كتلة اللحم الأنثوي الرقيق البارد، وقد صارت بسرعة، بالتواصل، دافئة مثل اللهب. يتدفق المطر عليهما فيتصاعد منهما البخار. يضم مؤخرتيها الجميلتين

الثقيلتين كل واحدة في يد ويضغطهما باتجاهه بثبات مسعور مرتجف في المطر. ثم يرفعها فجأة ويسقط معها على الممر، في الصمت المدوي للمطر، وبسرعة وحدَّة، يأخذها، بسرعة وحدِّة وينتهي، مثل حيوان.

ينهض فورًا، ويجفف المطر من عينيه.

يقول: «ادخلي»، ويشرعان في العودة جريًا إلى الكوخ. يواصل الجري بسرعة: لا يحب المطر. وتأتي أبطأ، جامعة زهور لا تنسني والكامبيون[1] والجريس، تجري بضع خطوات وتشاهده يهرب بعيدًا عنها.

حين تعود بزهورها، تلهث إلى الكوخ، يكون قد بدأ يشعل نارًا، والأغصان تطقطق. وثدياها الحادان يرتفعان ويهبطان، وشعرها مشبع بالمطر، ووجهها متورد وجسدها يلمع ويرشح. متسعة العينين لاهثة، برأس صغير مبلل وردفين ممتلئين طبيعيين يرشحان، تبدو مخلوقًا آخر.

يأخذ الملاءة القديمة ويجفف جسمها، وهي تقف مثل طفلة. ثم يجفف جسمه ويغلق باب الكوخ. كانت النار تتوهج. تغرس رأسها في الطرف الآخر من الملاءة، وتجفف شعرها المبتل.

يقول: «إننا نجفف معًا بالفوطة نفسها، سوف نتشاجر».

تنظر إليه لحظة، وشعرها منكوش تمامًا.

تقول وعيناها واسعتان: «لا! ليست فوطة، إنها ملاءة». وتواصل الانشغال بتجفيف رأسها، بينما ينشغل بتجفيف رأسه.

---

(١) نبات بزهور وردية وبيضاء، ينمو في آسيا وأوروبا وأمريكا الشمالية.

وهما مازالا يلهثان من المجهود الذي بذلاه، وكل منهما ملفوف في بطانية من بطانيات الجيش، لكن الجزء الأمامي من الجسد مكشوف للنار، يجلسان على لوح خشبي متجوارين أمام الوهج، ليهدآ. تكره كوني ملمس البطانية على بشرتها. لكن الملاءة كانت مبلولة تمامًا.

تسقط بطانيتها وتركع على الموقد الطيني، معرضة رأسها للنار، وهازة شعرها ليجف. يشاهد سقوط المنحنى الجميل لردفيها. وقد فتنه اليوم. كيف ينحدر بشكل ثري إلى أسفل الاستدارة الثقيلة لفخذيها! والمداخل السرية مطوية بينهما في الدفء السري!

يداعب مؤخرتها بيده، ويدسها بتوقٍ ورقَّةٍ في المنحنيات والكرة الممتلئة.

يقول، بلهجة مداعبة حلقية: «عليك مؤخرة حلوة. عليك أحلى مؤخرة. هي الأحلى، أحلى مؤخرة لست! وكل حتة منها أنوثة، أنوثة أكيدة. مش زي مؤخرة البنات اللي عاملة زي مؤخرة الولاد، مش كده! عليك قاع مايل رقيق، زي اللي بيحبه الراجل من جواه. قاع ممكن يستوعب العالم، كده!».

كان طول الوقت الذي يتحدث فيه يداعب ببراعة المؤخرة المستديرة، حتى بدا وكأن نوعًا مراوغًا من النار يأتي منها إلى يديه. وقد لمست أنامله الفتحتين السريتين لجسدها، مرة بعد أخرى، بفرشاة رقيقة وصغيرة من النار.

«ولو دي بتشخ ودي بتتبول، أنا سعيد. مش عايز ست متقدرش تشخ أو تتبول».

تنطلق من كوني، رغمًا عنها، ضحكة ذهول مفاجئة، لكنه يستمر بدون أن يتأثر.

«إنتِ حقيقة، إنتِ حقيقة! إنتِ حقيقة، وحتى حتة فاجرة. بتشخي من هنا وتتبولي من هنا: وأنا بحط إيدي على الاتنين وأنا حابب ده علشانك. وأنا بحبك علشان كده. عليك مؤخرة ست حقيقية، بتفتخر بنفسها. مبتخجلش من نفسها المؤخرة دي مبتخجلش».

يضع يده حميمة وثابتة على مواضعها السرية، في تحية حميمة.

يقول: «بحبها. بحبها! ولو عشت عشر دقايق بس، وداعبت مؤخرتك وعرفتها، اعتبر إني عشت حياة **واحدة**، شايفه! نظام صناعي ولا مش صناعي! هنا حياتي».

تستدير وتزحف إلى حجره، متشبثة به. وتهمس: «قبِّلْني!».

كانت تعرف أن فكرة انفصالهما كامنة في عقليهما، وفي النهاية كانت حزينة.

تجلس على فخذيه، ورأسها على صدره، وساقاها العاجيتان اللامعتان متباعدتان، والنار تتوهج بشكل غير متساوٍ عليهما. جالسًا ورأسه متدلٍّ ينظر إلى ثنايا جسمها في وهج النار، وإلى كتلة الشعر البني الناعم المعلق في نقطة بين فخذيها المفتوحين. يمد يده إلى الطاولة خلفه ويأخذ باقة الزهور، وهي مازالت مبللة جدًّا حتى أن قطرات من المطر تسقط على كوني.

يقول: «الزهور تقف خارج المنازل في كل الأجواء. ليس لها منازل».

تهمهم: «أو حتى كوخ!».

بأصابع هادئة ينثر بضع زهرات من لا تنسني في الكتلة البنية الناعمة لعانتها.

يقول: «ها هي! ها هي زهور لا تنسني في المكان المناسب!».

تنظر إلى الزهور الصغيرة اللبينة الغريبة بين الشعر العذري البني على الطرف السفلي من جسمها.

تقول: «ألا تبدو جميلة!».

يرد: «جميلة مثل الحياة».

ويدس برعم كامبيون قرنفلي بين الشعر.

«هناك! هذا أنا حيث لن تنسيني! هذا موسى في البرديات».

تقول بحزن وهي تنظر إلى وجهه: «ألا تمانع، أليس كذلك، بأن أذهب بعيدًا؟».

لكن وجهه كان مبهمًا، تحت الحاجبين الثقيلين. ظل خاويًا تمامًا.

يقول: «تفعلين ما يحلو لك».

وتحدث بإنجليزية جيدة.

تقول متشبثة به: «لكنني لن أذهب إذا كان لا يحلو لك».

يخيم الصمت. يميل ويضع قطعة أخرى من الخشب في النار. تتوهج الشعلة في وجهه الصامت المجرد. تنتظر، لكنه لا يقول شيئًا.

تستأنف: «فكرت فقط في أنها طريقة جيدة لأبدأ وقفة مع كلفورد. أريد طفلًا. ويمنحني ذلك فرصة ل، ل-».

يقول: «للسماح لهم بالتفكير في بعض الأكاذيب».

«أجل، ذلك ضمن أشياء أخرى. هل تريد أن يفكروا في الحقيقة؟»

«لا أهتم بما يفكرون».

«أهتم! لا أريد أن يعاملوني بعقولهم المقيتة الباردة، لا أريد وأنا مازلت في راجبي. يمكن أن يفكروا فيما يحلو لهم بعد أن أبتعد نهائيًّا».

يصمت.

«لكن السير كلفورد يتوقع منك أن تعودي إليه؟».

تقول: «أوه، لابد أن أعود». ويخيم الصمت.

يسأل: «وهل سيكون عندك طفل في راجبي؟».

تغلق ذراعها حول عنقه.

تقول: «إذا لم تأخذني بعيدًا، ينبغي أن يكون عندي».

«آخذك إلى أين؟».

«أي مكان! بعيدًا! بعيدًا تمامًا عن راجبي».

«متى؟».

«عجبًا، حين أعود».

يقول: «لكن ما فائدة أن تعودي، أن تفعلي الشيء مرتين، طالما ذهبت؟».

«أوه، لابد أن أعود. وعدْتُ! وعدت بصدق. بالإضافة إلى ذلك، أعود إليك، حقًّا».

«إلى حارس طرائد زوجك؟».

تقول: «لا أرى ذلك مهمًّا».

يفكر برهة: «لا؟ ومتى تبتعدين، في اعتقادك، مرة أخرى، إذًا؛ بشكل نهائي؟ متى بالضبط؟».

«أوه، لا أعرف. سأعود من فينسيا. ثم أجهز كل شيء».

«كيف تجهزين؟».

«أوه، سأخبر كلفورد. ينبغي أن أخبره».

«ستخبرينه!».

يبقى صامتًا. وتضع ذراعيها حول عنقه.

تتوسل: «لا تصعِّبْ الأمر عليَّ».

«أصعِّب ماذا؟».

«الذهاب إلى فينسيا وترتيب الأمور».

ترتجف على وجهه ابتسامة واهية، شبه تكشيرة.

يقول: «لا أصعبه. أريد فقط أن أعرف كيف تكونين بعد ذلك. لكنك لا تعرفين نفسك حقًّا. تحتاجين إلى وقت: إلى السفر والنظر في الأمر. لا ألومك. أعتقد أنك حكيمة. قد تفضلين البقاء سيدة في راجبي. لا ألومك. ليس لدي راجبي أقدمه. في الحقيقة، تعرفين ما سوف تحصلين

عليه مني. لا، لا، أعتقد أنك محقة! أعتقد حقًّا! ولسْتُ حريصًا على أن آتي وأعيش على حسابك، وأن تحرسيني. هناك أمور كثيرة».

تشعر بشكل ما وكأنه يرد عليها صاعًا بصاع.

تسأل: «لكنك تريدني، أليس كذلك؟».

«هل تريدينني؟».

«تعرف أنني أريدك. **هذا** واضح».

«تمامًا! **ومتى** تريدينني؟».

«تعرف أننا يمكن أن نرتب كل شيء حين أعود. أنا الآن مقطوعة النفس معك. لابد أن أهدأ ويصفو ذهني».

«تمامًا! اهدئي وصفِّي ذهنكِ!».

تستاء بعض الشيء.

تقول: «لكنك تثق فيَّ، أليس كذلك؟».

«أوه، بشكل مطلق!».

تسمع سخرية في نبرته.

تقول بحسم: «أخبرني إذًا، هل تعتقد أن من الأفضل **ألا** أذهب إلى فينسيا؟».

يرد بصوت بارد، وساخر بعض الشيء: «أنا متأكد أن من **الأفضل** أن تذهبي إلى فينسيا».

تقول: «تعرف أنه الخميس القادم؟».

«أجل!».

تبدأ التفكير الآن. وتقول في النهاية:

«وسوف نعرف بشكل أفضل أين نحن حين أعود، أليس كذلك؟».

«أوه بالتأكيد!».

فجوة غريبة من الصمت بينهما!

يقول ببعض الارتباك: «كنت عند المحامي بشأن طلاقي».

تنتابها رعدة خفيفة.

تقول: «كنت عنده! وماذا قال؟».

«قال إنه كان عليَّ أن أقدم عليه من قبل؛ وأنه قد يكون صعبًا. لكن حيث إنني كنت في الجيش، فإنه يعتقد أن الأمور قد تسير على ما يرام. فقط إذا لم يجعلها هذا تقلبها على رأسي!».

«هل لابد أن تعرف؟».

«أجل! أخطرت بإنذار: وكذلك الرجل الذي تعيش معه، المدعى عليه الشريك».

«أليس هذا كريهًا، كل هذه الإجراءات! أعتقد أن عليَّ أن أمر بها مع كلفورد».

يخيم الصمت.

يقول: «وبالطبع، لابد أن أعيش حياة مثالية في الشهور الستة أو الثمانية التالية. وهكذا إذا ذهبْتِ إلى فينسيا، يزول الإغواء لأسبوع أو اثنين، على الأقل».

تقول وهي تداعب وجهه: «هل أنا إغواء! أنا سعيدة جدًّا لأنني إغواء لك! لنكف عن التفكير في الأمر! أفزعْتَني حين بدأْتَ تفكر: سحقتني. لنكف عن التفكير في الأمر. يمكن أن نفكر أكثر حين نفترق. تلك هي المسألة كلها! كنت أفكر، ينبغي أن آتي إليك ليلة أخرى قبل أن أذهب. ينبغي أن آتي مرة أخرى إلى الدار. هل آتي ليلة الخميس؟».

«ألن تأتي أختك في ذلك الوقت؟».

«أجل! لكنها قالت إننا سنبدأ عند وقت تناول الشاي. وهكذا يمكن أن نبدأ في وقت تناول الشاي. لكنها يمكن أن تنام في مكان آخر ويمكن أن أنام معك».

«لكن لابد إذًا أن تعرف».

«أوه، سوف أخبرها. أخبرتها تقريبًا. ينبغي أن أتحدث في المسألة مع هيلدا. إنها مساعدة عظيمة، وعاقلة جدًّا».

يفكر في خطتها.

«هكذا تنطلقين من راجبي وقت تناول الشاي، وكأنك ذاهبة إلى لندن؟ أي طريق تسلكين؟».

«عن طريق نوتينجهام وجرانتهام».

«وحينذاك توصلك أختك في مكان ما ثم يكون عليك السير أو ركوب سيارة للعودة إليها؟ تبدو لي مخاطرة شديدة».

«تبدو؟ حسنًا، يمكن أن تعود هيلدا إليَّ. يمكن أن تنام في مانسفيلد، وتعود بي إلى هنا في المساء، ثم تأخذني مرة أخرى في الصباح. الأمر

سهل جدًّا».

«والناس الذين يرونك؟».

«ألبس نظارة وقناعًا».

يفكر لبعض الوقت.

قال: «حسنًا. ترضين نفسك كالمعتاد».

«لكن ألا يرضيك؟».

يقول بتجهم: «أوه أجل! يرضيني تمامًا. يمكن أيضًا أن أطرق الحديد وهو ساخن».

تقول فجأة: «هل تعرف فيما فكرْتُ؟ جاءتني الفكرة فجأة. أنت 'فارس المدقة المحترقة'!»[1].

«آه! وأنت؟ أنت ليدي الهاون الحامي الأحمر؟».

تقول: «أجل! أجل! أنت السير مدقة وأنا الليدي هاون».

«حسنًا، أُمنَح إذًا لقب فارس. جون توماس هو السير جون، وأنت الليدي جين».

«أجل! يمنح جون توماس لقب فارس! أنا ليدي الشعر الدقيق، وينبغي أن يكون لديك زهور أيضًا. أجل!».

تنثر زهرتين من الكامبيون القرنفلي في أجمة الشعر الذهبي الأحمر فوق قضيبه.

---

(١) «فارس المدقة المحترقة» مسرحية فرنسيس بومونت (١٥٨٤-١٦١٦)، عرضت أول مرة في ١٦٠٧.

تقول: «ها هو! الساحر! الساحر! السير جون!».

وتدفع جزءًا من زهور لا تنسني في الشعر الأسود في صدره.

«ولن تنساني هناك، أليس كذلك؟» تُقبِّله في صدره، وتضع قطعتين من زهرة لا تنسني، قطعة على كل حلمة، وتقبِّله مرة أخرى.

يقول: «ضعي تقويمًا لي!» ويضحك، فتهتز الزهور على صدره.

يقول: «انتظري قليلًا!».

ينهض، ويفتح باب الكوخ. كانت فلوسي مستلقية في الشرفة، تنهض وتنظر إليه.

يقول: «آي، إنه أنا!».

توقف المطر. وكان هناك صمت رطب معطر ثقيل. والمساء يقترب.

يخرج ويذهب إلى الممر الصغير في الاتجاه المقابل للدرب. تشاهد كوني شكله الأبيض النحيل، وقد بدا مثل طيف، شبح يبتعد عنها.

وحين لم تعد تستطيع رؤيته، يغطس قلبها. تقف على باب الكوخ، وحولها بطانية، تنظر في الصمت الساكن المنقوع في المياه.

لكنه يعود، يهرول بشكل غريب، ويحمل زهورًا. تخاف منه بعض الشيء، وكأنه ليس إنسانًا تمامًا. وحين يقترب، تنظر عيناه في عينيها، لكنها لا تفهم المعنى.

أحضر زهور الكولومبين[1] والكامبيون، وقشًّا قطع حديثًا، وخصل البلوط وزهر العسل ببرعم صغير. يثبت رذاذ البلوط الصغير الرقيق

---

(١) الكولومبين: نبات بزهور بيضاء طويلة.

حول ثدييها، غارسًا فيه خصلات من الجريس والكامبيون: وفي سرتها يضع زهرة كامبيون قرنفلية، وفي شعرها الدقيق يضع زهور لا تنسني والوودرف.

يقول: «هذه أنت في كل مجدك. الليدي جين، في عرسها مع جون توماس».

ويلصق زهورًا في شعر جسده، وينثر قليلًا من الجيني الزاحفة حول قضيبه، ويلصق كأسًا واحدة من ياقوتية في سرته. تشاهد عرضه الغريب بمتعة. وتدفع زهرة كامبيون في شاربه، حيث تلتصق متدلية تحت أنفه.

يقول: «ده جون توماس بيتجوز الليدي جين. ولازم نسيب كونستنس وأوليفر يروحوا في طريقهم. يمكن-».

يفرد يده بإيماءة، ثم يعطس عطسة تبعد الزهور عن أنفه وسرته. يعطس مرة أخرى.

تقول، منتظرة أن يواصل: «يمكن ماذا؟».

ينظر إليها بارتباك.

يقول: «إيه؟».

تلحُّ: «يمكن ماذا؟ واصلْ ما كانت تقول».

«آي، ماذا كنت أقول؟».

ينسى. وكانت إحدى خيبات حياتها، أنه لم يكن يكمل قط.

يسقط شعاع أصفر من الشمس على الأشجار.

يقول: «الشمس! وقت انصرافك. الوقت، يا سيدتي، الوقت! ما هذا الذي يبدو وكأنه يطير بلا أجنحة، سموك؟ الوقت! الوقت!».

يتناول قميصه.

يقول، وهو ينظر إلى قضيبه: «قولي عمت مساء! لجون توماس. إنه آمن في أذرع جيني الزاحفة! لا يوجد حوله الآن الكثير من المدقة المحترقة».

ويضع قميصه الفانيلا على رأسه.

يقول، حين يبرز رأسه: «أخطر لحظات الرجل، حين يدخل في قميصه. حين يضع رأسه في كيس. هذا ما يجعلني أفضل القمصان الأمريكية، التي تلبس مثل الجاكيت». مازالت واقفة تشاهده. يدخل في سرواله القصير، ويزرره حول خصره.

يقول: «انظر إلى جين! بكل أزهارها! من يضع الزهور عليك في العام القادم، يا جيني؟ أنا، أم شخص آخر؟ 'إلى اللقاء، يا جريسي، الوداع!' أكره تلك الأغنية، إنها تعود إلى الأيام الأولى للحرب». ثم يجلس، وهو يلبس جوربه. مازالت واقفة بلا حراك. يضع يده على منحدر ردفيها. ويقول: «ليدي جين الصغيرة الجميلة! ربما تجدين في فينسيا رجلًا يضع الياسمين في شعرك الدقيق، وزهرة رمان في سرتك. ليدي جين الصغيرة المسكينة!».

تقول: «لا تقل هذا الكلام. تقوله فقط لتجرحني».

يدلي رأسه. ثم يقول بلهجته:

«آي، يمكن أعمل، يمكن أعمل! كويس بقى، مش هأقول، وأعمل كل حاجة. لكن لازم تلبسي، وترجعي لبيوتك الفخمة في إنجلترا، أد إيه جميلة. انتهى الوقت! انتهى الوقت بالنسبة للسير جون، وبالنسبة لليدي جين الصغيرة! البسي قميصك، يا ليدي تشاترلي! يمكن ميكنش في أي حد واقف في الخارج حتى قميص، وشوية حتت من الزهور. وهناك بقى، وهناك بقى، أخلع هدومك، طائر السمنة الصغير اللي ديله بيتمايل».
ويأخذ أوراق الشجر من على شعرها، ويقبِّل شعرها المبلل، والزهور من على ثديها، ويقبل ثدييها، ويقبل سرتها، ويقبل شعرها الدقيق، حيث ترك الزهور منثورة. ويقول: «لازم يقفوا لما يحبوا. كده! هناك مفيش حاجة عريانة تاني، مفيش حاجة غير فتاة مؤخرتها عريانة وجزء من ليدي جين. ودلوقتي البسي القميص تاني، علشان لازم تمشي، ولا الليدي تشاتري تتأخر على العشا، مكان ما كنت يا سيدتي الجميلة!».

لم تعرف قط أن ترد عليه وهو في تلك الحالة من العامية. وهكذا ترتدي ملابسها وتستعد للذهاب إلى بيت مخز بعض الشيء إلى راجبي. أو هذا ما تشعر به: بيت مخز بعض الشيء.

يرافقها إلى الدرب الواسع. ودراريجه الصغيرة على ما يرام تحت العريشة.

حين يصل هو وهي إلى الدرب، كانت هناك مسز بولتون تترنح شاحبة باتجاههما.

«أوه، يا سيدتي، تساءلنا إن كان شيء قد حدث!».

«لا! لم يحدث شيء».

تنظر مسز بولتون في وجه الرجل، الذي بدا ناعمًا وبمظهر جديد مع الحب. تلتقي بعينيه نصف الضاحكتين نصف الساخرتين. يضحك دائمًا على سوء الحظ. لكنه ينظر إليها بلطف.

«مساء، مسز بولتون! ستكونين سموك على ما يرام الآن، وهكذا يمكن أن أنصرف. عمت مساء سموك! عمت مساء مسز بولتون.

يحيي وينصرف.

* * *

الفصل السادس عشر

تصل كوني إلى البيت لتواجه محنة الاستجواب التفصيلي. كان كلفورد في الخارج وقت تناول الشاي، وعاد قبل العاصفة مباشرة، وأين سموها؟ لا أحد يعرف، تعتقد مسز بولتون فقط أنها خرجت تتمشى في الخميلة. في الخميلة، في مثل هذه العاصفة! يدخل كلفورد فورًا في حالة هيجان عصبي. بدأ مع كل ومضة من البرق، وارتعد مع كل دوي للرعد. ينظر للمطر الرعدي الجليدي وكأنه نهاية العالم. يتصاعد انزعاجه أكثر وأكثر.

تحاول مسز بولتون تهدئته.

«سوف تحتمي في الكوخ، حتى يتوقف. لا تقلق، سموها على ما يرام».

«لا أحب أن تكون في الخميلة في مثل هذا العاصفة! لا أحب أن تكون في الخميلة إطلاقًا! خرجت منذ أكثر من ساعتين. متى خرجت؟».

«قبل وقت قصير من رجوعك».

«لم أرها في المنتزه. يعلم الرب أين هي وماذا حدث لها».

«أوه، لم يحدث لها شيء. سترى، ستعود إلى البيت بعد توقف المطر مباشرة. المطر يحتجزها فقط».

لكن سموها لا تعود إلى البيت بعد توقف المطر. يمر الوقت في الحقيقة، وتبزغ الشمس في لمحتها الصفراء الأخيرة، ولا تبدر عنها أية إشارة. تغرب الشمس، ويعم الظلام، ويرن جرس العشاء.

يقول كلفورد في نوبة جنون: «ليس خيرًا! سأرسل فيلد وبيتس للعثور عليها».

تصيح مسز بولتون: «أوه لا تفعل ذلك! سيعتقد أن هناك انتحارًا أو شيئًا ما. أوه لا تدع مجالًا للكثير من الكلام حول الموضوع. اسمح لي بأن أتسلل إلى الكوخ وأرى إن لم تكن هناك. سأجدها على ما يرام».

وهكذا، بعد بعض الإقناع، يسمح كلفورد لها بالذهاب.

وهكذا تأتي كوني باتجاهها في الدرب، وحيدة ومتلكئة بشكل غير مقبول.

«لابد أنك لا تمانعين من قدومي للبحث عنك يا سيدتي! لكن السير كلفورد منزعج جدًّا. كان متأكدًا من أن البرق صعقك، أو أن شجرة سقطت عليك فقتلتك. ومصممًا على إرسال فيلد وبيتس إلى الخميلة للعثور على الجثة. فاعتقدت أن من الأفضل أن آتي، بدلًا من إثارة فضول كل الخدم».

تتحدث بعصبية. لكنها ترى على وجه كوني رقة العاطفة وما يشبه

الحلم، وتشعر بأنها ساخطة عليها.

تقول كوني: «اهدئي!» ولا تستطيع قول أي شيء آخر.

تتهادى المرأتان خلال العالم الرطب، في صمت، وقطرات كبيرة مثل الانفجارات تتناثر في الخميلة. حين تصلان إلى المنتزه، تسرع كوني، وتلهث مسز بولتون بعض الشيء. كانت تزداد بدانة.

في النهاية تقول كوني بغضب، متحدثة في الحقيقة إلى نفسها: «كم كان كلفورد أحمق بإثارة هذه الجلبة!».

«أوه، تعرفين حقيقة الرجال! يحبون الإثارة. لكنه سيكون على ما يرام بمجرد رؤية سموك».

كانت كوني غاضبة لأن مسز بولتون تعرف سرها: من المؤكد أنها تعرفه.

فجأة تقف كونستنس ساكنة في الممر.

تقول وعيناها تومضان: «من البشاعة أن يتم تتبعي!».

«أوه! سموك، لا تقولي ذلك! كان سيرسل الرجلين بالتأكيد، وكانا سيأتيان إلى الكوخ مباشرة. لا أعرف أين يوجد، حقًّا».

يشتعل وجه كوني غضبًا بسماع هذا الإيحاء. لكنها، وقد بدت مشاعرها عليها، ما كانت لتستطيع الكذب. ما كانت حتى تستطيع التظاهر بعدم وجود شيء بينها وبين الحارس. تنظر إلى المرأة الأخرى، وكانت تقف بخبث شديد، ورأسها متدلٍّ: لكنها، بشكل ما، حليفة بأنوثتها.

تقول: «أوه حسنًا. حتى لو كان الأمر كذلك. لا أهتم!».

«لماذا، أنت على ما يرام، سيدتي! كنت فقط تستظلين في الكوخ. لا شيء إطلاقًا».

تواصلان السير إلى المنزل. تدخل كوني إلى غرفة كلفورد، حانقة منه، حانقة من وجهه الشاحب المجهد، ومن عينيه البارزتين.

تنفجر: «لابد أن أقول، لا أعتقد أنك في حاجة إلى إرسال الخدم لتتبعي».

ينفجر: «يا إلهي! أين كنت، يا امرأة؟ غبت ساعات، وفي مثل هذه العاصفة! بحق الجحيم لماذا تذهبين إلى هذه الخميلة البشعة؟ لأي سبب كنت هناك؟ مضت حتى ساعات على توقف المطر، ساعات! هل تعرفين كم الساعة الآن؟ فترة كافية لتدفع أي شخص إلى الجنون. أين كنت؟ ماذا كنت تفعلين بحق الجحيم؟».

«وماذا لو اخترت ألا أخبرك؟» تخلع قبعتها من فوق رأسها وتهز شعرها.

ينظر إليها بعينيه المنتفختين، والصفار يختلط بالبياض. كان أمرًا سيئًا جدًّا بالنسبة له أن ينخرط في هذه النوبات من الغضب: تقضي مسز بولتون وقتًا مرهقًا معه، لأيام بعد ذلك. وتشعر كوني بتأنيب مفاجئ.

تقول بشكل ألطف: «لكن حقًّا! أي شخص كان سيعتقد أنني لم أكن أعرف أين كنت! جلسْتُ فقط في الكوخ في أثناء العاصفة كلها، وأوقدت لنفسي بعض النار وكنت سعيدة».

كانت تتكلم بهدوء. رغم ذلك، لماذا تزعجه أكثر.

ينظر إليها بارتياب.

يقول: «وانظري إلى شعرك! انظري إلى نفسك!».

ترد بهدوء: «أجل! جريت في المطر بدون ملابس».

يحدق فيها صامتًا.

يقول: «لابد أنك مجنونة!».

«لماذا؟ لأنني أخذْتُ دشًّا تحت المطر؟».

«وكيف نشفت؟».

«في فوطة قديمة وأمام النار».

مازال يحدق فيها بدهشة.

يقول: «وبفرض أن أي شخص جاء».

«من يأتي؟».

«من؟ أي شخص! وملورز. هل جاء؟ لابد أن يأتي في الأمسيات».

«أجل، جاء بعد ذلك، حين توقف المطر، ليطعم الدراريج بالذرة».

تتحدث بعدم اكتراث مدهش. ومسز بولتون، في الغرفة المجاورة، تنصت بإعجاب تام. تعتقد أن المرأة تستطيع جعل الأمر طبيعيًّا جدًّا!

«وافترضي أنه أتى وأنت تجرين في المطر ولا شيء عليك، مثل مصابة بالهوس؟».

«أفترض أنه سيخشى على حياته، ويختفي بأسرع ما يمكن».

مازال كلفورد يحدق فيها بثبات. ولن يعرف أبدًا ما كان يدور في لا وعيه. ويرتد كثيرًا جدًّا إلى الخلف ليشكل فكرة واضحة في وعيه. قَبِلَ ببساطة ما قالته، بنوع من الخواء. وأعجب بها. لم يكن أمامه إلا أن يعجب بها. بدت متوردة جدًّا ووسيمة ورقيقة: رقة الحب.

يقول بهدوء: «على الأقل، ستكونين محظوظة إن لم تصابي ببرد شديد».

ترد: «أوه، لم أصب ببرد». كانت تفكر في نفسها بكلمات الرجل الآخر: عليك أحلى مؤخرة لست! تمنت، تمنت بشدة أن تستطيع إخبار كلفورد بأن هذا قيل لها، في أثناء العاصفة الرعدية الشهيرة. مهما يكن! تتعامل مثل ملكة مهانة، وتصعد إلى الدور العلوي لتغير ملابسها.

في تلك الأمسية يود كلفورد أن يكون لطيفًا معها. كان يقرأ واحدًا من أحدث الكتب الدينية العلمية: كان لديه ميل لنوع زائف من الدين، وكان مهتمًّا بشكل يتمحور حول الأنا بمستقبل أناه. وكان من عادته أن يتحدث مع كوني حول بعض الكتب، حيث ينبغي أن تجري المحادثة بينهما، بشكل كيميائيٍّ تقريبًا. وكان عليهما بشكل كيميائي تقريبًا مزجها في رأسيهما.

يقول، وهو يتناول كتابه: «ما هذا بالمناسبة؟ لا تحتاجين إلى تبريد جسمك المتوهج بالخروج في المطر، فقط إذا كان وراءنا بضعة دهور أخرى من التطور. آه، هذا ما يقوله!- 'يكشف العالم لنا عن وجهين: في ناحية يهلك جسديًا، وفي الأخرى يصعد روحيًّا'».

تنصت كوني، متوقعة المزيد. لكن كلفورد ينتظر. تنظر إليه في دهشة.

تقول: «وإذا صعد روحيًّا، ماذا يترك تحت، حيث كان ذيله عادة؟»

يقول: «آه. افهمي ما يعنيه الرجل. **الصعود** عكس **الهلاك**، على ما أعتقد».

«ينطفئ روحيًّا، إذا جاز التعبير!».

«لا، لكن بجد، بدون سخرية: هل تعتقدين أن فيه شيئًا؟».

تنظر إليه مرة أخرى.

تقول: «يهلك جسديًّا؟ أرى أنك تزداد بدانة، وأنا لا أدمر نفسي. هل تعتقد أن الشمس أصغر مما كنا نعتاده؟ ليست أصغر بالنسبة لي. وأعتقد أن التفاحة التي قدمتها حواء لآدم لم تكن حقًّا أكبر بكثير، إذا كانت أكبر، من تفاحة من تفاحنا البرتقالي. هل تعتقد أنها كانت أكبر؟».

«حسنًا، اسمعي كيف يواصل: 'هكذا يمر ببطء، ببطء لا يمكن تصوره بمقاييسنا للزمن، إلى حالات جديدة خلاقة، بينها العالم الجسدي، كما نعرفه حاليًا، سوف يمثله موجة لا يمكن تمييزها عن شيء تافه'».

تنصت ببريق المتعة. تفكر في كل أنواع الأشياء الخاطئة. ولا تقول إلا:

«يا له من هراء سخيف! كما لو أن وعيه التافه المغرور استطاع معرفة ما يحدث بمثل هذا البطء! يعني فقط أنه فشل جسديًّا على الأرض، ويريد

إفشال الكون كله جسديًا. صفاقة تافهة مغرورة!».

«أوه، لكن اسمعي! لا تقاطعي رصانة كلمات الرجل العظيم!- 'انبثق النظام الحالي في العالم عن جزء لا يمكن تخيله، وسوف يجد قبره في مستقبل لا يمكن تخيله. ويبقى هناك العالم الذي لا ينضب، عالم الأشياء المجردة، والإبداع بطبيعته المتحولة، وتحدده من جديد مخلوقاته الخاصة، والرب، وتعتمد عليه حكمة كل أشكال النظام.' هذا ما ينتهي إليه!».

تجلس كوني وتنصت بازدراء.

تقول: «إنه منطفئ روحيًا. يا لها من أشياء كثيرة! لا يمكن تخيلها، وأنواع النظام في القبور، وعوالم الأشياء المجردة، والإبداع بطبيعته المتحولة، والرب ممتزج بأشكال النظام! لماذا، إنه كلام غبي!».

يقول كلفورد: «لابد أن أقول إنه تكتل غامض بعض الشيء، مزيج من الغازات، إذا جاز التعبير. لكنني أعتقد أن هناك شيئًا في فكرة هلاك العالم جسديًا وصعوده روحيًا».

«هل تعتقد؟ دعه يصعد إذًا، طالما يتركني آمنة ومتماسكة جسديًا هنا تحت».

يسأل: «هل تحبين جسمك؟».

«أعشقه!» وتخطر في عقلها الكلمات: إنها الأحلى، أحلى مؤخرة لست!

«لكن ذلك في الحقيقة استثنائي إلى حد ما، لأنه ليس هناك إنكار بأنه

عبء. لكنني أعتقد إذًا أن المرأة لا تعرف المتعة السامية لحياة العقل».

تقول، وهي تنظر إليه: «المتعة السامية؟ هل هذا النوع من الغباء متعة سامية لحياة العقل؟ لا أشكرك! أعطنى الجسد. أعتقد أن حياة الجسد واقع أعظم من حياة العقل: حين ينتبه الجسد حقًّا للحياة. لكن الكثير من الناس، مثل آلة الريح[1] الشهيرة، لهم فقط عقول مثبتة في جثثهم الفيزيائية».

ينظر إليها في دهشة.

يقول: «حياة الجسد، هي بالضبط حياة الحيوانات».

«وهي أفضل من حياة جثث المحترفين. لكن ذلك ليس صحيحًا! الجسد الإنساني يسترد الحياة الحقيقية للتو. مع الإغريق قدم ومضة جميلة، ثم قتله أفلاطون وأرسطو، وقضى يسوع عليه تمامًا. لكن الجسد الآن يسترد الحياة حقًّا، إنه ينهض حقًّا من القبر. وسوف تكون حياة جميلة، جميلة في عالم جميل، حياة الجسد الإنساني».

«عزيزتي، تتحدثين وكأنك في بداية فترة جديدة تمامًا! صحيح، إنك مسافرة في عطلة: لكن من فضلك لا تنتشي بشكل غير لائق. مهما يكن، صدقيني أن الرب يستبعد ببطء الأحشاء والجهاز الهضمي من الإنسان، ليطوره إلى كائن أسمى، أكثر روحانية».

«لماذا ينبغي أن أصدقك يا كلفورد، بينما أشعر أن الرب، مهما يكن، في النهاية أيقظ فيَّ أحشائي، كما تسميها، وهي تتموج هناك بسعادة

(١) آلة تستخدم في المسرح أو في صناعة الأفلام لإنتاج انفجار الهواء أو تقليد صوت الرياح.

كبيرة، مثل الفجر. لماذا ينبغي أن أصدقك، حين أشعر بالعكس تمامًا؟».

«أوه، بالضبط! وما سبب هذا التغير الاستثنائي فيك؟ تجرين عارية تمامًا في المطر، وتلعبين مثل باخوسية؟ رغبة في الإحساس، أم توقع الذهاب إلى فينسيا؟».

تقول: «كلاهما! هل تعتقد أنها بشاعة مني أن أنتشي جدًّا بالسفر؟».

«بشاعة إلى حد ما أن تعلني ذلك بكل هذه الصراحة».

«أخفيه إذًا».

«أوه، لا تنزعجي! تنقلين النشوة تقريبًا إليَّ. أشعر تقريبًا بأنني من يسافر».

«حسنًا، لماذا لا تأتي؟».

«تحدثنا في هذا كله. والحقيقة أنني أعتقد أن نشوتك الكبرى تأتي من أنك تستطيعين توديع هذا كله مؤقتًا. لا شيء مثير للنشوة، للحظة، مثل توديع كل شيء!- لكن كل فراق يعني لقاء في مكان ما. وكل لقاء علاقة جديدة».

«لا أذهب لأدخل في علاقات جديدة».

يقول: «لا تتباهي والآلهة تنصت».

تتوقف فجأة.

تقول: «لا! لن أتباهى!».

لكنها منتشية، مع ذلك، بالسفر: تشعر بالروابط تتقطع. ولم يكن لها

في الأمر حيلة.

لا ينام كلفورد، يقامر طول الليل مع مسز بولتون، حتى كان النوم يغالبها بشدة.

ويحين يوم وصول هيلدا. كانت كوني قد رتبت الأمر مع ملورز بأن تعلق شالًا أخضر من النافذة إذا سار كل شيء كما تتمنى لقضاء ليلتهما معًا، وشالًا أحمر إذا كانت الأمور محبطة.

تساعد مسز بولتون كوني في حزم الأمتعة.

«سيكون التغيير طيبًا جدًّا لسموك».

«أعتقد ذلك. لا تمانعين في الاهتمام وحدك بالسير كلفورد لبعض الوقت، أليس كذلك؟».

«أوه، لا أمانع! يمكن أنْ أتعامل معه بشكل جيد تمامًا. أعني أنني أستطيع أن أقوم بكل ما يحتاجه مني. ألا تعتقدين أنه أفضل مما اعتاد أن يكون؟».

«أوه، كثيرًا! صنعْتِ العجائب معه».

«مع ذلك! الرجال كلهم سواء: مجرد أطفال، وعليك أن تتملقيهم وتداهنيهم وتدعيهم يعتقدون أنهم يشقون طريقهم الخاص. ألا ترين الأمر بهذه الصورة يا سيدتي؟».

«أخشى أنني ليست لدي خبرة كبيرة».

تتوقف كوني عما تفعله.

تسأل، وهي تنظر إلى المرأة الأخرى: «حتى زوجك، هل كان عليك ترويضه، ومداهنته مثل طفل؟».

تتوقف مسز بولتون أيضًا.

تقول: «حسنًا. كان عليَّ أن أتملقه كثيرًا، هو أيضًا. لكنني كنت أعرف دائمًا وضعي بعد ذلك، ينبغي أن أقول ذلك. لكنه استسلم عمومًا لي».

«لم يكن قط لوردًا أو سيدًا؟».

«لم يكن! على الأقل كانت هناك أحيانًا نظرة في عينيه، وحينها أعرف أن عليَّ الاستسلام له. لكنه كان يستسلم لي عادة. لا، لم يكن قط لوردًا أو سيدًا. لكنني أيضًا لم أكن. كنت أعرف متى لا يمكن التمادي معه، وأستسلم: رغم أن ذلك كلفني الكثير أحيانًا».

«وماذا إذا عاندْتِ معه؟».

«أوه، لا أعرف، لم أفعل ذلك قط. حتى حين يخطئ، إذا أصر، أستسلم. ترين، لم أرغب قط في كسر ما بيننا. وإذا وضعت حقًّا إرادتك ضد رجل، فإن ذلك ينهي المسألة. إذا كنت تهتمين برجل، فعليك الاستسلام له بمجرد أن يصمم حقًّا؛ سواء كنت على حق أو لا، عليك الاستسلام. وإلا كسرْتِ شيئًا. لكن ينبغي أن أقول إن تيد كان يستسلم لي أحيانًا، حين أصمم على شيء، وبالخطأ. وهكذا أعتقد أن للأمر جانبه الحسن وجانبه السيئ».

تسأل كوني: «وهذا ما تفعلين مع كل مرضاك؟».

«أوه، هذا مختلف. لا أبالي إطلاقًا، بالطريقة نفسها. أعرف ما هو جيد بالنسبة لهم، أو أحاول أن أعرف، ثم أجد طريقة للتعامل معهم لصالحهم. ليس مثل أي شخص تغرمين به حقًا. الأمر مختلف تمامًا. بمجرد أن تغرمي برجل، يمكن أن تكوني رقيقة مع أي رجل تقريبًا، إذا احتاج إليك عمومًا. لكن ليس بالطريقة نفسها. لا تبالين حقًا. أشك، بمجرد أن تبالي حقًّا، إذا كان يمكن أن تبالي حقًّا مرة أخرى».

تفزع هذه الكلمات كوني.

تسأل: «هل تعتقدين أن المرء لا يستطيع أن يبالي إلا مرة واحدة فقط؟».

«أو لا يبالي أبدًا. معظم النساء لم يبالين إطلاقًا، لم يبدأن قط. لا يعرفن ما يعنيه ذلك. ولا الرجال أيضًا. لكن حين أرى امرأة تبالي، يتوقف قلبي من أجلها».

«وهل تعتقدين أن الرجال يغضبون بسهولة؟».

«أجل! إذا جرحْتيهم في كبريائهم. لكن أليست النساء على الشاكلة نفسها؟ فقط كبرياء النساء مختلف قليلًا عن كبرياء الرجال».

تفكر كوني في ذلك. ينتابها مرة أخرى بعض الشك بشأن سفرها. ومع ذلك، ألم تكن تمنح رجلها فرصة، وإن تكن قصيرة؟ وكان يعرف ذلك. ولهذا كان غريبًا جدًّا وساخرًا.

لكن! الوجود الإنساني تحكمه إلى حد بعيد آلة الظروف الخارجية. كانت تحت سلطة هذه الآلة. ولا تستطيع التحرر في خمس دقائق. أو حتى ترغب في ذلك.

تصل هيلدا مبكرًا صباح الخميس، في سيارة سريعة بمقعدين، وحقيبة السفر مربوطة جيدًا خلفها. تبدو محتشمة ورزينة كما كانت دائمًا، لكن لديها إرادتها الخاصة نفسها. لديها الجحيم الحقيقي لإرادتها، كما اكتشف زوجها. لكن الزوج كان يقوم بإجراءات طلاقها. أجل، تسهل حتى عليه الأمر للقيام بذلك، رغم أنها ليس لها عشيق. في ذلك الوقت كانت «بعيدة عن» الرجال. كانت قانعة تمامًا بأن تكون سيدة نفسها: وسيدة طفليها، اللذين تربيهما «بشكل صحيح»، بصرف النظر عما يعنيه هذا.

كان مسموح لكوني أيضًا بحقيبة واحدة فقط. لكنها أرسلتْ حقيبة إلى أبيها، وكان سيذهب بالقطار. لا فائدة من الذهاب بسيارة إلى فينسيا. وإيطاليا شديدة الحرارة بما يحول دون السير فيها بسيارة في يوليو. يذهب مستريحًا بالقطار. وقد جاء للتو من أسكتلندا.

وهكذا، مثل مارشال أركادي رزين، ترتب هيلدا الجزء المادي من الرحلة. وتجلس هي وكوني في غرفة الدور العلوي تتحدثان.

تقول كوني، ببعض الذعر: «لكن يا هيلدا! أريد البقاء قريبة من هنا الليلة. ليس هنا: قريبة من هنا!».

ترمق هيلدا أختها بعينين رماديتين مبهمتين. تبدو هادئة جدًّا: وكانت غاضبة غالبًا.

تسأل بهدوء: «أين، قريبة من هنا؟».

«حسنًا، تعرفين أنني أحب شخصًا ما، أليس كذلك؟».

«فهمْتُ أن هناك شيئًا ما».

«حسنًا، إنه يقيم قريبًا من هنا، وأريد قضاء هذه الليلة الأخيرة معه. ينبغي. وعدْتُه».

تلحُّ كوني.

في صمت تحني هيلدا رأسها الذي يشبه رأس منيرفا[1]. ثم تنظر إلى أعلى.

تقول: «هل تريدين أن تخبريني بمن هو؟».

تتلعثم كوني، ويحمر وجهها بقوة، مثل طفلة خجلى: «إنه حارس طرائدنا».

تقول هيلدا، وهي ترفع أنفها قليلًا باشمئزاز: وهي حركة أخذتها عن أمها: «كوني!».

تقول كوني، محاولة الدفاع عنه: «أعرف: لكنه رائع حقًّا. يفهم في الحنان حقًّا».

تحني هيلدا، مثل أثينا المتوردة الغنية بالألوان، رأسها وتفكر. ينتابها غضب عنيف حقًّا. لكنها لا تجرؤ على إظهاره، لأن كوني، وقد أخذت ذلك عن أبيها، قد تجمح على الفور وتخرج عن نطاق السيطرة.

صحيح أن هيلدا لم تعجب بكلفورد: تأكيده البارد على أنه مهم! كانت تعتقد أنه يستغل كوني بشكل فاضح ووقح. وتتمنى أن تتركه

(١) إلهة العقل والحكمة وربة الفنون والحرف اليدوية عند الرومان؛ تقابل أثينا عند اليونان.

أختها. لكن، لأنها من الطبقة الأسكتلندية المتوسطة، كانت تشمئز من أي «تدنٍّ» لنفسها أو لأسرتها. تتطلع إلى أعلى في النهاية.

تقول: «سوف تندمين على ذلك».

تصيح كوني وقد احمر وجهها: «لن أندم. إنه استثنائي تمامًا. أحبه **حقًا**. إنه عشيق رائع».

تظل هيلدا تفكر.

تقول: «سوف تبرئين منه بسرعة شديدة، وتعيشين مجللة بالعار بسببه».

«لن يحدث! أتمنى أن يكون لي ابن منه».

تقول هيلدا، مدوية مثل طرقة مطرقة، وشاحبة من الغضب: «**كوني!**»

«سيكون لي ابن منه إن أمكن. وأكون فخورة إلى أقصى حد إذا كان لي طفل منه».

تفكر هيلدا في أنه لا فائدة من الحديث معها.

تقول: «ألا يشك كلفورد؟».

«أوه، لا! لماذا يشك؟».

تقول هيلدا: «لا شك لدي في أنك قدمت له الكثير من أسباب الشك».

«لا، إطلاقًا».

«ومسألة الليلة تبدو حماقة لا مبرر لها تمامًا. أين يعيش الرجل؟».

«في الدار في الطرف الآخر من الخميلة».

«هل هو أعزب؟».

«لا! تركته زوجته».

«كم عمره؟».

«لا أعرف. أكبر مني».

يتصاعد غضب هيلدا مع كل رد، تغضب كما كانت أمها تغضب، في نوبات. لكنها تظل تكتم غضبها.

تنصحها بهدوء: «لو كنت مكانك لتخليت عن مغامرة الليلة».

«لا يمكن! لابد أن أبقى الليلة معه، أو لن أذهب إلى فينسيا إطلاقًا. فقط لا يمكن».

تسمع هيلدا أباها مرة أخرى، فتتوقف بدبلوماسية تامة. وتوافق على أن ينطلقا بالسيارة إلى مانسفيلد للعشاء، وتعود بكوني إلى نهاية الزقاق بعد حلول الظلام، وتأخذها من نهاية الطريق في الصباح التالي، وتنام في مانسفيلد، على بعد نصف ساعة فقط. لكنها كانت غاضبة. تخزن، هذا العائق أمام خططها، ضد أختها.

تعلق كوني شالًا أخضر زمرديًا على حافة نافذتها.

تتحمس هيلدا، في قوة غضبها، لكلفورد.

رغم كل شيء، له عقل. وإذا كان عاجزًا عن أداء وظيفته الجنسية، أحسن: لم يعد هناك ما يمكن الشجار حوله! لم تعد هيلدا ترغب في

المزيد من الجنس، لأن الرجال أصبحوا مقرفين، وأنانيين جدًّا. وما لدى كوني مما تتقبله على مضض أقل مما لدى الكثير من النساء ولم يبق إلا أن تعرف ذلك.

يرى كلفورد أن هيلدا، رغم كل شيء، امرأة ذكية تمامًا، يمكن أن تجعل رجلًا رفيقًا من الطراز الأول، إذا أراد الاهتمام بالسياسة على سبيل المثال. أجل، ليس لديها شيء من سخافة كوني، كوني أقرب إلى طفلة: عليك أن تجد لها مبررات، لأنها لا يمكن الاعتماد عليها إطلاقًا.

يتناولون الشاي مبكرًا في القاعة، والأبواب مفتوحة لتسمح بدخول الشمس. وبدا أن الجميع يلهثون إلى حد ما.

«إلى اللقاء، فتاتي كوني! تعودين لي بسلام».

تقول كوني بحماس تقريبًا: «إلى اللقاء، كلفورد! أجل، لن أغيب طويلًا».

«إلى اللقاء، هيلدا! سوف تضعين عينًا عليها، أليس كذلك؟».

تقول هيلدا: «سوف أضع العينين! لن تشرد بعيدًا».

«وعد!».

«إلى اللقاء، مسز بولتون! أعرف أنك سوف تهتمين بالسير كلفورد بنبل».

«سأفعل ما يمكنني، سموك».

«واكتبي لي إذا كانت هناك أي أخبار، وحدثيني عن السير كلفورد، عن أحواله».

«رائع جدًّا سموك، سوف أفعل. وأتمنى لك وقتًا طيبًا، وأن تعودي وتبهجينا».

يلوِّح الجميع. تتحرك السيارة وتنظر كوني إلى الخلف وترى كلفورد، يجلس على قمة الدرج في كرسي المنزل. إنه زوجها رغم كل شيء: وراجبي بيتها: هذا ما فعلته الظروف.

تمسك مسز تشامبرز البوابة وتتمنى لسموها إجازة سعيدة. تنطلق السيارة من الغيضة المظلمة التي تغطي المنتزه، إلى الطريق السريع حيث كان عمال المناجم في الطريق إلى بيوتهم. تنعطف هيلدا إلى طريق كروسهيل، ولم يكن طريقًا رئيسًا، لكنه يمتد إلى مانسفيلد. تلبس كوني نظارة. تسيران بجوار السكة الحديد، وكانت في فجوة. ثم تعبران الفجوة على جسر.

تقول كوني: «هذا هو الزقاق إلى الدار!».

تنظر هيلدا إليه بنفاد صبر.

تقول: «إنه بائس جدًّا ولا يمكن اجتيازه مباشرة! يمكن أن نكون في بول مول في التاسعة».

تقول كوني، من خلف النظارة: «آسفة من أجلك».

تصلان بسرعة إلى مانسفيلد، وكانت ذات يوم بلدة رومانسية، صارت الآن بلدة لمنجم فحم مُحبِط تمامًا. تتوقف هيلدا عند فندق يرد في دفتر السيارات، وتحجز غرفة. كان الأمر كله مملًّا، وكانت غاضبة بشكل يحول دون أن تتكلم. ومع ذلك، كان على كوني أن تخبرها بشيء

ما عن تاريخ الرجل.

تقول هيلدا: «**هو! هو!** بأي اسم تنادينه؟ لا تقولين إلا **هو**».

«لم أناده قط بأي اسم: ولم يناديني: وهو أمر غريب، حين تفكرين فيه. إلا ونحن نقول ليدي جين وجون توماس. لكن اسمه أوليفر ملورز».

«وكيف ترغبين في أن تكوني مسز أوليفر ملورز، بدلًا من الليدي تشاترلي؟».

«أحبه».

لم يكن هناك ما يُفعَل مع كوني. وعلى أية حال إذا كان الرجل ملازمًا في الجيش في الهند ولمدة أربعة أعوام أو خمسة، فلابد أنه أنيق إلى حد ما. من الواضح أن له شخصية. بدأت هيلدا تلين بعض الشيء.

تقول: «لكنك ستنهين علاقتك به بعد فترة، ثم تشعرين بالعار لأنك ارتبطْتِ به. لا يمكن أن تختلطي بالعمال».

«لكنك اشتراكية! أنت دائمًا إلى جانب الطبقات العاملة».

«قد أكون إلى جانبهم في أزمة سياسية، ولكن لأنني في جانبهم أعرف استحالة أن أخلط حياتي بحياتهم. ليس نتيجة الغرور، لكن لاختلاف الإيقاع تمامًا».

عاشت هيلدا بين المثقفين السياسيين الحقيقيين، وبالتالي كان الرد عليها مستحيلًا تمامًا.

تمتد الأمسية التي لا توصف في الفندق أكثر مما ينبغي، وفي النهاية تتناولان عشاء لا يوصف. ثم تضع كوني بضعة أشياء في حقيبة صغيرة

من الحرير، وتمشط شعرها مرة أخرى.

تقول: «رغم كل شيء يا هيلدا، يمكن أن يكون الحب مدهشًا: حين تشعرين بأنك **تعيشين**، وتكونين في منتصف الخلق». يبدو الكلام من جانبها وكأنه تفاخر تقريبًا.

تقول هيلدا: «أعتقد أن كل بعوضة تشعر بالإحساس نفسه».

«هل تعتقدين ذلك؟ يا له من إحساس رائع بالنسبة لها!».

كانت الأمسية صافية بشكل مدهش وطويلة، حتى في البلدة الصغيرة. كانت شبه منيرة طول الليل. بوجه يشبه القناع، من الاستياء، تدير هيلدا سيارتها مرة أخرى، وتعود الاثنتان بسرعة على آثارهما، آخذتين الطريق الآخر، خلال بولسوفر[١].

تلبس كوني نظارتها وكابًا تنكريًّا، وتجلس في صمت. بسبب معارضة هيلدا، كانت إلى جانب الرجل بشراسة، ستقف بجانبه في السراء والضراء.

كان النور العالي مضاء وهما تعبران كروسهيل، والقطار الصغير المضاء في الفجوة يجعل الجو يبدو ليلًا حقيقيًّا. تظن هيلدا أن المنعطف إلى الزقاق في نهاية الجسر. تبطئ فجأة إلى حد ما وتنحرف عن الطريق، تلألأت الأضواء بيضاء في الزقاق الذي تنمو فيه الأعشاب بكثرة. تتطلع كوني. ترى شخصًا غير واضح، تفتح الباب.

تقول بهدوء: «وصلنا!».

---

(١) بلدة صغيرة قرب شيسترفيلد، ديربيشاير، إنجلترا.

لكن هيلدا تطفئ الأنوار، وتستغرق في الرجوع، آخذة المنعطف.

تسأل بسرعة: «لا شيء على الجسر؟».

يقول صوت الرجل: «لا شيء».

ترجع بظهرها إلى الجسر، تعكس اتجاهها، تترك السيارة تتقدم بضع ياردات في الطريق، ثم تعود إلى الزقاق، تحت شجرة دردار وايش[1]، ساحقة العشبَ والسرخس. ثم تنطفئ كل الأنوار. تتقدم كوني. كان الرجل يقف تحت الأشجار.

تسأل كوني: «هل انتظرْتَ كثيرًا؟».

يرد: «ليس كثيرًا جدًّا».

ينتظر الاثنان خروج هيلدا. لكن هيلدا تغلق باب السيارة وتجلس مشدودة.

«هذه أختي هيلدا. ألن تأتي وتتحدث إليها؟ هيلدا! هذا مستر ملورز».

يرفع الحارس قبعته، لكنه لا يقترب.

تتوسل كوني: «تمشين معنا إلى الدار يا هيلدا. ليست بعيدة».

«وماذا عن السيارة؟».

«الناس يتركونها في الأزقة. ومعك المفتاح».

تصمت هيلدا، متأنية. ثم تنظر إلى الخلف في الزقاق.

---

(١) نبات أوروبي بأوراق كبيرة خشنة، ينمو في الغابات أو قرب المياه الجارية.

تقول: «هل يمكن أن أرجع حول الأجمة؟».

يقول الحارس: «أوه أجل!».

ترجع ببطء حول المنحنى، بعيدًا عن الطريق، وتغلق السيارة، وتنزل. كان الليل، لكن الظلمة بها بصيص من النور. كان سياج الأشجار يرتفع عاليًا وبريًّا، بجانب الزقاق غير المستخدم، الذي يبدو مظلمًا جدًّا. وفي الجو رائحة حلوة طازجة. يمضي الحارس في المقدمة، ثم كوني، ثم هيلدا، في صمت. يضيء الأماكن الصعبة بكشاف، ويواصلون مرة أخرى، بينما تنعب بومة بهدوء على أشجار البلوط، وتسير فلوسي في صمت حولهم. لا يستطيع أحد أن يتكلم. وليس هناك ما يقال.

ترى كوني عن بعد الضوء الأصفر للمنزل، يدق قلبها بسرعة. كانت مذعورة بعض الشيء. يواصلون، في صف واحد.

يفتح الباب ويتقدمهم إلى الغرفة الدافئة، الصغيرة والعارية. كانت النار تحترق منخفضة وحمراء في الموقد. وعلى الطاولة طبقان وكأسان على مفرش أبيض مناسب تمامًا. تهز هيلدا رأسها وتتلفت في الغرفة العارية البائسة. ثم تستجمع شجاعتها وتنظر إلى الرجل.

كان معتدل الطول، ونحيفًا، واعتقدت أنه وسيم. تحافظ على مسافة كبيرة منه، وبدا أنها لا ترغب في الحديث إطلاقًا.

تقول كوني: «اجلسي يا هيلدا».

يقول: «اجلسي! هل أصنع لكما شايًا أو أي شيء، أم تشربان كأسًا من البيرة؟ إنها متوسطة البرودة».

تقول كوني: «بيرة!».

تقول هيلدا بحياء زائف: «بيرة لي، من فضلك!» ينظر إليها ويرمش.

يأخذ إبريقًا أزرق ويتهادى إلى المطبخ. وحين يعود بالبيرة، يكون وجهه قد تغير مرة أخرى.

كانت كوني تجلس قرب الباب، وهيلدا تجلس في مقعده، وظهرها إلى الحائط، أمام ركن النافذة.

تقول كوني بهدوء: «هذا كرسيه». فتنهض هيلدا وكأنه حرقها.

يقول باتزان تام: «خليكِ قاعدة، خليكِ قاعدة! فيه كرسي واحد بس متشغليش بالك، مفيش حد فينا ضخم زي الدب الكبير».(1)

يحضر لهيلدا كأسًا، ويصب لها بيرة أولًا من الإبريق الأزرق.

يقول: «وبالنسبة للسجاير معنديش ولا واحدة، لكن معاكِ سجايرك. ما بدخنش، أنا نفسي. ناكل حاجة؟» يستدير مباشرة إلى كوني. «تاكلي حاجة، لو جبتلك؟ تاكلي زي عادتك». تحدث بالعامية بثقة هادئة غريبة، كما لو كان صاحب حانة.

تسأل كوني، باندفاع: «ماذا لديك؟».

«لحم خنزير مسلوق، وجبن، وجوز مخلل، لو حبيتي - مش كتير».

تقول كوني: «أجل. وأنت يا هيلدا؟».

---

(1) إشارة إلى قصة شعبية، تدخل فيها فتاة إلى منزل خال في غابة وحين يعود أصحاب المنزل، ثلاث دببة، يعلن أضخم الدببة بغضب أن شخصًا يجلس في كرسيه، والمعنى هنا أنه لن يغضب لجلوسها في كرسيه.

تنظر هيلدا إليه.

تقول بهدوء: «لماذا تتحدث بلهجة يوركشاير؟».

«تلك! تلك ليست لهجة يوركشاير، إنها لهجة ديربي».

يرد إليها النظرة بابتسامة شاحبة باردة.

«ديربي، إذًا! لماذا تتحدث بلهجة ديربي؟ تحدثت إنجليزية طبيعية في البداية».

«لكن اتكلمت؟ يمكن أتغير لو حاولت؟ لأ، لأ، سبيني أتكلم ديربي لو ده يناسبني. لو مكنتيش ضدها».

تقول هيلدا: «تبدو متكلفة بعض الشيء».

«آي، يمكن كده! وفي تفرشال ممكن تبان متكلفة». ينظر إليها مرة أخرى، على بعد مسافة غريبة محسوبة، عبر عظام وجنته: كما لو أنه يقول: يي، ومين إنتِ؟

يتهادى إلى النملية لإحضار الطعام.

تجلس الأختان في صمت. يحضر طبقًا آخر وسكينًا وشوكة. ثم يقول:

«وإن مكنش يفرق معاكم، هخلع البالطو زي ما بعمل دايمًا».

يخلع معطفه ويعلقه على المشجب، ثم يجلس إلى الطاولة بقميصه: قميص من الفانيلا الخفيفة بلون الكريمة.

يقول: «قدموا! قدموا! متستنوش عزومة!».

يقطع الخبز، ويجلس ساكنًا. تشعر هيلدا، كما شعرت كوني ذات مرة، بقوة صمته وبروده. ترى يده الصغيرة الحساسة الرخوة على الطاولة. لم يكن عاملًا ببساطة، لم يكن: كان مؤثرًا! مؤثرًا!

تقول، وقد أخذت قطعة صغيرة من الجبن: «لكن! سيكون من الطبيعي أكثر أن تتحدث إلينا بالإنجليزية العادية، وليس بالعامية».

ينظر إليها، وهو يشعر بشيطان إرادتها.

يقول بإنجليزية عادية: «هل؟ هل؟ هل أي شيء قيل بينك وبيني طبيعي تمامًا، إلا إذا قلْتِ لي اذهب إلى الجحيم قبل أن تراك أختي مرة أخرى: وإلا إذا قلْتُ شيئًا بغيضًا بالدرجة نفسها مرة أخرى؟ هل هناك أي شيء آخر طبيعي؟».

تقول هيلدا: «أوه أجل! يمكن فقط للأخلاق القويمة أن تكون طبيعية تمامًا».

يقول: «طبيعة ثانية، إذا جاز التعبير!» ثم يبدأ الضحك. ويقول: «لأ. أنا زهقان من الأخلاق. اسمحي لي!».

ترتبك هيلدا بوضوح وتنزعج بغضب. رغم كل شيء، قد يظهر أنه يدرك أنه مبجل. وبدلا من ذلك، بدا، باستعراضه وتصرفه المتغطرس، أنه هو الذي يمنح التبجيل. مجرد وقاحة! كوني المسكينة المضللة، في براثن الرجل!

يأكل الثلاثة في صمت. تنظر هيلدا لترى سلوكه على الطاولة. ولم يكن بوسعها إلا أن تدرك أنه غريزيًّا أكثر كياسة وأفضل تنشئة منها. تتسم

ببعض النزق الأسكتلندي. وبالإضافة إلى ذلك، يتمتع بكل الثقة التامة المتحفظة للإنجليزي، لا حواف فضفاضة. من الصعب جدًّا أن تهزمه.

لكنه أيضًا لا يمكن أن يهزمها.

تقول، بشكل أكثر إنسانية: «وهل تعتقد حقًّا أن الأمر يستحق المخاطرة؟».

«أي شيء جدير بأية مخاطرة؟».

«هذا الهروب مع أختي».

تومض ابتسامته المزعجة.

«المفروض تسأليها هيَّ!».

ثم ينظر إلى كوني:

«ده كان بالاتفاق معاكِ، يا فتاتي، مش كده؟ أنا ما غصبتش عليكِ؟».

تنظر كوني إلى هيلدا.

«أتمنى ألا تثيري اعتراضات تافهة يا هيلدا».

«من الطبيعي ألا أريد. لكن لابد أن يفكر أحد في الأمور. تعتقدين أنك ستنجحين في الحفاظ على نوع من الاستمرارية في حياتك. لا يمكن أن تثيري فوضى فقط».

لحظة توقف.

يقول: «إيه، استمرارية! وتقصدي إيه بكده؟ إيه الاستمرارية اللي حصلت عليها في حياتك؟ أعتقد إنك في طريقك للحصول على

الطلاق. إيه الاستمرارية دي؟ استمرارية عنادك. ممكن أشوفها كويس. وإيه الفايدة منها بالنسبة لك؟ هتعاني من استمراريتك قبل ما تكبري أكتر. امرأة عنيدة وإرادتك الخاصة: آي، يعملوا استمرارية سريعة، يعملوا. أحمد ربنا إن مش أنا اللي بتعامل معاكِ!».

تقول هيلدا: «بأي حق تتحدث معي بهذا الشكل؟».

«حق! أي حق ليكِ في إنك تبدئي ربط الناس التانيين في استمراريتك؟ سيبي الناس في استمراريتهم».

تقول هيلدا بهدوء: «عزيزي الرجل، هل تعتقد أنني مهتمة بك؟».

يقول: «آي. إنتِ مهتمة. علشان ده حتمي. إنتِ أخت مراتي تقريبًا».

«مازلت بعيدًا عن ذلك، أؤكد لك».

«مش بعيد قوي، أؤكد ليكي. عندي استمراريتي، راجعي حياتك! كويسة زي بتاعتك، في كل الظروف. وإن كانت أختك بتيجيلي علشان حتة فرج ومشاعر، فهي عارفة هتكون إيه بعد كده. كانت في سريري قبل كده: وده إنتِ ما جربتهوش، احمدي ربنا، مع استمراريتك». وكانت هناك وقفة قاتلة قبل أن يضيف: «- إيه، أنا ما بلبسي بنطلوني بالمشقلب. ولو حصل لي حاجة غير متوقعة، بشكر نجومي. يحصل الرجل على متعة كبيرة من الفتاة اللي قاعدة هناك، أكتر مما أي حد يمكن يحصل عليه من اللي زيك. وهي حاجة مثيرة للشفقة، لأنك ممكن تكوني صندوق تفاح كويس، بدل ما تكوني كابوريا أنيقة. الستات اللي زيك محتاجين تطعيم حقيقي».

كان ينظر إليها بابتسامة غريبة مضطربة، حسية وتقديرية بشكل خافت.

تقول: «والرجال من أمثالك يجب عزلهم: وتعديل سوقيتهم وشهوانيتهم الأنانية».

«آي، مدام! من الرحمة أن يترك القليل من الرجال من أمثالي. لكنك تستحقين ما تحصلين عليه: أن تتركي وحيدة تمامًا».

تنهض هيلدا وتذهب إلى الباب. ينهض ويأخذ معطفه من المشجب.

تقول: «أستطيع تمامًا أن أعرف طريقي وحدي».

يقول بهدوء: «أشك أنك لا تستطيعين».

يسيرون في طابور مضحك إلى الزقاق مرة أخرى في صمت. والبومة مازالت تنعب. وكان يعرف أن عليه أن يطلق النار عليها.

كانت السيارة تقف في مكانها لم يلمسها أحد، منداة بعض الشيء. تدخلها هيلدا وتدير المحرك. والاثنان الآخران ينتظران.

تقول من حصنها: «كل ما أعنيه أنني أشك أن تجدا، كلاكما، أن الأمر يستحق!».

يقول، من الظلمة: «لحم رجل سم رجل آخر. لكنه لحمة وخمرة بالنسبة لي».

تضيء الأنوار.

«لا تجعليني أنتظر في الصباح، يا كوني».

«لا، لن أجعلك. طابت ليلتك!».

تسير السيارة ببطء إلى الطريق السريع، ثم تنطلق بسرعة، مخلفة صمت الليل.

تأخذ كوني ذراعه بحياء، ويسيران في الزقاق. لا يتكلم. وفي النهاية توقفه.

تهمهم: «قبِّلني!».

يقول: «لأ، انتظري شوية! سبيني أهدا».

يمتعها هذا. مازالت تمسك بذراعه، ويسيران بسرعة في الزقاق، في صمت. كانت سعيدة جدًّا بوجودها معه، الآن بالضبط. ترتجف، وهي تعرف أن هيلدا قد تبعدها. وكان صامتًا بشكل مبهم.

وهما في الدار مرة أخرى، تقفز تقريبًا من المتعة، متعة التحرر من أختها.

تقول له: «لكنك كنت فظيعًا مع هيلدا».

«كان المفروض تاخد صفعة في الوقت المناسب».

«لكن لماذا؟ إنها لطيفة جدًّا».

لا يرد، يظل يقوم بأعماله المسائية الروتينية، بحركة هادئة متوقعة. كان غاضبًا ظاهريًّا، لكن ليس منها. وهو ما تشعر به كوني. وأضفى عليه غضبه وسامة خاصة، جوهرًا وبريقًا انتشت بهما وجعلا أطرافها تذوب.

لكنه لا يلتفت إليها.

حتى يجلس ويبدأ فك رباط حذائه. ثم ينظر إليها من تحت حاجبيه، والغضب مازال راسخًا فيهما.

يقول: «مش هتطلعي فوق؟ هناك شمعة!».

يهز رأسه بسـ عة ليشير إلى شمعة تحترق على الطاولة. تأخذها بإذعان، ويشاهد المنحنى الكامل لوركيها وهي تصعد الدرجات الأولى.

كانت ليلة مشاعر حسية، كانت فيها جافلة بعض الشيء وغير راغبة تقريبًا: لكن سيطرت عليها مرة أخرى هذه النشوة النافذة للحسية، مختلفة، وأكثر حدة، وأكثر رهبة من نشوة الحنان، لكن، في اللحظة نفسها، مرغوبة أكثر. ورغم أنها كانت مذعورة بعض الشيء، تتركه يأخذ طريقه، وقد هزتها الحسية المستهترة الوقحة حتى أعماقها، وعرَّتْها حتى النهاية، وجعلت منها امرأة مختلفة. لم يكن الحب حقًّا. لم يكن الفحش. كانت حسية حادة وحارقة مثل النار، تحرق الروح تمامًا.

كانت تحرق الخجل، أعمق أشكال الخجل وأقدمها، في أكثر المواضع سريةً. بذلت جهدًا لتتركه يأخذ طريقه وغرضه منها. عليها أن تكون شيئًا سلبيًّا راضخًا، مثل جارية، جارية حقًّا. لكن العاطفة تنطلق حولها مهلكة، وحين تضغط شعلتها الحسية في أحشائها وصدرها، تعتقد حقًّا أنها تحتضر: لكنه موت مؤثر ورائع.

وتساءلت غالبًا عما كان يعنيه أبلار، حين قال إنهما، هو وهليواز[1]، في عام حبهما مرا بكل مراحل العاطفة وتهذيبها. الشيء نفسه، قبل ألف

(١) هيلواز (١٠٩٨-١١٦٤): رئيسة دير فرنسية اشتهرت بعلاقتها الغرامية المأسوية مع اللاهوتي أبلار.

سنة: قبل عشرة آلاف سنة! الشيء نفسه على المزهريات اليونانية، في كل مكان! تهذيب العاطفة، تهور الحسية! والضرورة، الضرورة الأبدية لحرق الخجل الزائف وصهر أثقل جواهر الجسد نقاء بنار الحسية المطلقة.

في الليلة الصيفية القصيرة تتعلم الكثير. كانت تعتقد أن المرأة قد تموت من الخجل. بدلًا من ذلك، يموت الخجل. الخجل، وهو الخوف: الخجل العضوي العميق، الخوف الجسدي القديم، القديم، القابع في جذور أجسادنا، ولا يمكن مطاردته إلا بالنار الحسية، تثيره في النهاية وتحدد مساره المطاردة القضيبية للرجل، وتصل إلى القلب الحقيقي لأدغال نفسها. تشعر الآن أنها وصلت إلى الطبقة السفلى لطبيعتها، وهي أساسًا وقحة. نفسها الحسية عارية وبجحة. تشعر بانتصار، بخيلاء تقريبًا. هكذا! هذا ما كان! تلك هي الحياة! هذه حقيقتها! لم يعد هناك ما تخفيه أو تخجل منه. شاركت رجلًا، كائنًا آخر، عريها النهائي.

وأي شيطان مستهتر كان الرجل! مثل شيطان حقًّا! لابد أنها كانت قوية لتحتمله. لكن الأمر يستغرق بعض الوقت لإدراك ذلك، جوهر الدغل الجسدي، آخر خبايا العار العضوي وأعمقها. استطاع القضيب وحده استكشافها. وكم أثر فيها!

وكم كرهته خوفًا. لكن كم كانت تريده حقًّا! تعرف الآن. كانت في قاع روحها، بالأساس، تحتاج إلى هذه المطاردة القضيبية، تحتاجها سرًّا، وتعتقد أنها لن تحصل عليها أبدًا. الآن كانت هنا فجأة، ورجل يشاركها عريها النهائي الأخير، وكانت وقحة.

كم كان الشعراء والجميع كذابين! جعلوها تعتقد أنها تريد المشاعر. بينما ما تريده بسموٍّ هذه الحسية النافذة المهلكة الرهيبة إلى حد ما. العثور على رجل يجرؤ على القيام بذلك، بدون خجل أو شعور بالذنب أو ريبة نهائية! إذا شعر بالخجل بعد ذلك، وجعلها تشعر بالخجل، يا له من أمر فظيع! من المؤسف جدًّا أن معظم الرجال سيئون، خجولون بعض الشيء، مثل كلفورد! وحتى مثل ميكاليس! الاثنان حسيًّا هزليَّان ومخزيان بعض الشيء. الضغط السامي للعقل! ماذا يعني للمرأة؟ ماذا يعني حقًّا للرجل أيضًا! يصبح مجردِ مشوش وهزلي، حتى في عقله. نحتاج إلى حسية مطلقة لتنقية العقل وشحذه. الحسية المطلقة المتقدة، لا التشوش.

آه، يا إلهي، كم أن الرجل شيء نادر حقًّا! كلهم كلاب تهرول وتشمشم وتضاجع. العثور على رجل لا يعرف الخوف أو الخجل! تنظر إليه الآن، ينام كما ينام حيوان بري، غارقًا، غارقًا في أعماقه. تهجع، حتى لا تبعد عنه.

حتى أيقظها نهوضه تمامًا. كان يجلس في السرير، وينظر إليها. ترى عريها في عينيه، معرفة فورية بها. وبدا أن السائل، المعرفة الذكرية بها، يتدفق إليها من عينيه ويلفها بشهوانية. أوه كم كان شهوانيًّا وجميلًا أن تكون الأطراف شبه نائمة والجسد، أن تكون ثقيلة ومغمورة بالعاطفة.

تقول: «هل هذا وقت استيقاظك؟».

«السادسة والنصف».

عليها أن تكون عند نهاية الزقاق في الثامنة. تتعرض دائمًا، دائمًا، دائمًا لهذا الإكراه!

يقول: «أجهز الفطور وأحضره هنا؛ هل أحضره؟».

«أوه أجل!».

تئن فلوسي برقة. ينهض ويخلع بيجامته ويمسح نفسه بفوطة. حين يكون الإنسان مفعمًا بالشجاعة ومفعمًا بالحياة، كم يكون جميلًا! هكذا تفكر، وتشاهده في صمت.

«ممكن تسحب الستارة؟».

كانت الشمس ساطعة على الأوراق الخضراء الندية في الصباح. والخميلة تقف مزرقة يانعة، عن قرب. تجلس في السرير، وتنظر حالمة من خلال النافذة الناتئة، وذراعاها العاريتان تضغطان ثدييها العاريين معًا. يرتدي ملابسه. وكانت شبه حالمة بالحياة، بالحياة معه: مجرد الحياة.

يمضي هربًا من عريها الجاثم الخطير.

تقول: «هل فقدْتُ قميص النوم؟»

يدفع يده في السرير، ويسحب قطعة رقيقة من الحرير.

يقول: «فاكر إني حسيت بحرير عند قدمي».

لكن قميص النوم كان قد شق تقريبًا إلى اثنين.

تقول: «لا تبال! جئت به ليكون هنا، حقًا. سأتركه».

«أي، اتركيه، يمكن أن أضعه بين ساقيَّ في الليل، للصحبة. ليس

عليه اسم أو علامة، أليس كذلك؟».

ترتدي القميص الممزق، وتجلس حالمة تنظر من النافذة. النافذة مفتوحة، وهواء الصباح يدخل منها، وصوت الطيور. تحلق الطيور باستمرار. ثم ترى فلوسي تزمجر في الخارج. إنه الصباح.

في الدور الأرضي تسمعه يشعل النار، ويضخ الماء، ويخرج عند الباب الخلفي. تأتي تدريجيًّا رائحة لحم الخنزير، وفي النهاية يصعد إلى الدور العلوي بصينية سوداء كبيرة تمر من الباب بالكاد. يضع الصينية على السرير، ويصب الشاي. وكوني تقبع في قميص النوم الممزق، وتلتهم طعامها جائعة. ويجلس على كرسي وطبقه على ركبتيه.

تقول: «كم هو جيد! كم هو رائع أن نفطر معًا».

يأكل في صمت، وذهنه في الوقت الذي يمر بسرعة. وهذا ما يجعلها تتذكر.

«أوه، كم أتمنى أن أستطيع البقاء معك، وراجبي على بعد مليون ميل! راجبي هو ما أبتعد عنه حقًّا. تعرف هذا، أليس كذلك؟».

«آي!».

«وتعد بأننا سوف نعيش معًا وتكون لنا حياة معًا، أنت وأنا! تعدني، أليس كذلك؟».

«آي! متى نستطيع».

«أجل! وسوف نستطيع! سوف نستطيع، أليس كذلك؟» تميل فينسكب الشاي، وتمسك برسغه.

يقول، وهو ينظف الشاي: «آي!».

تقول بتوسل: «لا يمكن ألا نعيش معًا الآن، أليس كذلك؟».

ينظر إليها بابتسامته المضطربة.

يقول: «لا يمكن! ينبغي فقط أن تبدئي في خلال خمس وعشرين دقيقة».

تصيح: «هل ينبغي عليَّ؟» وفجأة يرفع إصبعًا محذرًا، وينهض.

تنبح فلوسي نبحة قصيرة، ثم تنبح ثلاث نبحات حادة مرتفعة للتنبيه.

بصمت يضع طبقه على الصينية وينزل إلى الدور الأرضي. تسمعه كونستنس يذهب إلى ممر الحديقة. كان جرس دراجة يرن في الخارج هناك.

«صباح الخير مستر ملورز! خطاب مسجل!».

«أوه آي! معاك قلم رصاص؟».

«خد!».

وقفة.

يقول صوت الغريب: «كندا!».

«أي! صديق لي هناك في كولومبيا البريطانية[1]. متعرفش ليه مسجله».

«يظهر إنه باعت لك ثروة».

---

(١) مقاطعة على الساحل الغربي لكندا

«الاحتمال الأكبر إنه عايز حاجة».

وقفة.

«حسنًا! طاب يومك مرة أخرى!».

«آي!».

«صباح الخير!».

«صباح الخير!».

بعد بعض الوقت يصعد إلى الدور العلوي مرة أخرى، ويبدو غاضبًا بعض الشيء.

يقول: «البوسطجي».

ترد: «مبكرًا جدًّا!».

«الدورة الريفية؛ يأتي إلى هنا في السابعة غالبًا، حين يأتي».

«هل أرسل صديقك ثروة؟».

«لا! بعض الصور فقط والصحف عن مكان في الخارج في كولومبيا البريطانية».

«هل ستذهب إلى هناك؟».

«فكرت ربما نذهب».

«أوه أجل! أعتقد أنها فكرة رائعة!».

لكنه كان منزعجًا من مجيء البوسطجي.

«اللعنة على هذه الدراجات، تكون أمامك قبل أن تعرفي موضعك. أتمنى ألا يكون قد لاحظ أي شيء».

«ومع ذلك، ماذا يمكن أن يلاحظ!».

«لابد أن تنهضي الآن، وتستعدي. هاخرج بس أبص بره».

تراه يمضي ليستطلع الأمر في الزقاق، مع الكلبة والبندقية. تنزل إلى الدور الأرضي وتغتسل، وكانت جاهزة حين عاد، بأشياء قليلة في الحقيبة الحريرية الصغيرة.

يغلق الباب، وينطلقان، لكن عبر الخميلة، وليس الزقاق. كان حذرًا.

تقول له: «ألا تعتقد أن المرء يعيش أوقاتًا مثل الليلة الماضية؟».

يرد باقتضاب إلى حد ما: «آي! لكن فيه بقية الأوقات اللي نفكر فيها».

يتهاديان في الممر المعشب، وهو في المقدمة، في صمت.

تتوسل: «وسوف نعيش معًا ونقيم حياة معًا، أليس كذلك؟».

يرد، وهو يسرع ولا يلتفت: «آي! لما يجي الوقت! أنت الآن مسافرة إلى فينسيا أو إلى مكان ما».

تتبعه في صمت، بقلب كئيب. أوه، كان عليها الآن أن تمضي!

يتوقف في النهاية.

يقول، مشيرًا إلى اليمين: «سوف أستكشف هنا فقط».

لكنها تدفع ذراعيها حول رقبته، وتتشبث به.

تهمس: «لكنك ستحافظ على حبك لي، أليس كذلك؟ أحببْتُ الليلة الماضية. لكنك ستحافظ على حبك لي، أليس كذلك؟».

يقبلها ويضمها بقوة لحظة. ثم يتنهد ويقبلها مرة أخرى.

«لازم أمشي وأبص أشوف إن كانت العربية هناك».

يسرع على العليق القصير والسرخس، تاركًا أثرًا خلال السرخس. لدقيقة أو اثنتين. ثم يعود مسرعًا.

يقول: «العربية مش هناك لسه. لكن عربية الخباز ع الطريق».

يبدو قلقًا ومضطربًا.

«أصغي!».

يسمعان صوت السيارة يأتي منخفضًا وهي تقترب. تبطئ على الجسر.

يخيم عليها حزن تام في طريقها عبر السرخس، وتصل إلى سياج البهشية الضخم. وهو خلفها مباشرة.

يقول وهو يشير إلى فجوة: «هنا! اذهبي من هناك! لن أخرج».

تنظر إليه في يأس. لكنه يقبلها ويتركها تمضي. تتسلل في تعاسة تامة خلال البهشية وخلال السياج الخشبي، متعثرة في الخندق الصغير في طريقها إلى الزقاق، حيث كانت هيلدا تخرج للتو من السيارة بغيظ.

تقول هيلدا: «لماذا أنت هناك! أين هو؟».

«لن يأتي».

كان وجه كوني ممتلئًا بالدموع وهي تدخل السيارة بحقيبتها الصغيرة. وتنتزع هيلدا خوذة القيادة مع النظارة المشوهة.

تقول: «البسيها!» وتلبس كوني القناع، ثم معطف السيارة الطويل، وتجلس، كائن بنظارة، غير إنساني، لا يمكن التعرف عليه. تدير هيلدا السيارة بحركة جدية. تخرجان من الزقاق، وتبتعدان على الطريق. تلتفت كوني حولها، لكنها لا تراه. بعيدًا! بعيدًا! تجلس وهي تزرف دموعًا مرة. جاء الفراق مفاجئًا جدًّا، وغير متوقع تمامًا. كان مثل الموت.

تقول هيلدا، وهي تنعطف لتتجنب قرية كروسهيل: «احمدي ربنا لأنك تبتعدين عنه لبعض الوقت!».

* * *

الفصل السابع عشر

تقول كوني بعد الغداء، وهما قرب لندن: «ترين يا هيلدا، لم تعرفي قط الرقة الحقيقية أو الحسية الحقيقية: وإذا عرفْتِهما، مع الشخص نفسه، يكون هناك اختلاف كبير».

تقول هيلدا: «أستحلفك بالرب لا تتباهي بخبراتك! لم ألتقِ قط الرجل القادر على إقامة علاقة حميمة مع امرأة، ومنح نفسه لها. هذا ما أريده. لا أحرص على رقتهم المُرْضية للنفس، وحسيتهم. لا أقنع بأن أكون لعبة صغيرة لأي رجل، أو **متعة جسدية**[1]. أردْتُ حميمية كاملة، ولم أحصل عليها. وهذا يكفيني».

تفكر كوني في الحميمية الكاملة! وتفترض أنها تعني كشف كل ما يتعلق بنفسك لشخص آخر، وكشفه لكل ما يتعلق بنفسه. لكن هذا ممل. وكل ذلك القلق المرهق بين رجل وامرأة! مرض!

تقول لأختها: «أعتقد أنك قلقة جدًّا طول الوقت، مع الجميع».

---

(١) بالفرنسية في الأصل.

تقول هيلدا: «أتمنى على الأقل ألا تكون لي طبيعة جارية».

«لكن ربما تكون لك! ربما تكونين جارية لفكرتك عن نفسك».

تنطلق هيلدا صامتة لبعض الوقت بعد هذه الغطرسة الصادمة من كوني الوقحة.

ترد في النهاية بغضب فظ: «على الأقل، لست جارية لفكرة شخص آخر عن نفسي: شخص آخر خادم من خدم زوجي».

تقول كوني بهدوء: «ترين، الأمر ليس على هذا النحو».

كانت دائمًا تترك نفسها لسيطرة أختها الأكبر. الآن، رغم أنها تبكي في موضع ما من أعماقها، كانت حرة من سيطرة **النساء الأخريات**. آه! كان هذا في ذاته باعثًا على الارتياح، وكأنها وُهِبتْ حياة أخرى: أن تكون حرة من السيطرة الغريبة وتسلط **النساء الأخريات**. كم كانت النساء فظيعات.

تسعد بوجودها مع أبيها، وكانت مفضلة لديه دائمًا. أقامت هي وهيلدا في فندق صغير قبالة بول مول، وكان السير مالكولم في ناديه. لكنه كان يخرج مع بنتيه في المساء، وقد أحبتا الخروج معه.

مازال وسيمًا وقويًّا، لكنه يخشى بعض الشيء من العالم الجديد الذي نشأ حوله. وقد تزوج زوجة ثانية في أسكتلندا، أصغر منه وأكثر ثراء. لكنه يأخذ عطلات كثيرة بعيدًا عنها بقدر المستطاع: بالضبط كما كان مع زوجته الأولى.

تجلس كوني بجانبه في الأوبرا. كان بدينًا باعتدال، وفخذاه بدينان، لكنهما مازالا قويين ومتماسكين، فخذي رجل صحيح البدن عرف متعة

الحياة. بدا أن كوني تستطيع أن ترى في فخذيه المستقيمين المتماسكين أنانيته المرحة، واستقلاله العنيد، وحسيته التي لا هوادة فيها. رجل بالضبط! ويصير الآن رجلًا عجوزًا، وهو أمر محزن. لأنه ليس في ساقيه الذكريتين القويتين السميكتين شيء من الحساسية اليقظة وقوة العاطفة وهما جوهر الشباب، الذي لا يموت أبدًا، بمجرد أن يوجد.

تنتبه كوني لوجود السيقان. صارت أكثر أهمية بالنسبة لها من الوجوه التي لم تعد حقيقية جدًّا. قليل من الناس لهم سيقان حية متأهبة! تنظر إلى الرجال في المقصورات. أفخاذ كبيرة حلوة في ملابس البودنج[1] السوداء، أو عصي خشبية هزيلة في ملابس جنائزية سوداء، أو سيقان شابة حسنة الشكل بدون أي معنى على الإطلاق، سواء الحسية أو الرقة أو الحساسية، مجرد سيقان عادية طويلة تتبختر. وتخلو حتى من أية حسية مثل حسية والدها. ترتعد تمامًا، تفزع من الوجود.

لكن النساء لا يفزعن. الطواحين البشعة لمعظم الإناث! صادمة حقًّا، تكفي حقًّا لتبرير القتل! أو الأوتاد البائسة النحيلة! أو الأشياء الأنيقة المزخرفة في جوارب الحرير، بدون أدنى مظهر من مظاهر الحياة! فظيعة ملايين السيقان التي بلا معنى متبخترة بلا معنى!

لكنها ليست سعيدة في لندن. يبدو الناس أشباحًا خاوية. لا يعرفون سعادة حية، مهما بدوا منتعشين وجذابين. كان كل ذلك عقيمًا. وكان لدى كوني شغف نسوي أعمى بالسعادة، وأن تكون على يقين من السعادة.

---

(١) قماش يشبه الموسلين.

في باريس تشعر على أية حال ببعض الحسي. لكن يا لها من حسية كئيبة ومرهقة وبالية. بالية لافتقارها للرقة. أوه! كانت باريس حزينة. واحدة من أكثر المدن حزنًا: كئيبة بحسيتها التي صارت ميكانيكية، كئيبة من التوتر من أجل المال، المال، المال، كئيبة حتى من الاستياء والغرور، كئيبة لدرجة الموت، لكنها لم تتأمرك أو تتلندن بما يكفي لتخفي الكآبة تحت الجنس الميكانيكي! آه، هؤلاء الفحول، هؤلاء المتسكعون، البصباصون، هؤلاء الذين يتناولون عشاء فاخرًا! كم كانوا كئيبين! كئيبين، بالين لافتقارهم إلى القليل من الرقة المتبادلة. وعرفت النساء الكفء، الفاتنات أحيانًا شيئًا أو اثنين عن القدرات الحسية: كان لهن ذلك التأثير على أخواتهن الإنجليزيات المغريات. لكن معرفتهن بالرقة أقل. وكُنَّ أيضًا، جافات، بتوتر جاف لا نهائي للإرادة، باليات. كان العالم الإنساني يبلى فقط. ربما يتحول إلى تدميري بعنف. نوع من الفوضوية! كلفورد وفوضويته المحافظة! وربما لم تعد محافظة. ربما تتطور إلى فوضوية راديكالية جدًّا.

تشعر كوني بانقباض وخوف. وتسعد أحيانًا لبرهة قصيرة في الشوارع المشجرة أو في المنتزهات أو حدائق لوكسمبرج. لكن باريس ممتلئة بالأمريكان والإنجليز، أمريكان غرباء في أغرب الأزياء، وإنجليز عاديين مملين يائسين جدًّا خارج البلاد.

تسعد بالانطلاق في السيارة. فجأة صار الجو حارًّا، فمضت هيلدا عبر سويسرا وعبر البرينر، ثم خلال الدولوميت[1] إلى فينسيا. تحب

(١) برينر: ممر في جبال الألب بين إيطاليا والنمسا. دولوميت: سلسلة جبال في شمال شرق إيطاليا.

هيلدا الإدارة والقيادة وتحب أن تكون سيدة العرض. وتقنع كوني تمامًا بالبقاء هادئة.

كانت الرحلة لطيفة تمامًا. فقط ظلت كوني تقول لنفسها: لماذا لا أبالي! لماذا لا أنتشي أبدًا؟ كم هو فظيع أنني لم أعد أبالي بالمشاهد الطبيعية! لكنني لا أبالي. إنه أمر فظيع. أنا مثل سانت برنار، الذي استطاع أن يبحر في بحيرة لوسيرن[1] بدون حتى أن يلاحظ أن هناك جبالًا ومياهًا خضراء. فقط لم أعد أبالي بالمشاهد الطبيعية. لماذا ينبغي أن أحدق فيها؟ لماذ ينبغي؟ أرفض ذلك.

لا، لم تر شيئًا حيويًا في فرنسا أو سويسرا أو تيرول[2] أو إيطاليا. كانت فقط تتنقل بالعربة خلال هذا كله. وكلها أقل واقعية من راجبي. أقل واقعية من راجبي الفظيع! تشعر أنها لم تكن لتبالي إن لم تر قط فرنسا أو سويسرا أو إيطاليا مرة أخرى. ستبقى. كان راجبي أكثر واقعية.

وبالنسبة للناس! الناس كلهم متشابهون، باختلاف ضئيل جدًا. يريدون جميعًا الحصول على المال منك: أو، إن كانوا مسافرين، يريدون الحصول على المتعة، بحكم الضرورة، مثل عصر حجر لإخراج دماء. جبال بائسة! مشاهد طبيعية بائسة! ينبغي عصرها كلها وعصرها وعصرها مرة أخرى، لتقدم نشوة، لتقدم متعة. ماذا يعني الناس، باستمتاعهم المزعوم ببساطة؟

---

(١) سانت برنار: سلالة من الكلاب الضخمة من غرب جبال الألب. بحيرة لوسيرن: وسط سويسرا.

(٢) ولاية غرب النمسا، تم ضم الجزء الشمالي منها إلى إيطاليا بعد الحرب العالمية الأولى.

لا! تقول كوني لنفسها من الأفضل أن أعود إلى راجبي، حيث يمكن أن تتجول وأن تسكن، لا أن تحدق في أي شيء أو تقوم بأي أداء من أي نوع. هذا الأداء السياحي للاستمتاع مخزٍ جدًّا: إنه بهذا الشكل فشل.

تريد العودة إلى راجبي، وحتى إلى كلفورد، حتى إلى كلفورد القعيد المسكين. إنه، على أية حال، ليس بحماقة هذه الجموع التي تحتشد في عطلة.

وفي أعماق وعيها تحافظ على تماس مع الرجل الآخر. لا ينبغي أن تسمح بانتهاء علاقتها به: أوه، لا ينبغي أن تنتهي، وإلا ضاعت، ضاعت تمامًا في هذا العالم، عالم الحثالة المسرفة وخنازير البهجة. أوه، خنازير المتعة! أوه «إمتاع النفس»! علة حديثة.

تتركان السيارة في ميستري[1]، في جراج، وتأخذان السفينة البخارية المعتادة إلى فينسيا. كان عصر يوم صيفي جميل، كانت البحيرة الضحلة تموج، وقد جعلت أشعة الشمس الكاملة فينسيا، وقد أدارت ظهرها لهما عبر المياه، تبدو مظلمة.

عند رصيف المحطة تنتقلان إلى جندول، وتعطيان العنوان للرجل. كان جندوليًّا عاديًّا ببلوزة بيضاء وزرقاء، ليس وسيمًا جدًّا، وليس مثيرًا للإعجاب على الإطلاق.

«أجل! فيلا إيزميرلدا! أجل! أعرفها! عملت جندوليًّا لجنتلمان هناك. لكنها بعيدة!»

---

(١) مركز المنطقة الحضرية الأكثر ازدحامًا بالسكان في فينسيا.

يبدو صبيانيًّا متهورًا إلى حد ما. يجدف بتهور مبالغ فيه، عبر القنوات الجانبية المظلمة ذات الجدران الخضراء اللزجة الرهيبة، القنوات التي تخترق الأحياء الفقيرة، حيث الغسيل معلق على الحبال، وحيث تفوح رائحة مياه الصرف الصحي ضعيفة أو قوية.

لكنه يصل في النهاية إلى إحدى القنوات المفتوحة برصيف على الجانبين، وجسور معقودة، تجري باستقامة، بزوايا قائمة، إلى الجراند قنال. والمرأتان تجلسان تحت مظلة صغيرة، والرجل جاثم خلفهما.

يسأل، وهو يجدف بسهولة، ويجفف عرق وجهه بمنديل أبيض وأزرق: «هل ستقيم الآنستان طويلًا في فيلا إزميرلد؟».

تقول هيلدا، بصوتها الهادئ الغريب، مما جعل إيطاليتها تبدو أجنبية جدًّا: «عشرين يومًا تقريبًا: ونحن الاثنان سيدتان متزوجتان».

يقول الرجل: «آه، عشرون يومًا!» وقفة. وبعدها يسأل: «هل يريد السيدتان جندوليًّا العشرين يومًا أو نحو ذلك، التي تقضيانها في فيلا إزميرلدا؟ أم باليوم، أم بالأسبوع؟».

تفكر كوني وهيلدا. في فينسيا، يفضل دائمًا أن يكون للمرء جندوله الخاص، مثلما يفضل على الأرض أن يكون له سيارته الخاصة.

«ماذا يوجد في الفيلا؟ أي قوارب؟».

«هناك لنش بمحرك، وجندول أيضًا. لكن-» وكانت لكن تعني: أنهما ليسا ملككما.

«كم الأجرة؟».

حوالي ثلاثين شلنًا في اليوم، أو عشرة جنيهات في الأسبوع.

تسأل هيلدا: «هل هذا هو السعر المعتاد؟».

«أقل، يا سيدة، أقل. السعر المعتاد-».

تفكر الأختان.

تقول هيلدا: «حسنًا، تعال غدًا، وسوف نرتب الأمر. ما اسمك؟».

اسمه جيوفاني، ويريد أن يعرف في أي وقت ينبغي أن يأتي، ثم من ينبغي أن يقول إنه ينتظر. لم يكن مع هيلدا كروت. تعطيه كوني كرتًا من كروتها. يحدق فيه بسرعة، بعينيه الزرقاوين الجنوبيتين الدافئتين، ثم يحدق مرة أخرى.

يقول، بسعادة: «آه! ليدي! ليدي، أليس كذلك؟».

تقول كوني: «ليدي كونستنس!».

يومئ، مكررًا: «ليدي كونستنس!» ويضع الكارت بعناية في بلوزته.

كانت فيلا إزميرلدا بعيدة تمامًا، على حافة البحيرة وتطل على كيودجا[1]. لم تكن منزلًا قديمًا جدًّا، وكانت جميلة، بشرفات تطل على البحر، وتحتها حديقة كبيرة جدًّا بأشجار داكنة، يفصلها سور عن البحيرة.

كان مضيفهما أسكتلنديًّا ثقيلًا، فظًّا، كون ثروة كبيرة في إيطاليا قبل الحرب، ومنح لقب فارس لوطنيته الفائقة في أثناء الحرب. وزوجته

---

(١) مدينة شمال إيطاليا تقع في مقاطعة فينيسيا على ساحل البحر الأدرياتي، تشتهر بالفنون.

شخصية نحيلة وشاحبة وحادة، لا تملك ثروة خاصة بها، وكان عليها لسوء حظها تعديل المغامرات الغرامية الخسيسة لزوجها. كان مزعجًا بشكل رهيب مع الخدم. وتعرض لسكتة دماغية بسيطة في الشتاء، وصار أكثر طواعية.

كان المنزل ممتلئًا تمامًا. بالإضافة إلى السير مالكولم وابنتيه، هناك سبعة أشخاص، زوجان أسكتلنديان، ومرة أخرى مع ابنتيهما؛ وكونتيسة إيطالية شابة، وكانت أرملة؛ وأمير جورجي شاب، ورجل دين إنجليزي شاب أصيب بالتهاب رئوي وكان قسيسًا أُلحِق بقصر السير ألكسندر بسبب صحته. كان الأمير مفلسًا، ووسيمًا، يمكن أن يكون سائقًا ممتازًا، بالصفاقة الضرورية، وكفى! وكانت الكونتيسة قطة صغيرة هادئة مع طريدة في مكان ما. وكان رجل الدين رفيقًا بسيطًا ساذجًا من مقر باكنجهام: ولحسن الحظ ترك زوجته وطفليه في البيت. وكان آل جوثري، الأسرة المكونة من أربعة أفراد، من الطبقة الوسطى الثابتة في إدنبره، يتمتعون بكل شيء بطريقة ثابتة، ويتحدون كل شيء ولا يخاطرون بأي شيء.

تستبعد كوني وهيلدا الأمير على الفور. كان آل جوتري من نوعهما تقريبًا، مهمين، لكنهم مملون: وكانت الفتاتان تريدان زوجين. والقس ليس رفيقًا سيئًا، لكنه مجامل جدًّا. وكان السير ألكسندر، بعد السكتة البسيطة، يعاني من ثقل فظيع في حركته، لكنه مازال ينتشي في وجود هذا العدد الكبير من الشابات الأنيقات. وكانت الليدي كوبر شخصية هادئة حاقدة، لها خبرات سيئة مع ذلك الشيء البائس، تراقب كل امرأة أخرى بيقظة باردة، حتى صارت طبيعتها الثانية، وتتفوه بأشياء تافهة وباردة

ومقرفة تكشف عن رأيها السيئ تمامًا بشأن الطبيعة البشرية. وكانت أيضًا متعجرفة بشكل مؤذٍ مع الخدم، كما رأت كوني: لكن بطريقة هادئة. وتتصرف ببراعة بحيث يمكن أن يعتقد السير ألكسندر أنه السيد وعاهل البيت كله، بكرشه القوي الذي يدعي أنه لطيف، ونكاته المملة تمامًا، سخافته، كما تصفتها هيلدا.

كان السير مالكولم يرسم. أجل، يمكن أن يرسم لوحة لبحيرة فينسيا، من حين لآخر، في تقابل مع مشاهده الطبيعية الأسكتلندية. وبالتالي كان في الصباح ينطلق بلوحة كبيرة، إلى «موضعه». وبعد ذلك بوقت قصير تنطلق الليدي كوبر إلى قلب المدينة، بدفتر الإسكتشات والألوان. كانت رسامة عريقة بالألوان المائية، وكان المنزل ممتلئًا بأماكن باللون الوردي، والقنوات القاتمة، والجسور المتمايلة، وواجهات من القرون الوسطى، إلخ. وبعد ذلك بقليل يخرج آل جوتري والأمير والكونتيسة والسير ألكسندر وأحيانًا مستر ليند والقس إلى الليدو[1]، حيث يمكن أن يستحموا؛ ويرجعوا إلى البيت لغداء متأخر في الواحدة والنصف.

كان الحفل المنزلي، بوصفه حفلًا منزليًا، مملًّا تمامًا. لكنه لا يزعج الأختين. كانتا في الخارج طول الوقت. يأخذهما والدهما إلى المعرض، أميال وأميال من اللوحات المرهقة. ويأخذهما إلى كل أصدقائه في فيلا لوشيس، ويجلس معهما في أمسيات دافئة في الساحة، ويحجزون طاولة في كافيه فلوريان[2]: ويأخذهما إلى المسرح، إلى مسرحيات

(١) جزيرة من الشعاب المرجانية قبالة الساحل الشمالي الشرقي لإيطاليا، تفصل بحيرة فينسيا عن خليج فينسيا.

(٢) مطعم ومتحف للفن الحديث في فينسيا.

جولدوني[1]. كانت هناك مهرجانات مائية مضيئة، وكانت هناك رقصات. كان هذا مكان عطلات لكل أماكن العطلات. كانت الليدو، بأفدنتها القرنفلية من الشمس أو أشخاص بالبيجامات، مثل ضفيرة بكوم لا تنتهي من الفقميات[2] التي تأتي للتزاوج. أناس كثر جدًّا في الساحة، سيقان كثيرة جدًّا وجذوع لبشر في الليدو، جنادل كثيرة جدًّا، لنشات كثيرة جدًّا بمحركات، بواخر كثيرة جدًّا، حمام كثير جدًّا، عصائر مثلجة كثيرة جدًّا، كوكتيلات كثيرة جدًّا، خدم كثر جدًّا يريدون بقشيشًا، لغات كثيرة جدًّا تقعقع، الكثير جدًّا، الكثير جدًّا من الشمس، الكثير جدًّا من رائحة فينسيا، الكثير جدًّا من حمولات الفراولة، الكثير جدًّا من الشالات الحرير، الكثير جدًّا من الشرائح الضخمة النيئة من لحم البقر وشرائح البطيخ في الأكشاك: الكثير جدًّا من المتعة، الكثير جدًّا جدًّا من المتعة!

تتجول كوني وهيلدا في فساتينهما الزاهية. كان هناك عشرات ممن تعرفانهم، وعشرات ممن يعرفونهما. عاد ميكاليس دون توقع مثل القرش الممسوح. «هالو! أين تقيمان؟ تعاليا وخذا آيس كريم أو أي شيء! تعاليا معي إلى مكان ما في جندولي». حتى ميكاليس لفحته الشمس تقريبًا: وإن كان التعبير طهته الشمس ملائم أكثر لمنظر كتلة اللحم البشري.

كان الأمر لطيفًا بطريقة ما. ممتعًا تقريبًا. لكن على أية حال، مع كل الكوكتيلات، كل الاستلقاء في المياه الدافئة وحمامات الشمس على الرمل الساخن في الشمس الساخنة، وأنت تهز بطنك أمام رفيق

(١) كارلو أوزفالدو جولدوني (١٧٠٧ - ١٧٩٣): كاتب مسرحي إيطالي.

(٢) مجموعة متنوعة من الثدييات البحرية شبه المائية.

في الليالي الدافئة، وترطبها بالمثلجات، كان مخدرًا تامًّا. وهذا ما كانوا يريدونه جميعًا، دواء: المياه البطيئة، دواء؛ الشمس، دواء؛ موسيقى الجاز، دواء؛ السجائر، الكوكتيلات، المرطبات، الفيرموت[1]. أن تكون مخدرًا! المتعة! المتعة!

لا تحب هيلدا أن تكون مخدرة. تحب أن تتطلع إلى كل النساء، وتفكر فيهن. تستغرق النساء في الاهتمام بالنساء. كيف تبدو! أي رجل أسرت؟ أية متعة تخرج بها من ذلك؟- والرجال مثل الكلاب الكبيرة في البنطلونات الفانيلا البيضاء، ينتظرون التمليس، ينتظرون التمرغ، ينتظرون التصاق بطن امرأة في بطونهم، في رقصة الجاز.

أحبت هيلدا رقصة الجاز، لأنها تستطيع لصق بطنها تجاه بطن شخص ما يدعى رجلًا، وتسمح له بالتحكم في حركتها من المركز الحشوي، هنا وهناك عبر الأرضية، ثم تستطيع الانفصال وتجاهل «المخلوق». وقد استغل فقط. وكانت كوني المسكينة تعيسة إلى حد ما. لم ترقص الجاز، لأنها ببساطة لا تستطيع لصق بطنها في بطن «مخلوق» ما. تكره الحشد المتكتل للحم العاري تقريبًا في الليدو: ليس هناك ماء يرطبهم جميعًا. تكره السير ألكسندر والليدي كوبر. لا تريد أن يتتبعها ميكاليس أو أي شخص.

كانت أسعد الأوقات حين تأخذ هيلدا وتذهب معها بعيدًا عبر البحيرة، بعيدًا إلى ضفة منعزلة مفروشة بالحصى، حيث يمكن أن

---

(١) نوع من النبيذ الأبيض أو الأحمر يصنع أساسًا في فرنسا وإيطاليا.

تستحما وحدهما بهدوء، ويبقى الجندول على الجانب الداخلي من الشعاب المرجانية.

وحينها يأتي جيوفاني بجندوليٍّ آخر ليساعده، لأنه طريق طويل وكان يعرق بشكل رهيب في الشمس. كان جيوفاني لطيفًا جدًّا: ودودًا، مثل الإيطاليين، وغير متحمس تمامًا. الإيطاليون ليسوا متحمسين: للحماس احتياطيات عميقة. يتأثرون بسهولة، وحنونون غالبًا، لكن نادرًا ما يكون لديهم حماس دائم من أي نوع.

هكذا كان جيوفاني مخلصًا لسيدتيه، كما كان مخلصًا لشحنات السيدات في الماضي. كان مستعدًّا تمامًا لممارسة العهر معهما، إذا أرادتاه: يتمنى سرًّا أن تريداه. قد تمنحانه هدية سخية، وستكون مفيدة، لأنه في طريقه للزواج. يحدثهم عن زواجه، وكانتا مهتمتين بشكل مناسب.

يعتقد أن هذه الرحلة إلى ضفة منعزلة عبر البحيرة ربما تعني بيزنس: والبيزنيس حب، عشق. وبالتالي جاء بصديق ليساعده، لأن الطريق طويل؛ ورغم كل شيء، كانتا سيدتين. سيدتين، بلطيتين! حسابًا جيدًا! سيدتين جميلتين، أيضًا! كان فخورًا بهما عن حق. ورغم أن السنيورة هي التي تدفع له وتعطيه الأوامر، يتمنى أن تكون الليدي الصغيرة هي التي تختاره للحب. يمكن أن تعطيه مالًا أكثر أيضًا.

وكان الصديق الذي جاء به يدعى دانيل. لم يكن جندوليًّا نظاميًّا، وبالتالي لم تكن لديه فكرة عن تسوله وعهره. كان يعمل في صندول، والصندول قارب كبير يجلب الفاكهة والمنتجات من الجزر.

كان دانيل جميلًا وطويلًا وحسن المظهر، برأس مستدير خفيف بقليل من الشعر الأشقر الفاتح، ووجه رجل حسن الطلعة، يشبه أسدًا إلى حد ما، وعينين زرقاوين ثاقبتين. لم يكن منفتحًا وثرثارًا ومولعًا بالخمر مثل جيوفاني. يصمت ويجدف بقوة ويسر وكأنه وحيد على المياه. السيدتان سيدتان، بعيدتان عنه. لا ينظر حتى إليهما. ينظر أمامه.

كان رجلًا حقيقيًا، يغضب قليلًا حين يشرب جيوفاني كمية كبيرة من النبيذ ويجدف بشكل أخرق، باندفاعات متهورة للمجداف الكبير. كان رجلًا كما كان ملورز رجلًا، غير عاهر. تشفق كوني على زوجة جيوفاني الذي يطفح بسهولة. لكن زوجة دانيل ستكون إحدى النساء الفينسيات الحلوات ممن لا يزال المرء يراهُنَّ، متواضعات ومثل الزهور في الجزء الخلفي من متاهة البلدة.

آه، كم كان تعيسًا ذلك الرجل الذي يمارس العهر لأول مرة مع امرأة، ثم تمارس المرأة العهر مع الرجل. كان جيوفاني متلهفًا على ممارسة العهر، يسيل لعابه مثل كلب، يرغب في منح نفسه لامرأة. ومن أجل المال!

تنظر كوني إلى فينسيا من بعيد، منخفضة وبلون الورد على المياه. تشيد بالمال، وتزدهر بالمال، وتموت بالمال. موت المال! المال، المال، المال، العهر والموت.

لكن دانيل مازال رجلًا قادرًا على الولاء الحر، ولاء رجل. لا يرتدي بلوزة الجندولي: فقط الشيرسي الأزرق المحبوك. كان بريًّا بعض الشيء، جلفًا وأبيًّا. وهكذا كان مستأجرًا عند جيوفاني الهزلي وكان

بدوره مستأجرًا عند امرأتين. هكذا كان الوضع! حين رفض يسوع مال الشيطان، ترك الشيطان مثل مصرفي يهودي، ويكون سيد الموقف كله.

تعود كوني إلى البيت من النور الشديد للبحيرة في نوع من الذهول، لتجد رسائل من البيت. كان كلفورد يكتب بانتظام. يكتب رسائل جيدة جدًّا: قد تطبع كلها في كتاب. ولهذا تجدها كوني مملة جدًّا.

تعيش في ذهول نور البحيرة، الملوحة الشديدة للمياه، الفضاء، الخواء، العدمية: الصحة، الصحة، الذهول الكامل للصحة. كان ممتعًا، وكانت هادئة فيه، لا تبالي بأي شيء. وبالإضافة إلى ذلك، كانت حاملًا. تعرف آنذاك. وهكذا يكتمل ذهول أشعة الشمس وملح البحيرة وحمام البحر والاستلقاء على الحصى والعثور على القواقع والانجراف بعيدًا، بعيدًا في جندول، بالحمل في داخلها، اكتمال آخر للصحة، مُرْضٍ ومذهل.

كان لها في فينسيا أسبوعان، وعليها قضاء عشرة أيام أخرى أو أسبوعين. أحرقت أشعة الشمس أي مفهوم للزمن، وأتمَّ اكتمالُ الصحة الجسدية النسيانَ. كانت في نوع من ذهول الرفاهية.

توقظها رسالة كلفورد.

«لدينا نحن أيضًا إثارتنا المحلية الخفيفة. يبدو أن الزوجة المتغيبة لملورز، الحارس، عادت إلى الدار ووجدت أنها غير مرحب بها. طردها وأغلق الباب. ويقال، مع ذلك، إنه حين عاد من الخميلة وجد سيدة لم تعد مقبولة قابعة بثبات في سريره، في **نقاء طبيعي**؛ أو ينبغي للمرء أن

يقول، في **دنس طبيعي**[1]. كسرت النافذة ودخلت بهذه الطريقة. عاجزًا عن طرد فينوس الشرسة إلى حد ما من سريره فر وانسحب، كما يقال، إلى منزل أمه في تفرشال. وبينما فينوس ستاكس جيت مستقرة في الدار، وتزعم أنها بيتها، من الواضح أن أبولو يقيم في تفرشال.

«أكرر هذا من الإشاعة، حيث إن ملورز لم يأتني شخصيًّا. حصلت على هذا القدر الخاص من النفاية المحلية من طائر نفايتنا، أبي منجل، غراب الجيف جامع الفضلات، مسز بولتون. لو لم أكررها ما كانت لتهتف بقوة: لن تذهب سموها بعد ذلك إلى الخميلة إن بقيت هذه المرأة بالقرب منها!

«تعجبني صورتك للسير مالكولم وهو يسرع إلى البحر بشعر أبيض يتطاير واللحم القرنفلي يتقد. أحسدك على هذه الشمس. إنها تمطر هنا. لكنني لا أحسد السير مالكولم على شهوانيته الفتاكة العريقة. لكنها تناسب عمره. ومن الواضح أن المرء يصبح أكثر شهوانية وأكثر فتكًا كلما تقدم به العمر. الشاب وحده يعرف طعم الخلود».

تؤثر هذه الأخبار على كوني في حالة رفاهيتها شبه الذاهلة بضيق يصل إلى حد الغيظ. الآن تزعجها هذه المرأة المتوحشة! الآن ينبغي أن تبدأ وتقلق! لم تتلق أية رسالة من ملورز. وكانا قد اتفقا على ألا يتبادلا أية رسائل، لكنها الآن تريد أن تسمع منه شخصيًّا. رغم كل شيء، إنه والد الطفل القادم. ليكتب!

---

(١) نقاء طبيعي ودنس طبيعي، باللاتينية في الأصل.

لكن يا له من أمر كريه! يفسد الآن كل شيء. يا لقذارة أولئك المنحطين! يا له من جو لطيف هنا، في أشعة الشمس والتراخي، مقارنة بتلك الفوضى الكئيبة لميدلندز الإنجليزية! رغم كل شيء، السماء الصافية أهم شيء في الحياة تقريبًا.

لم تذكر حقيقة حملها، حتى لهيلدا. تكتب لمسز بولتون لتعرف المعلومات الدقيقة.

يصل دُنكان فوربس، فنان وصديق لهما، إلى فيلا إزميرالدا، قادمًا من الشمال من روما. الآن صار ثالثًا في الجندول، ويستحم معهما في البحيرة، وكان مرافقهما: شاب هادئ كتوم تقريبًا، متقدم جدًّا في فنه.

تتلقى رسالة من مسز بولتون: «أنا متأكدة من أنك ستكونين مسرورة، يا سيدتي، حين ترين السير كلفورد. يبدو مشرقًا تمامًا ويعمل بجدية شديدة، ومفعم بالأمل. إنه، بالطبع، يتطلع إلى رؤيتك بيننا مرة أخرى. إنه منزل كئيب بدون سيدتي، وسوف نرحب جميعًا بحضورها بيننا مرة أخرى.

«وبشأن مستر ملورز، لا أعرف ما أخبرك به السير كلفورد. يبدو أن زوجته عادت فجأة في عصر أحد الأيام، ووجدها تجلس على درج الباب حين عاد من الخميلة. قالت إنها عائدة إليه وتريد أن تعيش معه مرة أخرى، حيث إنها زوجته الشرعية، ولم يطلقها. لكن لم يعرف ماذا يفعل معها، ولم يسمح لها بدخول المنزل، ولم يدخل هو نفسه؛ عاد إلى الخميلة بدون حتى أن يفتح الباب.

«لكن حين عاد بعد حلول الظلام، وجد المنزل مقتحمًا، فصعد إلى الدور العلوي ليرى ما فعلتْ، ووجدها في السرير عارية. عرض عليها مالًا، لكنها قالت إنها زوجته وينبغي أن يعيدها. لا أعرف أي مشهد دار بينهما. حكت لي أمه عن الأمر، وكانت منزعجة جدًّا. حسنًا، قال لها إنه يفضل الموت على أن يعيش معها مرة أخرى، وهكذا أخذ أشياءه وذهب مباشرة إلى منزل أمه على تل تفرشال. قضى الليل وذهب في اليوم التالي إلى الخميلة عبر المنتزه، ولم يقترب قط من الدار. ويبدو أنه لم ير زوجته في ذلك اليوم. لكنها ذهبت في اليوم التالي إلى منزل أخيها دان في بجرلي، وكانت تقسم وهي منفعلة، وتقول إنها زوجته الشرعية، وأنه كان لديه نساء في الدار، لأنها وجدت زجاجة عطر في درجه، وأعقاب سجائر ذهبية في كومة النفايات، ولا أعرف كل ما حدث. ثم يبدو أن البوسطجي فريد كيرك يقول إنه سمع شخصًا ما يتحدث في غرفة نوم ملورز مبكرًا ذات صباح، وكانت هناك سيارة في الزقاق.

«بقي مستر ملورز مع أمه، وذهب إلى الخميلة عبر المنتزه، ويبدو أنها مستقرة في الدار. حسنًا، الحديث لا ينتهي. وهكذا ذهب مستر ملورز وتوم فيليبس إلى الدار وأخذا معظم الأثاث والفرش، وفكا مقبض المضخة، وهكذا اضطرت إلى الابتعاد. لكن بدل أن تعود إلى ستاكس جيت ذهبت وأقامت مع مسز سوين في بجرلي لأن زوجة أخيها دان لم تكن لتقبلها. وظلت تذهب إلى منزل مسز ملورز العجوز، لتقبض عليه، وبدأت تقسم أنه نام معها في السرير في الدار وأنها ذهبت إلى محام لتجعله يدفع لها مصروفًا. ازداد وزنها وصارت أكثر سوقية مما كانت،

وصارت قوية مثل ثور. وأخذت تقول أبشع الأشياء عنه، كيف يأتي بنساء إلى الدار، وكيف كان يتصرف معها حين كانا متزوجين، الأشياء الوحشية الدنيئة التي فعلها لها، ولا أعرف كل ما تقول. أنا متأكدة من أنه شيء فظيع وسيئ ما يمكن أن تفعله المرأة، بمجرد أن تبدأ الحديث. وبصرف النظر عن حقيقتها، هناك بعض من يصدقونها، وبعض القذارة سوف تلصق. وأنا متأكدة من أن الطريقة التي تستخدمها لتوضح أن مستر ملورز كان أحد الرجال الوحشيين المنحطين مع النساء صادمة ببساطة. والناس على استعداد تام لتصديق كل ما يقال ضد أي أحد، وخاصة أشياء من هذا النوع. أعلنت أنها لن تتركه يعيش وحده طالما كان يعيش. ومع ذلك ما أقوله هو إذا كان وحشيًّا معها، لماذا هذا الحرص على أن تعود إليه؟ لكنها بالطبع تقترب من سن اليأس، إنها أكبر منه بسنوات. وُهؤلاء النساء السوقيات العنيفات يصيبهن الجنون جزئيًّا حين يبلغن سن اليأس».

كانت صفعة سيئة لكوني. هنا كانت، بشكل مؤكد مثل الحياة، تنال نصيبها من الخسة والقذارة. تغضب منه لأنه لم يتخلص من برتا كوتس: لا، لأنه تزوجها. ربما كان لديه شوق ما للخسة. تتذكر كوني الليلة الأخيرة التي قضتها معه، وترتجف. كان يعرف كل هذه الحسية، حتى مع برتا كوتس! الأمر مقرف حقًّا. ربما يكون من الأفضل أن تتخلص منه، تتخلص منه تمامًا. ربما كان حقًّا سوقيًّا، خسيسًا حقًّا.

تنفر من العلاقة كلها، وتحسد تقريبًا فتاتي جوتري على قلة خبرتهما الخرقاء وعذريتهما الخام. وتخشى أن يعرف أحد شيئًا عن علاقتها

بالحارس. يا لها من إهانة لا توصف! كانت كئيبة وخائفة وتشعر بحنين للاحترام التام، حتى للاحترام السوقي والمميت لفتاتي جوتري. إذا عرف كلفورد بعلاقتها، يا لها من إهانة لا توصف! كانت خائفة، مذعورة من المجتمع ومن عضته القذرة. وتتمنى تقريبًا لو تستطيع التخلص من الطفل أيضًا، وأن تكون نقية تمامًا. باختصار، تسقط في حالة ذعر.

بالنسبة لزجاجة العطر، كانت حماقتها. لم تكن قادرة على الكف عن تعطير منديله أو منديليه وقمصانه في الدرج، فقط نتيجة الطفولة، وقد تركت زجاجة صغيرة من برفان كوتي وود فيولت، نصف فارغة بين أشيائه. أرادت أن يتذكرها في البرفان. وكانت أعقاب السجائر، أعقاب هيلدا.

لم يكن أمامها إلا أن تثق قليلًا في دنكان فوربس. لا تقول إنها عشيقة الحارس، تقول فقط إنها معجبة به، وتخبر فوربس بتاريخ الرجل.

يقول فوربس: «أوه، سوف ترين، لن يستريحوا أبدًا حتى يهينوا الرجل ويحطموه. وإذا كان قد رفض الانخراط في الطبقات الوسطى، حين أتيحت له الفرصة؛ وإذا كان رجلًا يقاوم من أجل الجنس، فسوف يحطمونه. هذا هو الشيء الوحيد الذي لن يسمحوا لك به، أن تكوني مباشرة وصريحة في الجنس. يمكن أن تكوني قذرة كما تشائين. وفي الحقيقة كلما مارست القذارة أكثر في الجنس أحبوه أكثر. لكن إذا آمنت بالجنس، ولم تفعليه بشكل قذر: فسوف يهينونك. إنه التابو المجنون الوحيد الباقي: الجنس بوصفه شيئًا طبيعيًا وحيويًا. لن يمارسوه، وسوف يقتلونك قبل السماح لك بممارسته. سوف ترين، سوف يتعقبون الرجل.

وماذا فعل، رغم ذلك؟ إذا كان قد مارس الحب مع زوجته بكل السبل، أليس له الحق؟ كان عليها أن تفخر بهذا. لكنك ترين، حتى عاهرة وضيعة مثل هذه تنقلب عليه، وتستغل غريزة الضبع عند الرعاع ضد الجنس، لتهينه. تتباكين وتشعرين بالذنب أو بالفظاعة بشأن الجنس، قبل السماح لك بممارسته. أوه، سوف يتعقبون الشيطان المسكين».

تشعر كوني الآن بنفور في الاتجاه المضاد. ماذا فعل، رغم ذلك؟ ماذا فعل لها، لكوني، سوى أنه منحها لذة رائعة وإحساسًا بالحرية وحياة؟ حرر تدفقها الجنسي الطبيعي الدافئ. ولذلك يتعقبونه.

لا، لا، لا ينبغي أن يحدث هذا. ترى صورته، أبيض عاريًا بوجه ملفوح ويدين ملفوحتين، يتطلع إلى أسفل ويخاطب قضيبه كما لو كان كائنًا آخر، والابتسامة الغريبة تومض في وجهه. وتسمع صوته مرة أخرى: عليك أحلى مؤخرة لامرأة! وتشعر بيده دافئة وناعمة تقترب من مؤخرتها مرة أخرى، على أماكنها السرية، وكأنه يمنحها البَركة. والدفء يسري في رحمها، واللهب الضئيل يومض في ركبتيها، وتقول: أوه، لا! لا ينبغي أن أتراجع عن ذلك! لا ينبغي أن أتراجع عنه. ينبغي أن ألتصق به وبما لدي منه، مرورًا بكل شيء. لم أعرف حياة دافئة ملتهبة حتى منحني إياها. ولن أتراجع عن ذلك.

تفعل شيئًا مندفعًا. ترسل رسالة إلى إيفي بولتون، تتضمن رسالة قصيرة للحارس، وتطلب من مسز بولتون إعطاءها له. تكتب له: «إنني قلقة جدًّا من سماع كل المشاكل التي تثيرها زوجتك لك، لكن لا تبالِ بذلك، ليس إلا نوعًا من الهستيريا. ستكون مجرد زوبعة تنتهي فجأة كما

جاءت. لكنني آسفة جدًّا لذلك، وأتمنى ألا تبالي بها كثيرًا. إنها، رغم ذلك، لا تستحق. ليست إلا امرأة هستيرية تريد أن تؤذيك. سأعود في خلال عشرة أيام، وأتمنى أن يكون كل شيء على ما يرام».

بعد أيام قليلة تأتي رسالة من كلفورد. كان مستاء بوضوح.

«يسرني أن أسمع أنك مستعدة لترك فينسيا في السادس عشر من الشهر. لكن إن كنت مستمتعة بها، لا تتعجلي. نفتقدك، راجبي يفتقدك. لكن عليك أن تتعرضي لكمية كافية من أشعة الشمس، أشعة الشمس والبيجامات، كما تقول إعلانات الليدو. ولذا من فضلك ابقي أطول قليلًا، إذا كان ذلك يبهجك ويعدك لشتائنا البشع بما يكفي. حتى إنها تمطر اليوم.

«ترعاني مسز بولتون باجتهاد وبشكل رائع. إنها عينة غريبة. كلما عشت أكثر، أدرك أكثر كم أن البشر مخلوقات غريبة. ربما يكون لبعضهم مائة ساق، مثل أم أربع وأربعين، أو ست مثل سرطان البحر. يبدو أن الاتساق البشري والكرامة اللذين يتوقعهما المرء من رفاقه الرجال لا وجود لهما فعليًّا. يشك المرء في أنهما وجدا بأية درجة مذهلة حتى في المرء نفسه.

«تستمر فضيحة الحارس وتكبر مثل كرة الثلج. تزودني مسز بولتون بالمعلومات. إنها تذكرني بسمكة، رغم أنها بكماء، يبدو أنها تتنفس النميمة الصامتة من خياشيمها، طول حياتها. كل شيء يمر من غربال خياشيمها، ولا شيء يدهشها. يبدو وكأن أحداث حيوات الآخرين الأكسجين الضروري لها.

«إنها مشغولة بفضيحة ملورز، وإذا تركتها تبدأ، تأخذني إلى الأعماق. سخطها الهائل، وهو حتى مثل سخط ممثلة تلعب دورًا، ضد زوجة ملورز، وتصر أن تدعوها برتا كوتس. كنت في أعماق الأكاذيب القذرة لكل برتا كوتس في هذا العالم، وحين أتحرر من تيار النميمة، أطفو ببطء إلى السطح مرة أخرى، وأنظر إلى ضوء النهار في دهشة لأنه موجود.

«تبدو لي حقيقة مطلقة أن عالمنا، الذي يُظهِر لنا سطح كل الأشياء، قاع محيط عميق حقًّا: كل أشجارنا تنمو في أعماق البحار، ونحن حيوانات عجبية قشرية في أعماق البحار، نتغذى على الفضلات مثل الجمبري. أحيانًا فقط ترتفع الروح لاهثة عبر العمق اللانهائي الذي نعيش تحته، إلى سطح الأثير، حيث يوجد هواء حقيقي. إنني مقتنع بأن الهواء الذي نتنفسه عادة نوع من المياه، والرجال والنساء نوع من الأسماك.

«لكن الروح تصعد أحيانًا، وتنطلق مثل نورس الريسا إلى النور، بنشوة، بعد أن تكون قد افترِستْ في أعماق البحار. إنه مصيرنا الفاني، على ما أعتقد، أن نفترس الحياة الشبحية تحت المياه لرفاقنا الرجال، في غابة الجنس البشري في أعماق البحار. لكن مصيرنا الخالد أن نفر، بمجرد أن نبتلع طعمنا الطافي، ونصعد مرة أخرى إلى الأثير المشرق، ونندفع من سطح محيطنا القديم إلى النور الحقيقي. ثم ندرك طبيعتنا الخالدة.

«حين أسمع مسز بولتون تتحدث، أشعر بأنني أغطس وأغطس إلى الأعماق حيث أسماك الأسرار البشرية تتلوى وتسبح. شهيةٌ شهوانيةٌ

تجعلني أنتهز نقرة من فريسة: ثم أصعد، أصعد مرة أخرى خارج هذه الكثافة إلى الأثيري، من الرطب إلى الجاف. يمكن أن أحكي لك العملية كلها. لكن مع مسز بولتون أشعر فقط بالغطس إلى أسفل، أسفل، بشكل مروع، بين أعشاب البحر والوحوش الشاحبة في القاع.

«أخشى أن نفقد حارس طرائدنا. فضيحة الزوجة المتغيبة، بدل أن تهدأ، ترددت أصداؤها إلى أبعاد أكبر وأكبر. إنه متهم بكل الأشياء التي لا توصف وقد نجحت المرأة تمامًا بشكل غريب في حشد جموع زوجات عمال المناجم خلفها، الأسماك البشعة، والقرية متعفنة بالحديث.

«أسمع أن برتا كوتس هذه تحاصر ملورز في منزل أمه، بعد أن نهبت داره وكوخه. وأمسكت بينتها ذات يوم، وهذه البنت التي تشبه أمها عائدة من المدرسة؛ لكن الصغيرة، بدل أن تقبل يد أمها الحبيبة، عضتها بقوة، فتلقت من اليد الأخرى لطمة على الوجه جعلتها تترنح في المزراب: حيث أنقذتها جدة ساخطة ومنزعجة.

«أطلقت المرأة كمية مذهلة من الغاز السام. وبثت بالتفصيل كل أحداث حياتها الزوجية التي تدفن عادة في أعمق قبر من الصمت الزوجي، بين الزوجين. اختارت أن تستخرجها، بعد عشر سنوات من الدفن، ولديها مجموعة غريبة. سمعْتُ هذه التفاصيل من لينلي والطبيب: وكان الأخير مستمتعًا. بالطبع لا شيء حقًّا في هذا. لدى الإنسانية دائمًا نهم غريب لأوضاع جنسية غير معتادة، وإذا أحب رجل أن يستخدم زوجته، كما يقول بنفينوتو تشيليني[1]، 'بالطريقة الإيطالية'، حسنًا فهذه

(١) بنفينوتو تشيليني (١٥٠٠-١٥٧١): نحات وكاتب فلورنسي.

مسألة ذوق. لكنني لم أتوقع أن يكون حارس طرائدنا على دراية بالكثير من الحيل. لاشك أن برتا كوتس نفسها أطلعته عليها في البداية. على أية حال، إنها مسألة تتعلق ببؤسهما الشخصي، ولا علاقة لأي أحد آخر بها.

«ومع ذلك، يستمع الجميع: كما أفعل أنا نفسي. قبل اثني عشر عاما كان الذوق العام يسكت عن مثل هذه الأشياء. لكن الذوق العام لم يعد موجودًا، وزوجات عمال المناجم كلهن غاضبات ويتحدثن بلا حياء. قد يعتقد المرء أن كل طفل في تفرشال، في السنوات الخمسين الأخيرة، كان حَمْلًا طاهرًا، وكل واحدة من إناثنا المنشقات جان دارك متألقة. إن حارسنا الجدير بالاحترام ينبغي أن تكون حوله لمسة من رابليه يبدو أنها تجعله وحشيًّا وصادمًا أكثر من قاتل مثل كريبن[1]. لكن هؤلاء الناس في تفرشال جمع فضفاض، إذا كان عليَّ أن أصدق كل الحكايات.

«المشكلة، مع ذلك، أن برتا كوتس المقيتة لم تقتصر على خبراتها ومعاناتها. كشفت، بأعلى صوتها، أن زوجها كان 'يحتفظ' بنساء في الدار، وقامت ببضع لقطات عشوائية لتسمية النساء. ومرغت بضعة أسماء مهذبة في الوحل، وذهب الأمر إلى حد بعيد جدًّا. وصدر أمر قضائي ضد المرأة.

«واضطررْتُ لمقابلة ملورز بشأن المسألة، حيث كان من المستحيل أن يبعد المرأة عن الخميلة. إنه يمضي كالمعتاد، بروح أغنية طحان دي[2]،

(١) فرانسوا رابليه (١٤٩٤-١٥٥٣) كاتب فرنسي وطبيب وراهب وعالم باليونانية وأحد إنساني النهضة. هاولي هارفي كريبن (١٨٦٢-١٩١٠) طبيب أمريكي أعدم شنقا بتهمة قتل زوجته كورا هنريتا كريبن.

(٢) طحان دي: أغنية شعبية إنجليزية؛ ودي اسم نهر؛ و«لا أهتم بأحد، إذا لم يهتم بي أحد!» من كلمات الأغنية.

لا أهتم بأحد، إذا لم يهتم بي أحد! ومع ذلك، أتوقع ببراعة أنه يبدو مثل كلب بعلبة من الصفيح مربوطة في ذيله: رغم أنه يقدم عرضًا جيدًا جدًّا متظاهرًا بأن علبة الصفيح ليست موجودة. لكنني سمعت أن النساء في القرية يطلبن من أطفالهن الابتعاد وهو يمر، كما لو كان الماركيز دي ساد شخصيًّا. إنه يمضي بصفاقة، لكنني أخشى أن علبة الصفيح مربوطة بقوة في ذيله، وأن هذا ما يكرره داخليًّا، مثل دون رودريجو في الأغنية الأسبانية: 'آه، يعضني الآن حيث أذنبت أكثر!'

«سألْتُه إن كان يعتقد أنه قادر على متابعة مهامه في الخميلة، فقال إنه لا يعتقد أنها أهملها. قلت له إن من المزعج أن يكون له امرأة تتجاوز الحدود: رد على ذلك بأنه ليست لديه أية سلطة لتوقيفها. ثم لمحت إلى الفضيحة وسياقها الكريه. فقال: 'آه، على الناس أن يهتموا بنكاحهم، ثم لا ينبغي أن يستمعوا إلى الكثير من النميمة عن نكاح رجل آخر'.

«قالها ببعض المرارة، ولا شك في أنها تحتوي على البذرة الحقيقية للحقيقة. لكن طريقة التعبير، مع ذلك، لم تكن مهذبة أو محترمة. لمحْتُ كثيرًا، ثم سمعت علبة الصفيح تقعقع مرة أخرى. (مش رجل زيك، يا سير كلفورد، اللي يلومني علشان لي باكالاة[1] بين رجليًّا).

«هذه الأشياء التي قيلت بدون تمييز للجميع، بالطبع لم تساعده إطلاقًا، ويعتقد الكاهن وفينلي وبوروز جميعًا أن من الأفضل أن يغادر الرجل المكان.

---

(١) الباكالاة أو القد: نوع من الأسماك البحرية الكبيرة، تعيش في المياه الدافئة.

«سألْتُه إن كان صحيحًا أنه يستقبل سيدات في الدار، وكان كل ما قاله: 'لماذا، ما علاقتك بهذا يا سير كلفورد؟' قلت له إنني أقصد مراعاة اللياقة في عزبتي، فرد: 'لازم بقى تقفل بق الستات.'- وحين ضغطت عليه بشأن أسلوب حياته في الدار، قال: 'بالتأكيد تقصد فضيحة مني ومن كلبتي فلوسي. ضاعت منك أي حاجة هناك'. وفي الواقع، لأنه مثال الصفاقة، من الصعب أن يُهزَم.

«سألته إن كان من السهل عليه أن يجد وظيفة أخرى. قال: «لو كنت بتلمح إلى إنك بتفضل تفصلني من الوظيفة دي، فالمسألة سهلة »شل غمزة عين.' وهكذا لم يجد أية مشكلة إطلاقًا في أن يغادر في نهاية الأسبوع القادم، ومن الواضح أنه يرغب في أن يبدأ تعليم رفيق شاب، جوي تشامبرز، الكثير من أسرار الحرفة بقدر المستطاع. وأخبرته بأنني سأعطيه مرتب شهر إضافي حين يغادر. قال إن من الأفضل أن أحتفظ بمالي، حيث لا يوجد سبب يجعلني أريح ضميري. سألته عما يعنيه، فقال: 'أنت لا تدين لي بأي شيء إضافي، يا سير كلفورد، وبالتالي لا تدفع لي أي شيء إضافي. إذا اعتقدت أنك ترى فيَّ عيبًا، فأخبرني فقط'.

«حسنًا، هذا ما انتهت إليه الأمور حاليًا. هربت المرأة: لا نعرف إلى أين: لكنها معرضة للقبض عليها إذا ظهرت في تفرشال. وسمعت أنها خائفة بشكل مميت من السجن، لأنها تستحقه. يرحل ملورز السبت بعد القادم، ويعود المكان طبيعيًّا مرة أخرى.

«وفي الوقت نفسه، يا عزيزتي كوني، إذا كنت تستمتعين بالبقاء في فينسيا أو في سويسرا حتى بداية أغسطس، ينبغي أن أكون سعيدًا لأنك

خارج كل هذا الطنين القبيح، وسوف يهدأ تمامًا في نهاية الشهر.

«هكذا ترين أننا وحوش في بحر عميق، وحين يمشي سرطان البحر في الوحل يثير الجميع. لابد أن نتعامل معه فلسفيًّا بالضرورة». - كان للسخط وعدم وجود أي تعاطف في أي اتجاه، في رسالة كلفورد، تأثير سيئ على كوني. لكنها تفهم بشكل أفضل حين تتلقى الرسالة التالية من ملورز: «انتشر السر، مع مختلف الأسرار الأخرى. سمعْتِ أن زوجتي برتا عادت إلى ذراعي الكارهتين، وأقامت في الدار: حيث شمت، إذا تحدثنا بعدم احترام، فأرة، في شكل زجاجة صغيرة من عطر كوتي. لم تجد دليلًا آخر، على الأقل لبضعة أيام، حين بدأت العواء على الصورة المحترقة. لاحظت الزجاج واللوح الخلفي في غرفة النوم المربعة. ولسوء الحظ، على اللوح الخلفي خَطَّ شخص ما إسكتشات صغيرة، والحروف الأولى لاسم، وكرر عدة مرات: ك. س. ر. لكنها لم تقدم مفتاحًا حتى اقتحمت الكوخ، ووجدت أحد كتبك، سيرة ذاتية للممثلة جوديث، مع اسمك، كونستنس ستيوارت ريد، على الصفحة الأولى. وبعد ذلك، أخذت لعدة أيام تطوف وتعلن بصوت عال أن عشيقتي ليست إلا الليدي تشاترلي نفسها. وصلت الأخبار في النهاية إلى الكاهن، مستر بوروز، وإلى السير كلفورد. ثم شرعا في اتخاذ خطوات قانونية ضد سيدتي، التي اختفت، وكانت تشعر دائمًا بخوف قاتل من البوليس.

«طلب السير كلفورد رؤيتي، فذهبْتُ إليه. تحدث حول أشياء وبدا منزعجًا معي. ثم سألني إن كنت أعرف أن اسم سموها ذكر. قلْتُ إنني لم أستمع إلى فضيحة قط، وأنني مندهش لسماع هذا من السير كلفورد

نفسه. قال إنها، بالطبع، إهانة كبيرة، وأخبرته بأن الملكة ماري كانت على نتيجة في حجرة غسل الأطباق، بدون شك لأن جلالتها تشكل جزءًا من حريمي. لكنه لم يقدر السخرية. وأخبرني في الواقع بأنني شخصية سيئة السمعة وأتجول أيضًا وأزرار بنطلوني مفكوكة، وأخبرته في الواقع بأنه ليس لديه على أية حال شيء يفكه، وهكذا فصلني وسأغادر في السبت بعد القادم، ولن يعرفني المكان بعد ذلك.

«سأذهب إلى لندن، وسوف تعطيني صاحبة فندقي القديم، مسز إنجر، ١٧ كوبرج سكوير غرفة أو تعثر لي على غرفة.

«وتعلمون خطيتكم التي تصيبكم[1]، وخصوصًا إذا كنتم متزوجين وكان اسمها برتا».

لم تكن هناك كلمة عنها أو لها. تستاء كوني. كان عليه أن يقول بضع كلمات للتعزية أو التشجيع. لكنها تعرف أنه يتركها حرة، حرة في العودة إلى راجبي وإلى كلفورد. وتستاء من هذا أيضًا. لا يحتاج إلى أن يكون فارسًا زائفًا. تتمنى لو أنه قال لكلفورد: «أجل، إنها عشيقتي وسيدتي وأنا فخور بذلك!» لكن شجاعته لم تكن لتمضي به إلى هذا الحد.

هكذا ارتبط اسمها باسمه في تفرشال! كانت فوضى. لكنها ستهدأ سريعًا.

تغضب غضبًا معقدًا ومربكًا يجعلها خاملة. لا تعرف ماذا تفعل أو ماذا تقول، فلا تقول شيئًا ولا تفعل شيئًا. تواصل في فينسيا بالطريقة

(١) عن سفر العدد، الإصحاح ٣٢، الآية ٢٣، عن الترجمة العربية للكتاب المقدس.

نفسها، تخرج في الجندول مع دنكان فوربس، تستحم، وتترك الأيام تمر. دنكان، وكان يحبها بشدة قبل عشر سنوات، وقع في حبها مرة أخرى. لكنها تقول له: «أريد من الرجال شيئًا واحدًا فقط، أن يتركوني في حالي».

وهكذا يتركها دنكان في حالها: وتسرُّ تمامًا لأنه استطاع. ومع ذلك عرض عليها سيلًا من نوع غريب مقلوب من الحب. يريد أن يكون **معها**.

يقول لها ذات يوم: «هل فكرت يومًا في كيفية ارتباط البسطاء جدًّا ببعضهم. انظري إلى دانيل! إنه وسيم مثل ابن من أبناء الشمس. لكن انظري كم يبدو وحيدًا في وسامته. لكنني أراهن أن لديه زوجة وأسرة، وليس من المحتمل أن يبعد عنهم».

تقول كوني: «اسأله».

فيفعل دنكان. كان دانيل متزوجًا، وله طفلان، ولدان، في السابعة والتاسعة. لكنه لم يبح بأية عاطفة عن هذه الحقيقة.

تقول كوني: «ربما فقط يبدو القادرون على الارتباط الحقيقي وحيدين في العالم. لدى الآخرين زوجة معينة، يلتصقون بالحشود، مثل جيوفاني». وتقول في نفسها «ومثلك يا دنكان».

* * *

الفصل الثامن عشر

عليها أن تستقر على ما سوف تفعله. ستغادر فينسيا في السبت الذي يغادر فيه راجبي: بعد ستة أيام. وهذا يجعلها تصل إلى لندن في الإثنين التالي، وتراه حينها. تكتب له على عنوان لندن، وتطلب منه أن يرسل لها رسالة على فندق هارتلند، ويطلبها في السابعة من مساء الإثنين.

تشعر بغضب غريب ومعقد في أعماقها، وكانت كل استجاباتها مخدرة. ترفض حتى أن تثق في هيلدا، واستاءت هيلدا من صمتها المستمر، وصارت على علاقة حميمة إلى حد ما بامرأة هولندية. وكانت كوني تكره هذه العلاقات الحميمة الخانقة إلى حد ما بين النساء، وهي علاقات حميمة كانت هيلدا تدخلها دائمًا بنزق.

يقرر السير مالكولم السفر مع كوني، ويأتي دنكان مع هيلدا. كان الفنان العجوز يهتم بنفسه دائمًا: أخذ مقعدين للنوم على قطار الشرق السريع، رغم كراهية كوني للقطارات الفاخرة[1]، لجو التبذير المبتذل المنتشر عليها في تلك الأيام. لكن ذلك قد يجعل الرحلة إلى باريس أقصر.

(١) بالفرنسية في الأصل.

كان السير مالكولم يقلق باستمرار من العودة إلى زوجته. وهي عادة اكتسبها من زوجته الأولى. لكن قد يكون هناك حفل منزلي لصيد القنابر، ويريد الوصول بسرعة ليستعد. تجلس كوني، محترقة من الشمس وأنيقة، في صمت، ناسية كل ما يتعلق بالمشهد الطبيعي.

يقول والدها، ملاحظًا كآبتها: «تشعرين ببعض الفتور لأنك عائدة إلى راجبي».

تقول فجأة بشكل مذهل، وهي تنظر في عينيه بعينيها الزرقاوين الواسعتين: «لسْتُ متأكدة من العودة إلى راجبي». تنظر عيناها الزرقاوان الواسعتان نظرة ذعر لرجل ضميره الاجتماعي ليس نقيًّا تمامًا.

«تقصدين أنك ستمكثين في باريس بعض الوقت؟».

«لا! أقصد أنني لن أعود إلى راجبي أبدًا».

كان منزعجًا من مشاكله الخاصة الصغيرة، ويتمنى بصدق ألا يحمل مشاكلها على عاتقه.

يسأل: «كيف، فجأة؟».

«سيكون لي طفل».

كانت أول مرة تتفوه بها بكلمة لأي روح حية، ويبدو أنها تمثل انقسامًا في حياتها.

يقول والدها: «كيف عرفْتِ؟».

تبتسم.

«كيف ينبغي أن أعرف؟».

«لكنه ليس طفل كلفورد بالطبع؟».

«لا! طفل رجل آخر».

تستمتع بتعذيبه إلى حد ما.

يسأل السير مالكولم: «هل أعرف الرجل؟».

«لا! لم تره قط».

وقفة طويلة.

«وما خططك؟».

«لا أعرف. تلك هي القضية».

«لا إصلاح للعلاقة مع كلفورد؟».

تقول كوني: «أعتقد أن كلفورد سيتقبل الأمر. أخبرني بعد أن تحدثْتَ إليه آخر مرة، أنه لا يمانع في أن يكون لي طفل، طالما حصلْتُ عليه بحذر».

«الشيء الوحيد المعقول الذي يمكن أن يقوله في ظل هذه الظروف. وأعتقد أن الأمور ستكون على ما يرام».

تقول كوني، وهي تنظر في عيني أبيها: «بأية طريقة؟» كانت عيناه زرقاوين واسعتين مثل عينيها، لكن فيهما بعض القلق، أحيانًا نظرة صبي صغير قلق، وأحيانًا نظرة أنانية طاغية، وعادة نظرة مرح ويقظة.

«يمكنك أن تهدي لكلفورد وريثًا لكل آل تشاترلي، وتضعي بارونيت

آخر في راجبي».

يبتسم وجه السير مالكولم ابتسامة شبه حسية.

تقول: «لكن أعتقد أنني لا أريد».

«لماذا لا؟ المشاعر متشابكة مع الرجل الآخر؟ حسنًا! إذا أردْتِ الحقيقة مني يا طفلتي، فليكن. العالم يستمر. راجبي يقف وسوف يستمر واقفًا. العالم شيء ثابت تقريبًا وعلينا التكيف معه خارجيًّا. بشكل خاص، في رأيي الخاص، يمكن أن نبتهج. المشاعر تتغير. قد تعجبين برجل في هذه السنة وبآخر في السنة التالية. التصقي براجبي طالما التصق بك. وابتهجي. لكن لن تحصلي على شيء من الانفصال. يمكن أن تنفصلي إن أحببْتِ. لك دخل مستقل، الشيء الوحيد الذي لا يخذلك. لكن لن تحصلي على الكثير منه. ضعي بارونيت صغيرًا في راجبي. شيء ممتع».

يسند السير مالكولم ظهره على المقعد ويبتسم مرة أخرى. لا ترد كوني.

يقول بعد برهة، وهو يقظ حسيًّا: «أتمنى أن تكوني وجدت رجلًا حقيقيًّا في النهاية».

تقول: «وجدته. وتلك هي المشكلة. لا يوجد الكثير منهم حولنا».

يستغرق في التفكير: «لا، يا إلهي! لا يوجد! حسنًا، يا عزيزتي، انظري إلى نفسك، إنه رجل محظوظ. هل من المؤكد أنه لن يسبب لك مشاكل؟».

«أوه لا! يترك لي حرية التصرف تمامًا».

«تمامًا! تمامًا! لابد أنه رجل أصيل».

يبتهج السير مالكولم. كوني ابنته المفضلة، وقد أعجب دائمًا بالأنثى فيها. ليس فيها الكثير من أمها كما في هيلدا. وكان دائمًا لا يحب كلفورد. هكذا يبتهج، ويكون حنونًا جدًّا مع ابنته، وكأن الطفل الذي لم يولد ابنه.

ينطلق معها إلى فندق هارتلند، ويراها تستقر: ثم يذهب إلى ناديه. وترفض صحبته في المساء.

تجد رسالة من ملورز. «لن آتي إلى فندقك، لكن سأنتظرك خارج الجولدن كوك في شارع آدم في السابعة».

كان يقف هناك، طويلا ونحيلًا، ومختلفًا تمامًا، في بدلة رسمية من قماش داكن رقيق. يتمتع بتميز طبيعي، لكنه لا يتمتع بملامح طبقتها. لكنها ترى فورًا أنه يمكن أن يذهب إلى أي مكان. يتمتع بتهذيب فطري وهو في الحقيقة ألطف بكثير من ملامح الطبقة.

«آه، أنت هنا! كم تبدين بحالة جيدة!».

«أجل! لكنك لا تبدو».

تنظر في وجهه بقلق. كان نحيلًا، وعظام وجنتيه بارزة. لكن عينيه تبتسمان لها، وتشعر بارتياح معه. هذا ما كان: فجأة، يختفي توتر التظاهر بأنها على ما يرام. يتدفق منه شيء فيزيائي، يجعلها تشعر داخليًّا بهدوء وسعادة، بارتياح. وقد صارت غريزة المرأة يقظة للسعادة، تلاحظها على الفور. «أكون سعيدة حين يكون معي!» لم تمنحها كل أشعة الشمس في

«لا! لم أعتقد ذلك لحظة».

«هل صدقه كلفورد؟».

«ينبغي أن أقول لا. رماه بدون أن يفكر فيه. لكن من الطبيعي أن ذلك جعله يرغب في ألا يرى مشاكلي مرة أخرى».

«سيكون لدي طفل».

يموت التعبير تمامًا من وجهه، ومن جسمه كله. ينظر إليها بعينين مظلمتين، نظرة لم تفهمها إطلاقًا: مثل روح ملتهبة مظلمة تنظر إليها.

تقول متوسلة، وهي تتلمس يده: «قلْ إنك سعيد!» وتري بهجة تنبثق منه. لكنها تخمد بأشياء لا تستطيع فهمها.

يقول: «إنه المستقبل».

تلحُّ: «لكن ألسْتَ سعيدًا؟».

«لدي ارتياب رهيب في المستقبل».

«لكن لا ينبغي أن تنزعج من أية مسئولية. سيعتبره كلفورد ابنه، وسيكون سعيدًا».

تراه يشحب، ويتراجع. ولا يرد.

تسأل: «هل أعود إلى راجبي وأضع البارونيت الصغير في راجبي؟»

ينظر إليها، شاحبًا وبعيدًا جدًّا. والابتسامة الصغيرة البشعة تومض على وجهه.

«ألن تخبريه بمن هو الأب؟».

تقول: «أوه! سيأخذه حتى حينذاك، إذا أردْتُ أن يأخذه».

يفكر لبعض الوقت.

ويقول في النهاية لنفسه: «آي. أعتقد أنه سيأخذه».

يخيم الصمت. بينهما هوة كبيرة.

تسأله: «لكنك لا تريد أن أعود إلى كلفورد، أليس كذلك؟».

يرد: «ماذا تريدين؟».

تقول ببساطة: «أريد أن أعيش معك».

رغمًا عنه يسري لهب ضئيل في بطنه وهو يسمعها تقول ذلك، ويحني رأسه. ثم ينظر إليها مرة أخرى، بتلك العينين الشاردتين.

يقول: «إذا كان ذلك يستحق بالنسبة لك. ليس عندي شيء».

تقول: «لديك أكثر مما لدى معظم الرجال. تعرف ذلك».

«بطريقة ما، أعرف ذلك». يصمت بعض الوقت، يفكر. ثم يواصل: «اعتادوا أن يقولوا إن فيَّ الكثير جدًّا من المرأة. لكن الأمر ليس كذلك. لسْتُ امرأة لأنني لا أريد أن أصطاد الطيور، أو لأني لا أريد أن أكسب مالًا، أو أنجح. نجحْتُ في الجيش، بسهولة، لكن لم أحب الجيش. رغم أنني قدت الرجال بشكل جيد: أحبوني وكانوا يشعرون بخوف مقدس مني حين أجن. لا، كان هذا غباء، السلطة العليا القاسية هي ما جعل الجيش يموت: يموت تمامًا. أحببت الرجال وأحبوني. لكن لا أستطيع تحمل الصفاقة المتسلطة التافهة لمن يديرون هذا العالم. لهذا لم أنجح. أكره وقاحة المال، أكره وقاحة الطبقة. وفي عالم بهذا الشكل، ماذا لديَّ

أقدمه لامرأة؟».

تقول: «لكن لماذا تقدم شيئًا؟ ليست صفقة. كل منا يحب الآخر فقط».

«لأ، لأ! الأمر أكثر من ذلك. الحياة تتحرك وتتحرك. حياتي لن تسقط في مزاريب حقيقية، فقط لن تسقط. وبالتالي أنا تذكرة مهدرة بمفردي. وليس لدي عمل لأدخل امرأة في حياتي، إلا إذا كانت حياتي تفعل شيئًا وتحقق شيئًا، داخليًّا على الأقل، لتحفظنا نحن الاثنين نضرين. على الرجل أن يقدم للمرأة معنى في حياته، إذا كانت ستكون حياة منعزلة، وإذا كانت امرأة أصيلة. لا أستطيع أن أكون مجرد خليلك».

تقول: «لماذا لا؟».

«لماذا، لأنني لا أستطيع. وسوف تكرهين ذلك بسرعة».

تقول: «وكأنك لا تثق بي».

تومض الابتسامة على وجهه.

«المال مالك، المكانة مكانتك، ستكون القرارات معك. لسْتُ فقط مجرد مضاجع سيدتي، رغم كل شيء».

«من أنت أيضًا؟».

«قد تسألين. إنه خفي بالتأكيد. لكنني شيء ما لنفسي على الأقل. أستطيع أن أرى هدف وجودي، رغم أنني أستطيع أن أفهم تمامًا أن لا أحد آخر يراه».

«وهل يكون هدف وجودك أقل إذا عشْتَ معي؟».

يتوقف وقتًا طويلًا قبل الرد:

«ربما».

تظل هي الأخرى تفكر في الأمر.

«وما هدف وجودك؟».

«أقول لك إنه خفي. لا أؤمن بالعالم أو بالمال أو بالتقدم أو بمستقبل حضارتنا. إذا كان للإنسانية مستقبل، فسوف تختلف كثيرًا عما هي عليه الآن».

«وكيف سيكون المستقبل الحقيقي؟».

«يعلم الرب! يمكن أن أشعر بشيء في داخلي، مختلط تمامًا بكثير من الغضب. لكن كم يساوي حقًّا، لا أعرف».

تقول وهي تنظر في وجهه: «أخبرك؟ أخبرك بأنك تملك ما لا يملكه الرجال الآخرون، وسوف يصنع المستقبل؟ أخبرك؟».

يرد: «أخبريني إذًا».

«إنها شجاعة رقتك، إنها كل شيء: كما حين تضع يدك على مؤخرتي وتقول إن لي مؤخرة جميلة».

تأتي الابتسامة وتومض على وجهه.

يقول: «ذلك!».

ثم يجلس ويفكر.

يقول: «آي. أنت محقة. ذلك حقًّا. هذا كل شيء. عرفْتُ ذلك

مع الرجال. اضطررْتُ إلى الاحتكاك بهم، جسديًّا، ولم أعد إلى ذلك. اضطررْتُ إلى أن أكون على وعي جسدي بهم، وحنونًا بعض الشيء معهم، حتى إذا وضعتهم في الجحيم. إنها مسألة وعي كما قال بوذا. لكن حتى هو دافع عن خجل الوعي الجسدي، وذلك الحنان الفيزيائي الطبيعي، وهو الأفضل، حتى بين الرجال؛ بطريقة رجولية حقيقية. يجعلهم رجالًا حقًّا، لا قرودًا. آي! إنه الحنان حقًّا؛ إنه الوعي بالفرج. الجنس في الحقيقة تماس، أقرب تماس. وهو تماس نخشاه. نحن شبه مدركين فقط وشبه أحياء. علينا أن نصبح أحياء ومدركين. وخاصة الإنجليز عليهم أن يتماسوا معًا، ببعض الرقة وبعض الحنان. إنه احتياجنا الصارخ».

تنظر إليه.

تقول: «لماذا تخاف مني إذًا؟».

ينظر إليها وقتًا طويلًا قبل أن يرد.

«إنه المال، حقًّا، والمكانة. إنه العالم فيك».

تقول بحزن: «لكن ألا يوجد فيَّ حنان؟».

ينظر إليها، بعينين مظلمتين مجردتين.

«آي! يأتي ويذهب، مثلي».

تسأل، وهي تحدق فيه بقلق: «لكن ألا يمكن أن تثق فيه بيني وبينك؟».

ترى وجهه يذوب تمامًا، ويفقد قدرته على الرد.

يقول: «ربما!».

ويصمت الاثنان.

تقول: «أريد أن تضمني في ذراعيك. أريد أن تقول إنك سعيد لأنه سيكون لنا طفل».

تبدو جميلة ودافئة وحزينة، فتتحرك أحشاؤه باتجاهها.

يقول: «أعتقد أننا يمكن أن نذهب إلى غرفتي. رغم أنه أمر فاضح مرة أخرى».

لكنها ترى نسيان العالم يفاجئه مرة أخرى، وقد بدا وجهه ناعمًا ونقيًّا من الرقة.

يسيران عن طريق الشوارع الأبعد إلى ميدان كوبرج، حيث كانت غرفته على قمة منزل، غرفة علِّية حيث يطبخ لنفسه على موقد جاز. صغيرة لكنها لطيفة ومنظمة.

تخلع أشياءها، وتجعله يفعل الشيء نفسه. كانت جميلة في أول ومضة رقيقة من حملها.

يقول: «عليَّ أن أتركك وحدك».

تقول: «لا! حبني! حبني، وقل إنك سوف تبقي عليَّ. قل إنك سوف تبقي عليَّ! قل إنك لن تتركني أذهب قط، إلى العالم أو إلى أي شخص».

تزحف بالقرب منه، وتتشبث بقوة بجسده العاري النحيل القوي، البيت الوحيد الذي تعرفه.

يقول: «سأبقي عليك لو عايزة، سأبقي عليك».

يضمها تمامًا وبقوة.

تكرر: «وقل إنك سعيد بالطفل. قبِّلْه! قبِّلْ رحمي وقل إنك سعيد لأنه هناك».

لكن ذلك كان أصعب بالنسبة له.

«خايف من إني أجيب أطفال للدنيا. خايف من مستقبلهم».

«لكنك وضعْتُه فيَّ. كن حنونًا معه، وسوف يكون ذلك مستقبله بالفعل. قبِّلْه!».

يرتجف، لأن هذا صحيح. «كن حنونًا معه، وسوف يكون ذلك مستقبله».- في تلك اللحظة يشعر بحب تام للمرأة. يقبِّل بطنها وعانتها، ويقبِّل قرب رحمها والجنين في الرحم.

تقول في صرخة واهية مثل إحدى صرخات حبها، الصرخات المبهمة العمياء. ويدخل فيها برقة، وهي تشعر بتيار الحنان يتدفق متحررًا من أحشائه إلى أحشائها، تتأجج أحشاء الرحمة بينهما.

يدرك وهو يدخل فيها أن هذا هو الشيء الذي عليه فعله، أن يدخل بلمسة حنان، بدون أن يفقد كبرياءه أو كرامته أو شرفه بوصفه رجلًا. ورغم ذلك، إذا كانت تمتلك المال والوسائل، وهو لا يمتلك شيئًا، عليه أيضًا أن يكون فخورًا وجديرًا ومبجَّلًا لأنه يكبح رقته عنها جراء ذلك. يقول لنفسه: «أمثِّل لمسة الإدراك الجسدي بين البشر، ولمسة الرقة. إنها رفيقتي. إنها معركة ضد المال، والآلة، والقرد المثالي الغبي لهذا العالم. وسوف تساندني هناك. شكرًا للرب لأنني حصلْتُ على امرأة! شكرًا للرب

لأنني حصلت على امرأة هي معي، رقيقة وتفهمني. شكرًا للرب لأنها ليست متسلطة أو حمقاء. شكرًا للرب لأنها امرأة رقيقة واعية». وبذرته تنبثق فيها، تنبثق روحه أيضًا تجاهها، في فعل خلَّاق يفوق التكاثر بكثير.

تصمم الآن تمامًا على ضرورة ألا يكون بينه وبينها شقاق. لكن يجب إقرار الطرق والوسائل.

تسأله: «هل تكره برتا كوتس؟».

«لا تحدثيني عنها».

«أجل! لا ينبغي أن تتركني. لأنك ذات يوم أعجبْتَ بها. وذات يوم كنت على علاقة حميمة معها مثلما أنت معي. لذا عليك أن تخبرني. أليس هذا رهيبًا، حين كنت على علاقة حميمة معها، أن تكرهها هكذا؟ لماذا؟».

«لا أعرف. كانت إرادتها متحفزة ضدي دائمًا، دائمًا: إرادتها الأنثوية الرهيبة: حريتها! الحرية الرهيبة للمرأة التي تنتهي بأكثر أشكال التسلط وحشية! أوه: ظلت متحفزة بحريتها ضدي، مثل حمض الكبريت في وجهي».

«لكنها ليست متحررة منك حتى الآن. هل مازالت تحبك؟».

«لا، لا! إذا لم تكن متحررة مني، فذلك لأنها غضبت ذلك الغضب المجنون، لابد أن تحاول التسلط عليَّ».

«لكن لابد أنها أحبتك».

«لا! حسنًا، أحبتني في لحظات نادرة. انجذبتْ إليَّ. وأعتقد أنها

كرهتْ حتى ذلك. أحبتني في لحظات. لكنها كانت تتراجع دائمًا، وتبدأ التسلط. كان التسلط عليَّ أعمق رغباتها، ولم يطرأ عليها تغيير. كانت إرادتها خطأ من البداية».

«لكن ربما شعرت بأنك لا تحبها حقًا، وأرادت أن تجعلك تحبها».

«يا إلهي، كان ذلك عملًا دمويًّا».

«لكنك لم تحبها حقًّا، أليس كذلك؟ ظلمْتَها».

«كيف أستطيع؟ بدأت. بدأت أحبها. لكنها بشكل ما كانت تمزقني دائمًا. لا، لنكف عن الحديث في هذا الأمر. كان عذابًا. وكانت امرأة لعينة. هذه المرة الأخيرة، كنت سأطلق النار عليها كما أطلقه على قاقم[1]، إن أتيح لي: شيء لعين يهذي في شكل امرأة! لو استطعت فقط أن أطلق النار عليها، وأنهي البؤس كله! كان ينبغي أن يسمح لي. حين تسيطر إرادة المرأة عليها بشكل مطلق، تتحفز إرادتها ضد كل شيء، ثم تكون مخيفة، وينبغي إطلاق النار عليها في النهاية».

«وألا ينبغي إطلاق النار على الرجال في النهاية، إذا سيطرت عليهم إرادتهم؟».

«آي!- الشيء نفسه! لكن لابد أن أتحرر منها، وإلا فسوف تهاجمني مرة أخرى. أردْتُ أن أخبرك. لابد أن أحصل على الطلاق إن استطعْتُ. لنكون في أمان. لا ينبغي حقًّا أن نُرَى، أنت وأنا، معًا. لا يمكن فقط أن أتحمل أن تهبط عليَّ وعليك».

---

(١) حيوان شرس من أصغر الثدييات آكلة اللحوم، يشبه ابن عرس، يعيش في أوروبا وآسيا وأمريكا الشمالية.

تفكر كوني في هذا.

تقول: «إذًا لا يمكن أن نكون معًا؟».

«لا يمكن لستة أشهر تقريبًا. لكنني أعتقد أن إجراءات طلاقي تبدأ في سبتمبر؛ وتستمر إلى مارس».

تقول: «لكن من المحتمل أن يولد الطفل في نهاية فبراير».

يصمت.

يقول: «أتمنى موت كلفورد وبرتا».

يقول: «ليس رقيقًا جدًّا بالنسبة لهما».

«رقيق بالنسبة لهما؟ أجل، ربما يكون أرق شيء يمكن فعله لهما، أن يمنحا الموت. ألا يستطيعا العيش! إنهما يحبطان الحياة فقط. روحاهما رهيبتان داخلهما. ينبغي أن يكون الموت جميلًا لهما. وينبغي أن يسمح لي بإطلاق النار عليهما».

تقول: «لكنك لن تفعل ذلك».

«أفعل رغم ذلك! وبتأنيب أقل مما لو أطلقت النار على ابن عرس. إنه على أية حال يتمتع بالجمال والعزلة. لكنهما فيلق. أوه، سأطلق النار عليهما».

«ربما من الأفضل ألا تجرؤ».

«حسنًا».

كان لدى كوني الكثير مما تفكر فيه. من الواضح أنه يريد بشكل مطلق

التحرر من برتا كوتس. وتشعر أنه محق. كانت الهجمة الأخيرة شرسة جدًّا.- مما يعني أن تعيش وحيدة، حتى الربيع. وربما تستطيع الحصول على الطلاق من كلفورد. لكن كيف؟ إذا ذكر اسم ملورز فسيكون ذلك نهاية طلاقه. يا له من أمر مقرف! ألا يمكن أن تبتعد مباشرة، إلى الأطراف البعيدة للأرض، وتتحرر من هذا كله؟

لا يمكن لها. الأطراف البعيدة للأرض ليست على بعد خمس دقائق من تشيرنج كروس[١]، في هذه الأيام. واللاسلكي نشط، ليست هناك أطراف بعيدة للأرض. يستمع ملوك داهومي ولامات التيبت إلى لندن ونيويورك.

الصبر! الصبر! العالم ميكانيزم معقد وشاسع ورهيب، وعليها أن تكون حذرة جدًّا، ألا تدمره.

تفضي كوني بالسر إلى أبيها.

«ترى يا أبي إنه حارس طرائد كلفورد: لكنه كان ضابطًا في الجيش في الهند. إنه فقط مثل الكولونيل سي إي فلورنس، الذي فضل أن يصبح جنديًّا خاصًّا مرة أخرى».

لكن السير مالكولم لم يكن متعاطفًا مع التصوف غير المقنع لسي إي فلورنس الشهير. رأى الكثير جدًّا من الدعاية وراء كل هذا التواضع. بدا بالضبط مثل نوع من الغرور الذي يشمئز منه الفارس، غرور إذلال الذات.

---

(١) تشيرنج كروس نقطة تقاطع شوارع ستراند ووايتهول وشارعِ كوكسبَر، وسط لندن.

يسأل السير مالكولم بتوتر: «من أين جاء حارس طرائدكم؟».

«كان ابن عامل في منجم الفحم في تفرشال. لكنه حسن المظهر تمامًا».

يزداد غضب الفنان الذي يحمل لقب فارس.

يقول: «يبدو لي مثل منقب عن الذهب وأنت منجم ذهب سهل وجميل على ما يبدو».

«لا، يا أبي، ليس كذلك. ستعرف إذا رأيته. إنه رجل. كرهه كلفورد دائمًا لأنه ليس متواضعًا».

«على ما يبدو كان ذات مرة يتمتع بغريزة سليمة».

لا يمكن للسير مالكولم احتمال فضيحة تآمر ابنته مع حارس طرائد. لا يبالي بالمؤامرة: يبالي بالفضيحة.

«لا يهمني شيء بشأن الرفيق. من الواضح أن استطاع أن يخدعك تمامًا. لكن، باسم الرب، فكري في كل ما يقال. فكري في زوجة أبيك كيف ستتعامل مع الأمر!».

تقول كوني: «أعرف. الحديث وحشي: خاصة إن كنت تعيش في مجتمع. وهو يرغب بشدة في الحصول على الطلاق. فكرت في أننا قد نقول إنه طفل رجل آخر، ولا نذكر اسم ملورز إطلاقًا».

«رجل آخر! أي رجل آخر؟».

«ربما دنكان فوربس. كان صديقنا طول حياته».

«وهو فنان معروف تمامًا. وهو مولع بي».

«حسنًا أنا ملعونة! دنكان المسكين! وكيف يتخلص من هذا؟».

«لا أعرف. لكنه حتى قد يحب هذا».

«قد، ربما؟ حسنًا، يكون رجلا مضحكًا إذا فعل ذلك. لماذا، لم تكن لك علاقة معه قط، أليس كذلك؟».

«لا! لكنه لا يرغب في ذلك حقًّا. فقط يحب أن أكون بالقرب منه، لكن لا ألمسه».

«يا إلهي، أي جيل هذا!».

«كان يحب غالبًا أن أكون موديل له ليرسم منه. لكنني لم أرغب في ذلك قط».

«ليساعده الرب! لكنه يبدو مسحوقًا إلى أقصى حد».

«لكن يبدو أنك لا تمانع كثيرًا بمناقشة الأمر معه؟».

«يا إلهي، كوني، ما كل هذا التخطيط الدموي!».

«أعرف! إنه أمر مقزز! لكن ماذا يمكن أن أفعل؟».

«تخطيط، تواطؤ، تواطؤ، تخطيط! يجعل الرجل يعتقد أنه عاش كثيرًا جدًّا».

«هيا يا أبي، لو لم تمارس الكثير من التخطيط والتواطؤ في حياتك، قد تتحدث معه».

«لكنه كان مختلفًا، أؤكد لك».

«إنه مختلف دائمًا».

تصل هيلدا، وتغضب أيضًا حين تسمع بالتطورات الجديدة. ولا تستطيع أيضًا ببساطة تحمل فكرة الفضيحة العامة بشأن أختها وحارس الطرائد. مهينة جدًّا جدًّا.

تقول كوني: «لماذا ينبغي ألا نختفي، منفصلين، إلى كولومبيا البريطانية، ولا تكون هناك فضيحة؟».

لكن ذلك بلا فائدة. ستظهر الفضيحة بالقدر نفسه. وإذا ذهبت كوني مع الرجل، سيكون من الأفضل أن تتزوجه. كان هذا رأي هيلدا. ولم يكن السير مالكولم متأكدًا من ذلك. قد تنسى العلاقة تدريجيًّا.

«لكن هل ستراه يا أبي؟».

السير مالكولم المسكين! ليس حريصًا على ذلك بحال من الأحوال. وملورز المسكين أقل حرصًا. لكن اللقاء تم: غداء في غرفة خاصة في النادي، الرجلان وحدهما، يتفحص كل منهما الآخر.

يشرب السير مالكولم كمية كبيرة من الويسكي، ويشرب ملورز أيضًا. ويتحدثان طول الوقت عن الهند، وكان الشاب على معرفة جيدة بها.

يستمر هذا في أثناء تناول الوجبة. فقط حين تقدم القهوة، وينصرف النادل يشعل السير مالكولم سيجارًا ويقول بمودة:

«حسنًا، أيها الشاب، وماذا عن ابنتي؟».

تومض الابتسامة على وجه ملورز.

«حسنًا، يا سير، وماذا عنها؟».

«لك طفل في رحمها».

يبتسم ملورز: «هذا شرف لي!».

يحاول السير مالكولم كتم ضحكة خافتة، ويصبح أسكتلنديًّا وفاسقًا: «شرف، يا إلهي. شرف! كيف كان الحال، إيه؟ جيد يا ولدي، ماذا؟».

«جيد!».

«أراهن أنه كان جيدًا! ها ها! ابنتي شريحة من أبيها، ماذا! لم أتراجع، أنا نفسي، قط عن قدر جيد من المضاجعة. رغم أن أمها، أوه، أيتها القديسات المقدسات!» ويدير عينيه إلى السماء. «لكنك أدفأتها، أدفأتها، أستطيع أن أرى ذلك. ها ها! دمائي فيها! أضرمت النار في كومة قشها. ها ها ها! يمكن أن أخبرك بأنني سعيد جدًّا بذلك. كانت تحتاج إلى ذلك. أوه، إنها فتاة لطيفة، إنها فتاة لطيفة، وأعرف أنها رائعة، فقط إذا استطاع رجل لعين إضرام النار في كومتها! ها ها ها! حارس طرائد، إيه، يا ولدي! قناص رائع جدًّا، إذا سألْتَني. ها ها! لكن الآن، انظر هنا، متحدثًا بجدية، ماذا سنفعل؟ تحدث بجدية، تعرف!».

متحدثًا بجدية، لم يبتعدا كثيرًا. كان ملورز، رغم أنه سكران بعض الشيء، الأكثر يقظة بكثير بين الاثنين. يبقي المحادثة ذكية قدر المستطاع: لا تفصح عن شيء محدد.

«هكذا أنت حارس طرائد! أو، أنت محق تمامًا! هذا النوع من

الطرائد جدير بوقت الرجل، إيه، ماذا؟ اختبار المرأة حين تلدغ قاعها. تستطيع بالضبط أن تشعر بقاعها إذا تصرفتْ بشكل مُرْضٍ. ها ها! أحسدك، يا بني. كم عمرك؟».

«تسعة وثلاثون».

يرفع الفارس حاجبيه.

«تقريبًا! حسنًا، أمامك عشرون عامًا طيبة أخرى، بالنظر إليك. أوه، حارس طرائد أم لا، أنت ديك جيد. أستطيع رؤية ذلك بعين مغلقة. لسْتَ مثل كلفورد البغيض! كلب جبان لم يعرف المضاجعة قط، قط. أنا معجب بك، يا بني، أراهن أن لك سمكة قُدٍّ جيدة؛ أوه، أنت ديك شرس، أستطيع رؤية ذلك. أنت مقاتل. حارس طرائد! ها ها، مذهل. لا أثق في وضع طرائدي معك! لكن انظر هنا، بجدية، ماذا نفعل حيال ذلك؟ العالم ممتلئ بعجائز بغيضات».

بجدية، لا يفعلان شيئًا، إلا ترسيخ التعاطف الغريزي القديم للحسية الذكورية بينهما.

«وانظر هنا يا ولدي، إن كان يمكن أن أفعل أي شيء من أجلك، يمكنك أن تعتمد عليَّ. حارس طرائد! المسيح، لكنه مذهل! أحب ذلك! أوه، أحبه! تظهر الفتاة الشجاعة. رغم كل شيء، تعرف، لها دخل خاص بها، متوسط، متوسط، لكنه يقي من المجاعة. وسأترك لها ما حصلت عليه، باسم الرب، سأتركه. إنها تستحقه لإظهارها الشجاعة، في عالم العجائز. صارعْتُ سبعين سنة للتملص من العجائز، ولم أنجح

بعد. لكنك رجل، أستطيع رؤية ذلك».

«أنا سعيد لأنك تعتقد ذلك. يقولون عادة لي، بطريقة ملتوية، إنني قرد».

«أوه، سيقولون! يا رفيقي العزيز، ماذا يمكن أن تكون غير قرد، لكل العجائز؟».

يفترقان بحرارة، ويضحك ملورز في داخله بقية اليوم كله.

في اليوم التالي يتناول الغداء مع كوني وهيلدا، في مكان سري.

تقول هيلدا: «مؤسف جدًّا هذا الموقف البشع الذي يحيط بنا».

يقول: «حصلت منه على الكثير من البهجة».

«أعتقد أنه كان يجب أن تتجنبا وضع أطفال في العالم حتى تتحررا وتتزوجا وتنجبا أطفالًا».

يقول: «أشعل الرب الشرارة بسرعة».

«لا أعتقد أن للرب علاقة بالأمر. بالطبع، لدى كوني مال يكفيكما، لكن الوضع لا يُحتمَل».

يقول: «لكن لا ينبغي أن تتحملي أكثر من جزء صغير منه، أليس كذلك؟».

«لو كنت في طبقتها».

«أو إن كنت في قفص في حديقة الحيوان».

يخيم الصمت.

تقول هيلدا: «أعتقد أن من الأفضل ذكر اسم شخص آخر بوصفه زانيًا وتبقى أنت خارج الموضوع تمامًا».

«لكنني أعتقد أنني وضعت قدمي فيه».

«أقصد في إجراءات الطلاق».

يحدق فيها بدهشة. ولا تجرؤ كوني على ذكر مخطط دنكان.

يقول: «لا أقبل».

تقول هيلدا: «لنا صديق يحتمل أن يوافق على ذكر اسمه بوصفه الزاني، وبالتالي لا تكون هناك ضرورة لظهور اسمك».

«تقصدين رجلًا؟».

«بالطبع!».

«لكن لم تعرف رجلًا آخر؟».

ينظر بدهشة إلى كوني.

تقول بسرعة: «لا، لا! فقط تلك الصداقة القديمة، بسيطة جدًّا، ليس حبًّا».

«إذًا لماذا يتحمل الرفيق اللوم؟ إذا لم يحصل على شيء منك؟».

تقول هيلدا: «يتحلى بعض الرجال بروح الفروسية ولا يحسبون فقط ما يحصلون عليه من المرأة».

«واحد من أجلي، إيه؟ لكن من هذا الشخص؟».

«صديق نعرفه منذ كنا أطفالًا في أسكتلندا، فنان».

يقول فورًا، لأن كوني تحدثت عنه: «دنكان فوربس. وكيف تحولين اللوم عليه؟».

«يمكن أن يقيما معًا في فندق، ويمكن حتى أن تقيم في شقته».

يقول: «تبدو لي ضجة بلا طائل».

تقول هيلدا: «ماذا تقترح غير ذلك؟ إذا ظهر اسمك، لن تحصل على طلاق من زوجتك، وهي على ما يبدو تمامًا شخصية من المستحيل الاختلاط بها».

يقول بتجهم: «كل هذا!».

يخيم الصمت فترة طويلة.

يقول: «يمكن أن نذهب على الفور».

تقول هيلدا: «ليس هناك على الفور بالنسبة لكوني. كلفورد معروف جدًا».

مرة أخرى يخيم صمت الإحباط التام.

«العالم هو العالم. إذا كنتما تريدان العيش معًا بدون اضطهاد، فلابد أن تتزوجا. ولكي تتزوجا لابد أن تكونا مطلقين. وهكذا كيف تتصرفان إزاء ذلك؟»

يصمت فترة طويلة.

يقول: «كيف تتصرفين في ذلك بالنسبة لنا؟».

«نرى إن كان دنكان يوافق على أن يظهر بوصفه الزاني: ثم لابد أن

نجعل كلفورد يطلق كوني: ولابد أن تواصل إجراءات طلاقك، ولابد أن تنفصلا حتى تتحررا».

«يبدو الأمر مثل مصحة للمجانين».

«ربما! وسوف ينظر العالم إليكما كمجنونين: أو أسوأ».

«مجرمين، كما أعتقد».

يقول مبتسمًا: «لكن أتمنى غرس الخنجر بضع مرات». ثم يصمت، ويغضب.

يقول في النهاية: «حسنًا! أوافق على أي شيء. العالم غبي عربيد، ولا يمكن لرجل أن يقتله: لكن سأفعل أقصى ما في وسعي. لكنكِ على حق. ينبغي أن ننقذ أنفسنا بأفضل ما يمكن».

ينظر بخزي وغضب وضجر وبؤس إلى كوني.

يقول: «يا حبيبتي! العالم هيحط ملح على ديلك».(١)

تقول: «لا إذا لم نسمح له».

تهتم بهذا التآمر ضد العالم بأقل مما يهتم.

يصر دنكان، حين يقترب، على رؤية حارس الطرائد الجانح، وكان هناك عشاء، هذه المرة في شقته: الأربعة. كان دنكان قصيرًا إلى حد ما، وعريض، وداكن البشرة، هاملت المتحفظ بشعر أسود مستقيم وغرور سلتي غريب بنفسه. كل فنه أنابيب وصمامات ولوالب وألوان غريبة،

(١) التعبير يعني يصطادك أو يأسرك، في إشارة إلى التعليمات المرحة التي كانت تقال للأطفال لصيد الطيور.

مفرطة في الحداثة، لكن ببعض القوة، وبعض النقاء في الشكل ودرجات اللون: ملورز وحده يعتقد أنه فن وحشي ومنفر. لا يغامر ويقول ذلك، لأن دنكان مجنون تقريبًا فيما يتعلق بفنه: إنه عبادة شخصية، دينه الشخصي.

ينظرون إلى الصور في الأستوديو، وعينا دنكان، البنيتان الصغيرتان، على الرجل الآخر. يريد أن يسمع ما يقوله حارس الطرائد. كان يعرف بالفعل آراء كوني وهيلدا.

يقول ملورز في النهاية: «المسألة تشبه قتلًا محضًا»؛ وهو كلام لم يتوقعه دنكان بحال من الأحوال من حارس طرائد.

تسأل هيلدا، ببرود وسخرية: «ومن الذي يُقتَل؟».

«أنا! هذا يقتل كل أحشاء الرحمة في الرجل».

تخرج موجة من الكراهية المحضة من الفنان. يسمع نبرة الكراهية في صوت الرجل الآخر، ونبرة الاحتقار. ويشمئز من ذكر أحشاء الرحمة. عاطفة مريضة!

يقف ملورز طويلًا ونحيفًا، رث المظهر، يحدق بنظرة لامبالاة متأرجحة تشبه رقصة فراشة على جناح، في الصور.

يقول الفنان بسخرية: «ربما يُقتَل الغباء؛ الغباء العاطفي».

«هل تعتقد ذلك؟ أعتقد أن كل هذه الأنابيب والذبذبات المموجة غبية بما يكفي لأي شيء، وعاطفية بشكل جميل. إنها توضح الكثير من الشفقة الذاتية وقدرًا بشعًا من الرأي القلق، على ما يبدو لي».

في موجة أخرى من الكراهية يبدو وجه الفنان أصفر. لكن بنوع من الغطرسة الصامتة قلب الصور إلى الجدار.

يقول: «أعتقد أننا قد نذهب إلى غرفة الطعام».

يتعقبونه بكآبة.

بعد القهوة يقول دنكان:

«لا أمانع إطلاقًا في التظاهر بأنني والد طفل كوني. لكن بشرط واحد وهي أن تأتي وتكون موديلًا لي. كنت أريدها لسنوات، وكانت ترفض دائمًا». نطقها بحسم قاتم يشبه إعلان محكمة التفتيش لحكم **بالهرطقة**.

يقول ملورز: «آه! تفعل بذلك الشرط فقط، إذًا؟».

«تمامًا! أفعل فقط بذلك الشرط». يحاول الفنان وضع أقصى ازدراء للشخص الآخر في كلامه. ويضع الكثير جدًّا.

يقول ملورز: «الأفضل أن تتخذني موديل في الوقت نفسه. الأفضل أن تتخذنا مجموعة، فولكان[1] وفينوس في شبكة الفن. كنت حدادًا، قبل أن أكون حارس طرائد».

يقول الفنان: «شكرًا، لا أعتقد أنني أهتم بشكل فولكان».

«حتى لو كان نحيلًا ومتأنقًا؟».

لا يرد. كان الفنان متغطرسًا جدًّا ولم ينطق بمزيد الكلمات.

كانت سهرة كئيبة، تجاهل الفنان فيها بعد ذلك باستمرار وجود الرجل الآخر، وتحدث باقتضاب، وكأن الكلمات تندفع من أعماق رزانته الكئيبة إلى المرأتين.

---

(١) إله النار في الأساطير الرومانية.

توضح كوني وهم ينصرفون: «لم يعجبك، لكنه أفضل من ذلك حقًّا. إنه لطيف».

يقول ملورز: «إنه جرو أسود متقلب المزاج».

«لا، لم يكن لطيفًا اليوم».

«وهل ستذهبين وتكونين موديلًا له؟».

«أوه، لم أعد أمانع. لن يلمسني. ولا أمانع من أي شيء، إذا مهد الطريق لحياتنا معًا أنت وأنا».

«لكنه فقط سوف يرسمك بشكل سيئ على اللوحة».

«لا أهتم. سوف يرسم فقط مشاعره تجاهي، ولا أبالي إذا فعل ذلك. لن أدعه يمسني، لأي سبب. لكنه إذا اعتقد أنه يمكن أن يفعل أي شيء بتحديقه الفني البشع، فليحدق. يمكن أن يصنع مني أنابيب فارعة وتموجات كما يشاء. إنها جنازته. كرهك بسبب ما قلْتَه: إن فن أنابيبه عاطفي يعبر عن الغرور. لكنه صحيح بالطبع.

* * *

الفصل التاسع عشر

«عزيزي كلفورد، أخشى أن ما توقعْتَه قد حدث. أنا بالفعل في علاقة حب مع رجل آخر، وأتمنى أن تطلقني. أقيم الآن مع دنكان في شقته. أخبرْتُك بأنه كان معنا في فينسيا. أنا تعيسة جدًّا من أجلك: لكن حاول تقبُّل المسألة بهدوء. لم تعد تحتاج إلي، ولا أحتمل العودة إلى راجبي. آسفة جدًّا. لكن حاول أن تنساني، وتطلقني لتجد واحدة أفضل. لسْتُ حقًّا الشخص المناسب لكَ، إنني نافدة الصبر وأنانية، على ما أعتقد. لكن لا أستطيع قط العودة للعيش معك مرة أخرى. وأنا آسفة جدًّا على هذا كله، من أجلك. لكنك لن تمانع كثيرًا إذا لم تغضب. أنت لا تهتم بي شخصيًّا. سامحني وتخلص مني».

لا يندهش كلفورد **داخليًّا** لاستلامه هذه الرسالة. كان يعرف داخليًّا لوقت طويل أنها ستتركه. ورفض بشكل مطلق أي اعتراف خارجي بذلك. وبالتالي جاءت الرسالة صفعة رهيبة وصدمة بالنسبة له. حافظ على سطح ثقته فيها هادئًا جدًّا.

وهذه حالنا. بقوة الإرادة نقطع معرفتنا الحدسية الداخلية من الوعي المسلم به. مما يسبب حالة من الرعب، أو القلق، تجعل الصفعة أسوأ عشر مرات مما تكون عليه حين تقع.

كان كلفورد مثل طفل هستيري. سبب لمسز بولتون صدمة رهيبة، وهو يجلس في السرير شاردًا بشكل رهيب.

«لماذا، يا سير كلفورد، ما المسألة؟».

لا إجابة! تفزع خشية أن يكون قد أصيب بسكتة دماغية. تسرع وتتحسس وجهه، وتجس نبضه.

«هل تشعر بألم؟ حاول وأخبرني أين الوجع. أخبرني!».

لا إجابة!

«أوه عزيزي، أوه عزيزي! سأتصل إذًا بشفيلد وأستدعي الدكتور كارينجتون، وقد يأتي أيضًا الدكتور ليكي فورًا».

وهي تتجه إلى الباب يقول بنبرة جوفاء:

«لا!»

تتوقف وتحدق فيه. كان وجهه أصفر، خاويًا، يشبه وجه شخص غبي.

«هل تعني أن من الأفضل ألا أستدعي الدكتور؟».

يأتي الصوت البائس: «أجل! لا أريده».

«أوه، لكن يا سير كلفورد، أنت مريض، ولا أجرؤ على تحمل المسئولية. لابد أن أرسل للدكتور، وإلا ألام».

وقفة: ثم يقول الصوت الأجوف:

«لست مريضًا. زوجتي لن تعود».- يبدو وكأن صورة تتكلم.

تقترب مسز بولتون من السرير قليلًا، وتقول: «لن تعود؟ هل تقصد سموها؟ أوه، لا أصدق ذلك. يمكن أن تثق في أن سموها ستعود».

لا تتغير الصورة في السرير، لكنها تدفع بالرسالة على اللحاف.

يقول الصوت البائس: «اقرئيها!».

«لماذا، إذا كانت رسالة من سموها، أنا متأكدة من أن سموها لا تريد أن أقرأ رسالتها إليك يا سير كلفورد. يمكن أن تخبرني بما تقوله إذا أحببْتَ».

يكرر الصوت: «اقرئيها!».

تقول: «لماذا، إذا كان لابد أن أقرأه، أفعل ذلك لأطيعك، يا سير كلفورد».

وتقرأ الرسالة.

تقول: «لا بأس، إنني مندهشة من سموها. لقد وعدت بصدق أن تعود».

يبدو أن تعبير التشتت الوحشي على الوجه في السرير يصبح أكثر عمقًا، لكنه جامد. تنظر مسز بولتون إليه وتنزعج. تعرف ما تواجهه: الهستيريا الذكورية. لم تستطع أن تمرِّض الجنود بدون أن تعرف شيئًا عن هذا المرض البغيض جدًّا.

كانت نافدة الصبر بعض الشيء من السير كلفورد. أي رجل بأحاسيسه لابد أن **يعرف** أن زوجته في علاقة حب مع شخص آخر، وأنها في طريقها لتركه. حتى السير كلفورد، وكانت متأكدة من ذلك، يدرك ذلك داخليًّا بشكل مطلق، لا يريد فقط الاعتراف بذلك لنفسه. إذا اعترف به، وأعد نفسه له: أو إذا اعترف به، وصارع بشكل نشط مع زوجته ضده، فسوف يبدو ذلك سلوك رجل. لكن لا! يعرفه، وطول الوقت يخدع نفسه بأنه ليس كذلك. يشعر بأن الشيطان يلوي ذيله، ويتظاهر بأن الملائكة تبتسم له. هذه الحالة من الزيف تجلب أزمة الزيف والتشوش، الهستيريا، وهي شكل من أشكال الجنون. تفكر في نفسها، وقد كرهته بعض الشيء: «تأتي لأنه يفكر في نفسه دائمًا. إنه مغلف في ذاته الخالدة، وحين يصاب بصدمة يشبه مومياء متشابكة في ضماداتها. انظر إليه!».

لكن الهستيريا خطيرة: وهي ممرضة، مهمتها إخراجه منها. أية محاولة لإثارة رجولته وكبريائه تجعله أسوأ فقط: لأن رجولته ميتة، مؤقتًا إن لم يكن نهائيًّا. يمكن فقط أن يتلوى بشكل أنعم وأنعم، مثل دودة، ويصبح مشوشًا أكثر.

كان الشيء الوحيد إطلاق شفقته الذاتية. مثل السيدة في قصيدة تينسون، لابد أن يبكي أو يموت[1].

وهكذا تبدأ مسز بولتون البكاء أولًا. تغطي وجهها بيدها وتنفجر في نحيب وحشي. «لن أصدق أبدًا أن هذا يصدر عن سموها، لن أصدق!»

---

(١) الإشارة إلى قصيدة «ليدي شالوت» للشاعر الإنجليزي ألفرد تينسون (١٨٠٩-١٨٩٢).

تبكي، مستجمعة فجأة كل أساها القديم وإحساسها بالمحنة، وتصب دموع غمها المر. بمجرد أن بدأت، كان بكاؤها أصيلًا جدًّا، فقد كان لديها ما تبكي من أجله.

يفكر كلفورد في الطريقة التي خانته بها المرأة كوني، وبعدوى الأسى، تملأ الدموع عينيه وتبدأ التدفق على وجنتيه. يبكي على نفسه. تجفف مسز بولتون، بمجرد رؤية الدموع تنساب على الوجه الخاوي، وجنتيها المبللتين بمنديلها الصغير، وتميل باتجاهه.

تقول بانفعال هائل: «لا تحزن، يا سير كلفورد، لا تحزن، لا تحزن، تؤذي نفسك فقط!».

يرتجف جسده فجأة في تنفس داخلي لنحيب صامت، وتنهمر الدموع أسرع على وجهه. تضع يدها على ذراعه، وتسقط دموعها مرة أخرى. مرة أخرى تسري الرجفة فيه، مثل التشنج، وتضع ذراعها حول كتفه. «ها، ها! ها، ها! لا تحزن، إذًا، لا تحزن! لا تحزن!» تتنهد، ودموعها تسقط. وتجذبه إليها، وتلف ذراعيها حول كتفيه العريضين، بينما يضع وجهه على صدرها وينتحب، وهو يهز كتفيه الضخمين ويحركهما، وهي تملس على شعره الأشقر الداكن وتقول: «ها! ها! ها! ها إذًا! لا تهتم! لا تهتم إذًا!».

ويضع ذراعه حولها ويتشبث بها مثل طفل، مبللًا صدر مريلتها البيضاء المنشاة، وصدر فستانها القطني الأزرق الفاتح، بدموعه. يترك نفسه تمامًا في النهاية.

تقبله في النهاية، وتهدهده على صدرها، وتقول لنفسها من قلبها:

«أوه، يا سير كلفورد! أوه، آل تشاترلي العظماء الأقوياء! هل هذا ما انحدرتم إليه!» وفي النهاية ينام، مثل طفل. وتشعر بالإنهاك، فتذهب إلى غرفتها، لتضحك وتبكي في الوقت نفسه، بهستيريا خاصة بها. الأمر مضحك جدًّا! بشع جدًّا! هذا الانحدار! مخزٍ جدًّا! ومزعج جدًّا أيضًا.

بعد هذا، صار كلفورد مثل طفل مع مسز بولتون. يمسك يدها، ويريح رأسه على ثديها، وحين قبلته ذات مرة قبلة خفيفة، يقول: «أجل! قبليني! قبليني!» وحين تمسح بالإسفنجة جسده الأشقر الضخم، يقول الشيء نفسه! «قبليني!» وكانت تقبل جسده قبلة خفيفة، في أي مكان، بما يشبه السخرية.

كان يستلقي بوجه غريب خاوٍ مثل طفل، وبروعة طفل. ويحدق فيها بعينيه الواسعتين الطفوليتين، في استرخاء عبادة العذراء. كان استرخاء تامًّا من جانبه، متخليًا عن كل رجولته، وغاطسًا في وضع طفولي شاذ حقًّا. ثم يضع يده في صدرها ويلمس ثدييها، ويقبلهما بغبطة، غبطة الشذوذ، غبطة أن يكون طفلًا وكان رجلًا.

كانت مسز بولتون تشعر بالنشوة والخجل، تحب ذلك وتكرهه. لكنها لم تصده أو تعنفه. وينجرفان في حميمية جسدية أقوى، حميمية الشذوذ، حيث كان طفلًا ببراءة واضحة وروعة واضحة، بدت تقريبًا مثل انسجام ديني: شذوذ وتفسير حرفي لآية: «إن لم ترجع طفلًا مرة أخرى»[1]. - بينما كانت **الأم العظيمة**[2]، مفعمة بالسلطة والقوة،

(١) إشارة إلى إنجيل متى، ١٨، ٣: «... إن لم ترجعوا وتصيروا مثل الأولاد فلن تدخلوا ملكوت السماوات».

(٢) باللاتينية في الأصل.

والرجل الطفل الأشقر العظيم طوع إرادتها ونبضها تمامًا.

والغريب أن هذا الرجل الطفل، الذي يتحول إليه كلفورد الآن ويصبح كذلك لسنوات، حين يظهر في العالم، يكون أكثر ذكاء وعطفًا من الرجل الحقيقي، من حقيقته. هذا الرجل الطفل الضال الآن رجل أعمال **حقيقي**؛ وحين تكون مسألة شئون، يكون قويًا بشكل مطلق، وحادًّا مثل إبرة، ومنيعًا مثل قطعة من الفولاذ. حين يخرج وسط الرجال، سعيًا وراء أهدافه، و«يحسن» أعمال منجمه، يتسم بدهاء خارق تقريبًا، وصلابة ولكمة حادة مباشرة. بدا وكأن سلبيته وعهره مع الأم العظيمة منحه بصيرة في الشئون العملية المادية، ووهبه قوة لا إنسانية لافتة. وبدا أن الانغماس في مشاعر خاصة والاحتقار التام لذاته الرجولية منحه طبيعة ثانية، مهارة عملية باردة، خيالية تقريبًا. في البزنس كان لا إنسانيًّا تمامًا.

وفي هذا تشعر مسز بولتون بالانتصار. تقول لنفسها بزهو: «كيف يتقدم! وهذا إنجازي! بالتأكيد، لم يتقدم بهذا الشكل مع الليدي تشاترلي. لم تكن المرأة التي تدفع الرجل إلى الأمام. كانت تحتاج الكثير جدًّا لنفسها».

وفي الوقت ذاته، في ركن من روحها الأنثوية الغريبة، كم تحتقره وتكرهه! كان بالنسبة لها البهيمة الساقطة، الوحش المراوغ. وبينما تساعده وتحرضه بكل ما تستطيع، بعيدًا في أبعد ركن من نسويتها الصحيحة القديمة تحتقره احتقارًا وحشيًّا تعرف أنه بلا حدود. أبسط المتشردين أفضل منه.

كان سلوكه فيما يتعلق بكوني غريبًا. يصر على رؤيتها مرة أخرى.

ويصر، بالإضافة إلى ذلك، على قدومها إلى راجبي. وفي هذه النقطة كان محددًا بشكل نهائي ومطلق. وكانت كوني قد وعدت بأن تعود إلى راجبي، بصدق.

تقول مسز بولتون: «لكن هل هناك جدوى من هذا؟ ألا تستطيع أن تدعها تذهب، وتتخلص منها؟».

«لا! قالت إنها ستعود، ولابد أن تعود».

لم تعد مسز بولتون تعارضه. كانت تعرف مع من تتعامل.

يكتب إلى كوني في لندن: «لا أحتاج إلى أن أحدثك عن تأثير رسالتك عليَّ. ربما تستطيعين تخيله إن حاولْتِ، مع أنك بلا شك لن تزعجي نفسك باستخدام مخيلتك من أجلي.

«يمكن فقط أن أقول شيئًا واحدًا ردًّا عليها: لابد أن أراك شخصيًّا، هنا في راجبي، قبل أن أستطيع القيام بأي شيء. وعدْتِ بصدق أن تعودي إلى راجبي، وألزمك بوعدك. لا أصدق أي شيء أو أفهم أي شيء حتى أراك شخصيًّا، هنا في ظروف طبيعية. لا أحتاج إلى إخبارك بأن لا أحد هنا يرتاب في شيء، وبالتالي ستكون عودتك طبيعية تمامًا. ثم إذا شعرْتِ، بعد أن نناقش الأمور، أنك مازلت على الرأي نفسه، لاشك في أننا يمكن أن نتفاهم».

تعرض كوني الرسالة على ملورز.

يقول وهو يعيد الرسالة: «يريد أن يبدأ انتقامه منك».

تصمت كوني. تندهش حين تجد أنها خائفة من كلفورد. خائفة من

الاقتراب منه. خائفة وكأنه شيطان خطير.

تقول: «ماذا أفعل؟».

«لا شيء، إذا كنت لا ترغبين في فعل أي شيء».

ترد على كلفورد، محاولة المماطلة. يرد: «إذا لم تعودي إلى راجبي الآن، فسأضع في اعتباري أنك ستعودين ذات يوم، وأتصرف طبقًا لذلك. أواصل على الوضع نفسه، وأنتظرك هنا، حتى لو انتظرْتُ خمسين سنة».

تفزع. كان تسلطًا غادرًا. لم يكن لديها أي شك في أنه يعني ما يقوله. لن يطلقها، وسيكون الطفل ابنه، إلا إذا وجدتْ وسيلة لإثبات عدم شرعيته.

بعد فترة من القلق والانزعاج، تقرر الذهاب إلى راجبي. ستذهب هيلدا معها. وقد كتبتْ هذا لكلفورد. يرد: «لن أرحب بأختك، لكنني لن أغلق الباب في وجهها. ليس لدي شك في تواطؤها على تخليكِ عن مهامك ومسئولياتك، لذا لا تتوقع مني أن أسعد برؤيتها».

تذهبان إلى راجبي. كان كلفورد بعيدًا حين وصلتا. استقبلتهما مسز بولتون.

تقول: «أوه، سموك، ليست العودة السعيدة التي تمنيناها، أليس كذلك!».

تقول كوني: «أليست؟».

هكذا كانت هذه المرأة تعرف! ما حجم ما يعرفه بقية الخدم أو يشكون فيه؟

تدخل المنزل، وهي تكرهه بكل خلية في جسمها. تبدو لها الكتلة الهائلة المتهرئة للمكان شيطانًا، مجرد تهديد لها. لم تعد سيدته، كانت ضحيته.

تهمس إلى هيلدا في هلع: «لا أستطيع أن أبقى كثيرًا هنا».

تعاني من دخول غرفة نومه، الدخول مرة أخرى إلى السيطرة وكأن شيئًا لم يحدث. تكره كل دقيقة بين جدران راجبي.

لم تقابلا كلفورد حتى نزلتا للعشاء. كان يرتدي ملابسه وربطة عنق سوداء: متحفظًا بعض الشيء، وجنتلمان متفوقًا جدًّا. يتصرف بأدب جم في أثناء تناول الطعام ويحافظ على نوع مهذب من الحوار: لكن بدا كله بلمسة من الجنون.

تسأل كوني، والمرأة خارج الغرفة: «ما مقدار ما يعرفه الخدم؟».

«عن نواياك؟ لا شيء إطلاقًا».

«مسز بولتون تعرف».

يتغير لونه.

يقول: «مسز بولتون ليست بالضبط واحدة من الخدم».

«أوه، لا أبالي».

كان هناك توتر إلى ما بعد القهوة، وحينها تقول هيلدا إنها ستصعد إلى غرفتها.

يجلس كلفورد وكوني في صمت حين تذهب. لا يبدأ أي منهما

الكلام. تسعد كوني لأنه لم يأخذ المسار العاطفي، تتركه في غطرسته قدر المستطاع. تكتفي بالجلوس صامتة والنظر إلى يديها.

يقول في النهاية: «أعتقد أنك لم تبالي إطلاقًا بالتراجع عن كلمتك؟»

تهمهم: «لم يكن لي في الأمر حيلة».

«لكن إن لم يكن لك، فمن يكون له؟».

«لا أحد على ما أعتقد».

تنظر إليها بغيظ بارد غريب. كان معتادًا عليه. كان وكأنه مغروس في إرادته. كيف تجرؤ الآن على العودة إليه، وتدمير نسيج وجوده اليومي؟ كيف تجرؤ على محاولة إحداث هذا الخلل في شخصيته.

يصر: «ولماذا تريدين التراجع عن كل شيء؟».

تقول: «الحب!» كان أفضل من أن يُبتذَل.

«حب دنكان فوربس؟ لكنك لم تعتقدي أنه يستحق حين قابلْتِني. هل تقصدين أن تقولي إنك تحبينه أكثر من أي شيء آخر في الحياة؟».

تقول: «المرء يتغير».

«ربما! ربما تكون نزوة. لكن يبقى أن عليكِ أن تقنعيني بأهمية التغيير. أنا فقط لا أصدق حبك لدنكان فوربس».

«لكن لماذا ينبغي أن تصدقه؟ عليك فقط أن تطلقني، لا أن تصدق مشاعري».

«ولماذا ينبغي أن أطلقك؟».

«لأنني لم أعد أريد العيش هنا. وأنت حقًّا لا تريدني».

«عفوًا! أنا لا أتغير. من جانبي، لأنك زوجتي، أفضل أن تقيمي تحت سقفي بكرامة وهدوء. تاركًا المشاعر الشخصية جانبًا، أؤكد لك من جانبي إنه تركٌ لقدر عظيم، وترك هذا النظام الحياتي يتحطم، هنا في راجبي، وسحق سلسلة كريمة للحياة اليومية، فقط بسبب نزوة من نزواتك، مرٌّ مثل الموت بالنسبة لي».

بعد فترة من الصمت تقول:

«لا حيلة لي في الأمر. لابد أن أذهب. أتوقع أنني سيكون عندي طفل».

يصمت هو أيضًا فترة.

ويسأل في النهاية: «ومن أجل الطفل لابد أن تذهبي؟».

تومئ برأسها.

«ولماذا؟ هل دنكان فوربس حريص جدًّا على نسله؟».

تقول: «من المؤكد أنه أحرص منك».

«لكن حقًّا؟ أريد زوجتي، ولا أرى سببًا لتركها تذهب. إذا كانت تحب أن تحمل طفلًا تحت سقفي، فأهلًا بها، وأهلًا بالطفل: بشرط المحافظة على اللياقة ونظام الحياة. هل تقصدين أن تخبريني بأن قبضة دنكان فوربس أقوى عليك؟ لا أصدق هذا».

وقفة.

تقول كوني: «لكن ألا ترى. **لابد** أن أبعد عنك، **لابد** أن أعيش مع الرجل الذي أحبه».

«لا، لا أرى ذلك! لا أدفع بنسين مقابل حبك، أو مقابل الرجل الذي تحبينه. لا أصدق هذا النوع من النفاق».

«لكنك ترى، أنا أدفع».

«تدفعين؟ يا مدامي العزيزة، أنت ذكية جدًّا، أؤكد لك، بما يجعلك لا تصدقين حبك لدنكان فوربس. صدقيني، حتى الآن أنت تهتمين أكثر بي. وبالتالي لماذا أستسلم لهذا الهراء».

تشعر بأنه على حق في هذا. وتشعر بأنها لم تعد تستطيع أن تبقى صامتة.

تقول وهي تنظر إليه: «لأنه ليس دنكان من أحب. قلنا فقط إنه دنكان، حفاظًا على مشاعرك».

«حفاظًا على مشاعري؟».

«أجل! لأن من أحبه حقًّا، وهو ما يجعلك تكرهني، هو مستر ملورز، الذي كان حارس طرائدنا هنا».

لو كان يستطيع الاندفاع من كرسيه لاندفع. يصفر وجهه، وتجحظ عيناه جدًّا وهو يحدق فيها.

ثم يسقط إلى الخلف في الكرسي، وهو يلهث ويتطلع إلى السقف.

وفي النهاية يعتدل في جلسته.

يسأل، ويبدو مروَّعًا: «هل تقصدين أنك تخبرينني بالحقيقة؟».

«أجل! أنت تعرف أنني أخبرك بالحقيقة».

«ومتى بدأْتِ معه؟».

«في الربيع».

يصمت مثل وحش في مصيدة.

«وهل **كنت** أنت، إذًا، في غرفة نومه في الدار؟».

وهكذا كان يعرف داخليًّا طول الوقت.

«أجل!».

مازال يميل إلى الأمام في كرسيه، ويحدق فيها مثل وحش محاصر.

«يا إلهي، كان ينبغي محوك من على وجه الأرض!».

تندفع بصوت واهٍ: «لماذا؟».

ويبدو أنه لا يسمع.

«تلك الحثالة! ذلك المغفل المغرور! هذا الوغد البائس! وكنت على علاقة به طول الوقت، بينما كان هنا وكان واحدًا من خدمي! يا إلهي، يا إلهي، هل هناك نهاية لوحشية دناءة النساء!».

يفقد السيطرة على نفسه من الغضب، وكانت تعرف أن هذا سيحدث.

«وهل تقصدين أنك تريدين أن يكون لك طفل من وغد مثل هذا؟».

«أجل! سيكون لي».

«سيكون لك! تقصدين أنك متأكدة! منذ متى وأنت متأكدة؟».

«منذ يونيو».

يصيبه الخرس، ويظهر مرة أخرى بالمظهر الخاوي الغريب لطفل.

يقول في النهاية: «سوف تندهشين لأن تلك الكائنات سُمِح لها بأن تُولَد».

تسأل: «أي كائنات؟».

ينظر إليها باستغراب، ولا يرد. كان من الواضح أنه لا يستطيع حتى قبول حقيقة وجود ملورز، في أي ارتباط بحياته. كانت كراهية تامة وعقيمة لا توصف.

يسأل في النهاية: «وتقصدين أن تقولي إنك ستتزوجينه؟- وتحملين اسمه البغيض؟».

«أجل، هذا ما أريده».

يبدو مرة أخرى وكأنه صُعِق.

يقول في النهاية: «أجل! هذا يبرهن على أن ما اعتقدْتُه دائمًا بشأنك صحيح: لسْتِ طبيعية، لسْتِ في صوابك. أنت إحدى النساء المنحرفات أنصاف المجنونات اللائي لابد أن يجرين خلف الفسوق، **الحنين إلى الوحل**».[1]

فجأة يصبح أخلاقيًّا بشكل محزن تقريبًا، يرى نفسه تجسيدًا للخير، وأناسًا مثل ملورز وكوني تجسيدًا للوحل، للشر. يبدو أنه يزداد غموضًا، داخل هالة.

---

(١) بالفرنسية في الأصل.

تقول: «وهكذا ألا تعتقد أن من الأفضل أن تطلقني وننتهي من المسألة برمتها؟».

يقول بغباء: «لا! يمكن أن تذهبي حيث تشائين، لكنني لن أطلقك».

«لماذا لا؟».

يصمت صمت التصلب المعتوه.

تقول: «وسوف تجعل الطفل طفلًا شرعيًّا لك، ووريثك؟».

«لا يعنيني أمر الطفل».

«لكنه إذا كان ولدًا فسوف يكون ابنك شرعيًّا، وسوف يرث لقبك، ويملك راجبي».

«لا يعنيني هذا».

«لكن لابد أن يعنيك! سوف أحول دون أن يكون الطفل ابنك شرعيًّا، إن استطعْتُ. أفضل أن يكون غير شرعي، وأن يكون ابني: إن كان لا يمكن أن يكون ابن ملورز».

«افعلي ما تشائين بشأن ذلك».

لا يتزحزح.

تقول: «ولن تطلقني؟ يمكن أن تتخذ دنكان ذريعة! ليست هناك حاجة لذكر الاسم الحقيقي. دنكان لا يمانع».

يقول، وكأن مسمارًا انغرس فيه: «لن أطلقك أبدًا».

«لكن لماذا؟ لأنني أريد أن تطلقني؟».

«لأنني أتبع رغبتي، وأنا لا أرغب في ذلك».

كان الحوار بلا جدوى. تصعد إلى الدور العلوي وتخبر هيلدا بالنتيجة.

تقول هيلدا: «من الأفضل أن نذهب في الصباح، ونتركه يرجع إلى رشده».

وهكذا تقضي كوني نصف الليل وهي تحزم أمتعتها الخاصة والشخصية حقًّا. في الصباح ترسل حقائبها إلى المحطة بدون أن تخبر كلفورد. تقرر أن تراه فقط لتودعه قبل الغداء.

لكنها تتحدث إلى مسز بولتون.

«لابد أن أودعك يا مسز بولتون، تعرفين السبب. ويمكن أن أثق في ألا تتكلمي».

«أوه، يمكن أن تثقي في، سموك، برغم أنها صفعة محزنة لنا هنا، حقًّا. وأتمنى أن تكوني سعيدة مع الجنتلمان الآخر».

«الجنتلمان الآخر! إنه مستر ملورز، وأنا مهتمة به. السير كلفورد يعرف. لكن لا تقولي شيئًا لأحد. وإذا اعتقدْتِ في يوم من الأيام أن السير كلفورد قد يرغب في طلاقي، فأخبريني، سوف تخبرينني؟ أحب أن أتزوج بشكل مناسب من الرجل الذي أهتم به».

«أنا متأكدة من أنك ستتزوجينه، يا سيدتي. أوه، يمكن أن تثقي فيَّ. سأكون مخلصة للسير كلفورد، وسأكون مخلصة لك، لأنني أرى أنكما على صواب بطرقكما الخاصة».

«شكرًا! وانظري! أريد أن أعطيك هذا- هل يمكن؟-» وهكذا تغادر كوني راجبي مرة أخرى، وتذهب مع هيلدا إلى أسكتلندا، ويذهب ملورز إلى الريف ويحصل على عمل في مزرعة. وكانت الفكرة أنه ينبغي أن يحصل على الطلاق، إن أمكن، سواء حصلت كوني على طلاقها أو لم تحصل. وينبغي أن يعمل في الزراعة ستة أشهر، لتكون لهما في النهاية مزرعة صغيرة خاصة بهما، يمكن أن يبذل فيها طاقته. لأنه ينبغي أن يكون له عمل، حتى لو كان عملًا شاقًّا، يقوم به، وينبغي أن يكون له دخله الخاص به، حتى لو بدأ برأس مالها.

وهكذا كان عليهما الانتظار حتى قدوم الربيع، حتى يولد الطفل، حتى حلول بداية الصيف مرة أخرى.

مزرعة جرانج

أولد هينور[1]، ٢٩ سبتمبر

«نجحت هنا في تدبير بعض الأمور، لأنني كنت أعرف ريتشارد، مهندس الشركة، في الجيش. إنها مزرعة ملك شركة مناجم بتلر وسميثام، يستخدمونها لزراعة القش والشوفان لجياد المناجم؛ وليست لغرض خاص. لكنهم حصلوا على أبقار وخنازير وكل ما شابه، وأتقاضي ثلاثين شلنًا في الأسبوع كعامل. يحثني الفلاح رولي على الكثير من الأعمال بقدر ما يستطيع، بحيث يمكن أن أتعلم الكثير بقدر المستطاع من الآن إلى عيد الفصح القادم. لم أسمع شيئًا عن برتا. ليست لدي فكرة إن كانت قد بدأت إجراءات الطلاق، أو أين توجد، أو ما هي بصدد القيام به. لكن إن حافظْتُ على هدوئي حتى مارس أعتقد أنني سأكون حرًّا. ولا تبالي بالسير كلفورد. لن يرغب في التخلص منك في يوم من هذه الأيام. إذا تركك في حالك فهذا كثير.

«حصلت على سكن في دار قديمة لائقة جدًّا في إنجاين رو. الرجل سائق قاطرة في هاي بارك، طويل، بلحية، يتردد على الكنيسة بانتظام. والمرأة مثل طائر تحب أي شيء متفوق. إنجليزية الملك وأدب جم!

(١) هينور: بلدة في منطقة وادي أمبر، في ديربيشاير في ميدلاندز الشرقية، إنجلترا.

طول الوقت. لكنهما فقدا ابنهما الوحيد في الحرب، وقد ترك ذلك هوة عميقة في نفسيهما. وهناك ابنة خرقاء طويلة تدرس لتكون معلمة في مدرسة، أساعدها في دروسها أحيانًا، وهكذا نحن أسرة تمامًا. إنهم أناس مهذبون جدًّا، وكرام جدًّا معي. أتوقع أنني مدلل أكثر منك.

«أحب الزراعة تمامًا. ليست مثيرة، لكنني لا أطلب أن تكون مصدر إثارة. اعتدت على الجياد، والبقرات، رغم أنها إناث حقيقية، لها تأثير طيب عليَّ. حين أضع رأسي بجوار بقرة، وأحلبها، أشعر بسلوى حقيقية. لديهم ست بقرات من الهيرفورد[1] الرائعة. حصاد الشوفان انتهى للتو وقد استمتعْتُ به، رغم قرح اليدين والمطر الغزير. لا ألتفت إلى الناس كثيرًا، لكنني أنجح في التعامل معهم تمامًا. عليَّ أن أتجاهل معظم الأشياء.

«المناجم تعمل بشكل سيئ؛ إنها مقاطعة لمناجم الفحم مثل تفرشال. لكنها أجمل. أجلس أحيانًا في حانة ويلينجتون وأتحدث إلى الرجال. يتذمرون كثيرًا، لكنهم لن يغيروا شيئًا. كما يقول الجميع قلوب عمال مناجم نوتس ديربي في المكان المناسب. لكن لابد أن بقية أجزاء أعضائهم في المكان الخطأ، في عالم يكرههم. أنا معجب بهم، لكنهم لا يسعدونني كثيرًا: ليس بما يكفي للديك المقاتل القديم فيهم. يتحدثون كثيرًا عن التأميم، تأميم الأملاك، تأميم الصناعة كلها. لكن لا يمكن تأميم الفحم وترك كل الصناعات الأخرى كما هي. يتحدثون عن استخدامات جديدة للفحم، كما كان السير كلفورد يحاول أن يفعل. قد

(١) سلالة من الماشية البيضاء والحمراء.

يفيد هنا وهناك، لكن ليس بوصفه شيئًا عامًّا. أشك. مهما يصنع يجب بيعه. الرجال متبلدون جدًّا. يشعرون بأن الشيء اللعين كله محكوم عليه بالفشل، وأنا أؤمن بذلك. وهم محكوم عليهم بالفشل معه. بعض الشبان يتحدثون كثيرًا عن السوفيت، لكن بدون الكثير من القناعة. ليس هناك قناعة بشيء، إلا بأن كل شيء فوضى وخواء. حتى في حكم السوفيت مازال عليهم أن بيع الفحم: وتلك هي الصعوبة.

«لدينا هذا العدد الهائل من العاملين في مجال الصناعة، ويجب إطعامهم، ولهذا لابد من استمرار العرض اللعين بشكل ما. تتحدث النساء أكثر بكثير من الرجال، في هذه الأيام، وهن في المشهد أكثر ثقة وعجرفة. الرجال عرج، يشعرون بالهلاك في موضع ما، ويتصرفون وكأنه ليس هناك ما يفعل. على أية حال، لا أحد يعرف ما ينبغي فعله رغم كل الكلام، جُنَّ الشباب لأنهم ليس لديهم مال ينفقونه. والحياة كلها تعتمد على إنفاق المال، والآن ليس معهم ما ينفقونه. تلك هي حضارتنا وهذا هو تعليمنا: تربية الجماهير على الاعتماد تمامًا على إنفاق المال، ثم ينفد المال. هذه المناجم تعمل يومين، يومين ونصفًا في الأسبوع، ولا توجد علامة على التحسن حتى في الشتاء. مما يعني أن الرجل يعول أسرة بخمسة وعشرين شلنًا أو ثلاثين. النساء هن الأكثر جنونًا بين الجميع. لكن لأنهن الأكثر جنونًا من أجل الإنفاق، في هذه الأيام.

«لكنك لو استطعْتِ إخبارهم بأن العيش والإنفاق ليسا الشيء نفسه! لكن لا جدوى من ذلك. لو تعلموا فقط العيش بدل الكسب والإنفاق، لاستطاعوا أن يكونوا سعداء جدًّا بخمسة وعشرين شلنًا. لن

يفكر الرجال في المال كثيرًا إذا ارتدوا البنطلونات القرمزية كما قلْتُ: إذا استطاعوا الرقص والقفز والوثب، وغنوا واختالوا وتأنقوا، يمكن ألا يحتاجوا إلا إلى القليل جدًّا من المال. وأن يروقوا للنساء، وتروق لهم النساء. عليهم أن يتعلموا أن يكونوا عراة ومتأنقين، وأن يغنوا في حشد ويرقصوا الرقصات الجماعية القديمة، وينقشوا المقاعد التي يجلسون عليها، ويزخرفوا شعاراتهم. ولن يحتاجوا إلى المال. وهذه هي الطريقة الوحيدة لحل المشكلة الصناعية: تدريب الناس على القدرة على العيش والعيش بأناقة، بدون الحاجة إلى الإنفاق. لكن هذا لا يمكن. عقولهم جميعًا في مسار واحد في هذه الأيام. بينما لا ينبغي للجماهير حتى أن تحاول التفكير، لأنها لا تستطيع. ينبغي أن تكون حية ومرحة، وتعترف ببان[1] الرب العظيم. إنه الرب الوحيد للجماهير، إلى الأبد. يمكن لعدد قليل الدخول في طوائف أسمى إذا أحبوا. لكن لتكن الجماهير وثنية إلى الأبد.

«لكن عمال المناجم الآخرين ليسوا وثنيين، أبعد ما يكونون عن ذلك. إنهم جموع حزينة، جموع موتى من الرجال: موتى بالنسبة لنسائهم، موتى بالنسبة للحياة. الشبان يتسكعون على الموتسكيلات مع الفتيات، وموسيقى الجاز حين يجدون فرصة. لكنهم موتى حقًّا. ويحتاجون مالًا. المال يسمِّم حين نحصل عليه، ويجوِّع حين لا نملكه.

«أنا متأكد من أنك ضجرة من هذا كله. لكنني لا أريد التركيز على نفسي، ولا شيء يحدث لي. لا أحب التفكير كثيرًا جدًّا فيك، برأسي،

(١) بان: في الميثولوجيا اليونانية، إله المراعي والصيد البري والأحراش ورفيق الحوريات.

لأن هذا يسبب فوضى لنا كلينا. لكن، بالطبع، ما أعيش له الآن من أجل أن نعيش أنت وأنا معًا. إنني فزع حقًّا. أشعر بالشيطان في الهواء، وسيحاول الفوز بنا. أو ليس الشيطان، مامون[١]: وأعتقد، رغم كل شيء، أنه الإرادة الجمعية للناس، الرغبة في المال وكراهية الحياة. على أية حال، أشعر بأيدٍ بيضاء هائلة جشعة تريد الإمساك بحنجرة أي شخص يحاول أن يحيا، أن يحيا متجاوزًا المال، وتنتزع الحياة منه. هناك زمن سيئ قادم. هناك زمن سيئ قادم يا أبنائي، هناك زمن سيئ قادم![٢] إذا استمرت الأمور كما هي فلن يكمن في المستقبل إلا الموت والدمار، لهذه الحشود الصناعية. أشعر بأعماقي تتحول إلى ماء أحيانًا، وهناك أنت، سيكون لك ابن مني. لكن لا تبالي أبدًا. كل الأزمنة السيئة التي كانت لم تستطع إحباط الزعفران: ولا حتى حب النساء. وهكذا لن تستطيع إحباط رغبتي فيك، ولا أي وهج ضئيل بينك وبيني. سنكون معًا في السنة القادمة. ورغم فزعي، أؤمن بأنك ستكونين معي. على الرجل أن يتصرف ويسعى للأفضل، ثم يثق في شيء يتجاوزه. لا يمكن ضمان المستقبل، إلا بالإيمان حقًّا بأفضل ما فيك، وبقوة تتجاوزه. ولذا أؤمن بالشعلة الضئيلة بيننا. بالنسبة لي الآن، هي الشيء الوحيد في العالم. ليس لي أصدقاء، ولا أصدقاء في داخلي. أنت فقط. والآن الشعلة الضئيلة هي كل ما أهتم به في حياتي. هناك الطفل، لكنه موضوع جانبي. إنه عيد العنصرة[٣] بالنسبة لي، الشعلة المتشعبة بيني وبينك. عيد العنصرة

---

(١) يعتبر في الكتاب المقدس تجسيدًا للثروة باعتبارها روح الشر.

(٢) لعب على أغنية «هناك زمن طيب قادم» للشاعر الأمريكي ستيفن كولنز فوستر (١٨٢٦-١٨٦٤)، ومطلعها: «هناك زمن طيب قادم، يا أبنائي/ هناك زمن طيب قادم».

(٣) عيد مسيحي يحتفل به بعد عيد الفصح بخمسين يومًا.

القديم ليس صحيحًا تمامًا. أنا والرب المعتد بنفسه، إلى حد ما. لكن الشعلة الضئيلة المتشعبة بيني وبينك: أنت هناك! ذلك ما يقيدني، وسوف يقيدني، كلفورد وبرتا، شركات مناجم الفحم والحكومات وجماهير المال رغم ذلك.

«هذا ما يجعلني لا أرغب في أن أبدأ التفكير فيك بالفعل. إنه يعذبني فقط، ولا فائدة منه لك. لا أريد أن تكوني بعيدة عني. لكنني إذا بدأْتُ القلق فسوف أبدد شيئًا. الصبر، الصبر دائمًا. هذا شتائي الأربعون. ولم تكن لي حيلة في كل الشتاءات التي كانت. لكنني في هذا الشتاء ألتصق بشعلتي الضئيلة، شعلة عيد العنصرة، وأشعر ببعض السلام. ولن أدع أنفاس الناس تطفئها. أؤمن بسرٍّ أَسْمَى، لن يدع حتى الزعفران يُسحَق. وإن كنت في أسكتلندا وأنا في ميدلندز، ولا يمكن أن أضع ذراعيَّ حولك، وألف ساقيَّ حولك، لكنني حصلْتُ على شيء منك. روحي ترفرف برقة في الشعلة الضئيلة لعيد العنصرة معك، مثل سلام المضاجعة. لقد حولنا الشعلة إلى كائن. حتى الزهور تتحول إلى كائن بين الشمس والأرض. لكنه شيء لطيف، ويتطلب الصبر والوقفة الطويلة.

«هكذا أحب العفة الآن، لأنها السلام الذي يأتي من المضاجعة. أحب أن أكون عفيفًا الآن. أحبها كما تحب زهورُ اللبن الثلجية[1] الثلجَ. أحب هذه العفة، وهي وقفة سلام لمضاجعتنا، بيننا الآن مثل زهرة لبن ثلجية لنار بيضاء متشعبة. وحين يأتي الربيع الحقيقي، حين يأتي الالتئام معًا، يمكن أن نضاجع الشعلة الضئيلة المتألقة والصفراء، المتألقة. لكن

(١) نبات أوروبي واسع الانتشار يحمل زهورًا بيضاء في أواخر الشتاء.

ليس الآن، ليس بعد! الآن وقت العفة، جيد جدًّا أن أكون عفيفًا، مثل نهر من الماء البارد في روحي. أحب الآن العفة التي تتدفق بيننا. إنها مثل الماء الطازج والمطر. كيف يرغب الرجال في الانهماك في المغازلة بشكل مرهق. يا له من بؤس أن أن يكون المرء مثل دون جوان، وعاجزًا دائمًا عن الانتقال إلى السلام، والشعلة الضئيلة مشتعلة، عنينًا وعاجزًا عن أن يكون عفيفًا في اللحظات الباردة، وكأنه بجوار نهر.

«حسنًا، كلمات كثيرة جدًّا، لأنني لا أستطيع لمسك. لو يمكن أن أنام وذراعاي حولك، مثلما يمكن للحبر أن يستقر في الدواية. يمكن أن نكون عفيفين معًا كما يمكن أن نمارس الجنس معًا. لكن لابد من الانفصال لبعض الوقت، وأعتقد أنها حقًّا الطريقة الأكثر حكمة. فقط لو أعرف اليقين.

«لا تبالي، لا تبالي، لن نثير المشاعر. نثق حقًّا في الشعلة الضئيلة، وفي الإله المجهول الذي يحميها من الانطفاء. هناك الكثير منك هنا معي، حقًّا، وهو أمر مؤسف أنك لسْتِ كلك هنا.

«لا تبالي بالسير كلفورد. إن لم تسمعي شيئًا منه، لا تبالي. لا يستطيع حقًّا أن يفعل لك شيئًا. انتظري، سيودُّ التحرر منك في النهاية، في التخلص منك. وإن لم يفعل، فسوف ننجح في تجنبه. لكنه سيفعل. في النهاية سيودُّ تقيؤك مثل شيء بغيض.

«الآن لا يمكن حتى أن أمتنع عن الكتابة إليك.

«لكن قدرًا كبيرًا منا معًا، ولا يمكن إلا تقبله، والعمل على أن نلتقي سريعًا. يقول جون توماس طابت ليلتك لليدي جين، متذللًا بعض الشيء، لكن بقلب مفعم بالأمل».

عشيق الليدي تشاترلي

أوشك أن يمرَّ قرنٌ كاملٌ على صدور رائعة د. هـ. لورانس (عشيق الليدي تشاترلي)، والتي جعلته واحدًا من أهم كتَّاب الأدب الإنجليزي في القرن العشرين. ونحن في آفاق نضع بين يدَي قارئنا العزيز الترجمة الأولى الكاملة لهذه الرواية البديعة، والتي تسبر الأغوار فيما يخصُّ العلاقات الزوجية، والجنس، ونظرة المجتمع والطرفين له.

ماذا يريد كل من الذكر والأنثى من الجنس؟ هل الجنس ضروري في حياتنا؟ متى نصل للذروة والرضا؟ هل الجنس غاية؟

هذه أسئلة تطرحها هذه الرواية أمام القارئ، وعليه أن ينخرط في الرواية، ويعيد قراءتها ويضع نفسه في مواضع الأشخاص، ويبحث عن الإجابات... الإجابات التي ربما لن يجدها.


ISBN 978-977-765-110-3

